بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني من الوحيد

للشيخ الإمام العامل العلامة سيدي عبد الغفار بن نوح القوصي، تغمده الله تعالى برحمته وأدخله فسيح جنته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقف هذا وتصدق به ابتغاء وجه الله تعالى وطلباً لمرضاته الأمير أحمد أغا باش جاويش تفكجيان، وجعل مقره في خزانة جامع شيخون وتحت يد إمامه، تقبل الله منه، ذلك بتاريخ سنة ١١٩٣هـ.

قال رحمه الله:

وحدثني السيد الشريف شرف الدين محمد الكلثمي الحسني قال:

كنت قاعدًا على زريبةٍ بين رباط الصاحب فخر الدين رحمه الله، أنا وعبد الله في يوم الجمعة، ونحن نأكل شيئًا في القرافة الكبرى ليلة أيام النيل، فرأيت شخصًا حائيًا في البحر، وهو على وجه الماء متعلقًا عنه تقدير ذراع، وهو منبطح، فلما جاء إلينا وجلس عندنا وجدناه أبا عبد الله بن الشاطبي، الذي كان مقيمًا بالمسجد المعلق بالإسكافيين بمصر.

وحدثني أيضًا أنه كان هو وأبو عبد الله الشاطبي المذكور والوجيه الإخميمي رحمه الله-وكان رجلاً صالحًا- قال الشريف:

وكنا ببيت المقدس عند الصخرة، فتذاكرنا قصائد المنجم بن إسرائيل، فاشتقنا إليه، فقال الشيخ الوجيه: قوموا بنا إليه.

فقمنا بعدما صلينا العصر فأصبحنا بدمشق-ولا عرفت كيف كانت الطريق- فقال الشيخ أبو عبد الله للشيخ الوجيه: هكذا يا شيخ، تستعدنا بغير اختيارنا؟ فقال يا شيخ، أسفنا، فلتسامح.

وحدثني الشريف المذكور أيضاً أنه كان هو والخطيب تقي الدين القسطلاني يقرءون على الفقيه عبد الحميد المشهور بمصر، وقد أتى إليه الشيخ المجد الإخميمي، فشكا الفقيه عبد الحميد الشيخ أبو العلم يس للشيخ المجد، وقال له: يا مجد الدين، أهكذا يفعل معي أبو العلم يس؟ يخرجني على أن يسقيني فقاعًا؟ فخرجت معه

إلى السوق فما أعجبه الفقاع، فلم أدر إلا و أنا على دكان فقاع بالجيزة، أهكذا يفعل الناس بالناس؟ وجعل يعاتبه على ذلك.
وحدّثني الشريف أيضاً أنه رأى الشيخ وقد أخذه حال فوق سطح الجامع بمصر، فقام وبقي يطوف في الهواء على رءوس شرائف الجامع، وربما كان بمحضر من الناس.

وذكر أن شخصًا من أصحاب الشيخ أبو العلم ياسين بعد موته أراد أن يطير مثله من سطح الجامع، فوقع فكُسر، فعالج نفسه زمانًا ومات.

وحكى هذه الحكايات الثلاث -والرابعة التي قبلها- عن الشريف عبد الرحمن في تاريخ الحادي عشر من جمادى الأول سنة ثمان وسبعمائة، فانظر رحمك الله إلى أهل زمانك، وأحسن ظنك بربك ﷻ وأقدم بكليتك، ولا تخش معه ذنبًا، فإن الله تعالى: ﴿**يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ [الزمر:٥٣] و﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه**﴾ [آل عمران:١٣٥].

إسَــاءة الظَّــن

وإياك وإساءة الظن؛ فإنها تغلب الأعيان، وتصيّر الخير شرًّا، كما أن حُسن الظن يغير الشر خيرًا، وكذلك النية، فمن يقع على زوجته في فراش غيره على نية أنها غيرها فيلحقه الإثم بمقصده، وبالعكس منه، لو وجد على فراش زوجته غيرها فوقع عليها معتقدًا أنها زوجته لم يأثم.

وحكى ابن قَسي في كتابه(١) أن عابِدَين، قُيّض لأحدهما ملك في مدرجة عمله، فكان يدلُّه ويهديه ويكلمه، وما يعبأ بهذا، فأساء الظن بربه، وجعل يقول: إليك عنى، فإنك شيطان غوي، تريد أن تضلني.

وقُيّض للآخر شيطان في مدرجة عمله، فحسن الظن بربه، وجعل يقول: من أين لي أن جُعل لي ربٌّ مثل هذا؟ فأنزل الله تعالى مكان الملك شيطان، ومكان الشيطان ملكًا، وكان ذلك ثمرة حسن الظن.

(١) هو «خلع النعلين»، وقد شرحه الشيخة الأكبر.

وإن سليمان عليه السلام صنع له الجن صنعة، جنة من قوارير فيها من جميع العجائب لتفتنه بها الفتنة الكبرى، فسبق إلى قلبه حسن الظن بربه وخرّ لله ساجدًا، فأنبتها الله له جنة يراها دون غيره.

وحدّثني الشيخ أبو عبد الله المالقي البلخي قال: سافرنا من المغرب جماعة، وكان معنا شخص سيء الظن، فقال إنه يعرف الطريق، وتقدّم لدلالة الطريق، فضللنا سبعة أيام، لم نأكل فيها ولم نشرب، قال: فقمت ومشيت، فوجدت مقتاتًا من الحنظل، فأكلت منه، فوجدته فَقوسًا حلوًا، قال: فقمت ومشيت، فناديت الفقراء فجاءوا وأكلوا فقوسًا حُلوًا، وحملوا معهم شيئًا من ذلك، فجاء ذلك الرجل السيء الظن فأخذ واحدة وأكلها فوجدها مُرّة، فقال للفقراء: ما هذا إلا حنظل، فصار كله حنظلاً، ولا رجع أحد يأكل منه شيئًا.

فإياك وسوء الظن على أي وجه كان بسيطًا أو جدًا.

فقد حكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أن فقيرًا كان يُسمَّى القَرافي اشتغل بصنعة الخيال وعمل خيّالاً، فجرى بينه وبين فقير كلام، فقال له ذلك الفقير: أنت منكر الله بك؟ فقد ردّك من الفقير إلى الخيّال، فتألم من ذلك، فعمل لذلك الفقير بابًا من الخيال، فأخذ يقصّ عليه أنه صوّره، وجعله قاعدًا على دُكَّان عَطَّار، وجُوال[1] من بندق وآخر من حنّاء قدّام العطار، ثم جاء الفيل السوق، فلف زلومه على ذلك الفقير وحمله وضرب به الأرض فقتله، ثم جاء الفقراء وحملوه وغسّلوه ودفنوه، وصارت هذه بابه قبالهم.

وتشوش الفقير، واشتكاه إلى الصاحب بهاء الدين -رحمه الله تعالى- فسيّر خلفه، ومنعه من ذلك، فلما كان يوم من أيام سوق مصر، والفقير جالس على دُكان عطار، وقدّامه جُوال حناء وجُوال بندق، والفيل قد أقبل، ولفّ الفيل بزلومه، وحمله وضرب به الأرض فقتله، وجاء الفقراء وحملوه وغسلوه ودفنوه، كما صوره في الخيال ظهر في الحين.

(١) مثل: الشوال، بالعامية.

فإياك يا أخي والاعتراض على[١] هذه الطائفة بوجه من الوجوه بسيطًا أو جدًا، ولتحتال لهم في التأويل عند ظهور ما لا يوافق العلم كيف قدرت، فإن عجزت فقل: نبهك الله عليه، ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف:٧٦].

ولقد كان الشيخ سراج الدين بن دقيق العيد أخو الشيخ تقي الدين -رحمهما الله تعالى- رجلاً فاضلاً عالما، وكان له صاحب، فقلت له يومًا من الأيام: ما أجد في الأرض من يعلم ما حلل الله تعالى علي ولا ما حرم، فقال لي: كيف هذا؟ فقلت: أنت تعلم أن الحلال والحرام من حيث الجملة لا من حيث التخصيص في كل شخص، فإن الله تعالى أباح محظورات عند ضرورات، والضرورة التي تبيح لي ذلك المحظور ما يعلمها غيري، فيقع الإنكار منك من حيث علم ذلك لجملة التحليل والتحريم، لا من حيث التخصيص ولا من حيث إباحة الشرع عند الضرورة، فقال: أُشهد الله أني لا أنكر على مسلم بعد اليوم.

ولقد أدبني الله تعالى على لسان طفل، وذلك أنّا كنا مسافرين فأرسينا على قرية منشأة أخميم- وكان قرب المغرب - فطلعت لأتوضأ وهناك زرع، وقد استوى فيه الفريك، فقال أصحاب الزرع: نحن نريد أن نذهب لبيوتنا، ونشتهي ألاّ تدعوا أحدًا يشوش علينا في زرعنا - أو كلام هذا معناه - فهم اختشوا من أصحاب المركب، وراحوا إلى بيوتهم.

فلمّا طلعت أتمشّى وأتوضّأ، وجدت طفلاً -ربما يكون عمره أربع سنين أو خمس أو دون ذلك أو أكثر منه- وهو يقطع في الفريك، ويجعله في مقطف معه، فقلت له: أتأخذ زرع الناس؟ فالتفت إلي وقال لي: من أنبأك أن هذا غير ملكي؟ فلما قال لي هذا انتبهت، وحصلت لي حالة، فتبت إلى الله تعالى، وكانت تلك الحالة سبب توبتي من الإنكار والاعتراض، وذلك أن الذي قاله الصبي كلام صحيح، وهو أنه لا يجب الإنكار إلا بعد تحقيق المنكَر، فكأنه يقول: إذا لم يصح عندك أنه غير ملكي فكيف أنكرت عليّ من غير علم ولا يقين؟ فهذه إساءة الظن، وإساءة الظن بالمسلم حرام،

(١) في الأصل: (إلى).

فرجع الإنكار على في إنكاري عليه، فتبت إلى الله تعالى، واستغفرت من ذلك.
وفي حسن الظن وترك الاعتراض من الخير العاجل والآجل ما لا نهاية له، وقد قيل:

أَحْسِنِ الظَّنَّ تَسْتَرِيحُ   خَابَ مَنْ ظَنُّهُ قَبِيحُ

وكان الشيخ أبو العباس- رحمه الله تعالى -يقول: لولا حسن ظني ما حييت.

وأخبرني أجل الإخوان ممن أثق بهم من فقير قال: وردتُ على فقير من الخضرية -وهم يرون بصحبة النساء ومؤاخاتهن، وهو شيء لا نرى به ولا نسيء الظن بالمسلمين، فكيف بمن سلك طريقًا إلى الله تعالى؟ قال:

فلما نزلتُ على ذلك الفقير وصّى زوجته بإكرامي، وخرج وتركني عندها، وجاء الليل، وربما قال: فرشت لي ورقدت، وربما قال: غمرت رجلي ورقدَت تحت رجلي، فحصل عندي ما يحس من شهوة النفس، فربما قال: رميت يدي عليها -أو كما قال- فرفعتها رفعًا لطيفًا من غير انزعاج، فلمتُ نفسي لذلك، ثم غلبت عليَّ نفسي أو كما قال، فوضعت رجلي على رجلها أو على ساقها، فرفعَت رجلي رفعًا لطيفًا عنها، وقامت وراحت إلى ناحية أخرى، فأخذيت نفسي.

وأصبح الصبح، وجاءت بالوضوء، وإذا بالفقير زوجها قد حضر، والتفت إليها وقال لها: مالك؟ وضع الفقير يده فرفعتها، ووضع رجله فرفعتها، وقمت ورحت إلى ناحية أخرى.

فحصل لي من الخَجَل ما لا أستطيع أن أُبديه، وربما كان سبب توبته ورجوعه إلى الله تعالى رجوعًا كليًّا.

وحكى الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أن شيخًا من المشايخ كان له مريد يمشى معه إلى أن جاء إلى جهة من جهات الخواطي، فقال له: قف، ودخل، -وربما قال فعل وخرج-، فقال له: ما رأيت؟ قال: رأيت عبدًا تجري عليه أحكام الإرادة، فأمدّه الشيخ بباطنه حتى وصل إلى حالة جليلة لا ينبغي أن يستخدمه فيها، فقال لي: ما بقي يحل لي أن أستخدمك، وكان يخدمه قبلاً.

وهذه الحكاية وإن كانت تحتمل التأويل في دخوله وخروجه، فقد يكون القصد في اختبار المريد إن كان يتغير إذا ظهر أن الشيخ عنده قد ارتكب محظورًا أم لا، وعلى

الجملة إن وقع ذلك، فلم يكن مبطلاً للولاية لأنه غير معصوم، والعصمة شرط في النبوة لا شرط في الولاية.

ولما سُئل الجنيد: أيزنى العارف؟ فقال: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورا**﴾ [الأحزاب:٣٨] (١).

والحديث: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ آخرين، يذنبون ثم يستغفرونه فيغفر لهم**(٢)».

وروي: «**المؤمن كالهرّة، تدفع الخبث ثم تتطهر**»(٣) وقد تكون البقية التي قدرت عليه تحجبه عمّا يُفعل إليه من علو مقامه، وهو شهدها، وهو يتولى الوقوع فيها حتى يرفعها الله تعالى بقضائه فينتزع إلى الله تعالى ويلجأ إليه فيكون ذلك سببًا لوصوله إلى مطلوبه، فربّ قطيعةٍ جلبت وصالاً، وكم ذا في الزوايا من خبايا.

الشيخ أبو العباس العزفي(٤)

كما حكى عن الشيخ أبي العباس العزفي ﷺ كان عظيم الشأن بالمغرب، وكان كثير السياحات، وله أحوال عظيمة وكرامات، أقام اثني عشر سنة لم يحل بينه وبين السماء والأرض حائل، وهو ممن اجتمع به الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور.

وكان الشيخ أبو العباس أقام بمكة- شرفها الله تعالى- ست سنين، لم يأكل ولم يشرب سوى ماء زمزم، وربا عليه الشحم و اللحم، وكان له وصلة بالنبي ﷺ، إذا سلم على النبي ﷺ ردَّ عليه السلام، ويجاوبه إذا تحدث معه، وكان مدة سياحته مستغرقًا إلى

---

(١) ونسب هذا القول أيضًا لأبي يزيد البسطامي-قدس سره- كما في السيوف الحداد لسيدي مصطفى البكرى (ص٧٥) .

(٢) رواه مسلم (٤/٢١٠٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) العزفي نسبة إلى جد له يعرف بابن أبي عزفة، من بني لخم ، من سلالة النعمان: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي، ثم اللخمي، فقيه مالكي أندلسي. لزم التدريس بجامع سبتة طول حياته- قدّس الله تعالى روحه، ونوّر ضريحه- صنف في كرامات الشيخ الصالح سيدي أبي يعزى، وما نُسب إليه من الفضل الذي لا شك في مثله إلى مثله يعزى، وهو «دعامة اليقين»، له نظم حسن، وتآليف منها (برنامج) برواياته.

أن رأى أمير المؤمنين يعقوب مرأى، ووجد في نفسه أحوالاً من أحوال المريدين.

وكان سببها أنه قتل أخاه غيرةً على الملك، فندم ندمًا أورثه توبةً أثرت فيه آثارًا حسنة، فشكا ذلك إلى مريدة كانت تدخل قصره، فقالت له: هذه أحوال المريدين.فقال لها: فكيف أعمل بنفسي؟ أخبريني بدواء. فقالت له: الشيخ أبو مدين سيد هذه الطائفة في هذا الزمان.

فبعث إلى الشيخ أبو مدين، فطلبه طلبًا حثيثًا، فأجاب الشيخ أبو مدين على رسله وقال: فليطع الله، وأنا لن أصل إليه، فأنا سأموت بتلمسان - وكان الشيخ حين ذلك ببجاية - فلما وصل لتلمسان قال لرسل يعقوب: سلموا على صاحبكم وقولوا له: شفاؤك على يد أبي العباس العزفي، وفقهك على يديه.

ومات الشيخ أبو مدين بتلمسان، ومضت الرسل إلى يعقوب، وأخبروه بما قال الشيخ، فطلب أبا العباس طلبًا حثيثًا، وسيّر إليه إلى سائر الجهات إلى أن ظفروا به، فأخبروه بما عليه من الطلب، ووجد إذنًا من الحق بالاجتماع به، فمشى إلى أن اجتمع به، ففرح يعقوب بالظفر بوجوده، فأوّل ما عمل له من الطعام دجاجتين، إحداهما مذبوحة والأخرى مخنوقة، وسأله أن يتناول الأكل ليؤاكله، فنظر الشيخ إلى الدجاجتين وأمر الخادم برفع المخنوقة وقال: ما هذه دجاجة؟ هذه جيفة. وأكل من الأخرى، فسلّم يعقوب نفسه إليه، وأنزل نفسه منزلة خادم، وفُتح له على يديه، ونزل الملك-وما أدراك ما ملك المغرب في زمن يعقوب!- واجتمع مع الشيخ، وثبتت قدم يعقوب في الولاية ببركة الشيخ أبو العباس وإشارة السيد أبي مدين.

ومما جرى ليعقوب بإشارة الشيخ أبي العباس أن الناس كانوا محتاجين إلى المطر، فركب على بغلة، وركب يعقوب على فرس، وخرجا إلى ظاهر مراكش ونزلا برباطه، فقال الشيخ أبو العباس العزفي ليعقوب: صلّ واستسقِ للمسلمين، فقال:

يا سيدي، أنت أحق بذلك وأولى، فقال له: بهذا أمرت، فصلى يعقوب ودعا، فنزل المطر على المسلمين.

التوكُّـل

ولهذا الشيخ أبي العباس من الغرائب والعجائب كثير، منها ما حكاه الشيخ

الإمام العالم أبو محمد صالح شيخ وكالة بالمغرب، قال:

كنت مع الشيخ أبي العباس العزفي في السياحة، فغيبت عنه وهو نائم، ثم جئت إليه لأجد حيّةً عظيمة قد طوقت على حلقه، ورأسها قبالة وجهه وهى تقأقئ كما تقأقئ الدجاجة، ففتح العباس عينه فرآها، ثم نام إلى أن سمعت غطيطه، فسمعت مخاطبةً من السماء: يا أحمد، لقد عجبت ملائكة السماء من توكلك، ثم تحللت وانصرفت.

وهذه الحكاية من باب التوكل، وإنما ذكرناها هاهنا لإثبات جلالة الشيخ أبي العباس في المقامات.

حُسن الظن

والكلام في حُسن الظن أولاً يُنافى كل من اتصف في وصف الطريق؛ لأن الخصائص الوضعية لا يسوءها النقائص الكسبية، وما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز من حديث إخوة يوسف -عليهم السلام- لم يخرجهم عن كونهم أنبياء، ولا حجبهم عمّا كان لهم في سابق العلم من التخصيص الإلهي، ولسنا نذكره لك ضربًا للمثل بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لجلالتهم في صدورنا وتعظيم شأنهم عندنا، وما خصّهم الله تعالى به دوننا، وتالله في ذلك من الحكم الإلهية والأسرار الربانية، وسواء كان ذلك قبل النبوة أو بعدها، فإنهم صلوات الله عليهم وسلامه على أشرف الأحوال وأكملها في كل حال وعلى كل حال ومع كل حال، وإنما ذلك تنبيهًا على الدليل على إكرام الأولياء؛ إذ لهم حصة ميراثهم من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولأن حسن الظن بهم واجب وإساءة الظن حرام في كل مسلم، وما لم يتحقق المنكر لا يجب إنكاره، ومن أنكر على مسلم من غير تحقق فقد أساء الظن به، وإساءة الظن حرام، وأما ما يظهر على ظواهرهم من الامتحان والابتلاء والاختبار فذلك لجلالتهم ونصيبهم من ميراثهم من النبوة، ففي كتاب الله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ [الحجرات:٣].

وقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد :٣١].

وفى الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أشد بلاء والأمثل فالأمثل**[(١)]».

بلاء النبيين

فلذلك كان لهم نصيبٌ من البلاء على قدر علو رتبهم عند الله تعالى، ولأن الله تعالى ما شكر عبدًا من عبيده إلا بعد الابتلاء، والصبر على البلاء والشكر على النعمة، فمن ذلك قصة أيوب ﷺ وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص:٤٤].

وقوله تعالى عن غيره من الأنبياء: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**﴾ [الإسراء:٣]، وهو نوح ﷺ.

وفى نص القرآن الابتلاء لكثير من الأنبياء عليهم السلام كقصة داود ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ [ص:٣٤]، وهذا سار في كثير من الأنبياء، فمن ابتلى بالقتل ومن ابتلى بالنشر ومن ابتلى بحرب الكفار، وذلك كثير، ويكفيك قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ *وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦، ١٤٧].

وما أنالهم على ذلك، وللأولياء من ذلك حصتهم، وفى نبينا محمد ﷺ تحمل الابتلاء كما تحمل الدين لله ووضع الرضا بالبلاء كما رضي لهم الإسلام.

وقوله ﷺ: «**ما أُوذي نبيٌّ كما أُوذيت**[(٢)]»، وإن كان غيره قد نُشر، وقتل غيره وابتلى بأنواع من البلاء لم يظهر ذاته العلية إلا ما ظهر عليه من أذى قومه وتكذيبه وشج جبينه وكسر رباعيته ونفض الكرش على رأسه، وغير ذلك.

فعن ذلك أجوبة نرجو أن يكون الصّواب فيها إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذكره الحجة الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٢٨٧)، وقال العراقي: رواه أحمد وأبو يعلي والحاكم وصححه على شرط مسلم بنحوه مع اختلاف.

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٥٤)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٦١)، وابن ماجه (١/٥٤)، وأحمد في مسنده (٣/١٢٠)، بنحوه.

فمن ذلك أن كل نبي أرسله الله تعالى إلى أمة من الأمم حصل له من البلاء في أمته على قدر علو رتبته عند ربه، ورسوله محمد ﷺ أرسل إلى الكافة من الناس، فكلُّ بلاءٍ كان متفرقًا في الأمم اجتمع له وابتلى به حسب منزلته عند ربه تعالى وعلو شأنه، ولأنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، فلا بلاء لنبي غيره.

الوجه الآخر أن الله تعالى قصّ عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده.

وكان ﷺ كلما سمع ما جرى لنبي من أنبياء الله تعالى من الإيذاء والبلاء يتصف به، ويجد ما يجده ذلك النبي من الألم والأذى ومن الغيرة على الدين، وتكذيبهم أنبياء الله ورسله، وما يقوم به من المشقة والرحمة لأتباعهم المؤمنين وما حصل لهم.

ولأن الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه إخوته في النبوة والإرسال، وقد كان ﷺ إذا سمع بمصرع أحد من أصحابه يبكى، ويُخبِر عمّن جرح في السرايا والغزوات ممن قتل، ويبكى وهم في بلاد العدو وهو في المدينة ﷺ.

وقال: **«أخذ فلان الرَّاية فأُصيب، وأخذها جعفر فأُصيب»**، وكان يبكى عند ذلك، وقال: **«أخذها خالد بن الوليد ففتح الله تعالى عليه[(١)]»**.

فكيف بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم عنده بمحل الأخوة والمحبة والقرب من الله تعالى بالمحل الذي هو أعلم به من غيره ﷺ؟ وقرب الزمان وبعده في محل الكشف والإطلاع لا حكم له؛ لأن النظر بنور الله تعالى سابق له فيتصف بصفات ذلك النبي وما أصابه، وقد يكون ألمه أكثر مما أصاب غيره بحسب علو مقامه وإيلامه لتكذيب رسل الله وقتلهم، وحرصه على الإيمان والإسلام لأنهم حالفوا الله تعالى.

المحبّة على قدر المحبوب

وكما أنك إذا شاهدت ولدك وقد قطع بالسيف وذبح بحضرتك تجد من الألم الكثير، وكذلك إذا مرض أو قلعت عينه أو وجعه ضرسه وأنت تحبه بكل قلبك كيف تجد قلبك عند أنينه وألمه؟ فقد قيل عن بعض المحبين أنه كان له جارية، وكان يحبها، فقعد يحرك لها الشراب، فأنَّت فحصل له من الألم لأنينها ما غيبه من التحريك للشراب بالمغرفة، وكان يحرك الشراب بيده حتى وقعت أصابعه وهو لا يدرى، فالمحبة في الله تعالى

(١) رواه البخاري (٤٢٠/١)، وأحمد في مسنده (١١٣/٣).

أعظم وأكبر؛ إذ المحبة على قدر المحبوب.

والأنبياء متحابّون في الله تعالى وهم نوابه وشهود النبي ﷺ لما وقعوا فيه من البلاء محقق؛ إذ كل ما قصّه الله تعالى عليه هو مشاهد له في حال قصصه ذائق له، فلذلك يتصف به، فما أوذي نبي كما أوذي ﷺ.

والأولياء حصتهم من ميراث نبيهم صلوات الله عليه وسلامه.

وقد سطر في الكتب عن الأولياء المتقدمين وما حصل لهم من الأذى والبلاء والقتل ما لا يسعه هذا الكتاب حتى أن أحد الصالحين قال: اشتهت نفسي رمّانة، فجئت فوجدت إنسان قطعه الجذام، والزنابير تلذعه، وهو مع ذلك يتضرع، قال: فأدركتني الشفقة عليه فقلت: يا رب، مجذوم والزنابير تلذعه، وهو مع ذلك يتضرع، قال: ففتح عينيه وقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربى ﷻ؟ والله لو قطعني إربًا إربًا ما ازددت إلا حبًّا، ثم قال لي: أكل الزنابير أو لذع الزنابير خير من شهوات الرمّان؟

فانظر يا أخي إلى هذا الرضا، ولسنا نذكر المتقدمين؛ فقد صُنف فيهم كتب، وإنما قصدنا أهل زماننا، فقد جرى لزين الدين عيسى بن مظفر الأرمنتي بقوص في يوم واحد أنه قال: خمس بلايا عظيمة في يوم واحد. وهو راضٍ منشرح، ورأيته وهو مصطحبًا لي لم يتغير لواحدة منها، منها أنهم ضربوه بالمقارع، ومنها موت ولده، وغوران بئر ساقيته ببقرها، ولم أتحقق الباقي، وكل ذلك ربما كان إلى وقت الظهر، وقد تقدم ذكره.

الشيخ يعيش بن محمود

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود- رحمه الله تعالى- قال: خرجت أطلب قرية من قُرى الشام، وكان عشية، واعتقدتُ أن أصل إليها قبل الليل، فغابت الشمس وجاء الليل وأوقدوا سراجًا في القرية، فبقيت أنظر إلى السراج، وكان هناك رجالٌ يحفرون حول البلد أجبابًا يخزنون فيها الغلة، فسقطت في جبّ من تلك الجباب ولا عندي علم، فلحقتني قرنة في رأسي ففتحَت رأسي، وسقطت في أسفل ذلك الجب، ووضعت يدي في حيطانه من الألم، وبقيت إلى السَّحر في ذلك المكان، والدم يجرى على لحيتي.

قال: فبينما أنا كذلك، والفلاحون قد خرجوا من تلك القرية، وهم ينادون

بعضهم بعضًا، ونادى أحدهم: يا عمَّار، يا فلان، فردّ الآخر تراني أقضى حاجتي وأجيء.. قال: فجاء وقعد على الجب الذي أنا فيه، وقضى حاجته، فنزل ذلك على لحيتي ووجهي، ماؤه وخراؤه، فقلت إيش هذا؟ فمع قولي: «إيش هذا»؟ إذا بالرجل قد تروّع واسترخى فسقط عندي، وبقى متخوّفًا، وزعم أنني من الجنّ، فكلمته ولاطفته حتى سكن، وبقى أصحابه ينادونه وهو يجيبهم بصوت خفي حتى استدلوا عليه بسماع صوته، فجاءوا على رأس ذلك الجب، فقال لهم: أنا وقعت، فراحوا وأتوا بقفة وحبل، فقلت له: دعني أطلع في الأول لئلا يتركوني ويذهبون، فقعدت في القفة وجعل يقول لهم: ترفّقوا حتى وصلت إليهم، فقالوا ما هذا؟ فقال لهم: احتفظوا به؛ فإنه قطع معلاقي في بطني، فمسكوني وكتفوني وأطلقوا صاحبهم، ومدوا له خشبة كالنعش، وحملوه عليها وحملوني مكتفًا معه في دار الولاية، والدم على لحيتي مخلوط بالعذرة، والدم أحمر والعذرة صفراء والدلق أزرق وأنا مكتوف، فلما رآني الوالي قال: ما قضيتك يا فقير؟ فلما حكيت له الحكاية، لم يتمالك أن استلقى على ظهره ضاحكًا، والتفت إلى أولئك الفلاحين وقال لهم: ضمان هذا الفقير علي، وها هو عندي.

خذوا صاحبكم وروحوا داووه، فإن أفاق فقد لطف الله تعالى، وإن أصابه شيء فهذا الفقير عندي.

فأدخلني الحمام، وغسلوني وألبسوني شيئًا، وعمل لي دجاجة، وبقيت عنده شهرين، فلما كان بعد الشهرين حضروا وقالوا: قد تعافى صاحبنا، فقال لهم: هذا الفقير قد شوشتم عليه وحبستموه هذا الزمان، وربما له عيال، فراحوا وحصّلوا لي قطنًا وزبيبًا باعوه بمائتي درهم، وأعطاني الوالي مائتي درهم وسافرت.

الشيخ تاج الدين بن الرماح

وحكى الشيخ علم الدين بن هريسة عن شيخه -الشيخ تاج الدين بن الرماح رحمه الله تعالى- قال: دخلت ليلة إلى بلد، فآويت إلى فندق، فطلبت حانوتًا آوي إليه، وسألت عن الثمن، فقيل لي: بخمسة دراهم، فدخلت الحانوت، فبينما أنا جالس وإذا بإنسان دخل علي وعلى كتفه خرج، فقلت من هذا؟ فقال: إنسان، فقلت: هذا المكان استأجرته بخمسة دراهم، فقال: إن قعدت وإلا أعطيتني عشرة دراهم وإلاّ

أخرجتك، قال: فسكتُّ، وجلس، ثم رمى عليّ عباءة وقال: خذ هذه؛ فأنت بردان.

فلما كان السَّحر قام وحمل خرجه ليخرج، والتفت إلي وقال: قم واخرج من هاهنا، فإني رجل لص، وقد صار لك عليّ حق، وأخشى أن يتبعوا أثرى فيجدونك.

فقمت وخرجت وطلعت إلى مركب فرقدتُ ونمت، وإذا برئيس المركب يقول لشخص في خن المركب: يا ناخودا، ماذا ضاع منك؟ فقال له: ضاع لي كذا وكذا، وضاعت لي عباءة مثل هذه، ثم نثرها وقال: والله عباءتي، فمسكوني وكتفوني ولكموني، وفعلوا بي فعالاً مُرّة، وطلعوا بي مكتفًا في سلبة، فبينما هم ذاهبون إلى دار الولاية وإذا بتصفيق من داخل بيت، فقال للرسل: دعوه يدخل إلى هذا البيت، عسى يعطونه شيئًا، قال: فأطالوا لي السلبة حتى دخلت البيت، فوجدت ذلك اللص الذي بات عندي، فقال لي: لا تتشوش، فإني لما علمت أنهم مسكوا بك وقفت ولا فرّطت في شيء، فإن ذهبت إلى الوالي فعرِّفه وخذ لي منه أمانًا، قال: فلما وصلت إلى دار الوالي وأبصرني، قام ونزل من على مسطبته، وقال: هذا ابن الرماح، أطلقوه.

قال: فأطلقوني، وقال لذلك التاجر: ما قضيتك؟ فذكر له أن هذه العباءة راحت في قماش كان راح لي، فقال له الوالي: قماشك عندي، تعالى لي بعد ثلاثة أيام، ثم قعد بين يدي وقال لي: يا سيدي، ما سبب هذه القضية؟ فحكيت له القضية، فسيّر أمانًا إلى اللص، فحضر ووقف وأحضر القماش، فقام إليه وعانقه، وخلع عليه.

وحكى لي عنه أيضًا قال: أَويت إلى غارٍ في جبلٍ في الليل، وإذا بسبع قد دخل، وكان فقير جالس، فجعل السبع يلحس بلسانه رداء الفقير، فقلت له: أي شيء هو يعمل؟ فقال: يلعب، وإذا بالأسد إنما هو يلحس الرداء حتى يبان له اللحم، ثم أن السبع أكل الفقير وخرج وبرك على باب الغار، وطلع الفجر واحتجت إلى الوضوء وبقيت في شدة فقلت: وأين ذهب الفقير؟ فقمت، ورفست السبع برجلي فتدحرج نازلاً في الجبل وولّى هاربًا، ونزلت إلى الوادي، وإذا بالسيل قد أخذني فغرقت فيه، فمسكتني شجرة من ثيابي وأنا تحت الماء، وإذا بأناس يخوضون، فوجدوني فأطلعوني وعصروا بطني، فخرج من أنفى مرزابان طين ودم.

الشيخ أبو عبد الله القرشي(١)

(١) قال ابن بادس: هو أحد المشهورين من أكابر المشايخ العارفين، والأولياء المذكورين، والأفعال الخارقة، =

وحكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- عن الشيخ أبى على النفطي أن مريدًا دخل عليه وهو في طبقة على البحر بمصر المحروسة، فقال له الشيخ: من أين؟ فقال من سدرة المنتهى، فبينما هو يحدثه والشيخ يعاتبه على ذلك القول والشيخ أبو عبد الله القرشي دخل عليهما- وكان في بدء أمره وبشبيبته- فقال الشيخ أبو عبد الله النفطي للشيخ أبى عبد الله القرشي: من أين أتيت يا شيخ أبو عبد الله؟ فقال له: يا سيدي، نزلت من الحجاز وجئت من الصعيد بقرية تسمى ساقية قلته، فطلبت مركبًا أنزل فيها فما حملني أحد.

كان تاجر يحمّل قمحًا فحمَّلني، فكنت أقعد بعيدًا عند الحبال ومعي قارورة أو قَحْف[1] أجعل فيه الماء والقراقيش حتى تبتل وأمرسها وأشربها، فإني لا أقدر على أكلها من الأذى الذي بي، قال: فأخذوا النوابتة القحف وكسروه، وقالوا لي: أنت تشرب المزر، فلا تركب معنا -وربما قال: رمَوني- فحلّفهم التاجر فحملوني، وقال لي: يا فقير، أنا أحملك، وأريد أن أوصيك بغَلّتي، فلما وصلنا إلى مصر اكتالوا الغلّة فنقصت، فقال لي: أنت سرقت الغلة مع النوابتة، فحملوني إلى دار الولاية، فعراني الوالي ونظر إلى جسمي، وقال: ما في هذا شيء يضرب.

فأرسلني إلى القاضي، فحلّفني، وها أنا قد جئت، فقال له الشيخ أبو على: لو جردت سيف فقرك فماذا كنت تعمل؟ قال: فجلس على قرافصه ودارت عينه في رأسه وقال: لو جردت سيف فقرى عملت كذا، ورفع كفه في الهواء، فأخذ الشيخ أبو علي رأس مريده وأخرجها من الطاق، فرأى المراكب كلَّها قد تعلقت في الهواء ولم يبق على

=

والأحوال الصادقة، والأنفاس المحققة، ومات الإمام القرشي عام سبعين في السادس والعشرين من ذي الحجة وخمسمائة.

وقال المناوي: عارف جلل سمت أعلامه، وصوفي نبيل حسنت تربيته وطابت أوقاته وأيامه، وأصله من بلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء ثم تحول إلى مصر فقطنها ثم إلى بيت المقدس، وكان من أعيان مشايخ المغرب ومصر، ولقي نحو ستمائة شيخ، وجد واجتهد، وأخذ عنه كثيرون منهم البوني.

وانظر: الكواكب الدرية (٤٤٣) .

(١) هو القدح من الجلد.

ظهر البحر منها مركب إلا معلقة في الهواء، فقال الشيخ أبو على: والله ما بقى من قعر الإسكندرية إلى أسوان من مركب إلا وقد تعلقت في الهواء، فلو قال القرشي هكذا وقلب كفَّه لقلبها جميعًا، وأغرقها جميعًا، وأنت تقول لي أتيت من سدرة المنتهى، وهو يُعاتبه على ذلك؟!

دراهم القدرة

ومما حكى عن القرشي ﷺ قال: قصدت الحجاز، فسألني رجل من التجار أن أكون عديله في التجارة، فأبيت ذلك، فحلف على ذلك فقلت له: يا أخي، أنا رجل فقير وأنت غني، وأنا المبتلى وأنت المعافى، فكيف نجتمع؟ -أو ما أجتمع معك، أو كلام هذا معناه- وربما كان قد عرف الشيخ أو صحبه فحلف عليّ وصرّفني في جميع ماله.

فلما أخرجنا البركة سأل فقير بصلة فأعطيتها له، فعزّ عليه ذلك، فلما رحلنا من البركة كان لي فروة أوطي بها على المحارة فنثرها وألقى بها، فلما وصلنا ثالث مرحلة رفسني برجله ورماني وقال: روعنا إلى حيث شاء الله تعالى، فارتفعت الأرض إلى المحارة وقالت لي: اركب علي، فأنا أوطأ لك من ظهر الجَمل.

قال: فمشيت ساعة حتى ورمت رجلاي من ذلك الأذى، ورقدت تحت شجر أم غيلان[1]، فنمت ساعة ثم استيقظت، فرفعت رأسي لأجد الشمس قريبة الغروب، فقمت ومشيت وغابت الشمس، وإذا أنا بسوق وسرج موقودة، فاستقصيت على ذلك السوق فقالوا لي: هذا هذا المسعى وهذا الصفا والمروى، فاجتمع عليّ الناس وقالوا: من أين أتيت؟ قلت لهم: من القافلة -ولم يكن الشيخ على علم- فاجتمع عليّ الناس، وأخذني إلى بيته، وتراءي فيه حتى وصلت القافلة.

فلمّا حججنا ورجعنا طالبني الجمال بالأجرة في الطريق، ولم يكن معي شيء، فقلت له: ليس معي شيء، فقال: أنتم بلبغارية تكذبون ومعكم الحندوس، وصرخ علي، فسمعت خشخشة في جيبي فوضعت يدي فوجدت في جيبي دراهمًا قدر دراهمه، فأخرجتها وأعطيتها له فقال: الساعة كنت تحلف أنّ ما معك شيء، وكذبت، فقد

(١) اسم لشجرة، من أشجار الصمغ.

أخرجت الدراهم، ثم أخذ الدراهم ووزنها ونقدها وأتى منها بدرهمين-أو قال ثلاث - وسمّاهم وقال: هذه زائفة -أي نحاس- هات عوضها، فقلت له: ما بقى شيء. فصاح وجمع الناس وقال: من ساعة حلفت أنك ما معك شيء، ثم أخرجت الدراهم، والساعة تحلف أن ما معك شيء؟ وبقى الناس يتكلمون.

فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: إلهى، أنت تعلم أن ما في دراهم القدرة شيء زائف، وإنما أردت أن يترقوا بي، والإختبارات من أحوال الأكابر.

سيدي أحمد بن الرفاعي

وحكى عن سيِّدي أحمد بن الرفاعي أنه كان مرة على الشط يتوضأ في الليل، وكان مركب يمر، فأخذوا سيدي أحمد ووضعوا في عنقه أغلال، واستعملوه في جر المركب إلى الصبح، فلما طلع الفجر عرفه الناس فأطلقوه، فلما وصل إلى مكانه جرّ الرئيس الكلك وهو باك فقال له: يا سيدي، غرق الكلك وكل من فيه، فدعا له فسلم.

وحكي عن الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور- رحمه الله تعالى- أنه مرة وجد مركبًا مسافرًا فقال لهم: تحملوا فقيرًا فحملوه وأخذ يعرفهم بنفسه، قالوا له: تقذف معنا، فقذف الشيخ صفي الدين ﷺ معهم فقال: هذه المركب لمن؟ قالوا له: هذه المركب نحن نحميها بزاوية الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور وبقى الشيخ يقذف معهم حتى وصلوا مصر، قدّس الله تعالى روحه.

وحكى عن القرشي -رحمه الله تعالى -أنه ركب في مركب يريد الحجاز في الباحة، فعطش خادمه أو فقير معه فطلب له الماء فلم يسقى، فأعطى الشيخ شملته لمن يسقيه فلم يسقوه فقال له: املأ الركوة من البحر واشرب. فملأها من البحر أمامهم وشرب، فوجده حلوًا، ثم أراد الشرب بعد ذلك فوجده مالحًا، فقال الشيخ القرشي ﷺ: أبت البشرية أن تتوجه إلى الله إلا عند الضرائر، ولما قال له الخادم: وجدته مالحاً قال: لما كانت الضرورة له وجدته حلوًا.

وأخبرني قاضى عبدان شرف الدين أنه كان عنده من الماء الذي فضل من الركوة، وأنه كان يكحل به الأعمى فيبرأ بإذن الله تعالى.

الابتــــلاء

والابتلاء لا يكون إلا في الفحول من الرجال؛ لأنهم أخذوا نصيبهم من ميراث نبيهم ﷺ وقد قال: **«ما أُوذي نبي كما أوذيت[١]»**، وكلما كان الابتلاء أكثر كان الرجل أكبر، وأما ما يجدوه من الأسقام والآلام والإساءة عليهم ومنعهم من الدنيا فذلك كثير، ومن لم تحبكه الفاقة فليس بفقير، فإن الذهب إذا لم يختبر بالنار لا يتحقق له عيار.

فقد حكى لي عن الشيخ عبد الرحيم -قدّس الله تعالى روحه- أنه لما وصل إلى قنا، فبينما هو يمشى تحت النخل وإذا بحارس النخل يصيح عليه، ثم جاء إليه وقال له: أنت أكلتَ البلح -أو لقطتَ من البلح- فقال له: ما أكلتُ لك شيئًا -أو ما لقطتُ لك شيئًا- فقال: فأدخل إصبعه في فم الشيخ وبقى يديره في أحناكه ليخرج البلح إن كان أكله أم لا، فقال الشيخ: هذه البلد يصح فيها التوكل.. أو كما قال.

وكل ذلك من الاختبار في أحوال الأكابر، ولأن الله تعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب الذي لا يوافقه.

وورد في الحديث ذلك أو معناه، والأكابر لهم الحماية والاختبار حتى أنهم إذا تاقت نفوسهم إلى شيء من الدنيا عوقبوا عليه في ساعته ولا يتأخر ذلك عنه كما حكى عن الشيخ على الحريري -قدس الله روحه- أنه لما اعتقلوه واتفق ما اتفق فلما أرسل لهم السلطان جاءوا فقال لهم: شدّوا لنا نخرج، فإنا قد عرفنا السبب، كانت نفسي قد تاقت إلى ذلك فرسم بخروجه من ساعته.

حكاية عن سيدي إبراهيم بن أدهم[٢]

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال الموصلي: أصله من بلخ، ترك الإمارة وانتقل إلى الشام، إلى أن مات سنة إحدى وستين ومائة.

قال إبراهيم بن شماس: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: كان أدهم رجلاً صالحًا، فوُلد إبراهيم بمكة فرفعه في خرقةٍ، وجعل يتتبَّع به أولئك العبَّاد والزهَّاد، ويقول: ادعوا الله له، فنرى أنه قد استجيب لبعضهم =

وكما حكى أن إبراهيم بن أدهم ﷺ اشتهت نفسه بيضًا، وكانت ليلة مظلمة قال: فدخلت مسجدًا فأخرجني القيم وقال: ما تبيت هنا، فلما امتنعت جرني وسحبني على الطين فافتكرت أنى كنت عملت للجواري الوحل من المسك وكنت أجرهم عليه فقلت: هذا بذاك، ثم إني أخذت فضربت خمسين خشبة ثم أخذني شخص ودّانى إلى البيت، فأخرج لي البيض فقلت لنفسي: كلى بعد خمسين خشبة.

وهكذا جرى للنسائي وغيره ممن ذكرناه في زماننا ممن قطعت يده.

وأما من لم تحبكه الفاقة وبقى في الإكرام فلا يتحقق فقره قبل ذلك وقد قلت:

بقَى نفسي في يوم النوى عجبٌ   لأنَّ موتي من بعضِ الذي يجبُ
وما بقيتُ ورُوحي لستُ أملِكُها   وليس لي في حياتي بعدهم اربُ

=

فيه.

وقال ابن أبي روَّاد: رحم الله إبراهيم بن أدهم، لقد رأيته إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكرية، ولكنه رحمه الله طلب بحبوبة الجنة.

وصحب رجلاً فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل: إن كنت رأيت فِيَّ عيبًا فنبهني عليه، فقال له إبراهيم: إني لم أرَ فيك يا أخي عيبًا؛ لأني كنت ألحظك بعين الود، فاستحسنت كلما رأيته منك فاسأل غيري.

وأخرج أبو العباس الفسوي في كتاب «الطبقات» بالإسناد عن بقية ﷺ قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم في البحر فلعبت بهم الريح، وهاجت بهم الأمواج، واضطربت السفينة، وبكى الناس فقلنا لإبراهيم: يا أبا إسحاق، ما ترى ما الناس فيه؟ قال: فرفع الرأس وقد أشرف الناس على الهلاك فقال: يا حي حين لا حي، ويا حي قبل كل حيٍّ، ويا حي بعد كل حيٍّ، يا حي يا قيوم، يا محسن يا مجمل، قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال: فهدأت السفينة من ساعته.

وأخرج أيضًا فيه: قال إبراهيم بن أدهم: مَنْ أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.

قال أهل التاريخ: كان إبراهيم بن أدهم من أهل بلخ، خرج إلى مكة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ودخل الشام وكان فيها يأكل من كسب يده، ومات بالشام.

انظر: حلية الأولياء (٣٦٧/٧)، وطبقات الشعراني (٨١/١)، والرسالة القشيرية (٩)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٤١٧) ، وطبقات الصوفية (٢٧).

ومدَّعي الحبِّ قبلَ الموتِ متهَمٌ   دعواه إن لم يمت في حبِّهم كذِبُ

* * *

ابن الشيخ، وزوجته، وخادمه

ولذلك قيل أن ابن الشيخ وزوجته وخادمه لا يفلحون، ولم يكن عدم فلاحهم إلا أنهم لا يكونون كآبائهم إلا في حكم النادر، فقد يكون الواحد خيرٌ من أبيه، وإنما لما كان الغالب على أولاد المشايخ إكرام الناس لهم، ويخرج المريد يقبل يد ابن الشيخ، ويحملوه من صغره على أكتافهم ويطيعونه فتكبر نفسه ويرضع الرئاسة و شهواتها من الصغر، وتتوالى تلك الأحوال المظلمة للقلوب حتى يتمكن من قلبه حمله فلا تؤثر فيه المواعظ ولا يسمع من غيره ويتجرأ على الأكابر، وتبقى الشيوخية لهم كالميراث والدعوى بالباطل، فإن لطف بهم وإلا هلكوا، والملطوف بهم لا يفلحون بالنسبة إلى آبائهم الأولياء، وغير الملطوف بهم لا يفلحون دنيا ولا آخرة أعاذنا الله تعالى من ذلك وذرياتنا إنه أكرم الأكرمين.

وأما **الزوجة** فإنها تراه كما ترى النسوة أزواجهن معاينة بذلك من طريق أنها تعتقد أنه يحتاج إليها بطريق الشهوة كسائر النساء، فتطالبه بما يطالب غيرها، فغالب النساء كذلك إلا من بصرها الله تعالى ونبهها وحفظها.

وأما **الخادم** فلتكرار رؤيته للشيخ واطلاعه على أحواله فيرى منه من الأفعال التي يعتقد فيها أنه كغيره في المأكل والمشرب والعادة، وقد يرى شيئًا يعجز عن فهمه ويكون عنده نقصًا، فلهذه الأشياء لا يفلح فلاح غيره من المريدين الذين غلبت على قلوبهم عظمة صفات الشيخ وكمالها، فيكون منزلتهم عند الله تعالى بحسب منزلة شيخهم في قلوبهم فيفلحون ويرتقون إلى أعلى المراتب، ولذلك لا ينبغي للشيخ المربى أن يظهر للمريدين في صورة تنقيص له خشية أن يقع منهم تنقيصًا له فينتقصون عند الله تعالى، ويعود ذلك على صفاتهم حتى أنه لا يأكل معهم ولا يشرب معهم ولا يكثر الجلوس لهم إلا في الأوقات المعلومة، ولا يطلعهم إلا على ما يستطيعونه من علوم الحقيقة، وفى صفات الشيخ وظهوره وآدابه مما يتعلم به المريد ويتصف به ما لا يسعه هذا الكتاب.

والولد إذا سلك سلوك المريد مع أبيه أو غيره أفلح لفلاح المريدين، وكذلك الخادم والزوجة؛ إذ لو وصلوا إلى درجات الأولياء والكمال وبقى لهم في قلوب الطائفة محل الإكرام لأجل السيف؛ لأن ذلك حقيقة النسب وصحته؛ لأن في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً**﴾ [الكهف:٨٢] تنبيهًا على صلاحهما إذ لو كانا غير صالحين لنفاهما عن أبيهما كما نفى ابن نوح عليه السلام عن أبيه.

وفى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُون**﴾ [المؤمنون:١٠١] كفاية.

وجمع شتات المؤمنين وإن كانوا متفرقين في الأنساب الجثمانية وإلا بالحسية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠].

وفى منع توارث المؤمنين الكفار، فإن احتج محتج بفعل الخضر عليه السلام في الغلامين اليتيمين، فجوابه في قتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، فلا يعتقدن من كان له قرابة من أولياء الله تعالى أنه ينال من الله تعالى حظًا أو من أوليائه مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقهم وإساءة أدبه عليهم في ذلك كله من ولد أو زوجة أو قريب أو خادم.

فأما الولد فقد تقدم ذكره في قصة ولد نوح عليه السلام وقوله تعالى:

﴿**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ [هود:٤٥، ٤٦]، وذلك أن العلم المختص بالألوهية لا مشاركة لغير الله تعالى فيه ولا يجوز السؤال في ذلك لنهيه فيه لنوح عليه السلام ولقوله تعالى: ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣] فهذا في حق الولد في الأنبياء -عليهم السلام-.

وأما الزوجة فقد قال الله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شيئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم:١٠]، ولم تكن خيانتهما في الفراش؛ لأن الله تعالى لا يبتلى نساء الأنبياء صلوات الله عليهم بذلك؛ لأن ذلك يلحق العار في العرف، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حجج الله تعالى على

عباده ورسله إلى خلقه فهم مصانون عن الشوائب ومبرءون من النقائص ومعصومون من الكبائر والصغائر.

وإنما كانت خيانة امرأة نوح الطَّيْلِا أنها كانت تقول: هو مجنون وتعتقد ذلك، وخيانة امرأة لوط كانت قول الفسّاق على أضيافه، وكل ذلك مخالف لما أتوا به، فلم ينفعاهما مع ذلك وهما من الأنبياء، ولم يضر امرأة فرعون كفره؛ إذ كانت مؤمنة بالله ورسوله ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى الطَّيْلِا: ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ [النمل:١٢] لأن اللون المخالف اللون في العرف قد يكون من أذى كالبرص أو حرق النار أو غير ذلك، فلذلك خرجت يده بيضاء من غير سوء من هذه الشوائب، فكانت معجزة له الطَّيْلِا وكانت يده تضيء كما تضيء الشمس.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً**﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقصة الحجر وستره لثوبه مشهورة وقوله: ثوبي يا حجر، وكل ذلك براءة له من الشوائب والنقائص المعهودة عندهم حتى يقطع حجج المعاندين ويدمغ الحق أباطيل المبطلين.

وقد كان قارون قرابة لموسى الطَّيْلِا كما ذكر في التواريخ فلم يرحمه حين نزل به الهلاك والخسف لمكان الغيرة لله والحب في الله تعالى والبغض في الله تعالى وموافقة الحق تعالى في مراده فيه.

وقد قتل أحد الصحابة أباه وأحدهم قرابته في سبيل الله تعالى لمخالفتهم أمره وتكذيبهم رسوله ﷺ- وإذا كان ذلك في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فما ظنك بمن دونهم؟

فمن اعتقد أنه ينال حظًا من الله تعالى بقرابته من أوليائه مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقة أو إساءة الأدب عليه أو على غيره من الأولياء فقد **كذب في زعمه،** وكما أن الإرسال أو الرسالة واحدة فالمرسل واحد وإن اختلفت الأوامر والنواهي فيما أتى به الرسل، فيجب الإيمان بالجميع، فلو أن إنسانًا آمن بجميع الأنبياء والمرسلين وكفر بواحد منهم لا يفيده ذلك الإيمان؛ لأنها في نفسها واحدة لا تتبعض، كما أن التوحيد لا يقبل الاشتراك، والرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يصدقون بعضهم

بعضًا لم يختلف في ذلك اثنان.

قال الله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة:٢٨٥].

أنبياء كُثر ورسالة واحدة

فكل نبي مؤمن بكل نبي، فمن كذّب واحدًا من الأنبياء فقد كذّب الجميع؛ لأن الأنبياء كلهم مؤمنون به ومصدّقون له، وكذلك كل ولى مؤمن بكل ولى، فلو جحد منهم واحدًا لكان جاحدًا للجميع، ومن آذى منهم واحدًا، فقد آذى الجميع وبارز الله تعالى بالمحاربة، وفى أخذ الله تعالى الميثاق بالإيمان بنبيه ونصرته وقوله تعالى: ﴿**قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١].

والإيمان مرتبط بذلك، وكذلك لو أن إنسانًا أحسن الظن بجماعة الأولياء وآذى وليًّا منهم لا يتبعه ذلك مع وجود أذى ذلك الولي وإن جازاه الله تعالى عن حسن ظنه إذا كان خاليًا من الشوائب، وأنّى تخلو من الشوائب! إذ لو كان ذلك حقيقة لما أساء الظن بواحد منهم ولما آذاه؛ إذ الولاية في نفسها واحدة وإن اختلفت طرقها بحسب السالكين والطالبين فهي متلازمة، فلذلك تجد الأولياء مؤمنين ببعضهم بعضًا مصدقين ببعضهم بعضًا لم يختلف في ذلك اثنان وإن اختلفت طرقهم بحسب آثار الصفات، فإن الخائف ليس كالراجي إلا إذا تشابها فِي رتبة الكمال لا في رتبة السلوك

صفات الجمال وصفات الجلال

كذلك فالمشاهد لصفات الجمال ليس كالمشاهد لصفات الجلال، ومتى يجتمعا في رتبة الكمال الجامعة للطرقات والأحوال وكل مؤمن بصاحبه لا تفرق بينهم، ولأن الطرق مختلفة والمنهل واحد وهى مستديرة، والكل طالبون والمطلوب واحد،والكل محبون والمحبوب واحد، فمن زاغ منهم أو آذى وليًا لله تعالى، فقد خرج من هذه الدائرة وبارز الله تعالى بالمحاربة لورود الحديث عن الله تعالى: «**من آذى لي وليا فقد بارزني**

بالمحاربة[١]» فانظر[٢]، هل تطيق محاربة آحاد الأجناد الذين هم شكلك ومثلك؟ فكيف بمن هو شكلك ومثلك لكنه أقوى منك بكثرة الجيوش و الأتباع؟ فكيف بملك من ملوك الدنيا؟ بل كيف بمحاربة جنى من الجان؛ إذ يأخذك من حيث لا تراه ولا تبصره ويصرعك ويجعلك مثلة بين الناس؟! بل كيف بملك من الملائكة الغلاظ الشداد المعدّون لغضب الله تعالى؟ فإن ملائكة العذاب ﴿**غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦] ولا تعتقدنَّ أن غلظهم وشدتهم بما رأيته في الآدميين من الغلظ والشدة، فقد يملأ الواحد منهم ما بين السماء والأرض، ولو رأيته لأذهلتك رؤيته عن مأكلك ومشربك، ولزال عقلك من مكانه بلا بطش ولا شدة، فكيف لو أُمِرَ بك؟

فقد تحققت ما ورد في كتاب الله تعالى من إهلاك القرون الماضية بالصيحة والخسف والريح، وقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط وحملها على خافقة من جناحه إلى أن وصل بها عنان السماء، وسمعوا صياح الديكة وعواء الكلاب، وقلَبَها، وهى الآن موضعها بركة ماء لا يشرب منها طير ولا وحش ولا إنسان ولا ينبت فيها شيء من

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، وأبو يعلي في مسنده (٥٢٠/١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/١).

(٢) وهو يشير إلى التحذير من إيذاء أولياء الله تعالى ومعنى الإيذاء أن الإعلام والحرب والمحاربة، وهذا من التهديد بالغاية؛ لأن من حارب الله تعالى أهلكه إهلاكًا وهو من المجاز البليغ؛ إذ لا يتصور محاربة الله تعالى ولفظ: «وليًّا» نكرة يعم الحي والميت -نعوذ بالله من ذلك- فلم يضمنه عن عينه إلى أن صار المداح في الأسواق إذا قالوا: «شئ لله يا بدوي أو يا شافعي» يسبونهم العوام ويؤذونهم وينسبوا بهم إلى الكفر بما قالوا إلى أن رفع إلي سؤال ضمنه ماذا يقول علماء الدين، ووارثون المرسلين من أيدهم الله تعالى بالمعجزات، وأكرم أوليائه بالكرامات في حالة الحياة، وبعد الممات هل كراماتهم باقية بعد الممات أم قاصرة على الحياة؟، ومن في القبور من الأولياء ليس لهم شيء من الكرامات، فإن قلتم ببقائها بعد ذلك، فما الحجة في ذلك من كتاب الله أم من عند رسول الله؟ أما حالة الحياة فلا شك فيها على القبور، ومن فيها وهل القبور من الدار الدنيا الظاهرة أم هي من الدار الآخرة أفيدوا الجواب فضلاً منكم للطلاب، وإظهار لنا الدليل من السنة أو الكتاب انتهى.

وانظر: رياض السادات في إثبات الكرامات للقاضي عبد الحليم الرومي (ص٧٩) .

النبات، ومررت بها وما توضأت منها.

وأخبرني الصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى- أنه يطلع فيها شيء بعض الأوقات أو في بعض السنين وأنه ينفع لحكمة الله تعالى.

وحكي لنا أنهم يسمعون كل وقت وجبة بالليل تقع في تلك بركة الماء ساعة بعد ساعة، فقيل أنه من مات على عمل قوم لوط حملته الملائكة فترميه فيها، فهل أنت من قبيل محاربة زباني من زبانية الملائكة أو عون من أعوانهم أو جُند من أجناد الله تعالى، وقد علمت أنك لا تقاوم برغوثًا لو سلّط عليك ولا قملة ولا ناموسة؟ وقد تحققت جبروت نمرود بن كنعان وكيف أهلكه الله تعالى بالناموسة، وهى من أضعف الجند!

جُنـــد اللّـه لا يحصون

ولله تعالى من الجند المختلفة الأنواع و الأجناس من سائر الأصناف فى القوة والشدة مع ضعف الأجسام وقوتها ما لا ينحصر بالعدد ولا يبلغه أحد إلا الذي خلقهم، ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ [الملك:١٤] هذا من المحسوسة المشهودة.

وأما أجناده المعنوية فلا تدخل تحت العبارة، ولا يشهد صورتها إلا المتحققون وسَالكو طريق الله تعالى بحسب ما أعطاهم من ذلك.

فالأمراض والأسقام جند لله تعالى، فانظر هل تطيق منها شيئًا إذا نزل بك وأنت لا تراه ولا تعرف دواءه؟ فهل يقدر أحد يدفع عنك منه شيئًا إذا لم يرد الله تعالى شفائك منه؟ من قُولنج(١) يعتريك أو وجع عينك أو ضرسك أو ضرب عرق من عروقك؟ هذا مع ضعف هذه الأسقام، فأما الأوجاع الشديدة التي لا تحمّل عند ورودها عنك إلا الموت في وقتها فلا تدخل تحت العبارة، ومنها ما يطول العذاب.

ولقد رأيت من يتمنى الموت ويسأل الله تعالى أن يموت حماية من الألم فلا يقدر على ذلك فما لا أحصى ذلك، فكيف إذا قابلك ملك الموت بأعوانه؟ وهم على صورة عملك متصورون؟ وفى قبائح أفعالك متشكلون؟ وقد افترقوا على الأعضاء والعروق، وجذبوها بشدة الجذب الذي لا يعقل إلا باللفظ، ولا يعرفه إلا من وجده -

---

(١) وهو ما يعرف عند العامة حديثًا بالقولون، نسأل الله العافية.

أعاذنا الله تعالى وإياكم منه - واستخرجوا الرُّوح مع شدة الغضب لمحاربتك لربهم تعالى، وتولاها ملائكة آخرون، ووقع النداء بما سبق في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، وتولى كل منهم جانحة من جوانحك كما تولت الملائكة التي قبلها كل منهم جارحة من جوارحك، ثم رفعوها إما إلى الصعود أو إلى الهبوط، فإن كانت الشهادة موجودة لك عند الخاتمة فالمنة لله تعالى؛ إذ مدة العذاب في الموحدين تنقضي بحسب أعمالهم، وقد يردونك إلى السماء فإذا أسلمك أهلك ونزلت القبر وتلقاك القتانان على صورة عملك ومحاربتك لربك تعالى، فانظر ماذا تقابل؟ وكيف تقابل؟ ومن له طاقة برؤيتهما على هذه الصورة؟ ثم هنا يقال لك ولقد قطعني هيبة هذا المصرع، وأذهلني في الكلام فيه من رؤية من سمينا وما يقال لهم عند السؤال، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة بمنه وكرمه، إنه أكرم الأكرمين.

ولتعلم أن التنين الذي له سبعة رءوس إنما هو مقابل لصفاتك السبعة؛ إذ الحواس الخمس والبطن والفرج سبعة، وهى مقابل لأبواب جهنم السبعة؛ إذ هي موارد للأعمال الخبيثة والأعمال الصالحة، فلذلك كانت سبعة مقابلة للأبواب السبعة من جهنم المجازاة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ [الحجر: ٤٤] (١).

---

(١) **فائدة جليلة:** قال الشيخ حسن العدوي الحمزاوي: وقد قيل في معنى هذه الآية: لكل بابٍ منهم جزء مقسوم: أي من الكفار والمنافقين والشياطين، بين الباب والباب خمسة آلاف عام.

فالباب الأول: يُسمَّى جهنم؛ لأنه ينجهم في وجوه الرجال والنساء فتُأكل لحومهم، وهو أهون عذابًا من غيره، والباب الثاني: لظى.

والباب الثالث: سقر.

والباب الرابع: الحطمة.

والباب الخامس: الجحيم، وإنما سُمِّي الجحيم لأنه عظيم الجمر، الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا.

=

والحديث الوارد في شهر رمضان أنه «**تغلق فيه أبواب النار، وتصفد فيه الشياطين**(١)»، وهذا إنما هو لصيانة الناس عن المعاصي في شهر رمضان، فإذا انقضى شهر رمضان رجعوا إلى ما كانوا عليه، وفتحت أبواب النيران التي مفاتيحها صفات الآدميين السبعة(٢) والجنة كذلك.

=

والباب السادس: السعير، وسُمِّي السعير لأنه يسعر لم يطفأ منذ خلقه الله، فيه ثلاثمائة قصر، في كل قصرٍ ثلاثمائة بيت، في كل بيتٍ ثلاثمائة لون من العذاب، وفيه الحيات والعقارب والقيود والسلاسل والأغلال والأنكال، وفيه جب الحزن ليس في النار أشد منه، إذا فُتح حزن أهل النار حزنًا شديدًا.

والباب السابع: يُقال له الهاوية، من وقع فيه لم يخرج أبدًا، وفيه بئر الهباب، إذا فُتح يخرج منه نار تستعيذ منه النار، فيه صعود المذكور في القرآن، وهو جبلٌ من نارٍ، تُوضع وجوه أعداء الله عليه، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم، مجموعة أعناقهم إلى أقدامهم، والزبانية واقفون على رؤوسهم، بأيديهم مقامع من حديدٍ، إذا ضُرب أحدهم بالمقمعة ضربة يسمع ضربها الثقلان، وأبواب النار حديد، وغشاؤها الظلمة، أرضها نحاس ورصاص وزجاج، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل قد مُزجت بغضبٍ، وقد ورد في جبالها وأوديتها وزقومها وحميمها وعذابها أخبار كثيرة، نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة انتهى تحفة الإخوان. وانظر: مشارق الأنوار (١٩٦) .

(١) رواه أحمد في مسنده (٣١٢/٤)، والترمذي (٦٦/٣)، وابن ماجه (٥٢٦/١).

(٢) الباب الأول: باب الكبر: وقد أبى إبليس واستكبر، وسنّ الشرك فكان أول مشركين وأول من يدخل النار، ورئيس أهل السجن، فإن جهنم سجن الله في الآخرة، فاحذر من مشاركة إبليس في الكبر وكن مع أهل الحق في التواضع.

الباب الثاني: باب الحسد، وهو صفة ثانية لإبليس وأهلها، كافر في الحقيقة لأن الحسد مكابرة الحق ومعاندته في علمه وحكمته، والله يفعل ما يشاء ويصنع ما يشاء، وكيفما شاء، فاعرف جدًا.

الباب الثالث: باب الغضب: وهو صفة إبليسية أيضًا لأنه لم يرضى بقضاء الله الذي هو الخلافة، فغضب على ربه في ذلك، وخرج عن باب الرحمة مغضوبًا ملعونًا، فكل فاسد رديفه وتابعه حين رفع الكتاب، وذلك في يوم القيامة.

الباب الرابع: باب الحقد: وهو إرادة الانتقام، وهو صفة إبليسية أيضًا، حيث لما طرد عن باب الرحمة نصَّب نفسه الإغواء بني آدم، إرادة الانتقام لكن الله عزيز ذو انتقام، ينتقم لأولياء من أعدائه في الدنيا والآخرة.

=

فإن قلت: فإن للجنة ثمانية أبواب فالأبواب السبعة للجزاء، والباب الثامن للفضل من الله تعالى(١).

=

الباب الخامس: باب العجب: وهو رؤية العمل والاحتجاب عن التوفيق كما رأى إبليس عمله الذي وقع منه في المدة المتطاولة، وجعله من أسباب حيرته، ولم يعرف أن الكمال إنما هو في الفناء أو رؤية التأثير من الله، وهو التوحيد الحقيقي، جعلنا الله وإياكم من أهل التوفيق.

الباب السادس: باب حب المال: لأن الإنسان به يميل عن الحق فهو من أقوى الحجب الكونية، وأعظم حجب المال التعبد له، ولذا قال تعالى حكاية ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥] قال بعض أهل العرفان: أي الحجرين: الغفلة والذهب.

الباب السابع: باب حب الجاه: وهو أن يكون وجيهًا بين الناس يلتفت إليه ويسمع قوله، ويطاع له من كل الجهات والوجوه، سواء كان من أرباب الأموال - وهو أكثر - أو لا ، كما كان شأن أبو طالب في مكة، وكان من فقراء قريش ولابد من الفناء عن هذا الحب، كما لابد من بذله، فإن المراد من التحقق بالاسم الظاهر العمل بمقتضاه.

(١) **الباب الأول:** باب القلب: إنما كان أول الأبواب لأنه محل الإيمان والاعتقاد الذين هما أول الأمر في باب الدين، فإذا تحقق القلب بالدين فقد فتح باب الجنة الأول ودخله مع الداخلين، ومآله ربض الجنة، لأن علو الصورة إنما هو بكثرة الأعمال وهي مفقودة الآن.

الباب الثاني: باب السمع: لأن القلب إذا تهيأ للإيمان والاعتقاد انتفع بسماع أهل الوحي والتبليغ، ولم يكن ممن ذمهم الله تعالى بأن لهم آذانًا يسمعون بها، فإنهم صمٌّ في الحقيقة.

الباب الثالث: باب البصر: لأن البصر من أسباب الرؤية والشهود، وهي محاضرة القلب، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سماع الإذن والخطاب الغيبي، لأنه طريق المعاينة، وقد لزم الله من لا يبصر بعد النظر كما قال الله تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٨].

الباب الرابع: باب حفظ اللسان، لأن اللسان محل الكلام، وهو آخر الصفات السبع، التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، كما النشأة الإنسانية هي آخر المراتب والأطوار الكونية؛ فعليك بحفظ اللسان تكن حقًّا إنسان.

الباب الخامس: باب حفظ البطن لأنه بعد اللسان في الترتيب الوجودي وهو محل الشهوات الطبيعية التي لابد من إصلاحها من مرتبة الشريعة.

الباب السادس: باب حفظ الفرج لأنه مرتب على حفظ البطن ولذا كان أهل الرياضة مصونًا عن آفات الفرج بخلاف غيرهم من أهل الأكل حرامًا أو حلالاً.

=

ولسنا نُوسع الكلام في هذا الباب خشية على نفار النفوس من الموت وما بعده، فإن عوالمه لا تنحصر والمعاني تتشكل، ولا يمتنع ذلك على الله تعالى، فقد ورد في الحديث الصحيح أنه: «**يُؤتى بالموت به في صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار، ويقال يا أهل الجنة: خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت**[١]» والموت معنى من المعاني، ولا يقدر يخرج عن لفظ الحديث إلا بما يدل على غير اللفظ من حديث صحيح، أو أنه من كتاب الله ﷻ.

الطائـر الأبيـض[٢]

وورد أن العبد إذا قال: لا اله إلا الله خرج من فِيه طائر أبيض يرفرف تحت العرش، فيقال له: اسكن، فيقول: وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها.

وأخبرني فقير عمَّن كان به سعلة، فسأل الله تعالى أن يريه تلك السعلة، قال: فكنت أراها مثل الجرادة تأتى وتغوص في كتفي، وأنا أنظر إليها حتى تنتهي إلى الرئة فأسعل عند ذلك، فإذا خرجت أنظر إليها حتى تخرج وتطير، فسكن عنى السعال.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى - عن فقير قال: لما كان الغلاء

=

الباب السابع: باب حفظ اليدين: لأنها في الأزل تتجاوز عن حد البطن وأكثر الكذب بهما ولذا قال تعالى فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [الشورى:٣٠]وهم كالجناحين للطائر فلابد من الطير بهما إلى المقامات الجنانية.

الباب الثامن: باب حفظ الرجلين لأنهما تابعان لليدين، وبهما يكون السعي من محل إلى محل كالسعي من البيت إلى المسجد وإلى مجلس العلم ونحو ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم:٣٩].

وقال تعالى: ﴿**لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ [المائدة:٦٦] فإنهم إشارتان إلى الفيض بواسطة وبغير واسطة، هذا والله أعلم.

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٩٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/٣٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/٩٤٣).

(٢) وردت عدة آثار في شأن وجود ما يعرف بالطائر الأبيض، منها ما رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٨٨٧) ، عن غيلان بن عمرو بن سويد قال: إنه لما مات ابن عباس أدرجناه في أكفانه، فجاء طائر أبيض فدخل في أكفان..

فكنت لا أشبع، فسألت الله تعالى فرأيت في معدتي شيئًا كالسرطان، كلما نزلت لقمة فتح فمه والتقمها وأنا أنظر إليه.

وأخبرني فقير أنه كان يرى النوم عندما يأتيه كأنه سحاب أو دخان، فعندما يصل إليه يغشاه ينام.

الرحمَـــة

وأعرف فقيرًا شهد الرحمة تنزل على قوم يذكرون الله تعالى، وهى كبياض القطن منتشرة، وهى في اللطافة ألطف منه وكأنها شملت الذاكرين، وكان شخص منهم ابتدأ الذكر فربما له حظ أن يبتدئ الذكر فلم يغشه منها شيء فتاب عن ذلك.

فالمعاني تتشكل كثيرًا، وقد ذكرنا من هذا طرفًا.

عذاب القبر

وأما عذاب القبر فقد سمع جماعة من أصحابنا ذلك، وقد ذكرت في هذا الكتاب أنني كنت بمسجد في الليل وتحته مقبرة فسمعت صيحة من قبر أعرفه كاد قلبي يبرز من شدة روعته، لا يطيق سماعها إلا من أقدره الله على سماعها.

وقد جرى بنا شجون الكلام من وقائع الاختبار إلى الدخول في هذه المواطن والديار، ومن الاختبار والألطاف لمن تحين له من لطائف الاختبار في شيء من لطيف لتعلم لطف الله تعالى به، ولا تقف مع غير الله.

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود- رحمه الله تعالى- قال: خرجت من مكة - شرّفها الله تعالى- ومعي كارة فيها ثوبيات لزوجتي وبناتي، فكنت أحملها بين كتفي وأمشى في النهار، فإذا جاء الليل جعلتها تحت رأسي ورقدت عليها، فبينما أنا ذات ليلة نائمًا وإذا بإنسان قد خطفها من تحت رأسي وجرى، فقمت لأجرى خلفه فوجدت رجلي فيها خية بحبل طويل وقد ربطت في وتد، ودق بعيدًا من غير علم منى بذلك، فوقعت على وجهي، فأخذت الخية [1] والوتد ومشيت، فلما كان بعد ذلك رأيت شخصًا تحت رأسه كارة ظننت أو علمت أنها ورقى، فجعلت الخية في رجله ودقيت الوتد وخطفتها من تحت رأسه، فقام وجرى فوقع، فوجدتها كما خطر لي، فأخذتها وسافرنا إلى الليلة التي نصبح ندخل البلد التي عيالي فيها، فرقدت ونمت وجاء

(١) هي نوع من الأربطة.

ذلك الرجل وخطفها، فدخلت البلد بلا شيء معي لأولادي ولا لزوجتي وتألمت لذلك، قال: فلما دخلت على زوجتي وأولادي وقعدت ساعة وإذا بإنسان طرق الباب فكلموه فقال: الوديعة التي أودعتها لكم، فقامت زوجتي أخرجت الكارة التي كانت لي وخطفها من تحت رأسي، فأخذتها منها وفتحتها وأخرجت لزوجتي ثوبها ولأولادي كل واحدة ثوبها وألبستهم ثيابهم، وكان الحبل معي والوتد والخية فأعطيتها لزوجتي وقلت: أعطيها له فأعطتها له.

فانظر هذه الملاطفة اليسيرة في التناقض حتى لا يفرج بغير الله تعالى ولا يقف مع غيره ولا يرجو غيره ولا يخاف سواه.

وأعرف فقيرًا اتفق له مرة أنه دخل مرة مسجدًا في البَرِّ مهجورًا، فوقع في نفسه خشية من الثعبان، فحين حصل ذلك في نفسه سقط عليه ثعبان من سقف المسجد في حجره فرماه عنه، ثم لما خرج من المسجد وأتى إلى منزله وضع يده تحت بساط أو على بساط، وكان موضعًا نظيفًا، فإذا ثعبان قد شبّك بين أصابعه، وفهم من ذلك الإشارة بألا يخاف غير الله تعالى، وأن المواضع المؤنسة والموحشة حيث شاء الله تعالى بوقوع ما يشاء لا ينفعه الخوف ولا يدفع عنه شيئًا، وكل ذلك من الملاطفة في السلوك.

وأعرف فقيرًا كان إذا بدا منه شيء من الأحوال الناقصة في القول أو الفعل يؤلمه شيء من الآلام حتى يعثر في بعض الأوقات، ويحصل له في إصبعه ألم أو رجله أو في عضو منه وكل ذلك ملاطفات.

وأعرف فقيرًا كلما خطر له خاطر غير مستقيم يجرى من أنفه الدم أو يخرج من حلقه، وكل ذلك ملاطفات في السلوك إلى الله تعالى، والأقوياء يسلك بهم غير ذلك.
وقد قلت:

ولاطفتــني بــالأُنس حــتَّى وصــلتْني وعــرَّفتني كيــف التواصُــل والهجــرَا
فلا عـذرَ لي ان لم أمـتْ فيك عاشقًا ومـن لم يمـت عشـقًا فمـا بلـغَ القَـدرَا
ولا عـذرَ لي مـا لم أمـتْ فيـك مغرمًـا ومـن لم يمـت شوقًا فمـا بلـغَ القـدرَا
ولا عـذرَ لي إن مـت في نيـل وصلِكم ومــن أيــن لي أنى أرى أنّ لي قــدرَا

مــن لم يكــن شــيئًا ولا كــانَ ذكــرُه فأضحى بكم يعلو على غَيرِه فخرَا

مــن كــان عبــدًا مــن عبيــدِ عبيــدِكم ومن فقدَ بلغَ العَليا واستعبدَ الحرَّا

الأقوياء في السلوك

وأما الأقوياء في السلوك فيتحملون الطامات ويخوضون بحار الظلمات، ويوكلون المهالك وتضيق بهم المسالك، وهم في ذلك متزايدون، وفي النفحات النيّرات متواردون، لا يردهم عن طلبهم حداد السيوف، ولا توارد الحتوف، فلا يرجون جنانًا، ولا يحرقون بنيران، وهم طبقات على عدد الأنفاس، وبحسب سلوك الطرقات، فمنهم من يشتاق للبلاء والعذاب، ومنهم من يفر من الدار من النعيم مع الثواب، لأن خالص حبه لا يشوبه نعيم ولا ثواب وحقيقة مقصده لا لخوف حساب ولا عقاب، ومنهم من يظهر بعكس أحواله ويبدى خلاف نيته في مقاله ليدفع بذلك التهمة عن حاله، ويكون بين الناس على صورة تبعد في العادة عن الصلاح(١).

كما حكى عن الذي تعرض لثوب في الحمام وأخرج بعضه حتى مسكوه فسمي لص الحمام، فسكن في تلك البلاد وارتعد قلبه من التهمة بالصلاح فأبدلها بالفساد، وله في ذلك عذر إذا لم يجد صلاح قلبه إلا بذلك لتمكنه في سلوكه وقوته في طريقه، ومنهم من يسلك المهنة في الأعمال والتسبب بأسباب معايش الأرذال، كحكاية الذي رقص الديك في الأسواق، وقد ذكرناها.

مقام الذي لا يَرى ولا يُرى

ومنهم من كان في مقام الواقف، وسمعت الشيخ عبد العزيز يذكر هذا المقام وهو الذي لا يَرى ولا يُرى، وهو مقام جليل عظيم.

وعلى الجملة فلا يعلمهم إلا الذي خلقهم.

ومنهم من انطوى فيمن علم الله تعالى خبره ومخبره فمن أين للناس علمه؟ كما حكى عن **الخضر** عليه السلام أنه رأى شاباً في الجامع -ولعله جامع الشونيزية(٢)- مقنع الرأس، وعبد الرازق يتكلم على الناس، فجاء الخضر إلى ذلك الشاب وقال له: ألا تجلس في حلقة عبد الرازق؟ فقال: وما أصنع بعبد الرازق؟ فقال: تسمع كلامه وتنتفع

---

(١) قلت: وهذا حال الملامتية المكرمين.

(٢) الشونيزية: بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي وآخره ياء النسبة، اسم قرية في بغداد، بالجانب الغربي.

به فقال الشاب: فأنا أسمع كلام الله تعالى كل يوم إحدى عشر مرة، فلا حاجة لي بكلام عبد الرازق، فقال له الخضر: إن كان ما تقول حقًا فمن أنا؟ فقال: أنت الخضر، ثم طلبته فلم أره.

فهذا الخضر مع كونه نقيب الأولياء والذي تقدم لرتبة الشيخوخية من تقدم بمن يستحق ذلك خفي عليه أمر هذا الشاب وذلك في الاختبار في حق الخضر عليه السلام ليرد علمهم إلى الله تعالى مع اطلاعه كما ورد في قصة موسى عليه السلام، وسؤال بنى إسرائيل هل في الأرض أعلم منك؟ فقال: لا، فعتب الله تعالى عليه كونه لم يرد العلم إليه، فأوحى الله تعالى إليه: بل عبد من عبيدي أعلم منك. وقصته مشهورة مع الخضر عليه السلام بنص القرآن الكريم.

فهذا وأمثاله من اختبار الأكابر لجلالتهم عند الله تعالى، وكذلك قصة إبراهيم الخليل في ذبح ولده والابتلاء بجهاد الكفار وغير ذلك، وأما البلاء والاختبار العام للعموم بالإنذار والتخويف فقد جاء على لسان الرسول ﷺ ما فيه الكفاية عن من تقدم ومن تأخر، وفى كتاب الله تعالى من ذلك ما لا يحتاج إلى إعادة.

ظهور الآيات في كل زمان

وفى كل زمان تظهر الآيات كما كانت تظهر فيما تقدم في الأمم عند الفترات، ولما تقابلت الفترات فيما بين الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وكان في هذا الزمان فترات ما بين الأولياء، ووقع في كل زمان آيات عامة وخاصة ببلاد دون بلاد، بحسب كثرة الفساد وظهور العناد وارتكاب المحارم ولفوات النعم، فتظهر آثار صفة الغضب، فإن عجلوا بالإقرار والتوبة والاستغفار وحققوا الاعتذار ارتفع، وإلا وقع كما أجرى الله العادة في أن العذاب إذا أظل أمة من الأمم الكافرة لا يرفعه إلا الإسلام، فإن أبوا، فكما جرى في الأمم الماضية.

قوم يونس عليه السلام

وكذلك جرى ليونس عليه السلام كما وردت الأخبار والروايات لما خرج عن قومه بعد إظلال العذاب، ثم آمنوا فرفع عنهم العذاب فقال الله تعالى: ﴿**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا**﴾ [يونس: ٩٨] والقصة مشهورة.

عام الزلزلــة

وقد وقع في زماننا هذا من العذاب وقائع كبارًا عمّت أكثر البلاد، منها أن سيف التتار ملكوا أكثر بلاد الإسلام من العجم إلى العراق والشام ثم من بلاد الهند ولم يبق إلا ديار مصر حرسها الله تعالى، ثم وقع بديار مصر أثر غضب.

أعرف فقيرًا، أعرفه قبل وروده، وقد كان يخشى أن يكون سيفًا فرُحموا بكونه كان غلاءً وموتًا، وهو الغلاء الذي وقع بمصر وبلادها حتى أكل الناس الكلاب وأكل الكلاب الناس وجرى ما لا يخفى- وهى حالة مشهورة- ووقعت الزلزلة التي لم يقع مثلها في ديار مصر منذ خلقت الدنيا، وإن كان قد وقع في غيرها من بلاد الروم وغيرها في التواريخ، وقلع الحمل أيضًا بأرض الشام.

وسافر مسجد بأشجاره ونزل بمكان آخر وذلك ثابت عند الحكام ونسخته عندي.

وكل هذه آيات بينات، والناس عنها غافلون وعن مواردها لاهون، كأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون.

وأما الآيات الخاصة بكل إنسان في نفسه فذلك من أحوال المخصوصين السالكين.

وأما القضايا الخاصة بجماعة بلد أو قرية أو مدينة فلا يشهدها إلا من استبصر وتفقد ذلك ونحن والله نخشى الهلاك من نزول البلاء وعمومه فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال:٢٥].

وقول عائشة- رضي الله عنها- للنبي ﷺ «**أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث**[١]» ولقد كان ببغداد وبلاد العجم من الأولياء والصالحين ما لا يحصرهم العدد، وقد شملهم القتل ولا حولٍ ولاِ قوة إلا بالله العلى العظيم.

دعـــــاء

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، ولا

(١) رواه البخاري (١٢٢١/٣)، ومسلم (٢٢٠٧/٤).

نحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

إلهنا، بك نعوذ واليك نلجأ ونلوذ، وعليك نتوكل في الشدائد، يا غياث من لا غياث له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا كنز من لا كنز له، يا الله يا الله يا الله، أكفنا سوء العذاب والعقاب، واجزل لنا خير الثواب مع حسن المآب، إنك الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ولقد خشينا الهلاك والدمار.

إلهنا، لا تعذبنا بذنوبنا ولا بما فعل السفهاء منا، ولا تعاقبنا بما عاقبت به من خالفك من غيرنا ولا من أنفسنا، فقد أمرتنا فخالفنا، ونهيتنا فارتكبنا، ولا عذر في ذلك لنا، لك المعذرة عنّا، اللهم تب علينا توبة من أحببته وأناب إليك، وقبلته فالتجأ إليك، وكنت له عونًا في كل حالة، فتوكل في كل الأحوال عليك فإنك أكرم الأكرمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ولتعلم يا أخي أن الله تعالى قد قال في كتابه العزيز: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داود وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة:٧٨،٧٩]، والحديث: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنَّكم الله بعذاب من عنده ثم تدعون فلا يستجاب لكم**[١]».

واقعة تاريخية
تحكي سبب ضعف المسلمين

وقد عمَّت المنكرات واشتدت البليّات، لا سيما في ظهور كلمة النصرانية على الإسلام، ومن أبطن الكفر وأظهر الإسلام ووجدوا لهم على ذلك أعوانًا، ولم ينكر عليهم في ذلك اثنان حتى رفعوا الرايات والصلبان وطيف بذلك في مدينة قوص في عُرس بعض النصارى بالطبول والزمور وبأيديهم الأطباق وقناني الخمور.

وضرب إمام الجامع وشق طيلسانه، واجتمع المسلمون بقوص ثم بالميدان وكتب على النصارى مكاتيب بما يجب في الشريعة المطهرة وما حده أمير المؤمنين عمر بن

(١) رواه أبوداود (٤/١٢٤)، والترمذي (٤/٤٦٨).

الخطاب وكانت فد جرت واقعة في الدولة المنصورية، أيام الباشا لاجين- رحمه الله تعالى- وعقيب هذه الواقعة زالت الدولة وقتل السلطان ونائبه منكوتمر وكان فقير رأى رؤيا كأن شجرة وقلعها، فزالت الدولة عقيب الرؤيا.

ولما كان في هذه الأيام زادوا استطالة واستكبارًا، وقام لهم في نصرتهم أعوانًا وأنصارًا، وقبل ذلك بأيام خربوا مسجدا في أماكنهم وبين كنائسهم ومساكنهم، ولم يُؤاخذوا بذلك ولا كلموا، حتى إذا قيل أن النصارى يفتحون الكنائس، وأن نصرانيًّا أتى ومعه من يشد منه في ذلك، وعبروا والمسلمون في الأسواق، وقيل أنهم قد فتحوا كنيسة بالطبول والزمور والأبواق، وضرب جماعة من المسلمين لكونهم تشوشوا لذلك، فحصل عند العوام من الغيرة على الدين ما كان، من ذلك ما سمع أن شخصًا قام غير معروف، فنادى بالجامع بقوص بعد صلاة الصبح ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد:٧،٨].

يا مسلمين، الجهاد في سبيل الله، الصلاة في هدم الكنائس.

فخرج الناس على وجوههم، وكان صبيحة يوم الأحد وهو سوق البلد، يجتمع إليه أهل البلاد والغيطان من كل ناحية ومكان، فساحوا على الكنائس وهدموا العامر منها والدارس إلى ساعتين من النهار- ولم يكن ذلك في قدرة الإنسان ولكنه أمر سماوي وسر إرادي أخمد الله تعالى به كلمة الكفار وعبدة الصليب في الأمصار.

وكل ذلك وفقراء الرباط المستجد بساحل البحر بمدينة قوص عن ذلك غافلون، ووقع ذلك وهم لا يعلمون، إلى أن حضر من أخبرهم بذلك وهم مجتمعون بعد قراءة أحزابهم وعندهم جماعة مجتمعين، ثم حضر ناظر البلاد ونائب الولاية وأخبر بتحقيق ذلك، فسأل سائل من الفاعل لذلك والقارئ بالجامع؟ فلم يعرفوه وعن الذين هدموا فلم يميزوه من كثرة الناس فسُرَّ بذلك من أثبت الله تعالى الإيمان في قلبه، وغضب له من كان من جنس الشيطان وحزبه وجعل حزب الله تعالى وأهل الإيمان يستدلون على سرورهم بزوالها بالدلائل والبرهان.

فمن قائل منهم أن البلاد فتحت عنوة وهو الصحيح من مذهب الشافعي ﷺ ومذهب الإمام مالك ﷺ وما فتح عنوة فكنائسها وبيعها وأملاكها كلها بأسرِها

ودرهمها ملك لبيت مال المسلمين، وعليه فتوى الشيخ الإمام نجم الدين ابن الرفعة.

وحكى الشيخ نجم الدين في كتابه المعروف بـ«النفائس» عن الشيخ الإمام قاضى القضاة تقي الدين القشيرى- رحمه الله تعالى- أنه حكى عن مدونة مالك ﵁ أن البلاد فتحت عنوة ووافقه عليه جماعة من العلماء.

ومن قائل: إن أماكن يكفر بالله تعالى فيها ويكذب رسول الله ﷺ فيها ليلاً ونهارًا وعشيًا وإبكارًا كيف يجوز إتيانها؟ مع ذلك ولا يزول هذا الكفر إلا بزوالها ومذهب الإمام أبى حنيفة ﵁ أنها لا تكون كنائس إلا مساكنًا.

ومن قائل: إن النصارى لا عقد لهم؛ لأن العقد في آبائهم وأجدادهم الماضين لا يلزم أن يكون لهم عقدًا، فيلزمهم تجديد العقد، ولا يجوز إدخال الكنائس والبيع لهم في العقد. وهذا قول في مذهب الإمام الشافعي ﵁.

ومن قائل: إن الشروط التي اشترطها عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ قد خالفوها أو خالفوا أكثرها، وفى عقده فإن خالفوا شيئًا منها فيما شرطوه فلا ذمّة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق، وهم للشروط مخالفون وبالمعاندة مجاهرون وعلى المسلمين يتطاولون، وذلك مشهور من أقوالهم وأفعالهم وزيهم ولباسهم ومساكنهم وجميع أحوالهم الظاهرة وما أبطنوه أكثر مما أظهروه؛ لأنهم يخالطون الأمراء والأجناد وملاك البلاد فيقوون بذلك على الغدر والأذى فيتمكنون من أذى المسلمين في كل باد وواد، ويظهرون لولاة الأمر النصح في أجنادهم وما يحسبونه بهم من التحصيل ويرتبوا لهم من الأباطيل ويأكلون أموالهم وهم في صحبتهم لهم غاشون، وفيما أظهروه لهم من الحق مبطلون، حتى استولوا على أذى المسلمين في أنفسهم وجزعهم وأموالهم ويدسون بذلك إلى بلاد العدو ويبشرونهم بذلك ويطلعونهم على عورات المسلمين من جميع الطرق والمسالك، فإن شرط لهم مشروط أو عقد مربوط، وهذه قضايا أوضح في دليلها من النهار الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وأظهر من الشمس للعيون والأبصار.

فأما من كان للنصارى مواليًا وفى نصرتهم متفانيًا فهو يميل إلى أضعف الأقوال، ويرفض الحق بالتأويل، ويركن إلى المحال، فتراه يقوى الأقوال الضعيفة ويرجح الآراء

السخيفة ويقول: إن البلاد فتحت صلحًا وكانت بها كنائس وأقروا عليها ولم يملكوها ولا جعلوا أيديهم عليها.

وهذا الكلام مردود على قائله، ومقيم للحجة على سائله.

وإن قيل أن ذلك قد وقع ثم انتقض ولا حجة له فيه ولا عذر له فيما يقيم به الدليل ويلقيه، ولو كانت البلاد فتحت صلحًا لكان ما بأيدي الملوك الإسلامية من البلاد والقلاع والحصون والأجناد من الأملاك ملكًا للنصارى، ولم يكن عليهم إلا الجزية كما كان في غيرها من البلاد التي وقع الصلح عليها في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، والفتح إنما كان في زمن عمرﷺ، فكيف يفعل عمر ﷺ ذلك؟ ويجعل البلاد للقائمين وجعل منها مدفنًا للمسلمين ويكون ذلك للنصارى؟

وإن قيل أنه أقرهم على الكنائس دون غيرها من البلاد والأملاك والدنانير أو الدراهم، وإما أن تكون فتحت عنوة -وهو الصحيح - فلا يجوز إقرارهم عليها وهى ملك للقائمين، ولو أقرهم على ذلك لما جاز لهم، وللزمه الأجرة في إبقائها ويجب زوالها، وإن كان ذلك برضا من المسلمين فهذا وجه بعيد أن يكون المسلمون مع شدتهم في الدين وقدمهم من عصر نبيهم ﷺ يجمعون على إبقاء منازل يكفر بالله تعالى فيها ويكذب نبيهم ﷺ بها بكرة وعشيًا، وإنما حرصهم على إقامة الدين المتين، وأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، والإسلام به يعلو فلا يُعلى عليه فتكونون قاهرين مقهورين وهذا غير مستقيم.

وإما أن تكون على دعواهم فتحت صلحًا، وإنهم أقروا الكنائس، وإنها قديمة، وإن الإمام أقرها، والمسلمين رضوا بذلك يلزمهم حينئذ البينة، وأن يثبتوا ما ادعوه؛ لأن البينة على المدعى واليمين على من أنكر، هذا مع ظهور بطلانه من الوجوه الصحيحة، ومن المستحيل أن تقوم البينة بذلك، ومن شهد بذلك فهو فاسق مجاهر بشهادة الزور.

فإن من علم من الناس أن عمره خمسون أو ستون سنة فيشهد شهادة من ألف سنة أو خمسمائة سنة فلا يحتاج في مجاهرة هذا بالكذب والبهتان إلى دليل ولا برهان، ويجب تأديبه وإسقاطه، ولا يحل قبول شهادته، وأما ما هو معروف من العوائد وتحقيق الشواهد.. أنّا نرى بنيان الملوك المتقنة بالحجارة والجص وغيره قد يفترق في المدة القريبة

وفى كل وقت يصلحون فيها، كالقلاع والحصون المتقنة وغيرها من الأملاك، وتنهدم فيما دون المائة سنة وقوتها، وأما أملاك الناس الذين هم العامة الذين لا يقدرون على ما يقدر عليه الملوك فما تمسك في هذه المدة، بل تنهدم وتضمحل، فإن جدَّدوها وإلا آلت إلى الخراب، فكيف بالكنائس وهى من الطوب اللبن والطين؟ فكيف تكون من ألف سنة ما تغيرت ولا تبدلت ولا انهدمت على الجملة؟

فقد صنَّف الفقيه نجم الدين مفتى المسلمين ابن الرفعة في ذلك مصنفًا يسمى بـ «النفائس في الأدلة على هدم الكنائس»، وصنف غيره[1] ووافق على ذلك من علماء المسلمين بمصر والشام بلا حاجة إلى تكثير الكلام، وقد كان القضاة والحكام في ذلك الوقت إذ توالد في الحكم وتوقف واحد منهم، ولو حكم بالهدم في ذلك الوقت لاستراح المسلمون، ولكن المشيئة لله سبحانه و تعالى في امتحان قلوب المؤمنين للتقوى ﴿**حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [آل عمران:١٧٩].

اتفاق القضـــاة على غلق الكنائس

ووقع اتفاق القضاة الجميع بمصر والقاهرة المحروستين على غلق الكنائس، وكان ذلك في أول الدولة الناصرية والعزمة الركنية والسيفية والأمراء المنصورية، أعانهم الله تعالى على نصر الدين القويم وسلوك الصراط المستقيم، وأصلحهم للرعية وللإسلام، ونصر بهم جيوش المسلمين وعصابة الموحدين.

ثم لما تطاول الأمر في غلق الكنائس وأيس المسلمين من إبقائها مع خرابها وسدها، وتمّم من تمّمَ من النصارى والمساعدين لهم على مقاصدهم الخبيثة، وجرى بقوص ما جرى من هدم الكنائس لما قصد من قصد من النصارى فتحها، كما تقدم الكلام فيه.

وكتبت محاضر شرعية بما اتفق في الجامع بمدينة قوص، وسيرت إلى الأبواب، فحضر النصراني إلى قوص، ووالي الناحية، ومسك الوالي جماعة فقام المسلمون وخرجوا إلى الساحل بالبحر بأعلام الخطابة ومصاحف القرآن العظيم والرجال والنساء

(١) مثل الشيخ الدمنهوري في «الحجة الباهرة في وجوب هدم كنائس مصر والقاهرة»، والسبكي في فتاويه، والطوفي في الانتصارات الإسلامية، والقرافي في أدلة الوحدانية.

والصبيان، وكان يومًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا، فراحوا إلى ساحل البحر يعلمون من كان النصراني عنده فوقع بعض المصاحف.

وراحوا إلى دار الولاية من ظاهر الميدان ومعهم من شنع لهم فرجمهم الغلمان كما أخبر من حضر من العدول وغيرهم من الأجناد، فرجم العوام الغلمان، فخرجت مماليك الوالي وضربوهم، ورميت المصاحف على الأرض والأعلام، وكسرت أقفالها وضرب حاملها، وجرجرت العدول على أسوأ الأحوال، ولم يجدوا لهم ناصرًا.

وجاء بعضهم إلى الرباط بساحل البحر وهم يستغيثون ويبكون وإلى الله تعالى يتضرعون على أنهم تخلوا عن البلاد لما رأوا من سوء المقام على هذا الفساد، فكلمهم من كان في الرباط وسكن روعهم وبعضهم مضروب، وبعضهم مجروح والمصاحف ملقاة مكسرة، ولم يُصلَّ بالجامع الظهر ذلك اليوم، وكانت الناس في شدة، وقال لهم: هذا الأمر فيه أجرٌ كبير على الصبر على الأذى إذ كنتم رجوتم خلاص من لا ذنب له تشفعون.

الامتحَـــــان في سبيل الله

وقد لقي الصحابة -رضوان الله عليهم- في الله تعالى أكثر من ذلك حتى سكتوا ورجعوا إلى بيوتهم، ثم بعد ذلك عمل على المسلمين من أبطن من أبطن ما أبطن، وخُوّف الحاكم والوالي وأجمعوا في الباطن خلاف الظاهر، وقام من له غرض وفى قلبه مرض وكتبوا بخلاف ذلك، ولبسوا على الدولة المنصورية الناصرية والأمراء المنصورية بأنواع من الحيل وبرهات من الكذب، حتى طلع الأمير وأوهم الناس أن السلطان يقصد قتل الجميع، ونزل على البلد وقصد أن يشهد أحد على من كان السبب في ذلك أو من قرأ في الجامع تلك الآية، خرج الناس فلم يجدوا أحدًا يشهد بذلك إلا الصورة التي عملت أولاً.

فعند ذلك عمد الوالي إلى شخص كان رقَّاصًا بدار الولاية، وامرأته تبيع الحشيش، فعاد يسمى لهم من يقصدونه، وعمد إلى شخص مسلم في عريف الدَّباغين يسمى لهم من يقصدونه، ووقع في الناس البلاء واشتد الامتحان ومسك من مسك، وأطلق من أطلق، وهرب الناس بالحريم إلى البلدان، وكان ذلك أقسى عليهم من فتح

الكفار بلاد الإسلام، وهجم الرقّاصون والأعوان، واستولى على المسلمين حزب الشيطان، وارتفع منار الصلبان، وأهين الفقراء وحزب الرحمن، واشتد غضب الله تعالى على من أهان دين الإسلام ورفع منار الصلبان.

ورؤى رسول الله ﷺ في المنام قبل ورود هذا الأمر، وهو واقفٌ متأهب لما ينزل من العدو على المسلمين والألم ظاهر عليه- رآه رجل مشهور بالصلاح ولم أحقق ما قصد في الرؤيا- وأقام هذا الأمر سبعة عشر يومًا والناس في أشد الأحوال من الخوف وهجاج العيال والأطفال، وهجم البيوت على الحريم وشتاتهم في البلدان وفى كل مكان، وداخلهم من الخوف والروع ما لا يوصف، وكل من مُسك ما يدرى ما يُفعل به، ولا ما يئول حاله إليه لما ألقى في قلوبهم من ذلك.

حتى إذا التمسوا من التمسوه وأطلقوا من أطلقوه وفعلوا في أذى المسلمين ما تخيروه، وحققوا ما يفعلوه، وفعلوا ما قصدوه، نصبوا سبع عشر خشبة للصلب، وخصصوا جماعة الفقراء دون غيرهم، ولم يكونوا ممن هدم كنائسهم -ومنهم من لا حضر أصلاً- وأحضروا من كان عليه جناية القطع وقطعوهم بحضرة الفقراء، وقدموا الفقراء للشنق قبل الضرب، ثم ضربوا كل فقير أربعمائة وسبعون -وذلك ما ذكره لي الفقراء المضروبون- وجرسوهم على الحمير بحضرة من النصارى على ما ذكر الناس، وهم إلى الله تعالى مبتهلون وإليه راغبون، ومن هذه النازلة العظيمة وجلون، ومن نزول عذاب الله تعالى خائفون.

وكان ذلك من بعد الصبح إلى أن ارتفع النهار، وكل ذلك ولم يثبت على واحد منهم أنه هدم شيئًا من الكنائس ولا قرأ الآية بالجامع، حتى أنهم ضربوا شخصًا من أهل القرآن مشهور بالصلاح من الفقراء ليقرءانه الذي قرأ، ولم يكن قصدهم إلا أهل الدين ومن عرف أنه من الصالحين وإعلاء كلمة الكفر على المسلمين، حتى أن الذين هربوا من البحارة والحرافيش والعامة الذين هدموا الكنائس حاضرين، ولم يطلبوا منهم أحدًا.

وكان الحاكم قد قال قبل ذلك: من أخذ شيئًا من الخشب أو آلة الكنائس فليحضره، فأحضر جماعة كثيرة ما أخذوه وكتبوا أسماءهم ولم يطلبوا إلا الفقراء ليفعل الله

تعالى ما يشاء.

طلب صاحب الرِّباط

وعند استكمالهم هذه المصيبة العظمى والبلية الكبرى طلبوا صاحب الرباط المستجد على ساحل البحر وقالوا: إن السلطان طلبك، فخرج من وقته بعياله، وسافروا سفرًا عنيفًا حتى أنه لم يدعهم يأخذون الخبز من الفرن ولا وجدوا كوزًا يشربون فيه ولا زبدية إلى منفلوط، هذا مع كونه لم يخرج من مكانه إلا لصلاة الجمعة، ولم يكن أحد من أصحابه حاضر معهم، وكل الناس من أهل الناحية بذلك عالمون وله محققون، وجماعة كانوا عنده يوم الواقعة بذلك يشهدون، وإنما كان القصد من هذا الأمر مفهوم، ونصره من قصد نصرته النصارى معلوم<

وقد قلت:

قل للذين نصَرُوا الصلبان ويحكمُوا ... خسرتُمُوا صفقةَ الدنيا مع الدين
عاديتم الله في أحبابِه سفهًا ... وفي موالاةٍ إخوانِ الشياطين
إن لم يكن لكم السلطانُ يَردعُكم ... ولم تخافوه في وقتٍ ولا حين
لا تعجلون فإن اللهَ خالقُنا ... سلطانُه فوق سلطانِ السلاطين

فلما وصل إلى القلعة المحروسة، وكان السلطان عزّ نصره والأمراء نصرهم الله تعالى في الصيد، وكان أعداء الدين ومن أقام نفسه لنصرة دين الصليب قد احتالوا كل الحيل والمكائد، وعملوا في هلاكه وذهاب نفسه ذخائر وأموالاً، ونسوا نصرة الله تبارك وتعالى، وكل ذلك ولا ناصر ينصره ولا معين يعينه.

وقد كان أقوام يقصدون إهانة من هو في زى المسلمين والمؤمنين وعصابة الموحدين، والناس مع ذلك عن نصرة دينهم غافلون، وعمّا وقع من هذا الأمر العظيم لاهون، كأنهم لا يسمعون ولا يعقلون، ولم يظهر لإنكار ذلك واحد، ولا قام به قائم، ولا قعد له قاعد، وبقى الأمر على ذلك مستديم، ﴿**ويحسَبُونه هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ [النور:١٥].

ولما أدخلوه البرج في أول طلوعه وجد لذلك انشراحًا في صدره ونورًا في قلبه،

وقد كان محتاجًا إلى ذلك، وأن يسلك الله تعالى به في الجهاد في سبيله هذه المسالك، ثم أخرج إلى المسجد وهو بحمد الله تعالى قوي الجنان متزايد الإيمان، قد أخذ نصيبًا من الابتلاء، ومن ميراثه من البلاء.

وقوله ﷺ: **«نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً والأمثل فالأمثل[(١)]».**

فلما وصل السلطان -خلّد الله تعالى ملكه- والأمراء قابلوه بالإكرام والإحسان، وأحسن كل منهم بما هو اللائق به مع ما أن أوحى إليهم من الكذب والبهتان وما زينوه لهم مما رتبه المزين لهم الشيطان.

وكان طائفة أهل الزّنار بأعوانهم وأوليائهم الكفار قد شرعوا في فتح الكنائس في البلاد، وأظهروا للملّة الإسلامية والدولة الناصريّة العناد، واستولى بذلك في الأرض الفساد، فجمع الأمراء والسلطان القضاة والحكام على ما يسوغ في أمر الشرع الشريف، وأن يُجمعوا كلهم على ذلك بالتحقيق، وحسن الوضع والسلطان والأمراء بحمد الله تعالى في غاية ما أن يكون، وإلى ما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ متبعون.

ثم اتفق رأيهم على أن يقفلوا بأمر السلطان والأمراء جميع الكنائس في البلاد، وسافروا إلى كل ناحية وباد، ولم يبق إلا كنيسة واحدة بمصر المحروسة، ولو اتفقوا على هدمها لهدموها بأجمعها، وعلى قتل النصارى لقتلوهم، ولكن لله تعالى في ذلك تدبير، وأن يكون ذلك في زيادة الشقاء لهم في التأخير، وأن يسعد بعداوتهم والجهاد فيهم من أسعده الله تبارك وتعالى في العدم، ويشقى بشقاوتهم وموالاتهم من كان من الأشقياء في سائر الأمم.

الشهادة الباطلة بقدم بناء الكنائس

وقد كان أقوام قد شهدوا قبل ذلك بأيام بأن كنائس اليهود بالقاهرة المعزية قديمة البناء، وأنها بأيديهم وأيدي آبائهم من قديم الزمان، ولم يعترض عليهم في ذلك قضاة ولا حكام، ورسموا شهادتهم بذلك، وسلكوا في ذلك أقبح المسالك.

ورأيت الأمراء حرسهم الله تعالى من ذلك سالمين، وعن حجج أفعالهم لائمين،

---

(١) تقدم تخريجه.

ولو تُركوا لعجلوا لهم بأسوأ العقاب، ولنوّعوا في جنس عذابهم أنواع العذاب، وهم والله في ذلك معذورون، وفيما غبطوا به عند الله تعالى مأجورون.

وكانت الشهود الذين رقموا شهادتهم تسعة رهط، وهم للتسعة رهط مقابلون، وفيما فعلوه متهمون. وقد قال الله تعالى عن التسعة من قوم صالح عليه السلام: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ**﴾ [النمل:٤٨].

وهذه الشهادة التي لا يشك أحد من المسلمين في بطلانها وزورها، ولا ممن له عقل من غير المسلمين في كذبها وفجورها أن القاهرة المعزية بناها المعز لدين الله تعالى، والقاهرة محدثة في نفسها، والمغاربة في دين الله تعالى أقوياء، وفتحوا فتحًا وعمّروا لأنفسهم بلدًا في مكان قد اختاروه لنفسهم ووضعوه موطنًا لهم، فمن المحال أن يختاروا مكانًا معمورًا بالكنائس مع شدّتهم في الدين ونصرتهم للمسلمين.

فالكنائس لا تخلوا إما أن تكون حادثة فشهادتهم بقدمها باطلة ظاهرة البطلان، وإما أن تكون قديمة فيجري فيها البحث الأول كما تقدم وكان، فمن أين لهم أن يشهدوا عمّا لة ألف سنة وأعمارهم ما بين الخمسين والأربعين أو الستين والسبعين؟ فقد أتوا بأقبح التشنيع، ورموا أهل خرقتهم بأقبح أنواع البدع مع ما نسبوا فيه لفتح الكنائس اللاتي يكفر بالله تعالى فيها، ويُكذَّب رسوله ﷺ فيها، والرضا بالكفر كفر، وما كان سببًا للكفر فهو كفر.

وإن كانوا قد علموا ذلك مع التهمة العظيمة والشهرة الفظيعة.

صُرّة اليهودي

فلقد أخبرني قاضي القضاة شمس الدين الحنفي السروجي -حرسه الله تعالى وأدام بركته- أن رئيس اليهود أخرج له من تحت برنسه صرة كبيرة من الذهب في ذلك الوقت، وأن القاضي حرسه الله تعالى زجره وأراد إهانته وأخرجه إخراجًا عنيفًا، وأعز بذلك الدين أعزه الله تعالى وأهان من أهان دينه ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج:١٨].

وبلغ ذلك الأمراء، وتحدث الناس في ذلك، فمنهم من يقول هي أربعة آلاف، ومنهم من يقول هي دون ذلك.

فيا ليت شعري، ما الذي ألجأ الشهود إلى ذلك؟! أتراهم يتبرعون لهم بالشهادة إن لم يكونوا منتمين كما ذاع وشاع؟

ولقد أخبرني شخص أن اليهود وزعوا على أنفسهم توزيعًا في فتح الكنائس، فكان عن كل واحد نيف وثلاثون درهمًا مع كثرتهم بمصر والقاهرة المحروستين، ولولا خشية من كثرة العار في الدين وإن كان قد وقع كما قيل:

وقد قيلَ ما قيلَ إن حقًّا وإن كذبَا فمَا اعتذارُك من قولٍ إذا قيلَ

وكنت أذكر من فتح هذه الواقعة ما يسد المسامع، ولو تركوا المراء بذاتهم لفعلوا بهم ما يجب فعله عن فعل ذلك ﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [المنافقون:٤] فقد زال من نفوس ملوك الدولة حرمة هذه الطائفة لسوء الفعال.

وقد كان قاضي القضاة شمس الدين السروجي- حرسه الله تعالى -قصده الستر فمنعهم عن الشهادة مدة، وخشي من فتح الأحدوثة ودوامها على هذه الطائفة، وأن يتسع الخرق في أمرها فتشاور الأمراء على رجوعهم و الله تعالى أعلم، هل تابوا توبة صحيحة أم لا؟ وهل قبل الله تعالى توبتهم أم لا؟

ثم بعد ذلك بلغنا من العدول الثقات أن النصارى فتحوا الكنائس ببلاد منفلوط، وشهد بذلك جماعة من العدول وكتبوا به مكتوبًا، ولم يجد من ينتصر وفي غيرها من البلاد، وذلك لأن لهم أولياء وأنصار ينصرونهم في مجالس الملوك والأمراء والحكام، ويدلسون على الدولة وينممون عليها في أمرهم، ولم يراقبوا الله تعالى ويخشونهم ولا يخشون الله، وهم في الظاهر مسلمون وليسوا في الحقيقة مسلمين.

الولاء والبراء في الله

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة:٥٧].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

فمن كتب الله تعالى في قلبه الإيمان وأيدهم بروح منه لا يوادهم ولا يحابيهم ولا يصاحبهم ولا يقاربهم ولا يشاورهم ولا يباطنهم.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران:١١٨].

فهل من بعد بيان الله تعالى بيان؟ وهل من بعد ما قصه الله تعالى وذكره في القرآن قرآن؟ وهل من بعد آياته ودلالته دليل أو برهان؟

فما بالكم بكتاب الله تعالى لا تؤمنون وبآياته لا تصدقون، وبما ظهر من الآيات البينات في هذا الزمان لا يعتبرون، ﴿**أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ**﴾؟ [الطور:١٥] ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [التكاثر:٣،٤].

نـــــداء للمؤمنين:

أيها المؤمنون بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والمظهرون الإسلام والمخالفون بأفعالهم وضمائرهم، ويا أيها الذين أوتوا الكتاب وأهل الخرقة والدين الذين لم ينكروا عليهم.

أما تخشون أن يعم البلاء لعدم الإنكار؟ أم لا اعتبار بما تقدم في غيركم من الأمم الماضين من العذاب وخراب الديار؟.

أما تتقون من الفتنة المهلكة لطائفة الأبرار مع الفجار وقد ظهرت بعض الآثار وأنتم في غفلة عنها؟ ولاح برق المنايا وأنتم عمون عنها، فما بالكم لا تنظرون إلى تعاون أعدائكم على الإثم والعدوان وأنتم على البر والتقوى لا تتعاونون؟ ويتناصرون في دينهم وأنتم في دينكم تتخاذلون؟ وتؤذون بعضكم ببعض وأنتم لهم في ذلك موافقون؟.

أما تخشون أن يكون الله تعالى قد غضب الغضبة الكبرى وأنتم لا تشعرون؟ وأن يحيط بكم العذاب وأنتم لا تعلمون؟ لقد ساء والله ما تحكمون أم أنتم كما أنزل الله تعالى في كتابه لمن كان قبلكم سامعون ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ* إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ**

أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠].

أما سمعتم قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داود وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨، ٧٩].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أما ورد عن نبيه ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده ثم تدعون فلا يستجاب لكم**[١]».

والحديث الذي ورد: «**إذا ظهرت البدع وسكت العالِم فعليه لعنة الله**[٢]».

والحديث الذي ورد أيضًا: «**أنكر بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الإيمان، ليس وراءه من الإيمان حبة خردل**[٣]».

والدليل على أنه أضعف الإيمان قوله تعالى: ﴿**لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ**﴾ [الحشر:١٣]، وذلك أن الشخص الذي يصدر منه المنكر يكثر عنده ولا ينكر عليه، فلو عظمت شعائر الله تعالى في قلبك، وكان الله تعالى أشد رهبة في صدرك لأنكرت عليه، فلما كان الشخص أشد رهبة كان إيمانه بذلك منكم أشد والله أعلم.

أما ورد الحديث «**إن الله تعالى أوحى إلى جبريل** عليه السلام **أن اخسف بقرية كذا، -وسمَّاها- فقال: يا رب، إن فيهم عبدك فلان، لم يعصك طرفة عين قال: اقلبها عليه وعليهم، فإنه لم يتمعر فيّ يومًا قط**[٤]».

وفي حديث داود عليه السلام: «**يا داود، أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت لنفسك الراحة، وأما انقطاعك إلى فقد تعززت بي فهل واليت في وليًّا أو عاديت**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الربيع في مسنده (١/٣٦٥).

(٣) رواه مسلم (١/٦٩).

(٤) شعب الإيمان (٦/٩٧).

فيَّ عدوا[١]».

دُعَـــاءٌ ومناجاة

اللهم إنا قد عادينا فيك أعداءك من الكفار والنصارى واليهود وأعوانهم وأنصارهم وأوليائهم.

اللهم انصرنا عليهم، اللهم ابطش بهم بطشك الشديد، وخذهم أخذك المبيد يا مبدئ يا معيد يا فعال لما يريد.

اللهم اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

اللهم وهذه العصابة المحمدية التي هي كالنقطة البيضاء في البحر الأسود، قد اشتد عليها البلاء وتزايد عليها الأعداء وهم قوم ضعفاء.

اللهم كن أنت ناصرهم ومؤيدهم.

اللهم إن الطائفة التي انتسبت إليك وإني لأقلهم وأنت بي أعلم مني، وأعصاهم وأنت لي أستر من نفسي على نفسي، قد نزل بي وبها ما أنت أعلم به من الإيذاء والإهانة في سبيلك من غير تقدم ذنب لمن آذاهم، وقد أشهروا من انتسب إليك لجل أعدائك، وأحضروني على ما علمت لنصرة للكفار على دينك ودين نبيك ولا ناصر لنا غيرك ولا رجاء لنا سواك ولا معبود لنا إلا إياك، وقد ورد عنك أنك قلت: **«اشتد غضبي على من ظلم من ليس له ناصر غيري[٢]».**

اللهم إنّا قد ظُلمنا فيك، وأوذينا في سبيلك، ولك المنة علينا في ذلك، وقلوبنا متألمة من أعدائك ومنكسرة لأجلك، وقد ورد عنك أنك قلت:

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٨٤)، والطبراني في الأوسط (٢/٣٤٥)، والخطيب البغدادي في التاريخ (٣/٢٠٢)، وابن قدامة في المتحابين في الله (ص٣٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/٦١)، و ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢٠٦).

«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي[١]».

اللهم عجل لنا بالفرح والسرور والنصر والفتح والحبور، ولأعدائك وأعدائنا بالمجازاة والدمار، وانصر دينك وارفع كلمتك في الإسرار والإجهار.

فقد ورد عن نبيك ﷺ أنه قال: **«إن الله يغار، والمؤمن يغار[٢]».**

إلهي، أين كانت عزتك عند ذلّنا؟ وأين كانت سطوتك عند قهرنا؟ وأين كانت قوتك عند ضعفنا؟ وأين كانت غيرتك عند نسبتنا إليك؟

إلهي، إن أدنى أدنى من عندها من العبيد وسواس الدواب والعرب تقتل في الغبرة وفي الجوار ومن يلوذ بهم، إلى ضرب الرقاب والفناء والذهاب، فكيف بك وأنت ملك الملوك ورب الأرباب، وقد اشتد علينا الأمر وضاقت الصدور، وبلغت القلوب الحناجر، ولا لجوء إلا إليك، ولا متكل في كل حال إلا عليك.

وقد قال أحدهم فيمن التجأ إليه:

أأظمأُ وأنتَ العذبُ في كلِّ موردٍ ... وأُظلم في الدُّنيا وأنتَ نَصيري

وعارٌ على حامي الحمَى وهو متخذٌ ... إذا ضلَّ في البيَدا عقالُ بعيرِ

إلهي، أنت المنزه عن المثال وضرب الأمثال، وقد قال عبد المطلب حين قال له أبرهة أتسألني في مائتي بعير ولا تسألني في البيت الذي به شرفكم؟ فقال له: أما الإبل فإني ربها، وأما البيت فله رب يحميه[٣].. فقال: ما كان يحميها مني، فجاء واحد بحلقة باب الكعبة وقال: اللهم إن العبد يحمي رحاله فاحم رحالك.

وقد قيل:

فؤادٌ لا يَقَرُّ له قرارُ ... وأجفانٌ مدامعُها غزارُ

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص٧٥)، وابن أبي الدنيا في الهم والحزن (ص٥٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥١٩/١)، والشيخ الشعراني في العهود المحمدية (ص١٨٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢٣٤/١) بنحوه.

(٢) رواه مسلم (٢١١٤/٤)، وابن حبان (٥٢٨/١).

(٣) ذكره العجلوني كشف الخفاء (١٨١/٢).

وهــمٌ قــد طويــتُ عليــهِ كشــحًا فنشــبَّت منــه في الأحشــاءِ نــارُ
وليـــلٌ طـــالَ بالإنكـــارِ حـــتَّى ظننـــتُ الليـــلَ لـــيس لـــه نهـــارُ
وهـــل لا والتقـــى حُلـــت عُـــراهُ وبـــانَ علـــى بنيـــه الانكســـارُ
لتبـــكِ علـــى الـــدينِ البـــواكي فقـــد أضـــحت مواطنُـــه قفـــارُ
وقـــدْ هُـــدِمت قواعـــدُهُ اعتـــداءً وزالَ بـــــذلُكم عنـــــه الوَقـــــارُ
وأصـــبحَ لا يُقـــامُ لـــه حـــدودٌ وأمســـى لا يَبـــينُ لـــه شِـــعارُ
وعـــادَ كمـــا بـــدا فينـــا غريبًـــا هنالـــك مـــا لـــه في الخلـــقِ جـــارُ
وممـــا هـــيَّجَ الأحـــزانُ عنـــدي وصـــيَّر فكـــرتي أبـــدًا تَحـــارُ
لعمـرُك مـا جـرى بصـعيدِ مصـرَ مـــن الأمـــرِ الـــذي فيـــه اعتبـــارُ
وذاك بـأنَّ أوبـاشَ النصـارى بقُـوصٍ قـــد اعتـــدَوا وطغَـــوا وجـــارُوا
وقـــد هـــدُّوا مســـاجدَنا اعتـــداءً فـــلا ديـــنَ يُقـــام ولا أذكـــارُ
وقـــد نقضُـــوا عهـــودَهم جِهـــارًا وعـــابُوا في البريَّـــةِ واســـتثارُوا
وقـــد جحـــدوا شـــروطًا التـــزموها وأســـرُّوا في العـــداوةِ ثم ســـارُوا
إلى ربِّ العبـــادِ شـــكوتُ حـــالي بـــأمرٍ مـــا عليـــهِ لي اقتـــدارُ
ولا أحـــد يســـاعدُني بعـــزمٍ يكـــونُ عليـــه في الأمـــر المـــدارُ
لقـــد عـــدمَ المعـــينُ فـــلا معـــينَ وعمَّتَنـــا المذلـــةُ والصـــغارُ
وقـــد عُـــدِمَ النصـــيرُ فـــأين منّـــا نصـــيرٌ في الشـــدائدِ يستشـــارُ
أمـــا في النـــاسِ مـــن خـــيرٍ كـــريمٍ لـــدينِ الله في الـــدنيا يَغـــارُ
أمّـــا في النـــاسِ ذو بطـــشٍ شـــديدٍ لـــهُ عـــزمٌ يُقـــالُ بـــه العثـــارُ

أمّـا في النـاسِ مـن لهـم قلـوبٌ تــؤثر أو لهــم همــمٌ كِبــارُ
عجبـت مـن النـداء ولا ملـبٍ لمـا ادّعـوا وفي ذاك اعتبـارُ
عسـى نسـتنجد النسـوانَ إذ لا رجـالٌ وإلا صـبيتُه الصـغارُ
تعـالَوا قـد خلـتْ ممـن يحـامي عـن الـدينِ المـواطنُ والقِفـارُ
تـنحّ لعظـيمٍ زرقـد عرانـا نحـاذر أن تعُـمَّ بـه الـدّمار
ونُعلـنُ بالعويـلِ بكـلِّ أرضٍ بـدمعٍ في الخـدودِ لـه انحـدارُ
ونسـألُ ربَّنـا في كـلِّ ليـلٍ أتـى مـن مـا ارتحـلَ النهـارُ
قيامًـا والـدموعُ لنـا شـعارٌ لـه ثم الخضـوعُ لنـا دثـارُ
نناجي في الظـلام بكـلِّ قلـبٍ جـريحٍ في الصـميمِ لـه انكسـارُ
ونفـترشُ الخـدودَ بكـلِّ تـربٍ يكـون بهـا الـدموعُ لهـا نَثـارُ
عسـاهُ يُنيلُنـا غوثًـا سـريعًا ففـي كـلِّ الـذنوبِ لـه اغتفـارُ
ويرفـعُ مقتَـه عنَّـا جميعًـا دوي الإسـلامُ للإسـلامِ دارُ
ويُهلـكُ كـلَّ جبـارٍ عنيـدٍ علـى ديـنِ النـبيِّ لـهُ انتصـارُ
ألا يَـا خَـير مـن سَـاد البَرايـا وخـيرَ النـاسِ إن ظعنُـوا وسـارُوا
سـلِ الـرحمنَ في ذا الحـالِ عطفًـا فأنـتَ لنـا وللإسـلامِ جـارُ
ونصـرًا للشـريعةِ واعتـزازًا وذلاًّ للعـدوِّ بـهِ دمـارُ
صـلاةُ اللهِ تـترى كـلَّ حـينٍ علـى عليـاكَ مـا دارَ المـدارُ

وكانت هذه القصيدة بعضها قيل حين هدم في أماكن النصارى مساجد، منها المسجد الذي بحارة النصارى المعروف قديمًا بالعبد.

عمارة المساجد

ورُئي رسول الله ﷺ في المنام فقام الرائي، وساعده الله تعالى على عمارته، وهو الآن معروف بمسجد الفتح، وفيه منارة، وفيه الأحزاب والوظائف وقراءة العلم الشريف. كان النصارى قد هدموه وجعلوه محلاً للقمامة والأوساخ وهو كالكوم الكبير، وبحثنا حتى أخرجنا القبلة، وذلك مشهور.

ومسجد آخر بحارة كراكوس بساقية كاتب المال وجعلوه مراحًا للبقر، حتى جاء معنا بعض العدول الذين يعرفون مكانه، فوجدناهم جعلوه مراحًا للبقر. **ومسجد** آخر في ساقية النشر النصراني كان قد شراها هو ورفيقه حسب الله حين كانا يكتبان في ديوان الأمير حسام الدين طرنطاى، وكان بها مسجدًا عامرًا، عمره صاحب الساقية، وكان بها كنيسة دائرة تمشي الدواب فيها، قيل لنا أنهم هدموا المسجد وعمروا الكنيسة، فخرجنا وخرج المسلمون والعدول ونائب الحكم ونائب الأمير بدر الدين بيدارا في أيام بيدارا، فوجدنا المسجد ملسًا، وادّعَوا أن النيل هدمه، ووجدنا الكنيسة المندثرة عمّروها، وشاهدها العدول ونائب الحاكم ونائب والي الأعمال ونائب الأمير بدر الدين بيدارا، فهدموا ما جددوه والمسجد إلى الآن ما سُقف؛ لأن العمارة كانت فيه حين وقعت فتنة الكنائس.

ومسجد آخر بظاهر الباب الحديد بقوص، وشاهدت بنيان بيت نصراني بناه على قبلته فتفسخت القبلة، وشهد القاضي شهاب الدين بن هبة الله- رحمه الله تعالى- أنه مسجد وهكذا شهد من يعرفه، وهدم حائط النصراني من عليه، ثم جاء الأمير بدر الدين بن البقاعي نائب الأمير بدر الدين بيدارا أتى مدينة قوص وضرب النشو النصراني ورفيقه حسب الله بسبب بنيانهم الكنيسة وتخريبهم المسجد ضربًا كثيرًا رحمه الله تعالى، وكان أيضًا في ذلك الوقت من قام لغرضه، فوافق غرضه غرض النصارى، فصار بذلك عونًا لهم، فكتب محاضر وردهم الله تعالى خائبين، وكانت الدائرة عليهم وعلى من يغضب معهم، وكانت له ولاية فعدل منها، وجعل له نكال شديد، ومات بعد ذلك، وهلك وكل من قام معهم في ذلك الوقت.

وأما هذه الواقعة المتممة على الأمراء والسلطان فلم تجرِ في التواريخ المتقدمة ولا القرون الماضية مثلها، ولم نسمع قط أن فقراء من أهل الدين والصلاح ضُربوا بالمقارع

وجُرِّسوا على الدواب والمشاعلية تنادي عليهم بسبب هدم الكنائس، ولم يثبت أن أحدا منهم هدم، والذين هدموا حقيقة وعرفوهم لم يخاطبوا منهم إلا إن كان شخص أو شخصين.

ثم إنهم جاءوا الرباط وطلبونا إلى الباب ولم يكن أحد ممن هو في الرباط جميعهم حاضرًا، ولا سمع من الناس والفقراء الذين بالرباط متقطعين، والذي هو مقيم بالرباط لا يخرج إلا لصلاة الجمعة ويعود، فهذه مصيبة عظيمة لا تشبه المصائب.

وقد قلت فيمن أقامه الله تعالى لنصرة هذا الدين ومن وافق على نصره نصره الله تعالى:

للهِ في الخلــــقِ تـــــدبيرٌ وأســــتارُ	لحكمــــةٍ خُفيــت علينــا وأســـتارُ
تخـتص رحمتُـه مـن شـاءَ مـن بشـرٍ	فكـم لهـا ظهـرتْ في الكـونِ آثـارُ
لا تخشَ لومًـا على نصـرِ الإلـهِ لـهُ	فأنــــت للهِ حمــــادٌ وشــــكارُ
وأبشـرْ بنصـرِك في نصـرٍ أتيـتَ بـهِ	ومحـوِ مـا قـد مضـى واللهُ غفـارُ
لا عجـزَ الله مــن قـدْ قـامَ ينصـرُه	وحســـبُه أنـــه للـــدينِ نصـــارُ
أمــــدّه اللهُ بـــالأملاكِ تحرسُـــه	وفي الجيـوشِ مـن الأمـلاكِ أنصـارُ
جاهـدْ بسيفِكَ أهـلَ الشـركِ كلَّهـمُ	ومـــن يُعيـــنهم فالكـــلُّ كفـــارُ
واغلـظْ عليهِم ولا تلـوي علـى أحـدٍ	فالـــذلُّ وصـــفُهم مـــأواهُم النـــارُ
بـئس المصــيُر ومــنهم مــن يـواهُم	أهلُ النفاقِ وهـم في النـاس حضـارُ
خــذْ للنــبيِّ وأهــلِ بيتِــه ثــأرَهم	فالنـارُ والعـارُ مـا لم يؤخـذ الثـارُ
لا عـارَ إن قمـتَ للإسـلامِ تنصـرُهُ	وتـركُ نصـرتِهِ حقًّـا هـوَ العـارُ
إن الشّـنارَ وكـلَّ العـارِ مـا فعلـوا	بـأرضِ قـوصَ وأسـيوطَ وجـارُوا
وأخرقـوا حرمـةَ الإسـلامِ ويحهُـمُ	وهُتكـت حـرمٌ فيهـا وأسـتارُ

وشـرّدُوا الناس عـن أوطـانهم فغـدَوا في كـلِّ أرضٍ مـن الـبلادِ قـد حـارُوا
لا يسـتقرون في كهـفٍ ولا جبـلٍ ولــيس يــؤيهم أرضٌ ولا دارُ
ما حل بالكفرِ يومَ الفتحِ من أحدٍ ما حلَّ فيهم وأهلُ الكفرِ قد ثارُوا
أهلُ الصلاحِ وأهلُ الدينِ قد أُخذُوا أخـذًا عنيفًـا وهـم لله أبـرارُ
من بعدِ ما عُرضوا للصلبِ مستهم ضـربٌ وسـبٌّ وتجـريسٌ وإشـهارُ
داروا بهـم دورةً سـحقًا لفاعلِهـا فيهـا النكـالُ يـدور الـذلُّ إن دارُوا
وللنصـارى سـرورٌ عنـدَ رؤيـتهِم فكـم صـليب بـدا يعلـو وزنـارُ
واهـا علـى الـدِّين والإسـلامِ قاطبةً إن تمَّ هـذا ولم يُؤخـذ لهـم ثـارُ
والنشـو يفتـكُ في الإسـلامِ فتكتَـهُ ما بـين قـاضٍ ووالٍ لـه سرٌّ وإسرارُ
لأجلِـه خـذلُوا الـدينِ الحنيـفِ فيـا ويحَ الـذي لصليب الكفـر نصّارُ
يـا عصـبةَ المصـطفى يـا أهـلَ ملَّتِـهِ مـاذا لكـم بعـدَ هـذا اليوم أعـذارُ
أيـن الحمـاةُ لهـذا الـدينِ أيـنَهمُ وأيـن الهُمـامُ الـذي بالفتـكِ كـرارُ
قوموا على الكفرِ من أهلِ الصليبِ ومـن وَالاهـم فهـو أثّـامٌ وكفَّـارُ
يـاذا الـذي شـيَّد الـدينُ الحنيـفُ لـهُ عونًـا مـن اللهِ إسـرارٌ وإجهـارُ
ركـنٌ أقـامَ بـه ديـنُ الإلـهِ لـه سـيفًا مـن الله في الهيجـا بتـارُ
فـاللهُ يعضّـدُ بالتأييـدِ عزمَهمـا يسـاعدُ العـزمَ والتأييـدَ أقـدارُ
لا تخـش ذنبًـا إذا قطعـتَ دابـرَهم فَفـي بقايـاهُم للنـاسِ أضـرارُ
فهـم ثـلاثٌ وذا السـلطان ثـالثُكم والله رابعُكـم والله قهـارُ
نعـم وأتبـاعُهم لا يُحصـرون وهـم مثـلُ الأفـاعي وكالحيـات أشـرارُ
لا يضـمرون لأهـلِ الـدين غـيرَ أذًى ولـيس فـيهم لغـيرِ الشـركِ إضـمارُ

قد أظهرُوا لكم الإسلامَ مصيدةً | والخبثُ فيهم وعقدُ الشركِ إسرارُ
ففي الأمانةِ قد خانوا عهودَهمُ | وفي الخيانةِ في الأموالِ سِعارُ
لا أمنَ اللهُ من يأمنُهم أبدًا | ذوي الخيانةِ خانوا الله كفارُ
فاحدد بسيفك ركنَ الدينِ أصلَهمُ | وعونُك القتلُ سيفُ الدين سيارُ
كونا على البر أعوانًا حسيبكما | ربُّ السَّماوات نهاء وأمارُ
ثم أبشروا بلذيذ العيشِ في دعةٍ | من بعد ذلك جنات وأنهارُ
وصل ربِّ على المختارِ من مضر | ما سبَّح اللهَ في الأسحارِ أطيارُ
وما بدا كوكبٌ في أفقِ مطلعِه | وما غدا طالعًا في الأفق أقمارُ

إلزام اليهود والنصارى التمييز

وقد كان الأمير ركن الدين والأمير سيف الدين سلاَّب ألزموا اليهود بالغيار وتغيير العمائم بالاصفرار، وألزما النصارى بشد الزنار وبالعمائم الزرق في الغيار، وكان ذلك لهم أشد الهوان في تغيير الألوان، وتمييزهم من المسلمين وعصابة الموحدين بهذا الزى والتبيين؛ ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

فريضة الجزية

وقد كان قيل لهم أن تأخذوا الجزية من الرهبان، ووعدا بذلك، وهو مذهب الإمام الشافعي ﷺ في صحيح الأقوال، وأفتى بذلك الشيخ عز الدين بن مسكين.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة:٢٩]، ولم يستثن الرهبان.

وورد في الحديث عن النبي ﷺ:

«اليهود والنصارى خونة لعن الله من ألبسهم ثوب عز سلبه عنهم الإسلام(١)».

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٥٣٤).

وقال **الرافعي** ﷺ في الكتاب المعروف بـ «المحرر[١]» عن الجزية: والأصح وجوبها على الذمي والضعيف والشيخ الفاني والراهب والأعمى والفقير العاجز عن الكسب.

وقال **النواوي**- قدّس الله تعالى روحه- ونفع ببركاته في كتابه المعروف بالروضة وفي كتابه المعروف بالمنهاج[٢]: والمذهب -يعني مذهب الشافعي ﷺ- وجوبها على الذمي والشيخ والهرِم والأعمى والراهب والأجير والفقير العاجز عن كسب.

وقال **الإمام أبو إسحاق** في التنبيه: وفي الشيخ الفاني والراهب قولان.

وقال النووي رحمه الله تعالى في تصحيح التنبيه[٣]: والأصح وجوبها على الراهب ومن ذكر أعلاه.

والنووى رحمه الله ما شك أحدٌ في علمه وزهده وورعه ودينه، وإلى فتواه يرجع الفقهاء والعلماء، فيجب على ولاة أمور المسلمين-أيدهم الله تعالى الرجوع-لما أمرهم الله تعالى به وحضّ عليه رسوله ﷺ وأفتاهم العلماء.

وأخذ الجزية من الرهبان وغيرهم ممن ذكروهم من شيخ وذمي وهرِم وأعمى وفقير وأجير ومن عجز عن الكسب، ففي ذلك إعانة لبيت مال المسلمين، وامتثالاً لأمر رب العالمين، واتّباعًا لسنة سيد المرسلين وخاتم النبيين، واقتداء بالعلماء والصالحين والخلفاء الراشدين، ونكالاً لأعداء الدين، وأن يتركوا ما عدا ذلك من المحدثات في الدين والتضييق على المسلمين، كالضمانات المحدثة والخيم ونصف السمسرة وتحكير المباحات من المنفعة وما جعلوه على الغلال والحبوب وما رتبوه على كل حاضر ومجلوب في القليل والكثير والجليل والحقير مما لا يسيغ شرحه هذا الكتاب وليس عليه في التحريم جواب من سائر المحدثات وأنواع الظلامات.

قال الله تعالى مخبرًا عن من خالف حكمه وما أنزله في كتابه الحكيم والقرآن

---

(١) انظر المسألة بنصها في: الأم لإمامنا الشافعي (٢٤٧/٤)، والتذنيب للرافعي (ص٤٤٤) ، وفي المحرر (طبع حديثًا بتحقيق محمد فارس-دار الكتب العلمية- بيروت).

(٢) انظر: مغني المحتاج للخطيب الشربيني (٩٥/٤).

(٣) ونصه: والجزية تجب على الراهب، والشيخ الهرم والزَّمِن، والأعمى، والأجير، والفقير الذي لا كسب له (٧٣٩).

الكريم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٥، ٤٦، ٤٧].

وقال تعالى: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [الشورى: ٢١].

وفي الحديث: **«كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار(١)»**.

وكلام الله تعالى أحق أن يستمع، وأمره أحق أن يطاع ويتبع، ورسوله ﷺ أولى أن يطاع في أحكامه، وأوضح للأمة في أقواله وأفعاله، فلم لا تحكّموه؟ وما لهم لا يرضون بحكمه ويمتثلونه؟ فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**[النساء: ٦٥].

وقال تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف:١٠٨].

وقال: **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: ٨٠].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [آل عمران: ٣١].

الحذر من اتباع الباطل

فكيف نعرض إذن عمّا أمرنا الله تعالى به ونبينا ﷺ ثم علماؤنا، ونتبع أقوال الكفار وعباد الصليب والزنار والخونة وأهل النار فيما يرتبونه من المحدثات وما يجتلوه من الترّهات وما يعدلون به عن العدل إلى أظلم الظلمات ليضعفوا به الدين، ويستولون به على المسلمين، ويتحكمون في الحريم والأموال، ويتعالون على المسلمين في الأقوال والأفعال، ويظهرون النصيحة لمن يخدمونهم من الأمراء والأجناد، ويغشونهم في الحقيقة

(١) رواه مسلم (٥٩٢/٢)، وأبو داود (٦١٠/٢)، والترمذي (٤٥/٥)، والنسائي (١٨٨/٣)، وابن ماجه (١٧/١).

في كل طرفة عين وزمن من الأزمان إلا من يستجيروا بهم إذا خالفهم أحد من المسلمين أو عاداهم رجل من أهل الدين حتى يقولوا لهم: نحن غلمانكم، وحرمتنا من حرمتكم، وقد فعل فلان بنا كذا- أو قال عنا كذا- ويحضرون من يشهد لهم بذلك ممن يخاف على نفسه ممن هو تحت حكمه وأمره، أو ممن له رزق من ديوانه فيثور عند ذلك الجندي أو الأمير النفس العصبية، ويرى أنه ينتصر لنفسه فيفعل بذلك المسلم أو من كان من أهل العلم أو الدين ما تصل قدرته إليه من كل نوع قبيح. والله تعالى بالمرصاد، ومطّلع على أعمال العباد.

فيا ليت شعري ما هذا الخذلان؟! ولأي شيء توافق أهل الكفران ودين الصلبان؟!

هذا فيمن له صورة، وأما من لا له صورة من العوام أو أهل الحراثة والزراعة من الأمام فهم عندهم كالأغنام في افتراسهم وكالأغنام في إذلالهم، وهم مع ذلك للشروط مخالفون، ولما عاهدوا عليه من الذمة ناقضون في أيمانهم كاذبون، وفي أماناتهم خائنون، وفي الركون إليهم غادرون، وفي هذه الدولة الناصرية -ثبت الله نصرها- جدد عليهم الشروط العمرية والروابط الشرعية، فلا والله ما راعوا لها حقًّا ولا لزموا لها شرطًا، فكيف وقد قال في عقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «فإن خالفوا شيئًا مما شرطوه فلا ذمة لهم».

وقد حل للمسلمين ما يحل من أهل المعاندة والشقاق، وإذا انتقض عهدهم جاز أخذ كنائس الصلح منهم، فضلاً عن كنائس العنوة كما أخذ النبي ﷺ ما كان لقريظة والنضير لما انتقض عهدهم، فإن الناقض للعهد أسوأ حالاً من المحارب الأصلي، كما أن ناقض الإيمان بالردّة أسوأ حالاً من الكافر الأصلي، وكذلك لو انقرض أهل مَصر من الأمصار ولم يبق من دخل في عهدهم فإنه يصير للمسلمين جميع عقارهم ومنقولهم من المعابد وغيرها.

وإذا عقدت الذمّة لغيرهم كان كالعقد، وإذا انتقض عهدهم كان لمن لم يعقد لهم الذمة، فما لنا عن ذلك مخذولون وعن شروط الإسلام لاهون؟ مع تكاثر أموالهم وضعف المسلمين، وتعالي بنيانهم على أهل الدين، وتطاولهم في الأقوال والأفعال،

وإذلالهم للملّة المحمدية في جميع الأحوال؟!

وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة:٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

وقوله ﷺ: «**اليهود والنصارى خونة**[١]».

وقد ثبت القرآن والحديث، ووجب على هؤلاء الكفرة ما أوجبه الشرع من مخالفة الشروط ما يجب على المحاربين من إهلاك النفوس وأخذ الأموال، وما ترى ذلك يُفعل إلا بالمسلمين، ولا يقع القتل إلا في الموحدين حتى أخذوا المسلمين والفقراء والصالحين بغير استحقاق لكونهم غاروا على دينهم وقاموا في حق ربهم ونصرة نبيهم، جاء إليهم أمير فعل بهم تلك الأفاعيل بغير بينة ولا استحقاق، وخصّوا الفقراء بالإهانة دون سائر الناس على الإطلاق، ووالله لقدكنت ضعيفًا وأنا أسمع الضرب ومناداة المشاعلية عليهم من مكان بعيد، ولقد كان الموت أهون مما سمعت، فكيف لو رأيت؟! ولقد فعلوا ذلك أيضًا بالفقراء بأسيوط، وضربوهم وجرّسوهم[٢] على ساحل البحر، والمصيبة العظمى أن الحاكم كان حاضرًا فلم يقم؛ فإنهم أخافوه.

وأما حاكم أسيوط فقام، وكل ذلك بغير استحقاق ولايته فيما فعل، وإن كان لو فعلوا لكان الحق فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ووالله كلما تذكرت أجد له لوعة، فكيف بكم لو رأيتموه يا أهل الدين؟ أو سمعتموه يا عصبة الموحدين؟ إنه لمنظر فظيع وسماع شنيع، فليت شعري، كيف يلذُّ مع ذلك المقام؟ أو تشبع من ذلك الشراب والطعام؟

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي علقوهم وربطوهم على الدوابة.

ولو قيل أن نصرانيًّا فعل شيئًا من ذلك، أو هدم المساجد- وقد فعلوا- لقالوا للقائل: هات البيّنة، ولو أتى بالبينة وأثبتوها عند الحاكم لقالوا له:هذا تعصب، وبهتان، واعتراض وعدوان!.. ولن يجد من ينتصر لدين الله تعالى، فما بالهم لا يعاملون النصارى بما عاملوا به المسلمين مع عدوانهم ومخالفتهم شروط السلطانية؟ وفي ذلك نقد عهد.

وفي الحقيقة فإنه لا عهد لهم؛ فقد صدر رسم يغلق الكنائس مرّتين وهم يفتحونها ولا يلتفتون ولا يخافون، فكيف وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تصلح قبلتان في بلد واحد[(١)]». رواه أحمد وأبو داود بسند جيد.

ولما روي عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: **«لا كنيسة في الإسلام[(٢)]»**.

وُلَاة العدل موفّقــون

وما زال من يوفقه الله ﷻ من ولاة الأمور يقوم بمثل هذا وذلك مثل: **عمر بن عبد العزيز** ؓ [(٣)] الذي اتفق المسلمون على أنه إمام هدى.

(١) رواه أحمد (١/٢٨٥)، والترمذي (٣/٢٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٠١)، وقال الحافظ في التلخيص (٤/٢٣٤): ورواه البيهقي مطولاً من حديث عبد الرحمن بن غنم عن عمر، وفي إسناده ضعف، وقد أخرجه أيضًا أبو علي محمد ابن سعيد الحافظ الحراني في تاريخ الرقة من هذا الوجه، وروى ابن عدي- في الكامل (٣/٣٦٢) عن عمر مرفوعًا: «لا يبنى كنيسة في الإسلام، ولا يجدد ما خرب منها»، وأما أثر ابن عباس فرواه البيهقي عن ابن عباس: «كل مصر مصره المسلمون لا يبنى فيه بيعة ولا كنيسة، ولا يضرب فيه ناقوس، ولا يباع فيه لحم خنزير وفيه حنش، وهو ضعيف. وانظر: نصب الراية (٣/٤٥٣).

(٣) قال الشيخ المناوي: الأمين الميمون، الأمير المأمون، الحاكم العادل المصون.

العالم الكامل، العلي المنزلة، الذي لم يعدل قط عن المعدلة. جمع زهدًا وعفافًا، وورعًا، وكفافًا، فأشغله آجل العيش عن عاجله، وألهاه إقامة العدل عن عاذله.

إيه، وكان للرعية ركنًا متينًا، وكهفًا مكينًا، ونورًا مبينًا، وعلى خلق الله أمينًا.

وكان قبل الخلافة عاملاً على المدينة على قدم الصلاح لكنه يبالغ في التنعّم، فكان حسدته لا يعيبونه إلا بذلك، فلما بويع بعهد من سليمان سنة تسع وتسعين أقام في الخلافة نحو خلافة الصديق فملأ الأرض عدلاً وردَّ المظالم.

وانظر: سيرته لابن الجوزي، ولابن عبد الحكم، وأخباره للآجري، والكتاب الجامع في سيرته للملاء.

فروى الإمام أحمد أنه كتب إلى نائبه على اليمن أن تهدم الكنائس التي بأمصار اليمن، فهدمها في صنعاء وغيرها[١].

وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري- رضي الله عنهما-أنه قال: من السُّنة أن تهدم الكنائس التي بالأمصار، قديمها وحديثها.

وهارون الرشيد في خلافته أمر بهدم ما في سواء بغداد، وكذلك المتوكل ألزم أهل الكتاب بشروط عمر بن الخطاب ﷺ، وسأل علماء وقته في هدم الكنائس والبيع فأجابوه، فبعث بجوابهم إلى الإمام أحمد، فأجابه بهدم الكنائس، إذ العراق حكمه حكم مصر.

وقد ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنما مصر مصرية العرب- يعني المسلمين- فليس للعجم -يعني أهل الذمة- أن يبنوا به بيعة، ولا يضربوا فيه ناقوسًا، ولا يشربون فيه خمرًا، وإنما مصر كانت مصرية العجم ففتحها الله على العرب، فإن العجم ولَّى عهدهم.

أمر الكنائس في أرض العنوة

وعلى الجملة، فكل كنيسة بمصر والقاهرة والبصرة وأواسط بغداد ونحو ذلك من الأمصار التي مصَّرها المسلمون بأرض العنوة يجب إزالتها، إما بالهدم أو بنحوه، بحيث لا يبقي لهم معبد في أي مَصر مصَّره المسلمون بأرض العنوة، وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة؛ لأن القديم منها يجوز أخذه، ويجب عند المفسدة.

وقد نهى النبي ﷺ أن تجتمع قبلتان بأرض، فلا يجوز للمسلمين أن يمكنوا بمدائن الإسلام إلا للضرورة العهد القديم، لاسيّما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار ظهر حدوثها بدلائل متعددة، والمحدث يُهدم باتفاق الأئمة.

وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة مما كان محدثًا وجب هدمه وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعا؛ لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب والله أعلم بما هو صانع في هذا التحاول في الدين وأي شيء يقتصر على ذلك ولاه أمور، وما ذلك إلا أن البطانة

---

(١) انظر: الكتاب الجامع للملاء، الفصل الثالث ذكر كتبه إلى العمال (٢٥٤/١).

لهم عند الملوك والأمراء، وأولياؤهم في الدولة مُتحكِّمون، وعلى المملكة ملبسون، ويجدون على ذلك أعوانًا، وعند كل أمير بل أكثر الأمراء من أوليائهم جماعة - وأقل الجماعة اثنان - وإن اقتصروا فواحد، ولهم في زي المسلمين وليسوا بمسلمين ولا مؤمنين بل عن الدين مارقين وعن الحق معرضين ﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠].

يظهر ذلك في فلتات الألسن وحركات اللائمين، حتى أن الناس لو استقصوا أحوالهم لوجدوهم على غير منهاج الدين، ولو جعلوا عليهم رقباء في بيوتهم وأماكنهم لوجدوهم على ما كانوا عليه بل ازدادوا شرًّا على المسلمين و إهانةً لأهل الدين وتمكنوا وكثروا فلا يعتقدون الإيمان منهم في صغير ولا كبير وهو كما قيل:

فهو كالصَّلِّ من بناتِ الأفاعي كلمَا طالَ عمرُه زادَ شرَّا

ولقد أنشد في القاضي الفاضل جمال الدين بن المكرم لنفسه:

يا مالكَ الإسلام لا تغتر بما أتى به القبط وما تمَّموا
أمرت ألا يحدثوا ذمةً فأسلموا خيفةً أن يجرَمُوا
خافوا على الرِّزقِ ولو أنهمُ خافُوا على دينِهم صمَّموا
فلا يغرَّنَّكَ إسلامُهم فوَالله ما في جمعِهم مُسْلمُوا

ولقد صدق فيمن لا يتحقق إسلامه ولا يظهر عليه آثاره وأعلامه من الصلاة والصيام والقيام بوظائف الأحكام واتِّباع النبي عليه السلام، ومعاداة أعداء الدين ومحبة الأولياء والصالحين، فمن كان كذلك فهو من المؤمنين، ومن كان على ما كان عليه من موالاة الكفار ومواددة أهل الزنار والغيرة لهم والقيام بحقهم، ومن دحض كلمة الإسلام فهو على كفره، وازداد وصفًا حقيقيًّا بالنفاق.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء:١٤٥].

ويكفي ذلك، ولسنا نطيل الكلام في حقهم إذا لم نجد سامعًا لكن حمّلني على ذلك ما أجده من الآلام الملازمة للقلب، وما أوجبه الله تعالى علي من القول؛ إذ عجزت عن الفعل والغيرة على دين الله القويم وصراطه المستقيم، ونحن نلجأ إلى الله تعالى في ذلك كله، ونسأله أن يرفع المقت عنا، فلعلّ ذلك كلَّه لكثرة ذنوبنا وسوء

أفعالنا، فقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** [الشورى: ٣٠].

وقد خشينا والله من نزول البلاء ووقوع المحن والابتلاء لعدم الإنكار من جميع الطوائف من العلماء والفقهاء والفقراء والعوام، وإن كان العوام أخف حالاً منهم؛ لأنهم لعلمائهم متبعون، لأوامرهم مستمعون، وإذا وقع الهلاك عمّ الجميع ويحشرون على أعمالهم.

دُعَـــاء

اللهم ارفع مقتك عنّا، اللهم عجّل بفرجك لنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، يا ربنا لا تؤاخذنا، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وقد قلت:

أيـا ربَّ العبـادِ إليـكَ أشـكو ... لمـا كُلِـمَ الفـؤادُ مـنَ الجـراح
ومـا نـالَ العـدوُّ بِـأَرْض قـوصٍ ... وفي أسـيوطَ مـن أهـلِ الصـلاحِ
من الضربِ الشديدِ ومنْ نكالِه ... وَبـالتجريسِ في تلـكَ النـواحي
تشـيِّعُهم نسـاءٌ باكيـاتٌ ... بـإعلانِ الصـياحِ مـع النـواحي
ينـادين العويـلَ بكـلِّ جمـعٍ ... وفي مـدنِ البلادِ مـع الضـواحي
ويفْـرِقْنَ الشـعورَ ولا فـروق ... ويجمعـنَ الصّـراخَ علـى الصّـياح
ويخمشـنَ الوجـوهَ محسّـرات ... ويهـتكنَ السـتورَ مـع الريـاح
يقلـن برنـةٍ ورسـيسِ حـزنٍ ... هلمّـوا بالرحيـلِ وبـالرّواحِ
إلى أرضٍ تصـونُكم جميعًـا ... وتخفـوا بالأمـانِ وبالريـاحِ
فقـد وافـاكم ظلـمٌ عظـيمٌ ... إنّـا بالجِـدِّ في حـالِ المـزاحِ
فـلا حـامٍ يقاتـلُ عـن حـريمٍ ... يقابـلُ بالصِّـفاحِ وبالكفـاحِ
ويبـذُلُ نفسَـه للهِ صـدقًا ... ولـو كانـت تسـيلُ علـى الرّمـاح

وينصـــرُ دينَـــه ســـرًّا وجهـــرًا ... بتأويـــلِ المقـــالِ وبالصِّـــراح
ويجـــنحُ للّقـــا قـــولاً وفعـــلاً ... إذا نكـــص اللئـــيمُ عـــن الجمـــاح
فمَـا انـدملَ الجراحُ مـن الأعـادي ... ولا قلـــبي ينـــدملُ الجـــراحِ
فيَـا صـبحٌ أطـلَّ بـلا مسـاءٍ ... ويـا ليـلٌ أطـلَّ بـلاَ صَـباحِ
علـى أهـلِ الصـلاحِ بكـلِّ أرض ... وأربـــابُ الفتـــوةِ والسَّـــماحِ
وأحبـارُ الشـريعةِ مـا دهَـاهُم ... وإخـــوانُ الحقيقـــةِ والفـــلاحِ
تعالـتْ في الصـعيدِ يـدُ النصـارى ... علـى الإسـلامِ حـتى لا اسـتراحى
وقامـت للصَّـليبِ عمـودُ شـركٍ ... يعيـــنُهم بـــأنواعِ الصـــفاحِ
أمَـــا للـــدّينِ والإســـلامِ ركـــنٌ ... أمـــا للشـــركِ والصِّـــلبان مـــاحي
أمَـا للـرُّوسِ والأَعنَـاقِ سـيفٌ ... فيقطعُهـــا ويـــأتي بالوشـــاحِ
أمـا في الـتركِ في خاقـانَ قِبَـلٌ ... فتُرضـي اللهَ في غضـبِ اللـواحي
أمـا في جـيشِ ذي إسـلام قـومٌ ... كـــرامٌ في العـــدْوِ وفي الـــرَّواحِ
فراشُـهم السُّـروجُ علـى جيـادٍ ... وليـــنُهمُ الحديـــدُ مـــن السّـــلاحِ
منـــامُهم السُّـــهادُ إلى الأعـــادي ... وشُـــربُهم المنيـــةِ في القِـــداحِ
يقـــودون الصّـــواهلَ للمَنايـــا ... ويُلقُـــون الكواعـــبَ للكفـــاحِ
ويشـــتاقون في وقـــتِ التَّلاقـــي ... كمـــا يَشـــتاقُ عشـــاقُ المِـــلاحِ
رمـاحٌ في الصـدورِ بغـيرِ سـكرٍ ... وسـيفٌ في الجمـاجمِ غـيُر صـاحي
فـدا في الصـحو ينفـذُ لكـلِّ هـامٍ ... وذا في الســـكر يرمـــى في البِطـــاحِ
فتُخـــتَلَسُ النفـــوسُ بغـــير إثمٍ ... ويُسْـــتَلَبُ القتيـــلُ بـــلا جنـــاحِ
وترضـــي اللهَ وَالإســـلامَ حقًّـــا ... ويغتـــنمُ الغنيمـــةَ بالمبـــاحِ

هنيئًا في الجِنانِ لهُ مقامٌ وعند الله في رَوحٍ وراحِ
فيا ربَّ العبادِ أغثْ سريعًا وعجّل لِّي بقصدي وارتياحي
وجِرْني ما تشاءُ بكلِّ خيرٍ وأن أحتارَ جِرني في اقتراحي
وصلِّ عشيَّةً وطلوعَ فجرٍ على المختارِ من خيرِ البِطاحِ
محمدٌ خيرُ الناسِ متى علم المساءَ من الصّباحِ

موالاة المسلمين ومعاداة الكافرين

ولقد حكي عن أحد الملوك أنه كان يأكل في الرُّبى -وهو اليقطين- هو وولده، فقال: إن النبي ﷺ كان يتبع الرُّبى في القصعة، فقال ولده: ما هذا إلا قذارة.. فسلّ الملك السيف وضرب عنق ولده.

فانظر إلى قوة هذا الإيمان قامت به داعية الغيرة المحمدية والقوة الإيمانية، فحالت بينه وبين نسب الطين ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُون**﴾ [المؤمنون:١٠١].

وانظر إلى ابن نوح حين نفاه الله عن أبيه بقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود:٤٦].

ووصل نسبه بالنسب الإيماني بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠]، والنسب المحمدي لقوله ﷺ: «**سلمان منا آل البيت**(١)» جعل حبّه فيمن أحب الله تعالى ورسوله ﷺ، وبغضه لمن أبغض الله تعالى ورسوله ﷺ فقال على لسان حاله:

أبى القلبُ إلا أمَّ عمرو فأصبحت صَفيتَه إن زارها أو تجنبا
عدوٌّ لمن عادت وسلم لسِلمها ومن قربت ليلى أحبّ وقرّبا

فكيف يا من يوادد أعداء الدين وينافر المسلمين والله تعالى يقول:
﴿**لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ**

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٩٨/٣).

كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

وأنت تحالل النصارى وتباطنهم، وتحقق تكذيبهم لنبيك ﷺ وعداوتهم له، وهذا هو معتقدهم، وتكذيبهم بربك ﷻ، وعداوتهم تصديق كتابه، ويعتقدون المسيح إلهًا، وهم فيه مختلفو الاعتقاد بحسب طرائقهم وفرقهم:

فرق النصارى

فقوم يقولون بالحلول، وإنه حل في مريم العذراء البتول.

وقوم بالاتحاد، اتحاد الناسوت واللاهوت.

وقوم يقولون بأنه قيوم للأب والابن والروح القدس، ويجعلونه إلهًا واحدًا، وهو الثالوث.

وقوم يقولون إن المسيح هو الإله الواحد الأزلي!

وهذه الأقوال كلها كفر وبطلان وزور وبهتان، مستحيلة الوجود والإتيان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا(١).

مناظَـــرة

ولقد كنت مرّة مسافرًا في طريق الأقصرين، ماشيًا في البرّ وأنا شاب- وكنت في حالة التجريد- وكان معي قسّيس في الطريق، وكان قد طلبوه بالأقصرين لهندسة الرباط، وكان في الطريق ولا معي أحد-وكانت أيام النيل- فجعل ذلك القسيس يقول لي: والله إنك طالبٌ مليح، ويكرر ذلك ويقول لي: وأنا والله طالب مثلك، لكن المسلمين ما فيهم إنصاف.. فقلت له: وما معنى ذلك؟ فقال: الدين يؤخذ بالدليل والبرهان، وهم يأخذونه بالسيف، ويقول الواحد منهم شيء، فيقولون كفرت، فقلت له: يا نصراني، أو يا قسيس، أنا المسلم وأنت النصراني، وأنا لا أقول لك كفرت لأنك عندي كافر،

---

(١) انظر: شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل لإمام الحرمين الجويني (ص٦٩)، والرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل للحجة الغزالي (ص١٨)، ومناظرة في الرد على النصارى للرازي (ص٢٢، ٣٠)، والانتصارات الإسلامية للطوفي (١/٢٤٥)، وأدلة الوحدانية في الرد على النصرانية للقرافي (ص٣٢)، المواقف في علم الكلام للإيجي (ص٢٧٤)، والجواب الصحيح (٢/١٠٠)، ومحاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة (ص١٤٧)، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي (١/١١٨).

وتحصيل الحاصل محال، وأنا أسألك سؤالاً، فإن أنت أجبتني بالحق رجعت إليك، وإن كان الحق معي ترجع إلي، قال: قل، فقلت له: أنت تقول بالثالوث، أو بالحلول أو بالاتحاد، أو تقول إن المسيح هو ...

فقال على الفور: إنه يعتقد أن المسيح هو الإله القديم الأزلي، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فقلت له: أهذا المسيح الذي تعتقد أنه هو الإله القديم الأزلي هو ابن مريم أم هو مسيح غير ابن مريم؟ فقال: هو ابن مريم، فقلت له: فمريم هي قديمة أو حادثة؟ فقال: هي حادثة؟ فقلت له: ألزمك النقيض؛ فإنك تقول إن القديم صدر عن الحادث، وهذا مستحيل، وهو عكس المعقول والقياس والحقائق؛ لأن الحادث يصدر عن القديم، فكيف جعلت القديم يصدر عن الحادث؟

فقال: تجسّد وتنزّل للتعليم.. وجواب ركيك لا يقوم عليه دليل ولا يساوي من سخافته لعدم عقل قائله في المقال كثير ولا قليل، فقلت له: ما مثلك عندي إلا كناموسة دخلت في وادِ، وهو وادٍ مستطيل بين جبلين، فطارت حتى وصلت إلى بعض الطريق، فوجدت جبلاً عظيمًا في طريقها وقد سد الوادي، فوقفت تنفخ في الجبل لتزيله بنفخها وتقلعه من طريقها، فهل ينقلع الجبل بنفخ الناموسة؟ فقال: لا، فقلت له: فجوابك أضعف من نفخ الناموسة في الجبل الذي تقلعه وتزيله، وهو أعجب منه؛ لأنه عكس الحقائق في استحالة الواجب ووجوب المستحيل أن يجعل القديم يصدر عن الحادث، وتستدل بعدم الدليل وتقول تجسّد ونزل للتعليم، فلم تدر صوابًا ولم تحر جوابًا.

ثم قلت له: قد تركت عنك هذا الجواب في هذه المسألة، لكني أسألك مسألةً واحدة، والله وإن قلت لي الحق فيها وافقتك عليه فقال لي: قل، فقلت له: الإله من حيث هو إله يجب له الكمال من كل وجه، ويستحيل عليه النقص من كل وجه أم لا؟ فقال: الإله من حيث هو إله يجب له الكمال، ولا يقدر بخلاف ذلك ولا غيره من طوائف الضلال، فقلت: آالله ظهور المسيح كما ظهر غيره من الأطفال وتربيته وأحوال الطفولية كمال في رتبة الألوهية أم نقص؟ وأنت تعلم كيف خرج من بطن أمه.

فقام عند ذلك وتنحّى عني إلى ناحية، ودخل عليه الليل وقد أوينا إلى ساقية

بظاهر دمامين، وتوجه الشيخ عبد الرحيم ابن سيدي الشيخ مفرج يأتي لنا بقياسه، فخشيت على نفسي من القسيس، فلم يأخذني النوم، وأصبحنا سافرنا إلى الأقصرين، وأقام ثلاثة أيام لم أره أكل ولا شرب ولا تكلم كلمة.

فمن يكون هذا معتقدهم وهذا كفرهم وهذه عقولهم، أعني أكابرهم وقساوستهم الذين يشرّعون لهم دينهم وهم مع ذلك ليس لهم عقول ولا علوم، ولا لأحدٍ منهم بصيرة ولا مكاشفة ولا خرق عادة، ولو وقع ذلك لكان إلقاءً من الشيطان والتخيلات والبهتان، فإن الشياطين يوحون إلي أوليائهم، ولقد كان الشيطان يتكلم في أجواف الأصنام حتى صلى به جمع كثير، ولقد كانت الكهان تخبر بأمور تقع وذلك الكاهن من الجان استراق السمع، وفي هذا الوقت منهم خلق كثير.

أصناف من خرق العادة

وقد ذكرنا حكاية الذي جاءني زمن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ[١]، وكان يخبر الناس بما في بيوتهم وبما يتكلمون به في فراشهم وما عندهم من الدراهم والدنانير، وأحضروه للشيخ أبي الحسن وقال له: إن رجعت تتصرف بهذا الجني في بلاد المسلمين أمرت الجني أن يضرب عنقك، فتاب بحضرة الشيخ أبي الحسن.. وغيره كثير، ورأيت جماعة من هذا القبيل.

وأما **المشعوذون** فتراهم في الأسواق يفعلون أمورًا كبيرة لا حقيقة لها.

وأما **السحرة** ففيما تقدم لهم مع موسى عليه السلام كفاية، والساحر إنما يخيّل بشيء موجود ولا يوجد شيئًا.

و**السّماوي** يظهر أشياء لا حقيقة لها، وإذا جاء النور الإلهي والحقائق الربانية من

(١) هو سيدي على بن حميد بن إسماعيل، أبو الحسن بن الصباغ القوصي. شيخ الدهر بلا منازع، وواحد عصره بغير مدافع، صاحب المعارف والعوارف واللطائف والظرائف، والمناقب المأثورة، والكرامات المشهورة، أخذ عن القنائي، وعنه ابن شافع.

قال المنذري: حسن التربية للمريدين، وانتفع به خلق من السالكين.

مات سنة اثنتي عشرة وستمائة ، ودفنه عند شيخه عبد الرحيم القنائي، والدعاء عند قبره مستجاب.

وانظر: طبقات الأولياء (٤٥٢)، وقلائد الجواهر (ص٣٨٤)، والكواكب الدرية (٣٤٣) كلاهما .

النبي أو الولي ذهب ذلك كله، وإنما الحقائق تعطي وجود الأضداد بكل حق يقابله باطل أو ضد له ليتميز هذا من هذا: ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

وأما المعتقدات في الله سبحانه وتعالى فحين لم تكن على الاستقامة فيما أمر به على ألسنة الرسل فلا سبيل أن يكشف للقلوب عن حقائق الغيوب بشيء ما لم يستقم القلب بصحة الاعتقاد فافهم ذلك.

ولولا خشية الإطالة وحدوث الملالة لذكرت وقائعًا أعرفها في هذا الباب، فالنصارى أخسُّ الطوائف، واليهود كذلك؛ فإنهم بدلوا كتاب الله واتّبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

ثم إن عداوتهم للمسلمين وتكذيبهم للأنبياء جميعًا، فإن الأنبياء كلّهم بنبينا محمد ﷺ مصدِّقون وبه مؤمنون، وقد أخبرت التوراة والإنجيل بنبوته ﷺ، ومع ذلك يكذبوه، فيلزم لتكذيبهم إياه تكذيب الأنبياء والمرسلين، فكيف بالمحب لربه؟ والمحب لنبيه هو المحب لربه ﷻ وموالاة أعداء الدين الذين يكذبونه ويكفرون بربه وبما جاء به، فمن اتبع حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ فليأت بالبرهان ببغضه لأعدائه وأعداء ربه ﷻ وإعلاء دينه، ويحب من يحبه ويبغض من يبغضه كما قال دعبل الخزاعي سامحه الله تعالى:

أُحبُّ قَصِيَّ الرّحم من أجلِ حبِّكُمُ ... وأبغـضُ فـيكم زَوْجَـتي وبَنـاتي

وهذا البيت من قصيدته التي أنشدها المأمون حين أهدر دمه لما هجاه، فلما هدر المأمون دمه ضاقت عليه الأرض، فتحبس في زي امرأة ودخل على المأمون وسلم وقال له أنت القائل:

«واستنقذوك من الحضيض إلا وهدى، ويلك وأي حضيض كنت أنا فيه» وأنا فلان ابن فلان، إلى أن ذكر جدّه العباس ﵁ فقال له يا أمير المؤمنين: إن كنت قلت ذلك فأنا القائل:

مـدارسُ آيـاتٍ خلـت في تـلاوةٍ ... ومنـزلُ وحـيٍ مقفَـرُ العرصَـات

وذكر القصيدة إلى أن ذكر:

أحب قصِي الرَّحِمِ من أجلِ حُبِّكمُ ... وأبغـضُ فـيكم زوجـتي وبنـاتي

فبكى مأمون وقال: اللهم إني تركت له ما قاله في لما قاله في آل بيت نبيك، وأحسن إليه ورضي عنه رضي الله عنه[1].

أحوَال المجاهـدين

وقد قلت:

هويـتُ مـا تهـوونَ كـلَّ كريهـةٍ ... وألقيتُهـا بـين الحشـا والترائـبِ

أكـف لهـا الخطـى غـيرَ مفـارقٍ ... مجربـةٌ بـالطعنِ قبـلَ التجـارِبِ

ألا هكـذا مـن كـان لله طالبًـا ... فيبـذلُ فيـه الـنفسَ عنـد المطالـبِ

بأيـدي كمـاةٌ في الحـروبِ ضـراغمُ ... عـريقين في الهجـاءِ عنـد التناسـبِ

بتكسـير أصـنامٍ وهـدمِ صـوامعٍ ... وإهـلاكِ قسـيسٍ وإرهـابِ راهـبِ

تبـد العـدا ضـربًا وضـربًا ونـائلاً ... وتـتركهم صـرعى مـن كـلِّ جانـبِ

تفلِـقُ هامـات العِـدا بصـوارمٍ ... ويَظهـرُ فعـلُ الجِـدِّ عـن كـفِّ لاعـبِ

تولّـوا سِـراعًا والرمـاحُ تنوشُـهمُ ... كلـيس الأفـاعي ودبيـبِ العقـاربِ

دعَـتْهم لـدارِ الحـربِ طـوا حتُـوفِهِم ... وغـرَّتهم آمـالُهم بـالكواذب

دمـاؤهم كـالقَطرِ في الـوادي سـائحٌ ... يَعجلُهـا رعـدُ اللقـا بالقواظـبِ

رأوا جـيشَ أنصـارٍ مهاكـلُ قشَّـعُ ... يجـولُ علـى أفراسِـها كالسـلاهبِ

ربـوا في الـوغى حـتى كـأنَّ قلـوبَهم ... عشـقن لقَـا الحـربِ قبـلَ التحـاربي

رمـاحٌ أمثـالُ النجـومِ سـواريًا ... وأسـيافُها كـالبرقِ فـوقَ السـحائبِ

سـواعدُهم للمرهَفَـات سـواعدٌ ... سـيوفٌ لهـا في الضـرب أي ضـرائبِ

---

(١) انظر: الأغاني (٢٠/١٥٥، ١٦٢، ١٩٥)، وثمار القلوب (ص٢٩١)، وتاج العروس (١/٧٩٨٨).

يـــــرون المـــــوت للهِ مغنمًـــــا عبــادًا وسـعيُهم في حقِـهِ غـيرُ خائـبِ
عجِبتُ من قد مات في غيرِ حُبِّكم ومن لم يمـت في حـبِّكم مـن عجـائبي
عليـه صـلاةُ اللهِ مـا درَّ شـارق ومـا غـابَ في أفُـقِ السَـمَا كـلُّ غائـبِ
فـأرواحُهم عنـدَ اللقـاءِ زواهـقٌ وأجســادُهم مطروحـةٌ في الجبائـبِ
فأعـداؤكم مـع حـبِّهم لي أعـاديَ وأحبـابُكم مـع بغضِـهم لي حبـائبي
فـلا والـدي في بعـدِكم لي والـدٌ ولا ولـدي في بغضِـكم مـن أقـاربي
فلـيَّ النـدا مـني لكـم كـلُّ شـعرةٍ وأسـعى علـى رأسـي وعيـني وحـاجبي
فميـتهم لا يلتقـي غـير ميـت وهـاربُهم لا يلتقـي غـيرَ هـاربِ
كتائـب أنصـارٍ لنصـرِ محمـدٍ بهـا كـلُّ مقـدامٍ وضـيعُ الكتائـب
وأحببـتُ فـيكم كـلَّ ضـدٍّ بجانـبٍ وأبغضـتُّ فـيكم كـلَّ خـلٍّ وصـاحبِ
وأي مكـانٍ كنتمـوا أنـا كـائنٌ فعقلـي وقلـبي حيـثُ كنـتم وقـالبي
وجيشُـهم مِثـلُ السـرابِ انقشـاعُه فكـل حضـري في اللقـا مِثـلُ غائـبِ
وطـيرُ المنايـا حائمـاتٌ علـيهِمُ فـتلقطُهم كالحَـبِّ بـين السباسـبِ
ونبـلٌ كأمثـالِ الجـرادِ سـحائبًا وضـربٌ لوجـهِ الـرأسِ مثـلَ العصـائبِ
ويـتركن أشـلاءَ الأعـاديَ واهيًـا لـوحشِ الفَـلاَ يـذهبَن في كـلِّ ذاهـبِ
ويُخلِصُ في حـبِّ الرسـول اجتهـادُه بتحقيـق صـدقٍ خاليًـا مـن شـوائبِ
يجـرعن مـرَّ المـوتِ كأسًـا شـهيةً ويشـربن كـأسَ الضـيرِ قبـلَ المصـائبِ

فهذه أحوال الرجال المجاهدين في الله تعالى بالأقوال والأفعال، فإن كنت من المحبين لله تعالى ولرسوله ﷺ فلا تأخذك فيه لومة لائم، فإن من أحبّ الله ورسوله أحبّه الله تعالى ورسوله، والمحب لا يشاور في محبوبه ولا يشاء غيره ولا يخاف فيه ملامًا ولا يهاب فيه موتًا ولا يرجو حياة، ومن قصد الله تعالى وأخّر قصده حتى يشاور في ذلك، فذلك دليل على عدم صحة مقصده؛ لأن العزم الصادق لا تدخله الاستخارة؛ لأن الاستخارة تردد، والتردد شك، والشك لا يصحب اليقين.

المشاورة والتخيير

ألا ترى إلى السيدة عائشة حين قال لها رسول الله ﷺ: **«شاوري أبا بكر**[1]**»** حين نزلت آية التخيير فقالت: أفيك أشاور؟ اخترت الله ورسوله ﷺ - رضي الله عنها- وكانت حقيقةً مُحبةً لرسول الله ﷺ متمكنةً من قلبها ممزوجةً بلحمها ودمها، فلم يكن لها قصد في غيره حتى تشاور فيه، ولا تطلب سواه فيقع التمييز ولا التخيير.

وكانت آية التخيير امتحان واختبار لقلوب نساء الأبرار فلنساء رسول الله ﷺ من ذلك أوفر نصيب فوق الاختيار، واختار الله ورسله من اختاره الله في الدنيا والآخرة، وبقيت الشقاوة لمن اختار الدنيا في الدنيا والآخرة، فإن من ادّعى المحبةَ واستشارَ فقد كذب في دعواه وخرج في هواه عن هواه بدعواه كما قيل:

وكلُّ محبٍّ تنثني عَزَماتُه ... لمسترشدٍ فيمن يحبُّ كذوبُ

فلا تقعن يا ولي مع الخذلان في محبة الله ورسوله، وفي عداوة من عادى الله ورسوله، ومن يقول بأضعف الأقوال ويميل إلى الأهواء بالمحال.

فهؤلاء النصارى قد تركوا الشروط اللازمة لهم، وهي ظاهر لا يحتاج إلى بينة ولا دليل، في زيهم ولباسهم وبيوتهم وكلامهم ودوابهم وأقوالهم وأعمالهم، واستهانتهم بالشروط وبالمسلمين، ومخالفتهم الإمام وما يأمر به من ذلك وغيره، وفتحهم الكنائس بعد ما رسم بغلقها، واجتمع الحكام على ذلك.

وكل ذلك ناقض للعهد-لو كان لهم عهد- فإن الصحيح أن ما عقد به لأسلافهم لا يكون وعدًا لهم فيلزمهم، اعقدوا حينئذ أو اخرجوا من البلاد، وإذا لزمهم تجديد العقد لا يدخل فيها الكنائس لو كانت مقررة، فكيف بخلاف ذلك؟ وقد تأكدت الأقوال في وجوب زوالها، فلا تقف مع من قال إن لنا في بلادهم مساجد، فقد قال غير واحد ممن يوثق به إن بلاد الفرنج التي هي الجزائر لا مساجد فيها، ولو كان لنا فيها مساجد لكان خرابها خير من إبقائها؛ لأنهم يهينونها بالقاذورات ويجعلونها

(١) رواه أحمد في المسند (٦/١٨٥).

مأوى للخنازير.

ولو أن من يدّعي هذا القول صدقًا ولما قال محققًا لأنكر على خراب المساجد التي خربها النصارى بمدينة قوص وغيرها، بل ينكر على خراب المساجد التي خربت بالقرافتين، وحمل طوبها وخشبها بمرأى من الناس ومسمع - وهم لا ينكرون ذلك - ومساجد بمصر أيضًا بظاهرها وعند أبوابها.

فكل هذه علل في قلوب المرضى يجعلونها لهم أدلة على ما في نفوسهم من الأمراض ليوافق ما عندهم من الأعراض.

وكذلك يقولون إن لنا في بلادهم جماعة من المسلمين، وهذا الكلام مردود على قائله، فإن المسلمين الذين هم ببلاد الكفار لا يخلون من إحدى حالتين: إما أن يكونوا قادرين على أن يخرجوا من بلادهم أو غير قادرين على ذلك من حيث إنهم مأسورين، فإن كانوا قادرين على الخروج ولم يخرجوا فقد قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء:٩٧]، وإن كانوا مأسورين فيجب علينا إنقاذهم، وينبغي أن نعامل من عندنا من النصارى بمثل ما عاملوا به المسلمين، وأما كونهم يأسرون المسلمين ويهينونهم ونكرمهم نحن ونطلقهم يهدمون في بلادنا، ونترك كنائسهم مع جواز هدمها، فما هذا إلا عين الخذلان، وإشارات الغضب من الرحمن، ولقد أحسن من قال:

لا تطمَعوا أن تهينُونا ونكرِمَكم   وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

الله يعلمُ أنَّا لا نحبُّكُمُ   ولا نلومُكم ألاَّ تحبُّونا

* * *

المعتصم وأسيرة عمورية

لما بلغ المعتصم أن علجًا من علوج[١] الفرنج لطم امرأة أسيرة من عمورية فقالت: وامعتصماه! فقال: لن يجيء إلا على فرسٍ أبلق، فسيَّر إلى سائر الجهات في طلب الخيل البلق، وأبذل عنها الأموال الجزيلة والخلع النفيسة حتى كمل له ثمانية عشر ألف أبلق -وقيل ثمانين ألفًا- وكان المنجمون يقولون إنها ما تفتح إلا على زمان التين والعنب، وإنها في غير زمان التين والعنب يكون عليها خنادق وحصون وغير ذلك.

وكانت همته عالية، فلم يلتفت إلى شيءٍ من هذه الأقوال، فسار إليها بقوة العزم وصدق النية والمجاهدة في سبيل الله والغيرة على دينه، ففتحها الله على يده، ولم تكن فتحت قبل ذلك، وسبا وقتل وأحرقها بالنار وأحرق جمعًا كثيرًا، وأحض العلوج وأميرهم بين يديه وهو راكبٌ على فرسٍ أبلق وقال له: قد جئتك على فرس أبلق.

فهكذا تكون الهمم، وهكذا يكون العزم كما قيل:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... ويأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

ويَعظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها ... ويَصغُرُ في عينِ الكريمِ العظائمُ

ولما استكمل الفتح ومنَّ الله تعالي بالنصر أنشد خبيب بن أوس الطائي قصيدة في المعتصم في هذا الفتح يقول:

السّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعَبِ

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ ... في متونِهن جلاءُ الشكِّ والرِّيَب

والعلم في شهبِ الأرماحِ لامعةٌ ... بين الخميسين لا في السبعةِ الشُهُبِ

واستمرّ في القصيدة حتى ذكر السبي، وذكر العمورية وسببها وقال:

لم تطلُعُ الشمسُ فيه يومٌ دالٍ ... بيانٍ بأهلٍ لم يَعرفْ على عَزَبِ

على

---

(١) هو الرجل من كفار العجم. القاموس المحيط (١/٢٥٤).

ومعنى ذلك أن الشمس ذلك اليوم ما طلعت على من له زوجة في عسكر المسلمين فسبي لما فتحوها، فما غربت الشمس على غارب إلا وصار لكل واحدٍ من العسكر من النساء على قدر ما حصل له من السبي- ثم قال:

هو الشمسُ طالعةً من ذا وقد أفَلت   والشمسُ آفِلةٌ مِن ذا ولم تَغِبِ

وذلك أنه لما أحرقها بالنار صار الليل كالنهار، وقيل أنهم بقوا ثلاثة أيام يبيعون ويشترون في ضوء النهار بالليل- فهذا معنى قوله: «والشمس طالعة من ذا وقد أفلت» فجعل ضوء النار كطلوع الشمس.

«والشمس آفلة من ذا ولم تغب» معناه أن الشمس أفلت، والنور والضوء باقيان مكانها لم يغيبا، ثم ذكر من حرقٍ بالنار وتكذيب المنجمين فيما قالوه إنها ما تفتح إلا في زمان التين والعنب فقال:

خمسين ألفا كأسَّادِ الشَّرا   نضجت جلودُهم قبلَ تفتحِ التينِ والعنب

فكذب المنجمون فيما قالوه، وإنها فتحت قبل الأوان الذي عينوه.

وقصة عمورية مشهورة بطولها، فلا حاجة إلى ذكرها، وإنما نبهنا على قوة عزمه في دين الله -تبارك وتعالى-[1].

كتاب ملك الروم للمعتصم

وكذلك لما أتاه كتاب ملك الروم وقرئ عليه -وكان المعتصم أُميًا- فقال: اكتبوا الجواب، فكتبوه وقرئ عليه فلم يعجبه تكثُّر الألفاظ وقال:

اكتبوا له:

وصل كتابك وفهمناه، والجواب ما ترى لا ما تسمع، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد:٤٢].

فلما خرج البريد من عنده بالكتاب جعل رجله في الرِّكاب وسافر إليه وفتح الله على يديه وفعل ما فعل، وهكذا كانت عزماته في الله تعالى، وكذلك عزمته في قتله الأفشين وكان منقلبًا على الدولة، وكان يُنسب إلى المجوسية، فلذلك قال حبيب ابن أوس في قصيدته:

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/٢٨٢).

الحــقُّ أبلــجٌ والســيوفُ عــواري فحــذارٍ مــن أســدِ العــرينِ حــذارِ

وكان لما قتله أحرقه بالنار فقال حبيب[١]:

صَــلا بهــا حيًّــا وكــان وقودَهــا ميتًـــا ويــــدخلُها مـــع الكفــــارِ

وكان الأفشين[٢] هذا متغلبًا، قبض مرة على أبي دلف العجلي[٣] فقال أبو دلف لشخص: أدركني بالقاضي أحمد بن أبي داود، فراح وأعلم القاضي، فركب القاضي في جمع من الشهود وجاء إلى الأفشين، فوجد أبا دلف قد غضب وأتى له بالسيف والنطع ليضرب عنقه. فقال القاضي للأفشين: أمير المؤمنين يقول لك: لا تُحدث في أمر أبي دلف حدَثًا إلا بعد مؤامرته، اشهدوا يا شهود إنني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين وأبو دلف حي يرزق.

ثم ركب القاضي وأتى الخليفة وطلب الإذن، فدخل فقال: يا أمير المؤمنين، كذبت عليك كذبة نجيت بها نفسًا مؤمنة من القتل. فقال له: وما ذاك؟ فقصّ عليه القصّة، فقال له: اجلس، فجلس القاضي، وأتى الأفشين على أثره فقال له أمير المؤمنين: كنا أرسلنا لك القاضي ألاّ تحدث في أمر أبي دلف حادثًا، قال: فعلت يا أمير المؤمنين، قال: أحضره فأحضره فتخلّع عليه -أو كما قال- وكان أبو دلف هذا من أرباب المكارم والهمم العالية، أهدى إلى المأمون يوم نيروز إلى الخطايا ستمائة حمارة، وعلى كل حمارة حمل زعفران فقالوا له: حضرت هدية أبي دلف وهي كذا، فقال: انظروا، هل هي ابن أم أعيار فقالوا: أَبِنْ، فقال الرجل: أغُفِلَ ذلك؟ أدخلوها الخطايا فتفرّقوها.

---

(١) البيتان في الأغاني (١٦/٤١٩)، والمثل السائر (٢/٢٢٩).

(٢) هو رئيس الملوك الأعاجم.

(٣) عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزيز بن دلف ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قُواد المأمون والمعتصم، وإليه ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا -صاحب كتاب الاكمال- وكان القاضي جلال الدين خطيب دمشق القزويني يزعم أنه من سلالته ويذكر نسبه إليه، وكان أبو دلف هذا كريمًا جوادًا ممدحًا قد قصده الشعراء من كل أوب، وكان أبو تمام الطائي من جملة من يغشاه، ويستمنح نداه وكانت لديه فضيلة في الأدب والغناء، وصنف كتبًا منها: ساسة الملوك، ومنها في الصيد والمبارزة وفي السلاح وغير ذلك. البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٤).

مكارم أبي دلف

وكانت له مكارم مشهورة، قيل أنه جاءه ثلاثة من الأشراف فقالوا له: الأشراف على بابك فأذن لهم في الدخول، فدخلوا فقال لهم: ما حاجتكم؟ فطلبوا منه زوادة فقال: أعطوني خطوطكم إلى رسول الله ﷺ فكتبوا له، فأعطى كل واحد سبعة آلاف دينار.. وقيل كانوا سبعة، فأعطى كل واحد ثلاثة آلاف دينار.. والله تعالى أعلم أي ذلك كان؟!.

القاضي أحمد بن أبي داود[1]

وللقاضي أحمد بن أبي داود في مثل هذه الوقائع العجب العجاب، فإن الصدقات والمجاهدات بالألسن أيضًا، ففي هذه الواقعة من الخير ما لا يُحصر، وكذلك لما غضب أمير المؤمنين على عماله من الكُتّاب وغيرهم، واحتاط على على أموالهم وحبسهم -وكانوا جمعًا كبيرًا- ومرض المرض الذي مات فيه، طلب القاضي أحمد.

فلما حضر القاضي قال له عن الصدقات والقربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، وسأله ما يفعل، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن في جيوشك أقوامًا من عمّالك وكتّابك ولهم عيال وأطفال أعينهم باكية وأكبادهم جائعة وقلوبهم متألمة وأكفهم مبسوطة يدعون عليكم؛ فلو أن أمير المؤمنين يأمر بإطلاقهم يكون ذلك من القربات إلى الله تعالى. قال: قد فعلت.

قال: يا أمير المؤمنين، إن في بيوت المال من أثاثهم وأموالهم وقماشهم ما لا حاجة لبيت المال به ولا يحتاج له، فلو أن أمير المؤمنين تصدّق عليهم بذلك. قال: قد فعلت.

قال: يا أمير المؤمنين، إن قلوبهم منكسرة، وكان لهم أرزاق وهم غلمانك، فلو أن أمير المؤمنين تصدّق عنهم بإجراء أرزاقهم. قال: قد فعلت.

---

(١) هو مكرم بن مسعود بن حماد بن عبد الغفار بن سعادة بن معقل بن عبد الحميد بن أحمد بن محمد ابن تاريخ الإسلام قاضي القضاة أحمد بن أبي داود الإيادي. ولد سنة ست وخمسين وخمسمائة. انظر: تاريخ الإسلام (١/٤٦٨٢).

ولي القضاء ببلاد الروم . وقدم مصر وحدث عن عبد المنعم ابن الفراوي روى عنه الزكي المنذري

قال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد علموا غضبك عليهم ولم يعلموا رضاك عنهم، فلو أن أمير المؤمنين جبرهم بخلع تخلّع عليهم ليُزال عنهم كلما كان قد حصل لهم ويحصل الثواب لأمير المؤمنين. قال: قد فعلت.

قال: فاكتب خطّك فقال: اكتب عني؛ فإني لا أقدر أكتب. قال: يا أمير المؤمنين، أنا أحملك في صدري، فحمله في صدره وأخذ القلم، وجعل يد أمير المؤمنين فوق يده وهو يكتب حتى كتب جميع ذلك، ثم أخذ المرسوم وخرج فوجد الأفشين في الطريق فقال له: هذا خط أمير المؤمنين بإطلاقهم وأموالهم وأرزاقهم والخلع عليهم فقال: حتى أشاور أمير المؤمنين فقال: المرسوم معي ألاّ أفارقك حيث وجدتك حتى تفعل، فلم يفارقه حتى فعل جميع ذلك، فأصبح القوم -وهم تقدير ثلاثمائة فارس- على بابه، فحلف عليهم ألاّ يفعلوا.

فهكذا يكون أهل العلم والحكام إذا أقيموا في مثل هذه المناصب الدينية، يتصرفون فيما هو الأنفع للمسلمين، فإن هذه الوقائع ممن جلس من القضاة بقوص والفقراء يضربون ويحرسون من غير وجه شرعي ولا يثبت على واحد منهم شيء، والمصيبة أن ذلك بسبب النصارى.

أمّا الفقراء من الصلحاء وقرّاء القرآن فلم يدفع عنهم ولا قام وتركهم حتى يجد الظالم حجة بأن يقول ما فعلت إلا والقاضي حاضر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عزمات صحيحة[(١)]:

عزمة عبد العزيز المكي

ومن العزمات الصحيحة عزمة عبد العزيز المكي حين سمع أن بشر المريسي يقول بخلق القرآن ببغداد، وأنه استولى على المأمون واستماله على ذلك، قال: فخرجت ماشيًا من مكة شرّفها الله تعالى ومعي ولدي حتى وصلت إلى بغداد، فوافيت صلاة الجمعة وأمير المؤمنين بالجامع، فقلت لولدي: إذا فرغ الناس من الصلاة قف عند ذلك

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي (٨/٤١)، وتاريخ الإسلام (١/١٥٦٠)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص١٥).

السارية من سواري الجامع وقل لي: يا عبد العزيز المكي، ما تقول في القرآن؟ قال: فلما فرغت الصلاة قام ولدي وقال: يا عبد العزيز المكي، ما تقول في القرآن؟ فقلت: كلام الله تعالى منزّل غير مخلوق.

قال: فهجّ الناس من الجامع على بعضهم بعضًا، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا مسحوبٌ على وجهي حتى جاءوا بي إلى بيت أمير وجعلوني في الأغلال والقيود وقالوا: أتخالف مذهب أمير المؤمنين؟ وجعلوا يخيفونه تارة وتارةً يرجونه ويعدونه بالإحسان من أمير المؤمنين والعطاء والمنزلة عنده إذا وافق على مذهبه، وعبد العزيز على حاله، وطلب أن يعقد له مجلس مع بشر المريسي.

قال: فبينما هو على تلك الحال وإذا بالأمير الذي عنده قد طلبه وقال له: يا عبد العزيز، أعلمك أن هذا الذي أنت رائح إليه أمير المؤمنين، وهو مخلوق مثلك، وهو بشر ما هو ملك، فإن كنت على الحق فاثبت ولا تخف إلا الله تعالى فإنك سترى هولاً عظيمًا.

قال: وفكَّ القيود عني وحملوني إلى دار الخلافة، فلما رفع الستر عن الأبواب رأيت أمرًا عظيمًا، وإذا في قاعة الإيوان ثلاثمائة ألف سيف مشهورة وقد نزلت عليهم الشمس وهم وقوف بين يدى أمير المؤمنين المأمون والناس سكوت لا ينطق ناطق فقال: أدنوه فقربوني وهو يشير إلي أن أقترب فقرّبوني إلى أن وقفت بين يديه وهو على الكرسي فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال لي: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم سكن هنيهة ليسكن بذلك روعي، ثم أمر بالجلوس فجلست فقال لي: من أين الرجل؟ فقلت: من مكة، فقال لي: أتعرف كذا؟ أتعرف بني فلان؟ وجعل يعدد علي بيوت أهل مكة ليؤنسني بذلك حتى يسكن روعي، وحصرت على مكالمته فقال لي: يا عبد العزيز، أعلمك أن هذا بشر المريسي وأنت، وليس لنا قصد في غير الحق، فإن يكن الحق معك كنّا معك، وإن يكن الحق معه كنّا معه، فلا تُبقِ في نفسك شيئًا ولا تخف من شيء، وها أنا أسمع لكما.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كن حكمًا بيني وبين بشر. قال: نعم. فقلت: يا بشر، بم تريد أن أجادلك أو أخاطبك، بالمعقول أو بالمنقول؟ فقال: بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فقلت: يا أمير المؤمنين، اشهد لي على بشر، ثم قلت له، ما دليلك على أن القرآن مخلوق؟ فقال: قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل**﴾

[الزمر:٦٢]، والقرآن شيء، وكل تقتضي العموم.

فقلت له: فقد قال الله تبارك وتعالى مخبرًا عن بلقيس: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ [النمل:٢٣]، وقد كان ملك سليمان عليه السلام أعظم من ملكها بكذا وكذا وما فُوِّتَ منه ذرة، فلو كانت كل تقتضي العموم كان لها من ملك سليمان عليه السلام شيء، فقال وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [الحجر:٩١]، والجعل هو الخلق، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشهد على بشر، فإنه جعل لله تبارك وتعالى بنات، فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**﴾ [النحل:٥٧]، فلو كان الخلق هو الجعل والجعل هو الخلق لكانوا يخلقون لله البنات، فجعل يحيد عن الجواب وموضع الدليل على بشر عندي في قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة:٢٢٤].

ومن المستحيل أن يكون الجعل هو الخلق ويقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**﴾[البقرة:٢٢٤]، فتكون بمعنى (ولا تخلقوا الله) وهذا من المحل المحال(١).

وعلى الجملة فقد قطعه عبد العزيز، ورجع أمير المؤمنين إلى عبد العزيز وأكرمه وأحسن إليه، وصُنِّف في ذلك كتابًا سمي «**الحيدة**(٢)» مشهور.

ولقد ذكرنا عبد العزيز لمكان عزمته في الله تعالى، وقيامه بالغيرة في دينه، وتعريضه نفسه للمهالك، ومشيه من مكة شرفها الله تعالى إلى بغداد حتى يظهر دين الله تعالى، ورغم وحدته وغربته يقاوم مثل الخليفة وبشر المريسي، فانظر إلى نفسك يا وإليه، وقس حبك في الله تعالى على قدر بغضك لأعداء الله تعالى وعزمك فيه.

عزمة الأمير شمس الدين الحلبي

ولقد حكي عن الأمير شمس الدين الحلبي حكاية أعجبتني منه في قوة عزمه

---

(١) وانظر في مسألة خلق القرآن: البرهان، والمناظرة، والرد على ابن عقيل وذم التأويل، لابن قدامة، والاختصاص للضياء، ومحنة الإمام أحمد لعبد الغني المقدسي، جميعهم .

(٢) وهو فيما جرى بينه وبين بشر المريسي في مسألة خلق القرآن، وهو مطبوع عدة طبعات.

وشدته في دين الله تعالى بين أعداء الله تعالى وهو وحده قال: لما أرسلني السلطان الملك الظاهر رحمه الله تعالى إلى بركة ملك التتار، عوقنا الأشكري عنده مدة -ربما قال سنة- قال: فبينما أنا ذات يوم جالس وإذا بإنسان من الفرنج العلوج من الذين يكونون بين يدي حاكمهم ويشرعون لهم فقال لي: قم كلّم... وذكر اسم الذي يحكم بينهم وغاب عني اسمه، فقمت وجئت فوجدته جالسًا وإلى جانبه اليمين شخص من الكبار في دينهم وعلمائهم، وإلى جانبه الشمال آخر، فادّعى علي إنسان ما أعرفه ولا رأيته قط بثلاثمائة دينار -أو قال ستمائة دينار- فقلت: لا يستحق علي شيئًا، فقال حاكمهم: تُحلّفه وتعطيه، فقال: والله ما أُحلّف هذا الزبل إلا إن كانت له بينة تشهد علي أعطيته، واليمين عليَّ لا عليه، وقمت وخرجت من عندهم لما رأيت هذا الحكم المخالف لحكم الله تعالى ولم ألتفت إليهم.

قال: فبينما أنا عند داري التي أنا ساكنها، وعندي مماليك وصحاب، وإذا بذلك الرسول الذي كان جاء أولاً قد جاءني وبيده زقاية وقال لي: قم كلّم يا ابن الفاعلة- وذكر القاف والحاء والباء والهاء- وإلا كسرت رقبتك بهذه الزقاية قال: فما كلمته بكلمة واحدة، غير أني قمت إليه ولكمته لكمة أسقطته على الأرض، وجعلت أرفس في بطنه برجلي وفيها المهاميز إلى أن تركته لا يقدر على القيام، ولا تركت أحدًا من المماليك يصل إليه، وكان هناك خياط نصراني قريب منا لم يكن هناك غيره.

قال: فقام وراح حتى اشتكى، وإذا بخمسمائة فارس قد جاءت إلي وقالوا لي كلم السلطان، فقمت وجئت إلى عند الأشكري، فوجدته جالسًا وذلك الحاكم جالس إلى جانبه ومعه هذان الجالسان عن يمينه وشماله، فقام عند حضوري وقال:

يا أمير -أو يا شمس الدين- إذا سَبَّ أحد في بلادكم محمدكم وشريعتكم إيش تعملون فيه؟ قلت: نقطعه قطعة قطعة، فقال: فكيف تسب شريعتنا ومسيحنا؟ فقلت: من قال عني ذلك؟ فقال: هذا الحاكم -أو هذا بالاسم الذي يسمّونه عندهم- فقلت لذلك الحاكم: أنت سمعتني أسب المسيح أو شريعتكم؟ قال: لا، إلا هذا. قال لي: يعني الرسول الذي جاء من عنده وضربته، فقلت له: الحاكم يسمع قول الخصم علي خصمه، فقال: أما كان بينكم أحد يشهد؟ قلت: ما كان عندنا أحد إلا خياط

نصراني.

فطلب الخياط فحضر فقال له الملك: يا خياط، لا تنظر إلي ولا إلى أحد، وقل الحق وما يخلصك من الله تعالى، فقال الخياط: أنا كنت جالسًا وهذا الرسول قد جاء وقال لهذا الأمير: قم كلم يا ابن القحبة وإلا كسرتك بهذه العصاية أو كما ذكرها، فلم يكلمه كلمة واحدة إلا أن قام ولكمه ووقع، وجعل يدوس في بطنه وأحشائه، وذكر القصة على حالها فقلت: يا ملك، نحن في بلادنا لو سبّ واحد المسيح لفعلنا به ما يناسبه، والرسالة واحدة.

فقال الملك: يا فلان، إن كلمتك يقول السلطان: «الملك الظاهر عمل علي رسولي» ولكن تخرج أنت وغريمك إلى الحرب، فإن كان ظالماً عليك فالله ينصرك عليه، وإن كنت ظالماً عليه فسينصره الله عليك، فقلت: السمع والطاعة فقال: غدًا إن شاء الله تعالى.

قال: فلما أصبح الصبح قمت، فتألم الأصحاب والمماليك لذلك، فصبحت عليهم وأصلحت الركبتك ولم ألبس لامة الحرب ولا لبست غير قميصي وثياب العادة، وأخذت دبوسًا وركبت، وجئت لأجد السلطان واقفًا ومعه العسكر وهم ينتظرون حضورنا.

فلما حضرت قال لي: لم لا تلبس عليك لامة حربك لئلا يحصل لك شيء ويقال السلطان نصر عليك رسوله؟ فقلت له: يا ملك، إن الله تعالى كان قد فرض علينا أن يقاتل كل واحد منا عشرة منكم، فخفف علينا فجعل على كل واحد اثنين، فإن فرّ منهما دخل النار، وأنا ذا أحل الملك من دمي، وتحضر لي عشرة ملبسين من جيشك ممن تختارهم، وأنا وحدي لا ألبس غير ثيابي، فإن قتلوني فأنتم في حلٍّ وأنا فما أقتل أحدًا منهم إلا أُعلَم عليهم الجميع.

فاستعظم الملك هذا القول وربما صلّب علي وجهه، وبقينا وقوفًا ننتظر الغريم أن يحضر، وأرسل السلطان خلفه فقال إنه مريض فقال: احملوه فحملوه وهو مكسّر فقال لهم: ما أصابه؟ فقالوا: شرب البارحة فوقع فتكسّرت أضلاعه، فقال الملك: وحق ديني هو ظالم عليك، ثم قال لي: يا أمير، ماذا يقول محمدكم عن مسيحنا؟ قلت: يقول عنه

إنه رُوح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

فقال: بحق دينك؟ قلت: إي وبحق ديني فقال: عند ذلك ما محمد ألا رجل جيد، ثم التفت إلى القساوسة والأساقفة وقال لهم: يا نصارى، إيش تريدون من محمد أكثر مما قال لكم؟ وحق ديني ما محمد إلا رجل جيد.

ثم سافرنا من عنده، فلما وصلنا إلى بلاد بركة بغداد بعد ستة أشهر أسوق في جرالي العسكر، فلما وصلت إليه وجدته في خيمة عظيمة مبطنة بالسَّمُّور- قَيّمت السمور[1] بثلاثمائة ألف دينار- وهو جالس على كرسي وزوجته على جانبه الأيمن والحواريين إلى جانبها، والملوك والأمراء على يساره، وآلة الطرب تضرب بين يديه.

فسلّمت وخدمت وأعطيت الكتب، والوزير واقف بين يديه، ثم رجعت إلى المكان الذي أنزلوني فيه إلى أن ينجز الجواب بتمامه لي الوزير، فوجدته كتب ثلاثة كتب: كتاب بالمغولية وكتاب بالتركية وكتاب بالعربية، عليهم علامات المِلك، مثل ما يكتب لعماله وغلمانه ومن هو تحت يده، فقلت للوزير: أنا ما أحمل هذه الكتب، فقال لي: تقول عن كتب ملك البسيطة ما أحملها؟! وقال لي: أنا بريءٌ من دمك، فقلت له: قل له وأنت بريء من دمي.

قال: فدخل وقال للملك ذلك القول، فطلبني الملك فجئت وسلمت فقال لي : ادنُ، فدنوت فقال أدنوه، فجعل يقرّبني إلى أن أجلسني بين يديه وقال لي: إيش منعك من حمل الكتب؟ فقلت له: يا ملك البسيطة، كان مكانك الملك الظاهر ملك البسيطة، ولم يرسل إليك لا خوفًا منك، ولا طلب منك إعانة ولا عسكرًا ولا مالاً، وإنما بلغه أنك على دينه، والمسلمون يدٌ واحدة، وفي شريعتنا أن كل من كان مسلمًا كان له ما لنا وعليه ما علينا، وسيِّرني، وستخبر ذلك حتى يقوم بما يجب عليه من الدين في حقك، وإذا احتجت إلى مساعدة ساعدك، وكذلك أنت؛ لتكونوا أعوانًا في دين الله تعالى -أو كلام هذا معناه- فلمّا كتب إليك الكتب كتب المملوك، ولما رأيت كتب الملك وجدتها مثل ما يكتب الملك لغلمانه وعمّاله، فقلت ما أحملها فقال لي: وكيف

(١) هو اسم حيوان ببلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس، ومنه أسود لامع. انظر: المصباح المنير للفيومي (ص ٢٨٨).

تريد أن أكتب؟ فقلت: تكتب مثل ما كتب لك، فقال للوزير: اكتب له كذلك، فرأيت وجهه تهلل، فعند ذلك تكلم بنو عمّة المغول والملوك وجعلوا يقولون بلسانهم المغولي -وأنا أعرف لسانهم- وهم يقولون: انظروا إلى ابن الفاعلة هذا وجسارته في مثل هذا المجلس، فقال أحدهم ما جسره على ذلك إلا الملك؛ لأنه يعلم أنه على دينه، فلذلك تجاسر.

قال: فقام واحد من الملوك وأخذ من الملك إذنًا أن يضيّفني، فرسم بذلك، فخرجت حتى جئنا إلى خيمة ذلك الملك، ثم جلسنا ساعة، فالتفت إلى وقال: ما تقول في هذا الكلام العظيم الذي تكلمت به اليوم بين يدى ملك البسيطة؟ لابد أنه مع الملك الظاهر جيش حتى تتكلم بهذا الكلام، فجاء على لساني غلطة فقلت: خمسمائة ألف فارس.

وكان واحد في ركن قاعدًا، فأخرج رأسه وقال لي: والله كذبت، كان جيش السلطان الملك الكامل كذا وكذا، وجيش السلطان الملك الصالح كذا وكذا، وجيش السلطان الملك المعز كذا وكذا، وجيش السلطان الملك المظفر كذا وكذا، وجيش السلطان الملك الظاهر كذا وكذا، فوالله لم يخطئهم حرفًا حتى كأنه كاتبًا للجيش فقلت له: لكن فاتك شيء، كم كان في بغداد؟ قال: كذا وكذا، قلت: تعرف أين هم بعد؟ من قُتل منهم؟ قال: لا فقلت: بديار مصر، ثم قلت: كم كان في حلب؟ قال: كذا وكذا فقلت: تعرف أين هم؟ قال: لا فقلت: بديار مصر، وجعلت أعدّ عليه البلاد التي أخذها التتار وهربت عساكرها، وأن الجميع انحشروا بديار مصر، وأن السلطان الملك الظاهر زيادة على ذلك حتى صاروا إلى هذه الجملة.

ثم أرسل الملك يطلبني فدخلت إليه فوجدته وحده، فأشار إلي فقربت منه حتى قبّل بين عينى وقال لي: اليوم ملأت قلبي شحمًا بين أعداء الله تعالى في هذا المجلس العظيم حتى يعتقدون أن المسلمين أقوياء في دينهم، فإنهم يقولون إذا كان هذا كلامه في غير بلاده في مثل هذا المقام، فكيف يكون في بلاده وقوته وعسكر سلطانه؟

ثم أعطاني جاريتين وأعطاني ذهبًا وغاب عني كم هو فتسرّيت بواحدة، وهي أم أولادي والواحدة جئت بها إلى السلطان الملك الظاهر، فهي أم ولده.

ولقد ذكرنا هذه الحكاية لشدّة العزم في الدين وشجاعة القلوب من قوة الإيمان واليقين؛ إذ لا يصيب العبد إلا ما كتب له، وما كتب له لا يخطئه كما قال الإمام علي كرم الله وجهه يوم صفين:

أيُّ يـــومٍ مـــن المـــوتِ أفِـــرُّ   يـــوم لا قـــدَّرَ أم يـــومُ قـــدَر
يـــومٌ لا قـــــدَّرَ لا أرهبُـــــه   ومـــن المـــوتِ لا ينجـــوَ الحـــذِر

وقول عنتر بن شداد العبسي وإن كان جاهلاً ولم يدرك الإسلام فقد قال:

إذا مـــا كنـــتُ في قـــومي نـــزيلا   وأمسُـــوا خـــائفين مـــن الأعـــادي
فـلا قَبَضَـتْ كفَّـاتُ الـرُّمحِ كفِّـي   ولا كحّلَـــتُ جفـــوني بالرقـــادي
ومـــا أســـري وبيـــتُ اللهِ غيـــبٌ   وقـــد حريـــت في يـــوم الأعـــادي
أُســـــرت بحيلـــــةٍ وقضـــــاءِ ربٍّ   لـــهُ بطـــشٌ شـــديدٌ في العبـــادِ
يســـوقُ المـــرار عمَّـــا في زمـــام   إلى طـــرقِ الصّـــلاحِ أم الفســـادِ

فانظر إلى هذا الذي لحظه من القضاء، وأنه أُسر بقضاء الله وقدره، وأن جريان الأمور على ما يختار من الخير و الشر، فلذلك قوي قلبه وظهرت شجاعته وقال تلك الأبيات التي كتابها اعتبارًا في معنى العبودية، وإن لم يكن خطر له ما خطر لنا، ولا علم من الحق وواجب الإيمان بالقضاء والقدر وحقوق العبودية لله تعالى، وإن لم يعلم ما علمنا ولا كُلّف ما كُلّفنا فقال:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتبُ   ولا ينـال العُلـى مَـن طبعُـه الغضـبُ
مـن كـان عبـدَ القـومِ لا يخـالفْهم   يرضَ رضـاهُم ويغضـبْ كلّمـا غضِـبوا
لله درُّ بـــني عـــبسٍ لقـــد نســـبوا   من الشـجاعة مـا لا تنسِب العربُ
ســيوفها تــتركُ الســاداتِ جاثيــةً   تحـت العجـاجِ سَـرايا مـا لهـا نسـبُ

وهنا سؤال لطيف وجوابه ألطف منه إن شاء الله تعالى، وذلك أنه ذكر أن سيوفها تترك السادات جاثية بلا نسب، والسادات ما تعرف إلا بأنسابها مع حسن

صفاتها- لا سيما العرب في الأنساب- فكيف تكون السادات بلا أنساب؟ فعنه جواب وهو أنه يقول: إن السيد ما يعرف من العبد إلا بوجهه ورأسه، وهذا قد تقطّع بالسيف الرءوس، فتطاير عن الجثة وتبعد منها فلا تبقى إلا الجثة بلا رأس فلا يعرف جسد السادات من العبيد، فتُحمل الجثة ولا يُعرف نسبها.. وقوله أيضًا:

مـن كـان مسـروراً بقتلِـهِ مَلِـكٍ فليـأتِ نـزلتَنا بوجـهِ قهّـارِ
يجـد النسـاءَ حواسـرَ يندبْنَـه يخمِشـن أوجُهَهـنَّ بالأظفـارِ
قـد كـنَّ يخفـينَ الوجـوهَ تصـوُّنًا واليـوم حـين بَـدَينَ للأنظـارِ

وهذا في الظاهر منا في الغيرة ولنكاية العدو؛ إذ يقول لأعدائه: إن كنتم شهدتم بقتله فتعالوا تبصروا نساءنا متهتّكات مكشوفات الوجوه على الصورة التي ذكرها؟

لكن له معنى آخر صحيح في عادة العرب، وذلك أنه من عادة العرب ألاّ يبكون على ميتهم على هذه الصورة إلا بعد أخذ ثأره، فإذا أخذوا ثأره عملوا مأتمه على هذه الصورة المذكورة، فكأنه يقول: إن كنتم قد سررتم بقتل ملك فتعالوا تبصروا ما يحزنكم من أخذ ثأره.

ولقد ذكرنا عنترًا -وإن كان جاهليًا- إلا لتحريض القلوب المؤمنة التي قد عرفت من الله تعالى ما عرفت وما ادخره لها في الدار الآخرة على جهادها في سبيله حتى ذكر أنهم أحياءٌ يرزقون فرحين، والله تعالى مستحق أن يجاهد فيه وفي سبيله ولو ذهبت الأرواح وصارت إلى لا شيء، فكيف وقد أخبر بما أخبر في ذلك؟ وقد جرى في ذلك ما لا ينحصر.

حكايات في معتقدات الهنُود

وللهنود في ذلك حكايات:

فمنهم من يحرق نفسه في النار.

ومنهم من يقتل نفسه تقرُّبًا إلى الله تعالى على زعمهم، ولا يكون ذلك تقرُّبًا إلى

الله تعالى إلا إذا أمره به.

وأما تدافنهم في النار فلا شك فيه.. أخبرني بذلك جماعة ممن رأى ذلك من التجار وغيرهم.

وأخبرني القاضي سراج الدين أبوعبد الله بن الصابوني -رحمه الله تعالى- أنه كان بالهند فسمع بميت مات، قال: فخرجنا لنرى ما يفعلون به قال: فجمعوا حطبًا، وجعلوه في جورة وأشعلوا فيه النار -وربما قال الزيت - وجاءوا بالميت ورموه في تلك النار، وجاءوا بزوجته وعليها الثياب والحلل والجواري حولها ويزفونها وهي مقلدة بحوض المقل، وذلك أنهم يكتبون عليه كتابة لمن مات من آبائهم وأبنائهم وقرابتهم، فكل من قصد كتابًا جاء به إلى تلك المرأة. قال: وهي راكبة حتى قَرُبَت فأنزلوها وقربوها من النار، فربما تلكأت فدفعوها في النار فاحترقا جميعًا.

فهذا فعلهم في الزوجين، وكذلك يفعلون بالملك إذا مات، فكل من كان حِبًّا له أو من ينتمي إليه يحرق معه، فإذا احترق الملك أخذوا رماده وجعلوه في قارورة مع الوزير، فإذا رأى ولده قد تكبر أو تجبر نفخ في وجهه من ذلك التراب فيسكن غضبه ويعلم أنه صائر إلى ذلك.

ومنهم من يقتل نفسه ويجعل له سكينًا على هيئة سكين القصاص لكنها ماضية جدًا ولها مقبضين، إذا قصد التقرّب بنفسه جعلها على عنقه من قفاه وحصد عنقه بيديه الاثنتين، فتسقط رأسه وتبقى الجثة بلا رأس في ساعتها ملقاة في النار.

ومنهم من يعلّق شعره بشجرة ويحصد رأسه في تلك الهيئة، فتبقى رأسه معلقةً في الشجرة.. كل ذلك نووا به التقرّب إلى الله تعالى على زعمهم، فالحمد لله رب العالمين الذي مَنَّ علينا بالإسلام واتّباع النبي ﷺ ولطف بنا في جميع الأحكام، فقد كانت التوبة لمن قبلنا القتل قال الله تعالى:

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

العزمات

والعزمات كثير، حتى في غير التقربة إلى الله تعالى، أو في محبة الآدميين بعضهم بعضًا، وأعرف شخصًا يُسمى محمد من أهل قفط دخل أخوه في مكان لهم وفيه دابة وغنم ليعلفها، وكان معه سراج وكان الليل، وهم أناس يعملون الكتان، فكان في البيت

من الكتان الذي لم يصلح شيء كثير، فسقط السراج في الكتان فاشتعل وحال بينه وبين أخيه، فصاح لأخيه لينقذه فهجم على أخيه في النار وأخرجه فاحترقت أجسامهما وعالجوهما مدة كبيرة واستراحا، غير أني رأيت محمدًا -وكان ممن يتردد إلينا- وكان جسمه على حال عجيب وكان محمد هو الذي هجم في النار وأخرج أخاه وسلمت عيناه، وكان يكتحل علىِ وِجهه وقايةُ.

قتلى الحب الإلهي

وأما من قتل نفسه في الحب، فذلك كثير لا يكاد يحصى، وليس ذلك من غرضنا إلا سلوكًا للطريق وتحريضًا للهمم الفاترة وتشويقًا للسالكين ليعلموا أن غيرهم أذهب نفسه لغرض زائل وأمر حائل وهم يطلبون رب الأرباب ومالك الرقاب الذي بيده الحياة والموت والخير والشر والنفع والضر والسعادة والشقاء والفناء والبقاء لا إله إلا هو مالك الدنيا والآخرة، فكيف بمن يكوِن هذا مطلوبِه لا يحسب لحياته حساب.

ذمّ الهوى

ولقد حُكي في ذم الهوى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سأل عمرو بن معدي كرب فقال: يا عمرو، أخبرني عن أحيل من لقيت، وأجبن من لقيت، وأشجع من لقيت.

فقال: يا أمير المؤمنين، كنت أشنُّ الغارة، فرأيت فارسًا لابس لامة[(١)] حربه وهو راكب على فرسه، فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فأنا قاتلك لا محالة.. فقال لي: ومن تكون؟ فقلت: عمرو بن معدي كرب، فسكت، ودنوت منه، فوجدته قد مات، فهذا أجبن من لقيت.

وأما أحيل من لقيت: فكنت أشنُّ الغارة وإذا بفارس في وهدة من الأرض لقضاء الحاجة، وفرسه مشدودة وعليه لامة [حربه]، فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فإني قاتلك لا محالة.. فقال: يا عمرو، ما أنصفتني، أنا في وهدة من الأرض وأنت على فرسك لابس لامة حربك، فقلت: وما تريد؟ فقال: تعطيني عهدًا ألاّ يصل إلي منك سوء حتى أكون كما أنت.. فقلت: ولك ذلك، فقضى حاجته، واحتبأ بكسائه،

(١) هكذا في الأصل.

وجلس فقلت له: لم لا تركب؟ فقال لي: لست براكب ولا محاربًا لك، فإن شئت أن تنقض عهدك فافعل.. قال: فتركته ومضيت.

وأما أشجع من لقيت: فكنت أشن الغارة وإذا بفارس على فرسين وحده -وربما قال ثلاثة فرسان- فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فإني قاتلك لا محالة.. فلم يلتفت إلي ولا اكترث بكلامي، فناديته الثانية فلم يلتفت إلي، بل قال: الويل لك، ومن تكون؟ فقلت: عمرو بن معدي كرب.. فقال: الحقير الذليل؟ والله يا عمرو، إن يمنعني من قتلك إلا احتقارك لدي، فوجمت[1] والله يا أمير المؤمنين مما قابلني به، وكان الموت عندي أهون منه.. فقلت له: يا فتى، ما ينصرف إلا أحدنا.. فقال: بل الويل لك، نحن قوم ما ثكلنا عن فارسٍ قط، اختر لنفسك: إما أن تثبت لي وأضربك ثلاثًا فإن بقيت فيك بقية ضربتني، أو أثبت لك وتضربني ثلاثًا فإن بقيت في بقية ضربتك.. قال: فاغتنمتُها وقلت: بل تثبت لي.

قال: فثبت وحملت عليه بالرمح حتى انثنى قلت: إني شققته به، فانفتل عنه وعاد علي وضربني بعقب رمحه على رأسي وقال: واحدة يا عمرو، ولولا احتقارك لقتلتك، فحصل عندي من الألم ما كان الموت أهون منه، ثم قلت: اثبت، فثبت وحملت عليه وقمت في السرج وضربته بالسيف بيدى الاثنتين حتى قلت: إني قصمته وقصمت فرسه، فانفتل وضربني بعقب رمحه وقال: يا عمرو، وهذه ثانية، ولولا احتقارك لقتلتك.. قال: ثم بقيت الثالثة، وحملت عليه وضربته، ففعل مثلما فعل في الأوليين ثم أنشد:

وكــدت أغلاظًــا مــن الأيمــانِ إن عــدتَ يــا عمــرو إلى الطِّعــانِ

لأدجِــــرَنَّ لهــــبَ السِّــــنانِ أو لاَ فلســــتُ مــــن بــــني شــــيبَانِ

قال: يا أمير المؤمنين، فكرهَتْ والله نفسي الموت وقلت له: يا فتى، عليك عزيمة قال: مثلك ما يعزم على مثلي.. فقلت له: الكريم ما يأبى ضيافة اللئيم.. فقال لي: أنا على طريق، فقلت: فأكون معك فقال: يا عمرو، أتعرف أين أريد؟ قلت: اللهم لا، قال: أنا أريد الموت.. فقلت له: يا حبذا الموت معك.. فقال: إذًا فسرْ.

(١) وَجَم من الأمر وُجُوماً و الوَاجِمُ الذي اشتد حُزنه حتى أمسك عن الكلام.

قال: فسرنا حتى إذا هوّد الليل وإذا بوادٍ يلوح بقاطنِه، وإذا مضاربٌ وقباب، وإذا خيمةٌ حمراءُ عالية، فقال لي: يا عمرو، قلت له: لبيك قال: هذا الوادي فيه الموت، وهذه القبة الحمراء فيها الموت الأحمر، فإما أن تمسك فرسي وأروح فآتي بحاجتي أو أمسك عليك فرسك وتروح تأتيني بحاجتي، فقلت: صاحب الحاجة أعرف بها، وأنا أمسك عليك فرسك، ورضيت نفسي له سائسًا قال: فمسكت عليه فرسه، ودخل في تلك القباب، وغاب عني ساعة، وأتى ومعه جارية كالشمس الصاحية على بعير.

فقال: يا عمرو، قلت: لبيك فقال: إما أن تقود الدواب وأنا أحمي ظهرك، أو أنا أقود الدواب وأنت تحمي ظهري.. فقلت له: المملوك يقود الدواب.

قال: فأخذت زمام المطية وسرنا حتى إذا رفرف الصبح قال: يا عمرو. قلت: لبيك. قال: انظر إلى ورائك، هل ترى أحدًا؟ فنظرت، فإذا غبار قد ملأ الجو، فقلت له: غبار قد ملأ الجو. فقال: هو القوم، فإن كانوا كثيرًا فليسوا بشيء، وإن كانوا قليلاً فالجلد والقوة، فنظرت، فإذا القوم ما بين أربعة أو خمسة فقلت: القوم ما بين أربعة أو خمسة فقال: الجلد والقوة، وهو الموت لا محالة.

ثم قال لي: جنّب الدواب عن الطريق، ووقف هو في الطريق، وإذا بشيخٍ قد أقبل وخلفه ثلاثة شباب هم أولاده، وإذا هو أبو الصبية وهم إخوتها، فتقدم الشيخ وقال له: خلِّ عن الضعيفة يا ابن أخ فقال: لست بمُخلّيها ولا أخذتها لأخلّيها.. فقال لأحد أولاده: ابرُز إليه، فلا خير في الحياة مع العار.. فبرز إليه فتجاولا طويلاً، وإذا بالشيباني قد طعنه وأخرج الرمح من ظهره فخرَّ صريعًا وأنشد عليه أبياتًا من الشعر:

مـا دونَ مـا ترجوه حضـبُ الزائل   مـــن فـــارسٍ مستســـلمٍ مقاتـــلِ

ينمـــي إلى شـــيبانَ خـــيرَ وابـــلٍ   مـــا كـــان سَـــيري نحوَهـــا بباطـــلِ

فقال الشيخ لولده الآخر: اخرج إليه، ولا خير في الحياة بعد هذا.. فخرج إليه وتجاولا ساعة وإذا بالشيباني ضربه ضربة بالسيف من كتفه الواحد أطلعه من كتفه الآخر فخر صريعًا وأنشد عليه أبياتًا من الشعر.

فقال لولده الآخر ابرز إليه، فبرز إليه فقتل الأخير، فتقدم إليه الشيخ وقال له: يا ابن أخ، خلِّ عن الظعينة، فقد قتلت بني عمك فقال: لستُ مُخلّيها ولا أخذتها لأتركها

فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم فقال له: لست كمن رأيت ولا كمن لاقيت، فخلِّ عن الظعينة وأرشد سالمًا، فقال له: ما أخلّيها، فقال له: اختر لنفسك: إما أن تثبت لي وأضربك، فإن بقيت فيك بقية اضربني، أو أثبت لك وتضربني، فإن بقيت في بقية ضربتك فقال الشيباني: بل تثبت لي، فثبت الشيخ، وحمل عليه الشيباني وضربه ضربة في مفرقة قده بالسيف إلى مشعره، وحين أحس الشيخ بالسيف فيه ضرب الشيباني بسكين من شعره شقه إلى نصفه فوقعا ميتين.. قال عمرو: فأخذت أربعة أفراس وعدد أصحابها وأخذت بزمام المطية ومشيت طالبًا أهلي. فقالت لي الجارية: إلى أين يا عمرو؟ قلت: إلى أهلي فقالت لي: لست بصاحبتك، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيل القوم.. فقلت لها دعك من هذا. فقالت: والله لا سبيل إلى ذلك إلا أن تبرز لي في الحرب، فإن غلبتني فأنا لك، وإن غلبتك فامرأة لا تكون لامرأة.. فقلت لها: لست بمحاربك، ولقد علمت جرأة قومك.. قال: فوثبت من على المطية كالأسد وأخذت رمحًا.. قال عمرو: فعجلتها بضربة فقتلتها.

فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ولم فعلت؟ قال له: يا أمير المؤمنين، لو لم أقتلها لقتلتني.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا العزم في طلب محبوب دنيوي وهذا الأمر الذي يؤدي إلى هذا الهلاك في الدنيا والآخرة، فكيف بك في طلب خالقك وسعادتك في الدنيا والآخرة؟ وأنت تذل نفسك وتجبن عن القيام بحق الله تعالى، وتبخل على الله تعالى بالكلام وقول الحق، وتراعي أعداء الدين بالأوهام الفاسدة والتخيلات الرديئة، ومنه يكون الجبن، فلا يكون الجبان جبانًا إلا كان بخيلاً.

الكـــــرم

والكرم رأس صفات الفضائل، ومنه تكون الشجاعة، فلا يكون الشجاع شجاعًا إلا كان كريمًا، ومن الكرم تتشعب صفات الفضائل.

وورد في الحديث: «**إن الكرم شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها قاده إلى أصله، والبخل شجرة في النار أغصانها في**

الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها قاده إلى أصله(١)».

وقد ذمّ الله تعالى البخل في كتابه العزيز في غير موضع فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**﴾ [النساء:٣٧]، [الحديد:٢٤].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ**﴾ [محمد:٣٨].

وورد في الحديث أيضًا: «**البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار، والكريم قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار(٢)**».

وقد أثنى لله تعالى على الكريم ووصف نفسه العلية بالكرم، فلا يحتاج مع ذلك إلى صفة يمدح بها.

ولما أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق عليه السلام فقال: «**الكريم بن الكريم ابن الكريم صدَّيق الله بن إسرائيل نبي الله ابن ذبيح الله بن خليل الله(٣)**»- صلى الله عليهم أجمعين- وعلى سائر النبيين والمرسلين.

وكرم الله تعالى ليس ككرم العباد ولكن لهم أن يتخلقوا بهذا الوصف على قدر عجزهم.

الشَّجاعَـــــة

أمّا الشجاعة تنتج عن وصفين وهما: الثقة بالله تعالى، وصحة اليقين.

فأما **الثقة بالله:** فيما يبدو له أنه تعالى يعوضه ويكفيه، إذ هو وصف من التوكل وهو حسي في توكله.

وأما اليقين: فإنه يتحقق أنه لا يصيبه فيما تقدم عليه من حرب أو غيره إلا ما كُتب له، قال الله تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة:٥١].

ولذلك نتج عن الكرم الشجاعة والإيثار بالأموال والأنفس على قدر الهمم وقدر الطلب وقدر المطلوب، والناس يتفاوتون في مطالبهم ومقاصدهم بحسب درجاتهم عند الله تعالى، وطلاب الحق تعالى هم الأفراد، وكرماء الناس في كل زمان بحسب الأحوال

---

(١) ذكره ابن حبان في المجروحين (١/٢٤٥)، والحافظ في لسان الميزان (٢/٣٠٠)،.

(٢) رواه العقيلي في الضعفاء (٢/١١٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٤٤١)،.

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/٩٦)، والترمذي (٥/٢٩٣).

والمقاصد، ورأيت منهم جماعة -رحمهم الله تعالى - منهم من ذكرناه في كتابنا هذا ومنهم من لم نذكره خشية التطويل.

وإذا تيقن العبد أن رزقه الذي قدّره الله تعالى له لن يفوته، وما لم يقدر له لن يناله بحيلة، وما أعطاه الله تبارك وتعالى لن يقدر أحد من الجن والإنس والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين أن يمنعه ما أعطاه الله تعالى، وما منعه الله تعالى فلا يقدر أحد من الإنس والجن والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين أن يعطوه ما منعه الله تعالى، وتحقّق بذلك، وصار ذا قاله فيستوي عنده الأخذ والعطاء، ويستلذ بالعطاء أكثر من الأخذ؛ لأن النفوس الشريفة تحب البذل، وأعرف فقيرًا يستلذ بالعطاء أكثر من الأخذ ويتألم لما يأخذه إذ لم يعطِ أضعافه ولو كان ملك من الملوك.

ولقد حكى لي ثقة - وهو بهاء الدين البغدادي المستنصري، كان من مماليك المستنصر وأعتقه، وكانت له صورة، وبعد ذلك انقطع معنا، وكنا نأوي في مسجد ظاهر مدينة قوص يسمى المسجد الأبيض- قال: كنا أربعين مملوكًا خرجنا للصيد، فوصلنا عند صاحب البحرين، فأعطى لكلّ واحدٍ منا أربعين لؤلؤة، كل لؤلؤة وزن الأخرى، لا تزيد هذه على هذه شيئًا، وجعل الملك يمشي معي في قاعة له يستخبرني عن أخبار الخليفة والملوك ببغداد كالدوادار الصغير والدوادار الكبير وغيرها وبيده جوهرة يلعب فيها، فسقطت تلك الجوهرة فانكسرت نصفين، فدعاني الملك لأبصرها، فوجدنا النصف الواحد فيه دودة وعندها شجرة خضراء ونقطة، فقال لي الملك: اشهد، وختمها ودعا بالبحار فأرسلها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله.

فمَن صدَقَ يقينُه وصحَّ توكله لا يحتاج إلى رؤية هذه الدودة، وإنما ذلك فيه إقامة حجة على ضعفاء اليقين، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو خالق كل شيء ورازق كل حي ومالك الملك لا شريك له ولا رب غيره.

ذم البخل

وأما البخل فهو ينشأ عن ضعف اليقين وخور الطباع، فيحضُّ النفس على الرزق خشية من الافتقار، فيقع فيها الشح ويقع عليها الخسار، فإذاً لم يتوقَّ الشح، ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر:٩].

فإذا اشتد الحرص وغلب الشح اكتنز ما لا حاجة له به، وأعرض عن التوكل على الله وغاب عن قوله جلّ من قائل: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٢،٢٣]، وعن هجوم الموت الذي يأتي بغتة من غير ميعاد، فقد يخزن ويكنز ما يكفيه ألف سنة أو مائة سنة على قدر كنزه وقوته، وما يعيش إلا سنة أو شهرًا أو يومًا أو لحظة، ولذلك يتفاوت في الإكثار، حتى إن من الناس من يكون كنزه على قدر حاله وعلى مقامه من ادخار عشائه لغدائه أو غدائه لعشائه، وكذلك إذا كان له ثوبان، ولذلك ورد في رجل مات «أنه يأتي يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خصلة فيه لأتى وجهه كالشمس الصاحية. فقيل وما هي؟ قيل: كان يدّخر عشاءه لغدائه وغداءه لعشائه».

وفي الذي وُجد له ديناران فقال النبي ﷺ: «**كَيَّتَان**(١)»، فما ظنك بالذي يكنز الكنوز من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة؟ وإعراضه عن قوله تعالى:

﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥]، وهذه الآية الكريمة يظهر آثارها في الدنيا.

الجسد المُرصَّع

فمن ذلك ما حكاه لي بهاء الدين بلبان البغدادي المستنصر المعدوم ذكره - وكان موثوقًا به – قال: كنت في صحبة أمير من الأمراء ونحن مسافرون -ربما قال بطريق الشام أو العراق- وكان الأمير له شيخ يحبه، وكان يقرّبنا وهو في صحبة الأمير، والأمير يعتقده اعتقادًا عظيمًا، فاتفق أن الشيخ مرض في الطريق ومات، فأوصى أن أستاذ الدار يتولاه، فجهزناه وحفرنا له ودفناه وتولاه أستاذ الدار عنا ساعة ثم لحق بنا فقلنا له: ما الذي أبطأ بك عنا؟ فقال الشيخ: دفع لي ألف دينار وأوصى -أو قال

---

(١) رواه أحمد (١/١٠١)، والطيالسي (ص٤٧)، وابن أبي شيبة (٣/٥٠).

عاهدني- أنه إذا مات أدفنها معه، وقد دفنتها معه حيث قال..

قال: فركبنا بعد ما نزلنا، وتركنا الأمير في المنزل ورجعنا إلى قبر الشيخ ونحن جماعة، فنبشنا القبر، وأخرجنا الشيخ، وشققنا الكفن، فوجدنا الكيس فارغًا، والذهب مرصّعًا على جميع جسده، فجعلنا نمسك الدينار ونجذبه على أن ينقلع فيمتط معنا جلده ولحمه ولا يقع الدينار عنه، فلما لم نقدر على خلاص الذهب من جلده ولحمه قطعنا كتفه وأخذناه معنا ورجعنا إلى الأمير فوضعناه بين يديه وقلنا له: هذا كتف الشيخ.. فبكا الأمير بكاءً شديدًا ثم قال: عدّوا كم على كتفه من الذهب.. فعددناه، فأعطانا عدده لمن عنده وقال: ردوا الكتف على مكانه بما فيه من الذهب، فرددناه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية ما أعجبها، وكون الذهب عمَّ جميع الجسد، فإن الله تعالى اكتفى بالجباه والجنوب والظهور عن ذكر جميع الجسد وجميع الأعضاء؛ لأن ذلك معظم الجسد، ولذلك اكتفى رسول الله ﷺ بقوله :

«**الحج عرفة**[(١)]» لأن معظم الحج عرفة، وإن لم يذكر جميع أركان الحج.

ومثل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾[النساء: ١٠]، وقد يوجد ذلك عند نزوله القبر إلى أوان الجزاء، وقد يوجد بعض آثاره في الدنيا قبل الموت.

الطَّاحُــون

وحكى الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد القوي -رحمه الله تعالى- عن رجل كبير القدر كان له كشف واطلاع وأحوال جليلة أنه عند موته جعل يقول: الطاحون الطاحون وينزعج لذلك، وكان الطاحون وقفًا، وربما كان يأكل منها في بعض الأوقات أو غير ذلك- ربما قال وفينا ذلك-

ولا يمكن تسمية من يطلع الفقير عليه في حال من هذه الأحوال، إلا إن كان على غير مذهب أهل السنة من المذاهب المخالفة للشريعة، فنذكره ليحذر الناس ذلك المذهب.

(١) رواه الترمذي (٣/٢٣٧)، وابن ماجه (٢/١٠٠٣).

السـِّــر

فإنني كنت رأيت صاحبًا لي في المنام بعد موته على حالة، فذكرت ذلك لصاحب له هو أصحب له مني، وقصدت بذلك التعاون على خلاصه بالتوجه إلى الله تعالى، ولزمنا قبره أيامًا فرأيته على حالة حسنة وقد زال الذي كرهه له فقلت له: كيف أنت؟ أو كيف حالك؟ فقال: بخير فقلت: وأنت في أين؟ فقال: في الجنة، إلا أنني متألم منك. قلت: ولم ذلك؟ فقال: إن الله تعالى أطلعك على حالي فأعلمت به فلانًا فقلت له: إنما قصدت نفعك والتعاون في ذلك فقال: كنت تفعل ولا تقول.

ورأيته بعد ذلك مرارًا في الرؤيا وكل ذلك وهو يعتب ولم يزل في نفسه ذلك حتى كان الليل وهو يحدثني كأن الفجر يطلع ونحن نريد أن نصلي فيقول: ما بقي علينا نحن صلاة.

وربما ذكرت هذه الحكاية في هذا الكتاب مبسوطة، فكل ما ذكره الله تعالى محقق، والمجازاة من الخير والشر محققة في الدنيا والآخرة، فمن انتصف من غرمائه في الدنيا وإلا فالله تعالى ينصفه منهم في الآخرة.

حكاية الجَمَـــــل

ولقد كان لي خال وكان قاضيًا -رحمه الله تعالى- وكان من أهل الخير، وهو شرف الدين محمد بن مسلم قاضي عيذاب(١)، رأيت عنده جملاً فقال: هذا الجمل نركبه لنروح عليه الحجاز أنا وأنت إن شاء الله تعالى، ثم مات قبل أوان الحج -أعني القاضي رحمه الله- فرأيته في المنام وقد قدمت إليه ضيافة يقدمها جمل.

---

(١) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. انظر: معجم البلدان (٤/١٧١).

مِنْ طُرَفِ الكرماء

وقد ذكرنا من ذلك طُرَف الكرماء الذين في زماننا، وكل المكارم، حيث كانت وكيف كانت هي محمودة في الدنيا والآخرة.

وقد كان فخر الملك الوزير مذكورًا بالكرم، وحكي أنه لما أنشد ابن نباتة هذه الأبيات:

لكلِّ فتى قرينٍ حيَن يسمُو وفخرُ المِلكِ ليس له قرينُ
فلُذْ بجنابِهِ والجأْ إليهِ وسلْ ما تشتهِي وأنا الضمينُ

فجاء رجل أعجمي وسأله وطلب ابن نباتة عند ابن يونس القاضي بضمانة فخر الملك، فطلبه فخر الملك وقال له: كم كنت أملت فينا؟ فقال: خمسمائة دينار فقال أسأت علينا، وأعطاه ألف دينار، وأعطى ابن نباتة ألف دينار.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أن شخصًا أتى شيخًا من المشايخ، فسأله شيئًا، ولم يكن عند الشيخ ما يعطيه، فقال له الشيخ: أشتهى أن تدّعي علي عند الحاكم بمال، وأنا أعترف لك واحبسني عليه، فإن أصحابي ما يتركوني في الحبس، فطلبه وادّعى عليه وحبسه على المال الذي أراده، وجاء أصحابه المعتقدون فيه فدفعوا عنه المال وأخرجوه.

وأما كرماء العرب فهم كثير، بحيث إنهم لا يحصرون، وقد أعجبني أحدهم وهو معن بن زائدة حيث قال: ما طار غبار منكبي على أحد إلا وجب علي حقّه.

وأما قول المأمون: «لو علم الناس محبتنا في العفو لتقربوا إلينا بالذنوب».

فهذا فيه غاية الرجاء في ذات الله تعالى وكرمه وجوده وعفوه ومغفرته وإحسانه وامتنانه، إذ يقول عبد من عبيده من أبناء الدنيا هذا القول، فكيف بعباده المخلصين؟ فكيف بأرباب الكرامات والتصريف؟ فكيف بكرم الأنبياء والمرسلين؟ وأين مكارم المخلوقين المحدثين من كرم رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين؟ إذ لا يعجزه العطاء ولا يضجره السؤال، ولا ينقص من ملكه ذرة إذا أعطى كل سائل جميع المسائل، حتى تنقطع آماله، وأعطاه فوق ذلك مائة ألف ألف مسألة وأمثاله، ثم أعطاه مع ذلك قدر

الدنيا والآخرة بما فيها ألف ألف ضعف لم ينقص من ملكه ذرة.

ولو أهلك كل الخلائق وأذهب أموالهم لما زاد في ملكه ذرة، فتعالى الله الملك الحق الكريم المحسن سبحانه وتعالى تسمّى بالكرم وحضّ عباده على الكرم، فكل من اتصف بهذا الاسم كان كريمًا على الله تعالى وعلى أنبيائه -عليهم السلام وعلى العباد- وقد قلت:

إنَّ المكـــارمَ لا تُبقـــي لفاعلِهـــا عنـــدَ الأنـــامِ ذنوبًـــا لا ولا إحنـــا
تحمِـــلُ النقـــلَ في أعنـــاقِهم دُررًا وحمـــلُ النـــاسِ في أعنـــاقِهم مِنَنَـــا

وقد جرى منا الحديث، والحديث شجون إلى أنواع من الفنون؛ إذ النفوس تحتاج إلى أن تروّح بحال عن الحال التي عليها لما جبلت عليه روحنا إلى الله تعالى، رَوحٌ منه في معاني الأرواح وحقائق الارتياح ومعارف المعارف إنه ولي حميد، وسماعٌ للحكايات بحسن الاستماع والقابلية لما يرد فيها من الإلقاء الإلهي على ألسنة المتكلمين والمحسنين واتّباع الأحسن، وكلها جنود واردة على القلوب بمعاني الغيوب بحسب السامع ووجدان الناطق، لا يقبله إلا من كان له قابلية الاستماع ومَلَكَة الاتباع أو نسبه عريق بينه وبين ما في الحديث ما سمع لهذه الشجون في معاني الفنون كما قال القائل:

لحديث وجدي في الهوى وشُجوني خـــبرًا تسَلسَـــلَه رواةُ جفـــوني
اسمـــعْ حـــديثي أو فعائـــلِ أدمعِـــي فكلاهُمـــا مـــن لؤلـــؤٍ مكنـــوني
عاتبت مـن أهـوى وقلـتُ أمـا تـرى حـــالي وفـــرطَ صـــبابتي وشُـــجوني
الـــودُّ بـــاقٍ والغـــرامُ بحالِـــهِ يـا ليـت شِـعري مـا الـذي يَسلِيني

السَّماع وورود الحقَائق

وللسماع أثر كبير في ورود الحقائق، إذ جعل الله تعالى على العبد التكليف بالأسباب والاكتساب، فهذه الحواس الخمس: السمع والبصر واللمس والشم والذوق.

ولهذه الخمسة الظاهرة خمسة باطنة- وليس هذا موضع الكلام فيها- فإذا طهرت نفس السالك وحصل له تصريف من الله تعالى كانت جوارحه كلها فعّالة،

وتنوب كل جارحةٍ عن غيرها فيسمع بعينه ويبصر بأذنه وكل الجوارح كذلك، وإياك ثم إياك والإنكار في هذا الموطن فتهلك فيه وتحرم الوصول إليه بحجاب الإنكار.

والسّماع لا يقتصر على نوع من الأنواع، إذ لكل كلمة معنى لطيف من سائر الكلمات، ولها سرٌّ من الأسرار مطلِعُ الله تعالى عليه من جعله لذلك أهلاً وأسمعه أحسن القول في كل موجود، كهبوب الرياح وتمايل الأشجار وطنين الذباب وصرير الإيوان ونغمات الأطيار وحسن الأوتار وصفير المزمار وسماع الأنين وصوت الحزين وصياح الصائح ونوح النوائح، وللسامع بحسب ما وجد، وللعابد ما عبد فهو في كل ذلك طروب كما قيل:

يا رب وقتُ وجودي فيه أسأمُهُ ... دع الأجانبَ بل رُوحي تزاحمُني

أصبحتُ ألطفُ مِن مرِّ النَّسيمِ يُرى ... على الرياضِ يكادُ الوهمُ يؤلمني

من كل معنى لطيفٍ أجتلي قَدحًا ... وكلُّ ناطقةٍ في الكونِ تطربُني

السَّماع بين الإباحة والتحريم

والسماع يختلف بحسب المواجيد والواجد والأحوال والطباع والمسمعين والمستمعين، وبحسب كل شخص، وقد تكلم العلماء في السماع كلامًا كثيرًا، فمنهم من قال بالإباحة ومنهم من قال بالتحريم ولا وجه له في ذلك في نفس السماع، إلا أن يكون لعلة واردة فيه بحسب القصد والنية والهوى.

دلائل على إباحة السَّماع

وقد صنّف الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في ذلك مصنفًا، ونقض أقوال من قال بالتحريم، وجرح النقلة للحديث بالتحريم، وذكرهم وأسماءهم وذكر من جرحهم، واستدل على إباحة السماع واليراع والدف والأوتار بالأحاديث الصحيحة، وجعل الدف سُنة، واستدل بآيات من كتاب الله تعالى، وسمعنا ذلك بقراءة ابن أبي أسامة الدمشقي على الشيخ الإمام الحافظ شرف الدين الدمياطي عن جماعة بإجازته عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلعي الأصبهاني بسماعه من المصنِّف رحمه الله تعالى، ولا حاجة إلى تكثير الكلام، ولا يشك أحد في صحة حديث الوفد من الحبشة الذين كانوا يرفقون ويرقصون بمسجد رسول الله ﷺ وهو

يُري عائشة -رضي الله عنها- قال: أكتفيت أو كانت هي التي تمل.

وأيضًا أحاديث جمّة في ذلك غير مختلفة في صحة ذلك، وإن اختلفت بعض الطرق، وكذلك فإن الناس لا يشكون في نغمات الأطيار كصفير البلابل والهزارات والشحارير والكروانات وكل طير حسن الصوت والصفير والهدير والنواح، فإن ذلك مباح لم يختلف فيه اثنان، وإن رسول الله ﷺ سمع الشعر وربما أجاز عليه، والحديث في الفتاة التي أهدتها عائشة رضي الله تعالى عنها أو أنكحتها في الأنصار، وقوله ﷺ أهديتم الفتاة قالوا: نعم، قال: أرسلتم معها...

قال أبو محمد: كلمة ذهبت عني-، قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ:

«إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو أرسلتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيّانا وحيّاكم[1]».

وفي حديث جابر لما سأل عن الفتاة فقال: نكح أحد الأنصار واحدة من أهل عائشة وأهدتها إلى قباء فقال لها رسول الله ﷺ: **«أهديت عروسك»**؟ قالت: نعم قال: فأرسلتي معها مغنيًا فإن الأنصار يحبونه؟ قالت: لا قال فأدركيها يا زينب – وزينب هذه امرأة كانت تغني في المدينة- ورواه الزبير بن مسلم المكي عن جابر[2].

وكذلك حديث فضالة بن عبد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«لله أشد أُذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته[3]».**

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب «المستدرك»: وهذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، وأخرجه عبد الله بن ماجه في سننه عن راشد بن سعد الزينبي عن الوليد بن مسلم والله أعلم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٦١٢/١)، وأحمد (٣٩١/٣)، والنسائي في الكبرى (٣٣٢/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٩/٧)، والخلال في الأمر بالمعروف (ص٣٤)، والطبراني في الأوسط (٣١٥/٣)، وأبو الشيخ في جزء أحاديث أبي الزبير عن جابر (١٢)، وأبو نعيم في أماليه (١٢)، (ص٦٢).

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة (٤٧٨/٧، ٦٨٢)،

(٣) رواه أحمد (١٩/٦)، وابن ماجه (٤٢٥/١)، والحاكم (٧٦٠/١)، البيهقي في سننه (٢٣٠/١٠)، وابن حبان (٣١/٣)، والطبراني (٣٠١/١٨).

ووجه الاحتجاج من هذا الحديث أن النبي ﷺ أثبت أن الله ﷻ يستمع إلى حسن الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القينة إلى قينته، فأثبت دليل السّماع، فلا يجوز أن يقاس على محرم، ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه.

وفي حديث جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمًا ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا خطبتين، فكانت الجواري إذا كان نكاح يمررن فيضربن بالدّف والمزامير، فينسل الناس ويدعون رسول الله ﷺ قائمًا، فعاتبهم الله -عز وجل- بقوله: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً**﴾[الجمعة:١١].

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن عبد بن حميد عن خالد بن مخلد عن سلمان بن بلال والله ﷻ عطف اللهو على التجارة، وحكم المعطوف حكم ما عطف عليه، وبالإجماع تحليل التجارة فثبت بهذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية، لأنه غير محتمل أن يكون رسول الله ﷺ حرّمه ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله ﷻ من ترك رسول الله ﷺ قائمًا وخرج ينظر إليه ويسمع، ولم يُنزل في تحريمه آية ولا سنّ رسول الله ﷺ سُنة فعلمنا من ذلك بقياه على حاله.

ويزيد ذلك وضوحًا حديث عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها زفّت امرأة من الأنصار إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: «**ما كان معك من لهو لأن الأنصار يعجبهم اللهو**[1]» وهذا حديث صحيح أورده البخاري فى كتابه في كتاب «النكاح» في باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

ومما حدَّث به ابراهيم بن عبد الله وكان الناس يتبركون به قال: حدثني المزني قال: مررنا مع الشافعي ﷺ وإبراهيم بن إسماعيل رضي الله تعالى عنهما على دار قوم وجارية تغنيهم:

خليلى ما بالِ المطايا كأننا   نَراها على الأعقابِ بالقومِ تنكُصُ

قال الشافعي: ميلوا بنا نسمع، فلما فرغت قال الشافعي ﷺ لإبراهيم: أيطربك

---

(١) رواه البخاري (٥/١٩٨٠)، (٤٨٦٧).

هذا؟ قال: لا قال: فما لك حس.

وفي حديث الفرغاني عن صالح بن أحمد بن حنبل -رضي الله عنهم- قال: كنت أحب السماع، وكان أبي يكره ذلك، فواعدت ليلة ابن الحنارة فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام فأخذ يغني، فسمعت حشفة فصعدت فرأيت أبي فوق السطح يسمع ما يغنى وذيله تحت إبطه وهو يتبختر على السطح كأنه يرقص.

وقد رويت هذه الحكاية أيضًا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل -رضي الله تعالى عنهم- قال: كنت أدعو ابن الحنارة، وكان أبي ينهانا عن الغناء، ولما ناب إليه الأمر قال كالمعتذر منه: إن الكريم طروبٌ(١) ولا خير فيمن لا يطرب.

وكان يحيى بن خالد يقول: خير الغناء ما أشجاك وأبكاك وأطربك.

وقال غيره- سامحه الله تعالى-: وكنت إذا كان عندي كتمته عن أبي لئلا يسمع قال: فكان عندي ذات ليلة، وكان يقول، فعرضت لأبي حاجة عندنا، وكانوا في زقاق، فجاء وسمعه يقول فاستمع، فوقع في سمعه شيء من قوله، فخرجت لأنظر فإذا بأبي يترجع ذاهبًا وجائيًا، فرددت الباب ودخلت، فلما كان الغد قال: يا بنى إذا كان مثل هذا نعم الكلام .

ومما أخبر به أبو محمد التميمي رحمه الله قال: سألت الشريف أبا علي محمد ابن أحمد بن أبي موسي الهاشمي عن السماع فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن بن عبد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه وحضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين، وأبو القسم الداركي شيخ الشافعيين، وأبو الحسن ظاهر بن الحسين شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين، وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة.

فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق من يشبه واحدًا منهم يفتي في حادثة، ومعهم أبو عبد الله غلام تام، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حسن- وربما قال شيئًا- فقيل له: قل لنا شيئًا، فقال وهم يسمعون بأجمعهم:

خطتْ أناملُها في بطنِ قِرطاسي رســـــالةً بعبـــــير لا بأنفـــــاس

(١) يراد أن الأريحية تهزه وليس كاللئيم الذي تمكنت القساوة والجفاء من طبعه.

أنْ زرْ فديتك لي من غير محتشم فـإن حبَّـك لي قـد شـاعَ في النـاس
فكـان قـولي لمـن أدّى رسـالتَها قـفْ لي لأسعى على العينين والـراس

قال أبو علي: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني لأن أفتي بحظر ولا إباحة.

وهذا القدر كافٍ إن شاء الله تعالى في هذا الباب من وجوه الاستدال بالأحاديث الصحيحة وتأويل الآيات، ولم نعلم في زماننا هذا من أهل العلم وأهل الصلاح من أنكره، وكانوا أجلاء كالشيخ مجد الدين القشيري بن دقيق العيد[١]، وولده الشيخ الإمام تقي الدين[٢] قاضي القضاة -قدس الله تعالى روحيهما-، وكان يسمع

(١) هو على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة مجد الدين القشيري.

المنفلوطي، ثم القوصي، المعروف بابن دقيق العيد، والد الشيخ تقي الدين الآتي. والعالم العامل، الإمام الكامل، كان ممن جمع بين العلم والعبادة، والورع والزهادة، مع بذل الإحسان، وائتلاف الخاص والعام.

ولد بمنفلوط في رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وبها نشأ، وحفظ القرآن، وسمع الحديث والأصول عن الحافظ بن المفضل المقدسي، وبه تفقه في مذهب مالك.

وعن البهاء ابن بنت الحميري، وبه تفقه في مذهب الشافعي.

وحدّث عن أبي أروح الأنصاري، وأخذ عنه الأكابر كالتقي والسراج والتاج والبهاء القطي والجلال الدشناوي والمحب الطبري والضياء الحسيني والنجيب ابن مفلح والقاضي شمس الدين ابن قدس والسراج الأرمنتي والنجم بن ناشىء والحافظ بن سليم والدمياطي والبدر بن جماعة وأحمد بن عبيد. وطلبه لقُوص ابنُ هبة لما بنى مدرسته بإشارة ابن الصباغ، فاستوطنها، فعمّت بركته، وانتشرت حفدته، وأقام شعار مذهب السنة من الأقطار، لالتماس دعائه حتى من الأمصار، وناب في الحكم بمنفلوط وأسيوط وغيرها.

وكان كثير التقشف، والتقلل من الدنيا، كثير التلاوة، حتى أنه ليقرأ في اليوم ختمتين، مع ما هو عليه من صيام.

مرّ يوم عيد بطيلسان شديد البياض، فقيل كأنه دقيق العيد، فجرى عليه.

توفي في ثالث عشر محرم سنة سبع وستين وستمائة. دفن بظاهر قوص، وقبره مشهور يقصد بالزيارة. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٥٤٠).

(٢) هو محمد بن على بن وهب أبو الفتح تقي الدين بن دقيق العيد، القشيري المنفلوطي ثم القوصي ثم المصري المالكي الشافعي.

الحافظ الزاهد، الورع الناسك، المجتهد المطلق، الجامع بين العلم والدين، السالك سبيل الأقدمين، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين.

=

السماع، والشيخ جلال الدين الدشنائي ولم يُسمع من أحد منهم إنكار، والشيخ محب الدين الطبري والفقهاء الذين عندنا كلهم يحضرون السماع، ومشايخ الصوفية من الزمان المتقدم وإلى الآن لم ينكره واحدٌ منهم إلا إن وقع ما يوجب الإنكار فيه، فلم يكن ذلك في نفس السماع، وإنما هو لعلةٍ دخلت فيه.

أقسام السّماع

والذي أراه في ذلك أن السماع على **ثلاثة أقسام:**

- منه ما هو **محرم** كالاستماع لأرباب اللاهوية المحرمة من عشاق النسوان والفتيان وحضورهم في المكان والآلات المحرمات، فإن ذلك يحرك دواعيهم ويهيج نفوسهم وأشواقهم حتى يرتكبوا المحارم ولا يقفون عند مانع ولا يحجبون برادع؛ لأن الشهوات النفسانية إذا احتدت وقوي شغفها في محبوبها ومطلوبها لا تندفع عنه إلا بالموت، فالسماع على هذه الصورة حرام على السامع والمستمع له إذا علم بذلك؛ لأن الداعية إلى الحرام حرام؛ وما لا يتوصل إلى الحرام إلا به فهو حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما كان يتوصل للحرام به فهو حرام وإن كان له دواعي غيره، فكيف إذا كان هذا الداعي هو أقواها وأشدها وأسرعها إلى ارتكاب المحارم.

=

كان مبرزًا في المدارك النظرية والأثرية، والمسالك الصوفية والحقيقية، ذكيًا غواصًا على المعاني، قناصًا لشوارد ما يحاوله من العلوم ويعاني.

وافر العقل، سافر الحجب عن وجوه النقل، إمامًا في فنونه، غمامًا فيما يرسله من الفوائد في كلامه وعيونه.

شديد الورع، مديد الباع، إذا أقام في أمر شرعي وشرّع، سمع بمصر الشام والحجاز، على تحرٍ في ذلك واحتراز.

ولم يزل حافظًا للسانه، مقبلاً على شانه، وقف نفسه على العلوم، وقصرها، ولو شاء العاد أن يحصر كلماته ما حصرها، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق، وبكرامات الأولياء تحقق.

قال السبكي: ولم ندرك أحدًا يختلف في أنه المبعوث على رأس السبعمائة، كان والده مالكيًا ، ويقرئ المذهبين، فأخذ عنه وعن ابن عبد السلام المذهبين، وصار يفتي ويؤلف للفريقين.

مات يوم الجمعة، سنة اثنين وسبعمائة، ودفن يسفح المقطم، وأغلقت حوانيت مصر للصلاة عليه، ورثاه الأكابر بعدة قصائد. وانظر: الكواكب الدرية (٦٤٢).

- ومنه ما هو عندي **واجب**، بل واجب الواجب، وذلك أن السماع إذا كان لأقوام قد أسطلهم الحب في الله تعالى، وأقلقهم الشوق إليه، وزهقت أرواحهم من العطش منه، وتهالكت نفوسهم في ذاته، وتقطعت قلوبهم على قربه ووصاله، وطاشت عقولهم في معرفته، واستغرقت أسرارهم في سريان سرّه في بحر ديموميته إذا أطرق أسماعهم ذكر محبوبهم على أنواع من صفات جماله وكماله، ولاح لهم بارق دلائله وأنوار حقائقه طارت أرواحهم إليه طيران العقبان، بل أسرع مما يوصف به الطيران، وانخرق سماع قلوبهم بذكر محبوبهم فأجذبهم إليه دواعي الوجدان ساروا إليه في قلبك المدارج والأطوار بالمذاقات والوجدان، وساقهم سائق الشوق بأسرع السرعة لا كسابق الإطعان، ويشتاق القوم إلى لقائه، كما أن الأقرب إليه هو السابق بالعرفان ممن واصل ومَن ذاهل ومن مأخوذ ومن واجد ومن عارف ومن سابق ومن سائل ومن ولهان، والكل إليه وامون وعلى طبقاتهم في وصولهم متعاونون وإليه ذلك الوقت راجعون.

وكل العلوم والمعارف والحقائق واللطائف والآمن والخائف، فإنما وضعت للعلوم والمعارف وكل ما تقدم ذكره إلا ليعرف به الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦] قيل: ليعرفوا، والله تعالى هو غاية الغايات ونهاية النهايات والمعرفة به هي واجب الواجبات، فالسماع على هذه الصورة واجب، وإن كان ذلك في حكم النادر إلا أن له أهل، وهم بحمد الله تعالى موجودون، وإنما يعرفهم من معرفة الله تعالى بهم؛ لأن القلوب مستورة بالجثمان، ومحجوبة عن العيان، وفيها أسرار الملك الرحمن، فلا يطلع عليها سواه، ولا يعلم بحقيقة ما أودعه فيها إلا إيّاه.

- ومنه ما هو **مباح** على أصله إذ لم ترد فيه آيات في القرآن ولا أحاديث صحيحة في التأخير ولا في التقديم، كصفير الأطيار وتمايل الأشجار ورؤية الأزهار وهدير الأنهار وغير ذلك من هذا الشأن، فإذا خلت قلوب المستمعين من الحالة الأولى المحرمة للسماع، ومن الحالة الثانية الموجبة للسماع وكان خليًّا من ذلك كله، فسماعه للألحان كسماعه لنغمات الأطيار ورؤيته لجريان الأنهار وألوان الأزهار.

حكايـة في السّمـاع[١]

وقد كان عبد الله بن جعفر[٢] مع جلالته وعظم شأنه ليسمع ويعلم جواريه، ويسمعهن في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وكانت له جارية تسمى عمارة وكان معجبًا بها فسمعها يزيد بن معاوية، فوقعت في قلبه فأحبها وعشقها فاطّلع على ذلك أهل سرّه وبطانته، فأشاروا عليه بالكتمان وألاّ يطلع والده على ذلك، فإن عبد الله بن جعفر ما يبيعها ولا يُكره عليها.

فكتم ذلك حتى مات معاوية وأفضيت إليه الخلافة، فتحدث مع أهل سرّه وبطانته في ذلك فقالوا له إن ابن جعفر ما يكره ولا يبيع، فقال: فما الحيلة؟ فقالوا:ما بقي إلا التحايل فقال: وكيف ذلك؟ فقالوا: هنا رجل عراقي.

فطلبه وعرض عليه ذلك، فقال له: إن عبد الله بن جعفر ما يبيع ولا يكره على ما في يده، وليس منها إلا الحيلة، وإن كان واحد يحتال فأنا.

فأعطاه ما يريد من المال، وتجهَّز إلى المدينة، وشرّع ما يحتاج إليه من الراحلة وغيرها، وتوجّه في صورة تاجر إلى منزل في رحبة لما وصل إلى المدينة بالقرب من دار عبد الله بن جعفر، والرحبة له، فقيل لعبد الله بن جعفر: رجل تاجر نزيل عندك، فقال: أكرموه. -وكان عبد الله بن جعفر مشهورًا بالكرم، وهو من المعدودين من الكرماء في العرب- ثم استأذن علي عبد الله فأذن له، فسلم عليه وقال: فيكم والمحبة لكم وجئت قاصداً، وبقى يلازم مجلسه حينًا.

ورأى منه عبد الله بن جعفر من المنادمة والملازمة والفضيلة ما عظم به عنده، ثم إنه أرسل إلى عبد الله لطائف وطرائف من لطائف الشام وظرفها وبغلة، وكتب معها ورقة وذكر فيها أنه لم يكن له حاجة بالمدينة إلا الولاء فيهم والمحبة، وقد أرسل لطائف

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٦٧٢/١).

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، كنيته أبو جعفر، كان يصفر لحيته، وهو الذي يقال له: قطب السخاء، مات سنة ثمانين، سنة سيل الجحاف الذي ذهب بالحاج من مكة وكانت أسماء بنت عميس بن كعب بن ربيعة الخثعمي ولدته بأرض الحبشة، وكان يوم توفى رسول الله ﷺ ابن عشر سنة. انظر: الثقات لابن حبان (٣ / ٢٠٧).

وظرف من لطائف الشام وبغلة خفيفة الركاب.

فبالله عليك يا ابن رسول الله لا تخجلني أو لا توحشني بالرد، فأمر عبد الله بن جعفر قَيِّمَه أن يقبض ذلك منه، ثم إنه استمر على الملازمة حتى عاد عبد الله بن جعفر إذا جلس وعنده عمارة تغنى يكون العراقي حاضرًا عنده، وكان عبد الله بن جعفر معجبًا بعمارة كثيرًا، فغنت ذات ليلة فأعجب بها عبد الله بن جعفر فقال للعراقي: هل رأيت مثل عمارة؟ فقال: لا والله يا ابن رسول الله ﷺ، حسن صورة وحسن صنعة -أو قال جودة صنعة- فقال: كم تساوي عندكم؟ فقال: يا ابن رسول الله، أنا رجل تاجر، أضم الفلس إلى الفلس أو الحبّة إلى الحبّة، والله لو أعطيت لي بعشرة آلاف أخذتها -أو قال دينارًا- فقال له: هي لك بعشرة آلاف -على سبيل الدُّعابة.

فقام العراقي، وأتى بعشرة آلاف دينار وضعها بين يدى عبد الله بن جعفر، فقال له: ما هذا؟ فقال: ثمن عمارة.. فقال له: ويلك، ومثلي يبيع مثلها؟ قال: يا ابن رسول الله، أنا رجل غريب، وما لي عليك يد غير أني أستحلفك عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ويلك، أتحلفني عند قبر رسول الله ﷺ فيقول الناس أظهر ضيفه؟ والله لأحتسبن صبري في الله تعالى، جهِّزوا عمارة. فجهزوها بثلاثة آلاف دينار.

وقال: بئس والله الضيف أنت، وجعل أهل المدينة يقولون هذا الضيف المشئوم. قال: فأخذتها وخرجت، فلما خرجنا من المدينة كشفت وجهها فقلت لها استري، فما أنت والله لي، وما كنت بالذي آخذ حبة قلب ابن رسول الله ﷺ لنفسي، لكني دسيس من يزيد بن معاوية.

وسافر حتى إذا وصل إلى دمشق وهو داخل من بابها، وإذا بجنازة يزيد خارجة من الباب، قال: فدخلت وأقمت ثلاثة أيام، وتحايلت في دخولي على معاوية الصغير- وكان رجلاً صالحًا- فلما دخلت عليه وحكيتُ له الحكاية فقال: المال والجارية رد عليك ولا تبيتن في البلد الليلة.

قال: فخرجت، فكشفت وجهها فقلت لها: تستري، فأنت والله ردٌّ على عبد الله بن جعفر.

فلما وصلنا إلى المدينة نزلت الرحبة، فقال أهل المدينة: جاء الضيف المشئوم، وبلغ عبد الله بن جعفر نزولنا فقال: أكرموه، ثم طلبت الإذن فأذن لي، فجئت إليه وحكيت له الحكاية وأحضرت عمارة وقلت له: والله يا ابن رسول الله، لم يصل لها يد ولا عين، فكانت في الدار ضجة عظيمة يقولون: عمارة عمارة، وأمر عبد الله بن جعفر قيّمه فباع له غنمًا بسبعة عشر ألف درهم فأعطاها للعراقي.

فهؤلاء السادة كانوا يسمعون وهم في مثل هذا المنصب مع جلالتهم وعلو مناصبهم وعلومهم وكرمهم وقربهم من رسول الله ﷺ، وفي حكايات مشايخ الرسالة في ذلك كفاية، لم يذكر أحد منهم تحريم السماع إلا لعلة.

حكَايات أخـرَى

كما ذكر أن الجنيد رضي الله عنه(١) سمع أن أبا الحسن الثوري يدور على قدم واحدة ويقول الله الله ثلاثة أيام فقال: قوموا بنا إلى أخي أبي الحسن، إما نفيده أو نستفيد منه، فقاموا فوجدوا الشيخ أبا الحسن على تلك الحال فقال له الجنيد: يا أخي أبي الحسن، إن كنت قائلاً الله الله بالله فلست أنت القائل، وإن كنت أنت القائل فأنت باقٍ مع نفسك، فما معنى الوله؟ فرجع عن حاله وقال: نعم المؤدب أنت.

وفي حكاية غير هذه أن المشايخ كانوا مجتمعين، وقوّال يقول شيئًا، فقام واحد وتواجد فقال له أحدهم: والذي يراك حين تقوم.

وقد ذكرنا ما حكي عن القرشي رضي الله عنه(٢) أنه كان عنده قوّال فقال شيئًا.

وكان في طبقته التي بدرب ابن القسطلاني بمصر، قال: فارتفع أبو يوسف الدهماني إلى أبندارية المكان، وبقي يدور حتي أتى مقابل سجادته فنزل وجلس عليها، فقال له القرشي: الذي يغلب حاله عليه لا يحضرنا.. والمشايخ المتقدمين والمتأخرين لم يسمع بإنكارهم السماع.

وحكي عن الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه(٣) أنه سمع شيئًا فقال: وفينا

---

(١) انظر كلام سينا الجنيد في السماع في كتابنا: «الإمام الجنيد سيد الطائفتين» (ص٢٧٨).

(٢) يقصد سيدي أبي عبد الله القرشي.

(٣) هو عمر بن محمد بن عمُّويه الشيخ شهاب الدين السهروردي.

=

وإن طال الزمان بقية.

وسيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ كان له في السّماع ما يذكر فيه عنده، وذكر الرقص في كتاب ابن كرار وقال فيه ما قال ﷺ وإلى زماننا هذا أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، كالشيخ علم الدين والشيخ أبي يحيى.

وحكي أن فقيرين من أصحاب الشيخ أبي الحسن حضرا سماعًا، فقام أحدهما وصاح، فقال له صاحبه: تكذب إن كنت صادقًا فاثبت.. قال فجلس فمات. فقيل أن الشيخ سأل صاحبه عن ذلك فقال صاحبه: هو كشف له عن أمر، فضاق عنه فقلت له: إن كنت صادقًا فاثبت ولم يطق فمات.

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر أن الشيخ أبو الحجاج الأقصري كان عند الشيخ أبي يحيى في السماع، وكان يصيح: يا حبيب يا حبيب، وخرج وبقي يمشي في الطريق ويصيح: يا حبيب يا حبيب، والشيخ مقرح ﷺ أيضًا كان يحضر السماع ويعمل عنده، وحكى لي الفقيه عميد الدين أن الشيخ مفرح كان في طبقة له وكان في بيته السماع

=

شيخ العارفين بالعراق على الإطلاق بالاستحقاق، صاحب عوارف المعارف، أحيا رسم الصوفية، فساد بما شاد وعمر، وهما غمام فضله حتى سقا رياض الحقائق وهمر، وقسم فقهه وتصوفه، فهذا للفقهاء غناء، وهذا للصوفية سمر، وخالف العادة لأنه جاء بستاناً في ورقة، إلا أن جمعية زهرٌ وثمر، وأمر ونهى في سلطان فضله، فأذعن أهل الطريق له وقالوا: سمعًا وطاعةً لما نهى وأمر.

وهو الأصيل الذي ثبت في بيت النجابة ركنه، وتفرع في الدوحة السهرورية غصنه. كان رضي الله عنه إذا أيّه بالناس، وغسل درن الذنوب، وذكر أهوال القيامة، وتحقق الناس أن كلامه روض، ومنبر وعظه غصن، وهو في أعلاه حمامة.

ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسهرورد، ونشأ بها، ثم قدم بغداد، فصحب عمه الشيخ أبا النجيب عبد القاهر الذي كفله لما قتل أبوه وهو جنين.

وأخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره، وسمع الحديث من جماعة.

وكان فقيهًا شافعيًا، عالماً صوفياً، إمامًا ورعًا، زاهدًا عارفًا ، شيخ وقته في علم الحقيقة، وإليه المنتهى في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الحق، وتسليك طريق العبادة والخلوة.

وقد ترجمه خلائق كثيرون، وأثنوا عليه، منهم الحافظ ابن حجر، قال: كان رأس الصوفية في زمانه.

طبقات السبكي (٨/٣٣٨)، البداية والنهاية (١٣/١٣٨)، طبقات الأولياء (٢٦٢)، جامع كرامات الأولياء (٢/٢١٩)، الكواكب (٥٤٣).

والقوّال يقول:

كــان للقــومِ في الزُّجاجــةِ بــاق و أنـا وحـدي شـرِبتُ ذلـك البـاقي

فنزل الشيخ من طبقته ودار دَورَاتٍ وعاد إلى مكانه ﷺ.

وقد ذكرنا من مات في السّماع من الوجد، كالشيخ عمر بن عبد الحميد السخاوي مات من السماع في بلبيس حكاه الشيخ عبد العزيز وحكاه لي نجم الدين ابن ناشيء قال: حضرته وكان إلى جانبي.

وحكاه لي الصاحب فخر الدين بن الخليلي- حرسه الله تعالى- قال: حضرته وكنت في السّماع، ورأيته كما حكاه اللّذان قبله، وموت السّراج الإسكندراني وغيره والذي جعل رأسه على الأرض مكان قدميه، كل ذلك في زمننا ووقتنا.

وذكر لي الشيخ يعيش -رحمه الله تعالى- قال: كنت أنا -وربما قال القليب السخاوي يمشي، وربما قال: كنا نقول شيئًا- وإذا بامرأة راكبة على بغلة ومعها الخدَّام، فطلبتنا إلى بيتها فسرنا ودخلنا دارًا محتشمة، وإذا هي تغني للسلطان، ولها في الطرب والموسيقى صناعة جيدة، وكان السلطان قد أخذ ابنها وبقي عندها شوق إليه فغنت على عود وهي تبكي، وإذا طائر وهو البلبل جعل يترنم ويتدلى من دور القاعة، وجعل يتقرّب بالنزول من جهة إلى جهة حتى نزل وقعد على رأس العود الذي تغني به ونحن جلوس، وأقمنا في ضيافتها ثلاثة أيام.

وحكى لي الأمير علاء الدين إدريس بن الصوافي(١) قال: كنا في سماع لنا وعندنا قوّال، ونحن وأصحابنا خلوة، قال: فجاء قمري وقعد في طاقة في القاعة يستمع، ثم نزل وجلس على رأسي والجماعة جلوس وسكنت له، فمكث ساعة والمغني يغني، فحين فرغ المغني من الغنا طار وراح.

فانظر رحمك الله إلى هذا السر الذي جذب هذا الطائر! فكيف بأرباب الضمائر والسرائر والحقائق والخواطر، والمحبين للأول والآخر والظاهر والباطن؟

---

(١) في الأصل (الصواني).

ولما طلب ذو النون المصري[١]، وأرسل الخليفة إلى الفاضل بطلبه، وقال: إنّا سمعنا أن ببلادكم من يقول بما يقول به الحسين الحلاج[٢] فأرسله إلينا، فأرسل إلى أخميم فأحضره وأرسله إلى بغداد، فقال له الخليفة: ما الكلام الذي تقوله: فقال ما أعرف ذلك إلا عند السماع، فأحضروا قَوّالاً فأنشد القوّال:

صـــغيرُ هـــواكَ يتمـــنَّى فكيـــفَ بـــهِ إذَا احتنَكـــا

امـــا تـــراني لمكتئـــبٍ إذَا نـــامَ الخلـــيُّ بكـــا

قال: فانتفخ ذو النون حتى بقي كالفيل، وقطرت كل شعرة منه الدم، فقال الخليفة: والله ما هذا عن باطل، ثم أكرمه وردّه إلى مكانه.

وما حدث به محمد بن سلمة عن أبيه قال: أتيت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدوها فوجدته مستلقيًا وهو يغني ويقول شعرًا:

فمـا روضـةُ الحـربِ طيبـةُ الثـرى تمـج الثـري احنحاتُهـا وعرارهـا

---

(١) هو العارف الناطق بالحقائق الفاتق للطرائق.

ذو العبارات الوثيقة والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة والنفس العالمة العاملة، والهمم الجليلة والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعه.

زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها، وقال ابن يونس: كان عالما فصيحًا حكيمًا، امتحن وأوذي لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه.

وكان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، وفي مقامات الأولياء فحول الرجال.

مات سنة خمس وأربعين ومائتين، ودفن بالقرافة وقبره بها ظاهر مقصود بالزيارة وعليه أنس ومهابة.

وهو بقرب قبر عقبة بن عامر الجهني الصحابي. وانظر: الكواكب (٢٤٧).

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي، ثم الواسطي صوفي أضاء في أفق المشرق بدره ثم اشتهر في أقطار المغرب ذكره، وله خوارق سيوفها مجردة وعجائب سننها محددة، أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط، وصحب الجنيد والثوري وغيرهما.

وكان – قدس سره- من أهل الشطح، وقد اختلف فيه الناس ما بين مكفّر له، ومعتقد ولايته، وهم الجمهور ومنهم القشيري في الرسالة وابن الحاج في المدخل وغيرهما. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٣٢٩)، والانتصار للموصلي الكردي (٥٦٩) .

يـا طيـبَ مـن أراد عـزةً مرهّبـا وقـد أوقـدت بالمنـدلِ الرطـبِ نارَهـا
من الحفرات المبيض لم تلقَ شقوةً وبالحسـب المكنـونِ طـاب بخارهـا
فـانبرزت كانـت لعينِـك قـرةً وإن غيـت عزبًـا لم يعمـك عارهـا

فقلت له: تغني رحمك الله وأنت في جلالك؟ والله لأخبرن بها ركبان نجد.
قال: فوالله ما أكثرت وعاد يغني:

فمـا طيبـة إذا مـا جفافـة الحشَـى تجـوبُ بظلفيهـا بطـونُ الخمائـلِ
بأحسـن منهـا إذ تقـولُ تذلّلـه وإذ معَهـا تـدرين حشـواً المكاحـل
تمتـعْ بـذا اليـومِ القصـيرِ فإنـهُ رهـينٌ بأيـام الشـهورِ ولا طـاول

قال: فندمت على قولي له وقلت: أصلحك الله تحدثني في هذا بشيء؟ قال: نعم، حدثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر وأشعث يغنيه:

مقيرتُـه بالبـدر شُـبِّهَ وجهُهـا مطهـرةُ الأثـواب والعـرضُ وافـر
لهـا حسـبٌ زال وعـرضٌ مهـدبٌ وعنْ كل مكروهٍ مـن الأمـر زاجـر
من الحفـرات البيض لم تلقَ رتبتةً ولم يَسـتلمْها عـن تقـيٍّ شـاعر

فقال له سالم ﵁: زدني، فقال:

أعلمـتَ بنـا والليـلُ داجٍ كأنَّـه جنـاحُ غـرابٍ عنـه قـد نفـضَ القطـرَا
فقلـتُ أعطـارٌ ثُـوِّيَ في رِحالِنـا ومـا احتملتْ ليلي سوى رشحَها عِطرا

فقال سالم: والله لولا أن تداوله لرواة لا جزلت لك جائزة فقليل من هذا الأمر كاف.

وفي حديث أبي مصعب لما سأل مالكًا ﵁ عن السّماع فقال: ما أدري إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا عامي غبي جاهل، أوناسك عراقي غليظ الطبع.

وفي حديث الأصمعي عن عمرو بن أبي زائدة قال: مرّ الشعبي بجارية وهي

تقول: فتن الشعبي لما..فلمّا رأت الشعبي سكتت، فقال لها الشعبي مكملاً: رفع الطرف إليها.

وأخبرني فقير قال: كنا بالروم نقيم سبعة أيام نسمع ليلاً ونهارًا ونحن قيام لا نأكل ولا نشرب، ورأيت الشيخ أبا الطاهر اسماعيل بن عبد المحسن‌ﷺ إذا حضر السماع أو أسمع الشبابة لا يملك نفسه ويتمرّغ في المجلس كلّه، وكان الشيخ ناصر الدين لا يحمّله.

فهذا رحمك الله تعالى أقوال السلف وأحوالهم فيه من الصحابة وعزّهم من التابعين وغيرهم من تابع التابعين وأقوال الصوفية المتقدمين والمتأخرين، مع ما عضد ذلك من الأحاديث الصحيحة والاعتضاد بالآيات الواردة في القرآن العظيم، فليس لأحد أن يحرم ما حلل الله تعالى ولا يحلل ما حرم الله تعالى، وأعرف فقيرًا كان يتغذى السماع، وربما أقام اليوم والثاني والثالث(١).

المأخُوذون

وأمّا المأخوذون فهم في ذلك على طبقاتهم وقوة خرق سماع قلوبهم يغنيهم ذلك عن الشراب والطعام والحلال والحرام والنور والظلام والليالي والأيام حتى يردهم إليه ويجمعهم في قربات العارف عليه ويؤنسهم بشواهد تجليه، فلا يرون شيئًا إلا ويرون الله فيه.

فإياك والإنكار على أهل القلوب في السماع ولا سوء الظن عند الأقوال في الاستماع، فإنما أنت بما ملت إليه واعتقدته، فأنت المطلوب عنك بك والمسئول عمّا

---

(١) انظر: كتاب السماع للشيخ السلمي ()، ورسالة ابن حزم في إباحة السماع والغناء، والمحلى له (٩/٦٠).

قلت: واعلم أن ما ورد بسند صحيح في تحريم السماع ليس بنص صريح، وكل ما ورد بنص صريح ليس بسند صحيح، ولا يلتفت لمثل هذا الألباني في كتابه المضطرب عن بقية كتبه وهو «تحريم آلات الطرب» وكأنه في هذيان الشيخوخة يأتي بأشياء غير سوية في ترتيبها ومضمونها، وتدل على جهالة في نقلها.

حيث ادعى مناقشته للمخالفين وأئمة الصوفية كما هو معنون بالكتاب، ولكنه لم يستوف أدلة المبيحين بإنصاف واحترام أصحاب الخلاف، بل قام بالاقتصار برد على العلامة الكبير ابن حزم، وبعض الناطقين بالإباحة ممن المعاصرين غافلاً بالقصد عن نقلة ذلك من السلف الصالحين والأئمة المتقدمين، وما كان ذلك من هذا الألباني إلا للتشويش والتضليل والتزييف، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فيك لك، والله تعالى عند ظن عبده به، فإن يك خيرًا عاد إليك، وإن يك شرًا فلا تلومنّ إلا نفسك وقد قلت:

إذا سَمِعت أذُني لغير حديثكم   فصُمّت به أذني ولا نطقت فمِي
فكلُّ سماعٍ في سواكم محرّمٌ   كذا كلُّ طرفٍ عن سوى حسنٍكم عمي
سرى حبُّكم في كلِّ عضوٍ ومفصلٍ   وذكرُكم في الشعرِ واللحنُ في دمي
وفي كلِّ قلبٍ من هواكم محبةٌ   وفي كلِّ لفظٍ ذكرُكم في التكلمِ
كأن وجودَ الكائنات عواشقٌ   لها كلُّ قلبٍ ذاهبٍ في التتيمي
فما فيه جزءٌ خاليٌ من هواكم   ولا فيه قلبٌ في الهوى غير مغرمِ

البَهَائم المأخُوذَة

ولقد كان سعد إذا حدا تهيم الجمال على وجوهها، وتتقطع أفئدتها، وربما ماتت من ذلك، حتى حكي أن أعرابيًا نزل على سيده فلما قرّب له العشاء أو الغداء، وكان سعد مقيد في كسر البيت، فسأل الأعرابي الذي نزل على سيده أن يشفع فيه عنده، فحين قرب له المأكول امتنع وقال: ما آكل حتى يطلق هذا الغلام، فقال له: إن ذنبه عظيم فقال: وما ذنبه؟ فقال: إن لي إبلاً نعيش بها-أو كما قال- فإذا حملها حدا عليها فتهيم على وجوهها وتنقطع أكبدتها فتموت،

أو قال: لي إبل أعيش بحملي عليها أحمالاً ثقالاً، وحدا عليها فقطعت مسيرة كبيرة في مدة قريبة، فلما حطت أحمالها ماتت جميعًا.. فأطلقه له ثم أكل، فلما كان من الغد قال: أريد أن أسمعه، فأمره أن يأخذ بعض الجمال ويستقي عليها، فلما حدا هامت الجمال على وجوهها وهام الضيف على وجهه.

فانظر رحمك الله تعالى هذه الأخذة للبهائم، ما الذي جذبها؟ وما هذا الداعي الذي دعاها؟ وما هذا الشوق الذي شاقها وساقها؟ كما قال قائلهم:

نعم، لولاك ما ذُكرَ العقيقُ   ولا انبعث إلى البيداءِ نوقُ

إذا كانــت تحــنُّ لــك المطايَــا فكيـفَ لعَمـري الصَــبُّ المشـوقُ؟!

وفي الجمال التي يهيجها الحب عجائب، يسمون الفحولة منها إذا هاج جمل منهم من لا يقدر صاحبه على سياسته وربما قتل صاحبه قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [النحل: ٩].

ومنها من لا يأكل ولا يشرب مدة، ويحمل عليها الأحمال الثقال، ولقد رأيت فيها أعاجيب رأيت جملاً وقد أثقلوه، مع كونه لا يأكل ولا يشرب وهو يقرش على أسنانه ويشقشق ويخرج شقاشقه والزبد على خراطيمه وينزل الأرض، ويخرج على شقشقته شيئًا أحمر منفوخًا كالسّعف أو كالجرّة، ثم يعيده إلى جوفه ولا يعرف من أين هو، وقيل أنه إذا ذبح يُطلب تلك التي كان يخرجها فلا توجد، وقيل أنها الصميم ومن ذلك قيل: أحبة قلبي في صميم فؤادي.

وقيل: يُقيم على ذلك أيامًا وأشهرًا، وما أدري المدة التي يقيم فيها لا يأكل ولا يشرب، وهو مع ذلك مقيد مربوط محتفظ به، لا يستقر ولا ينام ليلاً ولا نهارا، وعيناه محمرّتان.

ورأيت من الإبل أنها إذا حداها الحادي تمد أعناقها وتسرع السير، ورأيت بعضها تلتفت إلى ورائها التفاتات عجيبة بأعين محولة إلى ورائها فكنت أتعجب لذلك. وقد قيل:

هواهَا وراهَا والسرُّ من أمامِها فهنّ صحيحاتُ النواظرِ حولُ

فهذا لعمرك حال الحيوان الذي لا يعقل ولقد رأيت في جنس الحيوان من ذلك كثير الهيجان، مثل السنور وغيره من الكلاب والطيور وما فيها من العجائب والغرائب، من نياحها على إلفها وهديرها لمعشوقها، وفي شجوها وحنينها وترجيها وبكائها وصياحها لا يتمالك المحبوب نفسه، حتى أنه مات بعضهم عند نحيب الغراب والطير، وإذا فقد إلفه يشجوه كلّ قلب شجي، ويحزن بحزنه كل حزين، ويحن لحنينه كل مشتاق كما قيل:

لـو تعلـمُ الورقـاءُ حنيـني نحـوكُمُ بكــتْ معــي ومزقــتْ أطواقَهــا

ولـو يـذوقُ عـاد زي صبابَتي صـبيٌ معـي لكنّـه مـا ذاقَهـا

تحابُب النبـات

وفي تحابب النبات وتعاشقه عجائب ظاهرة لمن تبصر فيها واستقرأها، حتى إن الذَّكر من النخل ما لم يجعل في أكمام الأنثى من طلعه شمراخًا عند لقاحها، وإلا فما يجيء منها تمرٌ ولا رطب أصلاً ولا يعقد، وإن عقد جاء شيصًا لا ينتفع به إلا إن كان لأكل الجمال أو ما شاكله من الحيوان.

وأعجب من ذلك أن النخلات التي تكون بالقرب من الذَّكر لا تحتاج إلى اللقاح ولا أن يجعل منه شيئًا، بل يكتفي بالقرب منه أو بهبوب الريح عليه، فإن الكوز الذي فيه الشماريخ الذي في عرجون الذكر لها دقيق لطيف ناعم نعومته لطيفة لا يكاد يكون مثلها، وله رائحة تشبه رائحة المني بما يستدلون عليه بذلك ليقع الفرق بين المدى والمني بذلك.

وأخبرني فقيرٌ أنه رأى بنهر عيسى ببغداد نخلة من هذا الجانب ونخلة من الجانب الآخر، وأن هذه مالت إلى هذه واعتنقا، وإحداهما ذكر والأنثى لا تلقح، وأنه رأى أيضًا نخلتين في بستانين بينهما طريق، وأنهما مالتا بعضهما إلى بعض واعتنقا والتقيا، وعاد رأس كل منهما إلى البستان التي غرست، به والأنثى لا تحتاج إلى لقاح، والسر الذي في النخلة من سر الإنسان، ومنه قوله ﷺ:

«**أكرموا عمّتكم النخلة**[1]» وإذا اعتبرت وجدت ذلك السر ساريًا في جميع النباتات والحيوانات بل في جميع الجمادات، وفي جذب المغناطيس الحديد كفاية مع شهود الحس.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٣٩)، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (٤٨٩):

رواه أبو نعيم عن علي مرفوعًا، وفي إسناده مسرور بن سعيد التميمي وهو منكر الحديث، وقال ابن عدي: إنه غير معروف، ورواه عن ابن عمر مرفوعًا وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي الغافقي وضاع، وقال ابن عدي: لا شك أنه وضع هذا الحديث.

قال ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (ص١١٥٣):

أخرجه البيهقي بسند جيد، وفي اللآلئ: هو لا يصح من أباطيل محمد بن الوليد، قلت: له شاهد موقوف على ابن عباس. وفي المقاصد سنده ضعيف.

لكل شيء مغناطيس

وبلغني أن لكل شيء مغناطيس يجذبه، وأن للفضة مغناطيس وللذهب مغناطيس وللشَّعر مغناطيس وللماء مغناطيس حتى أنهم ذكروا أن مغناطيس الماء إذا كان معلقًا حيال الماء الذي يجعلونه في الإناء يتصعد الماء إليه حتى أنهم يزنونه، فإذا تصاعد إليه وجدوا الحجر قد زاد قدر الماء، ومن هذه العجائب كثير، وذلك لأسرار خفية عن العقول يعلمها الله تعالى.

جذبَ القلوبَ بسرِّ مغناطيسِه فَغَدتْ مُعرَّفةً وراحَ منكرَا

ومن استبصر وتفكر وتدبر رأى في عجائب المصنوعات وأنواع المخلوقات بالاختلاف في الأنواع والأجناس ما يتحقق به قوة اقتدار القادر وانفراده بالخلق والاختراع وحسن الصنعة وإحكام الحكمة ما يذهل عقله ويسلب لبه ويوقفه بالعجز عن معرفته وعن معرفة عجزه في معرفته.

فكيف بمعرفته من وجه من وجوه المعرفة إلا به؟ فكيف بكمال المعرفة به المستحيلة على البشر أن يعرفوه حقيقة معرفته فلا يعرفه غيره تعالى وتقدّس وارتفع وتنزه سبحانه وتعالى عن كل ما تدركه العقول وتكشفه العلوم وتحيط به الأفكار ويسبح في عالم الأطوار ومجاري الليل والنهار، خالق العقل والمعقول، والفعل والمفعول، والموجود والمعدوم، والشقي والشقيا، والرحمة والمرحوم.

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]، ﴿**نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الأنفال:٤٠].

وقد قلت:

فيا سِرَّ سرِّ السرِّ من سَرَّ سِرَّه يا منتهى الآمالِ يا غايةَ الكلِّ

إليك انتهى سرُّ القلوبِ جميعُها إلى موطن ما فيه قلبي ولا عقلي

جذبت به كونَ الوجودِ بأسرِهِ فكلٌّ له سمعٌ يجل على العدلِ

فكيف يساوي الرُّوح فيك فاتنًا ولا كل ما في الكون في البعد والقبلِ

وأنت الذي أبديته قبل كونه فهَيهات لا مالي أرجو ولا أهلي
فغاية جَهدي بذلُ رُوحي فيالهوى وجِد انتسابي في محبتكم قتلي
ومن أين لي رُوح فأختار بذلَها ولا حبره كلا ولا أنا من أجلي
فوَصلي قطع وانقطاعي تواصلٌ وفي الحق لا قطعٌ لدي ولا وصلي
تشاغلت عني في التشاغل فيكُمُ ولا شُغل مني في الحقيقة من شغُلِ
فها أنا مِتٌّ في الحقيقةِ ليس لي بغيرِك أحياءٌ ولا ميت قبلي
عُبَيدك أني إن تشاء أكُونُهُ فإن شئتني بين الأنام فمن مثلي؟

أهل الاستماع

وأهل الاستماع متفاوتون في الاستماع بحسب مواجيدهم في تجليات محبوبهم، والسامعون من الله تعالى عند استعداد القلوب وخلوها من الشوائب والأغيار في هذه الدار، ومن تلك الدار وجمعيتها لاستماع موارد الأنس؛ أذ لا يسمع في ذلك المقام من غيره ولا ينطق إلا به من وراء حجاب الخطاب وشواهد الأسباب، ولا فرق بين أن يسمع من صامت أو ناطق أو حيوان أو إنسان، فيسمع من نغمات الأطيار وتمايل الأشجار وتسليم الأسحار وحس الأوتار وصفير المزمار والبلابل والهزار، فلا يختلف لديه السماع ولا يفرق بين الطيور واليراع(١).

وحكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي -قدّس الله تعالى روحه(٢)- أنه كان رأى

(١) اليراع: يقصد به آلة مصنوعة من القصب، وهي ما تعرف الآن بالناي، والمزمار.

(٢) هو سيدي على أبو الحسن بن عبد الله السيد الشريف. زعيم الطائفة الشاذلية، نسبة إلى شاذلة، قرية بإفريقية. نشأ ببلده، فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها، وصار يناظر عليها مع كونه ضريرًا.
ثم سلك منهاج التصوف، وجد واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاء الفضائل طيره، وحمد في طريق القوم سُراه وسيره.
نظم فرقق ولطف، وتكلم على الناس فقرظ الأسماع وشنف، وطاف وجال ولقي الرجال.
أخذ عن ابن مشيش، وأبي سعيد الباجي.
قدم إلى الإسكندرية من المغرب، وصار يلازم بثغرها من الفجر إلى المغرب، وينتفع الناس بحديثه الحسن وكلامه المطرب.
=

النبي ﷺ في المنام وقال له: سلم على عبد العزيز بن عبد السلام، فذكر له ذلك، فربما حصل عند الشيخ عز الدين(١) من ذلك شيء، فحصلت بينهما وحشة، فاتفق اجتماعهما في مجلس وفيه سماع، فكلم القاضي الشيخ عز الدين وقال له: هذا الشيخ أبو الحسن رجل كبير القدر، وذكر ما ذكر من صدقه وعلو شأنه ليزيل تلك الوحشة التي بينهما، فقال الشيخ عز الدين: مهما قال المغني أو القوّال فهو حالنا أو قالنا وإذا بالمغني قد استفتح وأنشد:

صدقَ المحدّثُ والحديثُ كَماجَرَى   إني أرى ألاّ أرى فيمَا أرى

فقام الشيخ عز الدين إلى الشيخ الشاذلي وتعانقا وطاب الوقت.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الإشارة اللطيفة.

وحكي أن الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمه الله كان إذا عمل بالقاهرة

=

وكان إذا ركب تمشى أكابر الفقراء والدنيا حوله، وتنشر الأعلام على رأسه، ويأمر النقيب أن ينادي: من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلي.. ونودي في سره: يا علي، أنت الشاذلي.

ثم تحول إلى الديار المصرية، وأظهر فيها طريقته المرضية، ونشر سيرته السرية. وكان يقرأ الشفاء وتفسير ابن عطية. أخذ عن العز بن عبد السلام. وله أحزاب محفوظة، وأحوال بعين العناية ملحوظة. وانظر: تعطير الأنفاس في مناقب سيدي أبي الحسن وأبي المرسي العباس لأبي الصلاح الوفائي، والمفاخر العلية لابن عياد، كلاهما ، ولطائف المنن لسيدي ابن عطاء الله.

(١) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام. العلامة ذو الفنون.

وحيد عصره، عز الدين السلمي الدمشقي ثم المصري، شيخ الشافعية، وقدوة الصوفية، أمام عزّه دائم، وطائر فضله حائم، وبحر كمال موجه زاخر، وجوهر علومه فاخر. كان وافر التقشف، تارك التكلف، حسن الخلق، مهاب المنظر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، عظيم الجد والمجهادة، احتلم في ليلة شديدة البرد، فجاء إلى جامدٍ فكسره واغتسل، فكادت روحه تزهق، ثم احتلم، ففعل مثل ذلك، فأغمى عليه وكاد يهلك، فسمع قائلاً: لأعوضنك بها عز الدنيا والآخرة؟ هذا وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وقصد للأخذ عنه من أطراف البلاد.وله التصانيف المفيدة، والمناقب التي يبلى الزمان وهي جديدة، درس بدمشق وبها خطب، ورقى بمصر عند سكنه بها إلى أسمى الرتب، ولي الحكم بالديار المصرية، وحاز قصب السبق في ميدان طائفته العصرية.

وانظر: الكواكب الدرية (٥٢٧).

ومصر سماع ولم يحضره الشيخ شرف الدين بن الفارض لا يطيب، فاتفق أن شخصًا دعا الشيخ وعمل له سماعًا، وكان عند الشيخ قبض فانقبض الوقت لانقباض الشيخ، فتألم صاحب المنزل فقال له المغني الفصيح: تعطيني عشرة دنانير وأنا أبسط لك الشيخ؟ قال: نعم، فاستفتح المغني وأنشد:

لي بالحجــــازِ بقيـــــةٌ خلّفتُهـــــا   أودعتُهـــا يـــوم الفـــراقِ مـــودِعي
وأظُنُهـــا لا بـــل يَقِينًـــا أنّهـــا   قَلــبي فَــإنّي لا أرى قَلــبي مَعـــي

فقام الشيخ ابن الفارض وتواجد ومرّ لهم في ذلك وقت جليل.

وحكاية الشيخ يعيش عن الشيخ علي الحريري قد تقدمت في حديث القادوس وقوله:

قــدْ مُلــئَ القــادوسُ بهــم طويــلُ   ممتلـــئُ الـــرأسِ ودمعُـــه يســـيلُ
لـــه رفيـــقٌ بقليـــلٍ يســـبقونَا   لـــه سَـــنتين يجـري ومـــا يَلحقُونـــا

قام الشيخ علي وتواجد ليله أجمع يقول: لي سنتين أجري وما ألحق.

وحكاية خير النسّاج[١] لما قال له ذلك الشخص الذي هرب غلامه: أنت

---

(١) هو أستاذ الجماعة، وكان ممن أقام دولة الصوفية وقام بنصرها، وقعد بالمصلحة في نفع أمرها، وأقيمت به دعواتها، وعزت بعزمه ذروتها.

وكان عظيم المراقبة، كثير الأدب والمجاهدة. أخذ عن السري وتلك الطبقة العالية، ودخل جنة المعارف وجنى قطوفها الدانية من أشجارها العالية.

وكان له حظ وافر في الكرامات، وتاب في مجلسه الشبلي والخواص لما أبصرا فيه الخوارق والآيات، وأصله من أهل سامرا ثم سكن بغداد.

وكان شديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عن نحو مائة وعشرين سنة ، فهو من أقران الثوري وطبقته، لكنه عمّر طويلاً، فلذلك ذُكر في طبقته، وإن تأخرت وفاته إلى أهل القرن الرابع. وانظرك الكواكب (٢٤٦).

عبدي وهربت مني، فلم يرد عليه قوله لأنه كان يسمع من الله تعالى، فأخذه ذلك الشخص واستعمله نساجًا،ولم يكن يدري ذلك قبل ذلك اليوم، فعمل له في ذلك مدة وكأنه كان يعمل فيه طول العمر والرجل يعتقد أنه عبده لما ألقى عليه من شبهة لوجه الاختبار في حق خير النسّاج وبذلك سمي خيرًا النسّاج، ولم يكن نساجًا قط قبل ذلك، فلما أراد ذلك الشخص أن يعطله عن أوراده زال الشبه عنه فأصبح فوجده على باب داره فقال له: يا أخي، رأيت غلامي خيرًا؟ فعلم حين ذلك زوال الشبه وحقيقة الاختبار وقال: اسم سماني به رجل مسلم لا أتركه، فسمي به حتى مات ﵁.

وحكاية الذي سمع: أيا راهبي نجران ما فعلت هند.. وما حصل له من ذلك من الاعتبار لما فعل به في الأزل والقضاء الأول.

والناس على طبقات في السماع في طرقهم إلى الله تعالى حتى في قول الفَوَّال: (الفول الحار)، وفي قول الصبَّان: (صابوني ردي ردوني)، وكل واحد بحسب وجدانه في سماعه، وقد قلت:

إذا كنتُ للقربِ لا أصلُحُ ... وقلبي لغيرك لا يصلُحُ
ولا مهجتي تبتغي مفلحًا ... ولا أتاني مطلبي أفلحُ
فقل لي إلى من ترى رجعي ... وأى المناهجِ لي أجنحُ
فَمَن لي سواكَ ومن أرتجي ... ومن ذا سواك بهِ أفرحُ
فَمَا كان غيَرُكَ لي محزنٌ ... ولاَ كَان غيرك لي مفرِحُ
ولاَ حُسنُ بعدِكمُ راقَ لي ... ولا شَيء لي منكمُ أملحُ
فإن تَطردوني عن بابِكم ... رجِعتُ إليكم وما أبرحُ
يمتدُّ كلُّ حالٍ مَتى شئتمُ ... رُجوعي إليكم به أنجحُ

وحكي أن الشيخ عبد الرحيم -قدس الله روحه- كان يقول في آخر دعاء يدعو به: على من تكلنا وإلى من تردنا؟ تولنا كيف شئت، ربما قال ساخطًا أو راضيًا، وذلك أنه ﵁ لم يجد غيره فيرمي كَلَّهُ عليه ولا له سواه فيرجع إليه، فطلب أن يتولاه مولاه كيف شاء.

سَمَاع النسَاء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله قال: كنت يومًا بجامع مصر، وابن الفارض بالجامع وعليه خلقة، فقام شاب من عنده وجاء عندي وقال لي: جرت لي مع الشيخ حكاية عجيبة -يعني ابن الفارض- فقلت: وما ذاك؟ قال: دفع لي دراهم، وقال: هات لنا بها شيئًا للأكل، فشريت ومشينا إلى الساحل فنزلنا في مركب حتى طلعنا إلى البهنسة، فطرق بابًا فنزل شخص وقال: بسم الله فطلع الشيخ وطلعت معه، وإذا نسوة بأيديهم الدفوف والشبابات وهن يغنين له، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ، ونزلنا فسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقي في نفسي: كيف رقص الشيخ على غناء النساء؟! فلما كان في هذه الساعة حضر ذلك الشخص الذي فتح له الباب وقال له: يا سيدي، فلانة ماتت..

-وذكر واحدة من أولئك اللاتي كن يغنين له- فطلب الحجري فقال له: نشتري جارية، وربما قال: تصلح لهذا، ثم مسك أذني وقال لي: لا ترجع تنكر على الفقراء، أو قال: لا تعترض على الفقراء، جميع من رأيت ذلك اليوم جواري.

قال الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-: بقي عليه أنه لو أخبره بذلك خشية ألاّ يموت ذلك الشاب بسوء ظنه فيه، والذي أراه أن الشيخ ابن الفارض ﷺ إنما ترك إعلامه في ذلك الوقت إلا لمصلحة رآها من ظهور البينة، والدليل القاصد له مع كشفه باستمرار حياة المنكر عليه إلى وقت ظهور البينة، كما جرى ليوسف الصديق عليه السلام، والظاهر أنني قلت ذلك للشيخ عبد العزيز ﷺ في ذلك الوقت.

وأخبرني الأمير مجير الدين بن شجاع الدين المعروف بابن اللمطي(١) عن الشيخ تقي الدين القشيري ﷺ أن سماع النساء ما كان عنده أمر كبير، وربما قال لي إنني سمعت أنا وفلان شيئًا غاب عني، وقلنا للشيخ ذلك فما أنكره، وعلى الجملة فالإنكار على الطائفة المنسوبة إلى الله تعالى المعروفة بالصلاح من علامات الشقاوة، نسأل الله تعالى العافية في الدين والدنيا والآخرة.

كلٌّ على طريق الحق

---

(١) كان أديبًا منشدًا متصوفًا، وانظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٥٢٢/١).

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كان ملك من الملوك يعتقد في شيخ من المشايخ، وكان الشيخ يأمره بزيارة رجلين من المشايخ، فحضر ذات يوم وعنده شيء فقال له الشيخ: مالك؟ فقال: يا سيدي، ألست تقول فلان رجل صالح؟ قال: نعم.. قال: فلان قال لي كذا وفلان قال لي كذا- كلام يخالف كل واحد منهما صاحبه فيه..

فقال له: يا ولدي، كم لك جوارٍ وحظايا؟ فقال له كثير، قال له: خذ هذا المنديل، وأعطاه الشيخ منديله، وقال له: إذا كان الليلة تجلس عند كل واحدة منهن وتلاطفها وتظهر لها الوداد والمحبة ما تمكنك وتدفع لها شيئًا مما معك ليكون أمارة لها بذلك، فإذا فرغت منها أبرم عليها هذا المنديل، فإنها تنام، وافعل بكل واحدة منهن كذلك، فإذا أصبحت اجلس بمكان تراهن حتى يخرجن ويجتمعن فيه فاسمع ما يقلن ثم احضر وأخبرني به.

فقام من عند الشيخ، فلما كان الليل جلس عند كل واحدة منهن وفعل ما أمره به الشيخ وأعطى لكل واحدة منهن شيئًا من لباسه،كخاتمه لواحدة ومنديله لأخرى وحياصته[1] لأخرى، وكذلك الجميع، لم يترك واحدة منهن ما أعطاها شيئًا تستدل به ويكون لها أمارة على حبه لها وقربه منها.

ثم أصبح بعد أن فرغ من الجميع وجلس في مكان يشرف على تلك الحظايا والسراري، وإذا واحدة منهن قد خرجت وأخرى قد خرجت فصبّحتها، وكل واحدة منهن عليها من السرور والبهجة أمر كبير، فقالت الواحدة للأخرى: يا فلانة، هل رأيت قط مثل هذا السلطان سلطاننا؟ والله كان عندي البارحة وجرى لي معه كيت وكيت ورأيت منه كذا وكذا، هذا خاتمه معي.. قالت لها تلك: والله ما كان إلا عندي وجرى لى معه كيت وكيت وكذا وكذا، وهذا منديله معي.. فقالت الثالثة: والله كذبتما، والله ما كان إلا عندي وجرى لي معه كيت وكيت، وحياصته معي، ثم خرجن جميعًا، وكذبن بعضهن بعضًا وتقاضين، وراحت كل واحدة منهن إلى مكانها متقاضيات.

فحضر إلى الشيخ وحكى له جميع ذلك، فقال له الشيخ: فهل كذبت واحدة منهن؟ قال: لا قال: أليس الكل على الحق؟ قال: نعم فقال له: يا ولدي، اعلم أن الله تعالى يتعرّف

(١) هو سير كان يُركّب في الحِزام.

إلى كل واحد تعرفًا لا يعرفه غيره، فالكل على الحق، وكل منهم على طريق الحق.

آثار الصفات بحسب الموصوفين

فصدق الشيخ ﷺ فإن تعرّفات الله تعالى إلى عباده غير محصورة في شخص ولا في طريق؛ لأن آثار الصفات بحسب الموصوفين بها، وطريق الرجاء غير طريق الخوف في حق السالكين، وأثر الرحمة غير أثر الغضب، ألا ترى أن الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- اختلفت طرقهم في الإرسال والمرسل واحد فيحرم هذا ما يحلل هذا؟

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن أحد الملوك جاء إلى شيخ من المشايخ فسأله المطر، فقال له الشيخ: ما رأيت في الخزائن مطرًا، أأدعو لك الله تعالى بالمستحيل؟

فخرج الملك من عنده وأتى إلى شيخ آخر فسأله المطر فدعى له، فخرج من عنده يخوض في المطر، فجاء الملك إلى شيخه الذي يعتقده وقال له: يا سيدي، رحت إلى الشيخ فلان وسألته أن يدعو لي بالمطر فقال لي: ما رأيت في الخزائن مطرًا، أأدعو لك الله تعالى بالمستحيل؟ ثم رحت إلى فلان وسألته أن يدعو الله تعالى لي المطر فدعى لي فما خرجت من عنده إلا وأنا أخوض في المطر..

فقال له الشيخ: الذي قاله الشيخ الأول صحيح؛ لأن الخزائن التي أطلعه الله تعالى عليها ما كان فيها في ذلك الوقت مطر، وكم لله من خزائن ما أطلع الشيخ عليها.

وليفهم من ذلك ما يتعدى من الكشف وما ينحصر، كما اتفق للذي أرسله بسجاد إلى أحد المشايخ بالحزب، فراح يسلّم على شيخه ويودعه، فقال له: لا ترح فيأخذك الفرنج، فسافر، فخرجت عليهم الفرنج وأخذوا المركب وأسروه، ثم إن المركب وقف ووقف الريح عليهم فقيل للفرنج إن هذا بسبب ذلك الفقير فلن تقدروا أن تسافرو أو تطلقوا المركب، فأطلقوا المركب حتى إنهم ما قدروا يسافروا حتى فتشوا على شيء يسير بقي لهم ردوه.

فجاءتهم الريح وسافروا ووصل عند الشيخ وأعطى السجاد الذي أرسله شيخه إليه، فقيل له في ذلك فقال: يا ولدي، كشف الشيخ اقتصر على أخذ المركب، وكشف الذي أعطى السجادة تعدّى ذلك وكشف خلاص المركب ووصولك بالسلامة.

وحكى الشيخ عبد العزيز عن فقير قال كنت قاصدًا زيارة الشيخ أحمد بن العجيل[١] باليمن، وكنت راكبًا فسقطت من على الدابة، فسمعت صوتًا يقول: بسم الله عليك، بسم الله عليك، وكان في ذلك الوقت زوج الشيخ أحمد بن العجيل عنده، وهي صاحت بسم الله عليك، فقال لها الشيخ: إيش بك؟ فقالت: فقير جاء إلى زيارتك وسقط من على دابته وأنا قلت بسم الله عليك بسم الله عليك، قال: فدخلت على الشيخ فقال: إيش اتفق لك في الطريق؟ فقلت له: يا سيدي، سقطت من على الدابة، فإذا بي أسمع صوتًا يقول بسم الله عليك بسم الله عليك وحُملت، فقال: هي الفقيرة أبصرتك حين سقطت، وفي حسن الظن سلامة الدنيا والآخرة.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن ملكًا من الملوك كان يعتقد في شيخ من المشايخ، وكان عند الشيخ فقير معتبر صاحب همّة وتصريف، فنظر الملك ذلك الفقير يقبّل جارية الشيخ.

فأتى إلى الشيخ وقال له: يا سيدي، أنت تقول أن فلانا رجلٌ صالح؟ قال: نعم قال: فإني رأيته فعل كذا وكذا، فقال الشيخ: اطلبوا فلانًا فطلبوه، فقال له: يا ولدي، أنا كنت أعرف فيك تصريفًا، وقد اشتهيت المشمش، وكان هناك شجرة غير طارحة، وهو غير أوان المشمش. فأشار الفقير إليها فأثمرت في وقتها، وأخذ المشمش منها ووضعه قدّام الشيخ قال له: فإني كنت أعرف فيك طيران، ولي حاجة في ذلك الجبل، وسمّى حاجته قال:

فانجمع ذلك الفقير وطار إلى الجبل وأتى بحاجة الشيخ، فقال الشيخ للملك: هذا هو الذي رأيته، قال: لا.

التَّوبة تجبُّ ما قَبلها

---

(١) هو أحمد بن موسى عجيل اليمني.الفقيه الكبير الزاهد الشهير، المجمع على إمامته وولايته، وتفرده عن أقرانه، وتميزه بين أهل زمانه.

كان عارفًا بالفقه والأصول والنحو والحديث والتصوف وغيرها، زاهدًا عابدًا، وربما سئل عن سماع الصوفيه فقال: إن أبحته فلست من أهله، وإن أنكرته فقد سمعه من هو خيرٌ مني.

وانظر: مرآة الجنان (٤/٢٠٩)، روض الرياحين (٣٢٩)، طبقات الخواص (١٣).

وذلك أن الخصائص الوضعية لا يشوبها النقائص الكسبية، والقبلة صغيرة، والتوبة تجبُّ ما قبلها من الصغائر والكبائر، والعصمة لا يتحدى بها إلا الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فليس العصمة شرط في الولاية لأنهم دعاة بواطن وأسرار، والأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- دعاة علانية وإظهار، فيجب ظهور المعجزة والتحدي بها شرط في النبي لقيام الحجة على المعاندين والكفار.

وحكى لي الظهير موسى بن الصباغ عن الشيخ عبد الغفار ابن بنت الشيخ أبي الحجاج الأقصري قال: كنت أخدم الشيخ جبريل -رحمه الله تعالى- قال: فنزل ليلة في البيت فنزلت خلفه، وجاء إلى البحر ونزل فيه وغطس طويلاً حتى ظننت أنه غرق، ثم رفع رأسه وطلع وطلع الماء خلفه، وبقي يطلع والماء يطلع خلفه، فقلت: يا سيدي، ما هذا؟ فقال: يا ولدي، ما أعلم إلا أنني كنت نائمًا فإذا بقائل يقول لي: قم إلى البحر، وانزل واغطس وادعُ بهذا الدعاء.. فقمت وجئت وغطست وطلعت فقلت: يا سيدي، فما هو الدعاء؟ قال: والله ما رفعت رأسي وعندي كلمة أو ما عرفت منه كلمة.

وحديثهم كلهم عجب.

بنّـان الحمّال(١)

وحكى لي الزاهد عمر بن عبد النصير القوصي عن الشيخ أبي عبد الله الأُسواني قال: قال لي الشيخ عبد العزيز العجمي الدندري -ولم يكن من دندرا، وإنما أقام بها فكان يسمى بها رحمه الله تعالى- قال: تعرف بنان الجمّال؟ فقلت: نعم، كان يحمل العجار والصغار يجرون خلفه ويرجمونه بالحجارة وينبشوا أبويه فقال لي: ذلك والله القطب قطب الزمان.. وقد

(١) هو الإمام المحدث الزاهد شيخ الإسلام أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال، الواسطي، نزيل مصر، ومن يضرب بعبادته المثل، حدَّث عن الحسن بن محمد الزعفراني والحسن بن عرفة وحميد بن الربيع وطائفة، حدث عنه ابن يونس والحسن بن رشيق والزبير بن عبدالواحد الأسداباذي وأبو بكر المقرئ وجماعة، وثقه أبو سعيد بن يونس، صحب الجنيد وغيره، وكان كبير القدر لا يقبل من الدولة شيئًا، وله جلالة عجيبة عند الخاص والعام. فهو من جلة المشايخ والقائلين بالحق والآمرين بالمعروف له المقامات المشهورة والآيات المذكورة.

وانظر: سير أعلام النبلاء (٤٨٨/١٤)، والرسالة القشيرية (ص٤٠)، وطبقات الصوفية (٩)، (٢٩١)، وطبقات الشعراني (١٣٢/١).

قلت:

قـــومٌ تـــرى أحـــوالَهم مجهولـــةً ... في كـلِّ حـالٍ في الـورى لا يَعرفُـوا
فصفاتُهم خيرُ الصفاتِ ونعتُهم ... خيرُ النعوتِ وهم بها لا يوصفُوا
يحسبُهم الجهالُ أهلَ جهالةٍ ... وهمـو لتحقيقِ الفضائلِ أعرفُ
في مهنةِ الأعمالِ أخفَوا حالَهم ... ومقامُهم فوقَ المعالي يَشرُفُ
يتحملون الكلَّ من كلِّ الورى ... وإذا رأوا ثِقَلاً بقومٍ خففُوا
لا يكرمون ويرجمون إهانةً ... وعن الإهانةِ والأذى استنكفوا
فبهم يُحلُّ الغيثُ في وقتِ الرَّدى ... وعن البريةِ للبلايا يُصرفوا
فالقطبُ والبدلُ الفريدُ وأعينٌ ... منهم كذا الأوتادُ منهم يعطفوا
والأولياء تحجَّبوا عن وصفِهم ... مَا فيهِم منهم وليٌّ يُعرفُ
يا ربُّ فاجعلني بحبِّك منهُمُ ... كي أقتفيَ في قصدِهم ما يقتفوا
زهدًا عن الكونين حقًّا وحقُّهم ... وعن المعالي في الأنامِ تعففوا
لا يرتضون سِواك أنت حبيبُهم ... نُسبوا إليك فعُزِّزوا وتشرفوا
صرفوا بحبِّك عن سواك قلوبَهم ... فلأجلِ ذلك في الوجودِ تصرفوا
لو يسجُدون على الجحيم تأبُّدًا ... في بعضِ ما أوليتهم ما أنصفوا
وعبيدك المسكين أحقّ أن يُرى ... مثلاً لهم في فعلهم إن لم يفوا
فبحق جُودِك جد له بمحبةٍ ... يا من إليه المنتهى والموقفُ
ودُم الصلاةَ تخص محضًا للذي ... من إرثِهِ كلُّ المعارفِ تُعرَفُ

أحـــوال الأوليـــاء

والأولياء منهم من يتستر ومنهم من يظهره الله تعالى لما يختاره فيه ويكون هو سليب الاختيار.

ومنهم من يجري الله تعالى على لسانه وجوارحه ما يريد فعله في خلقه، فمنهم من يعلم ذلك ومنهم من لا يعلمه إلا بعد وقوعه، وهو حال من أحوال السالكين.

ومنهم من يؤمر بما يقول ويفعل، ومنهم من يكشف له الكون جملةً وتفصيلاً، وما سيكون قبل أن يكون من المحدثات في العالم كما حكي عن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ أنه كان يخرج على أصحابه ويقول: أفيكم من إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم حدثًا أعلمه به قبل حدوثه؟ فيقولون: لا فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله تعالى.

المُستترون الأخفياء

ومن الأقطاب من لا يعرف ويستتر في بعض الأعمال وأحوال المجانين، كبنان الجمّال وغيره، ومن العارفين كذلك كقضيب البان وغيره ممن ظهر في زي المجانين والمولهين.

وحكى لي عثمان الأقصري عن الشيخ أبي العباس الملثم رحمه الله تعالى، أنه كان قبل أن يعرفوه يقف على المكان ويتمنى ويقول: تمنيت درهم، فإذا أعطي الدرهم تصدّق به على الفقراء، وكانت له أحوال وتصريفات عظيمة حتى أنه قال لي ذات يوم -أعني الشيخ أبا العباس- إذا جئت معي إلى وادي سرنديب بشرط ألاّ تعود إلى أهلك تنظر كل شجرة بما فيها من المنفعة ويخاطبك ما في الوادي من الثمار والأشجار -وهو وادٍ كثير الحيّات والسباع- وذكر لي أن هناك جبل عقيق، وأن هناك بحرًا أحمر وليس ماؤه أحمر، وإنما هو من حمرة ذلك الجبل، وذكر فيه من الغرائب والعجائب كثيرًا.

كنــــوز الأرض

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي- رحمه الله تعالى- عن الشيخ عبد العزيز العجمي- وكان يسمى الدندري لإقامته بها- أنه اطّلع على كنوز الأرض، وأنه قال له أن بأُسوان مكان فيه سبعة أرادب ذهب، وذكر أنه اكتالها، وأنه لم يؤذن له بأخذ شيء منها سوى سبعة دنانير، ولم يؤذن له بإطلاع أحد عليها.

وقال لي الشيخ أبو الطاهر إن الشيخ عبد العزيز كان يطعمنا الحلاوات والأطعمة الطيبة ومع ذلك لم يعترض عليه أحد، فهم يظهرون في مظاهر المسكنة

والاحتياج تارة تكتمًا وتسترًا عن اطلاع الخلق عليهم وتارة اختيارًا وإذلالاً لنفوسهم بين يدى ربهم وشكرًا لنعمه عليهم؛ لأن من الشكر إظهار الذل لله تعالى والافتقار إليه عند الاستغناء به عن الخلائق، وتارة يجذبون الخلق إلى الله تعالى فيما يعطوهم إياه، ويحصل الثواب لهم من شفقتهم على خلق الله تعالى.

وفي ذلك ما حكاه لي الشيخ عبد العزيز الشريف المنوفي -رحمه الله تعالى-قال: كان بالإسكندرية شخص توفي وخلف لولده ألف دينار -وسما الولد المذكور وغاب عني اسمه- فبنى بالألف دينار دارًا للفقراء وأوقفها عليهم، وجعل يدور بالزنبيل ويطعم الفقراء والناس يكرهون منه ذلك.

فمنهم من يقول كان يستغني عن السؤال بما أعطاه الله تبارك وتعالى.

ومنهم من يقول كان يبني دارًا بخمسمائة دينار ويطعم الخمسمائة.

وبقي على ذلك سنينًا، ثم إنه لم يكن يروح من عنده شيء ولو كانت حصاة ملح، فقيل له في ذلك فقال: والله ما أشتهي أن أفارق أحدًا إلا أن أثبت له حسنة..

فحصل له بعد ذلك إقبال عظيم من الناس، فجلس في بيته، وكان له حمار، فجعل الخادم عليه القفاف وأوعية الزيت ويطلقه وفي عنقه جرس، فما يجيء الحمار إلا وقت الحاجة إليه، فينزل الخادم يجد في القفاف الخبز واللحم والدراهم والزيت وجميع ما يحتاجونه، فيحط عنه ويعلفه، فلم يزل كذلك حتى مات الفقير صاحب الدار، فبقي الحمار يخرج على عادته ويأتي الفقراء بالوظيفة حتى مات الحمار، فلم يتركه الفقراء للكلاب يأكلونه، بل كفنوه ودفنوه.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز أنه حضر في تلك الدار ذات يوم، وقد جرى بين الفقراء ما جرى من عادتهم وإنصافهم بعضهم بعضًا، فوقف الفقراء ينصفون وخلعوا دلوقهم، وكان في الدار طيرًا من الطواويس، فالتفت الطاووس إلى ذنبه، وقلع ريشة منه، ومشى بها حتى وضعها على خرق الفقراء، فحصل بذلك وقت عظيم، واشتراها شخص بمال جزيل ووصى أن توضع في كفنه إذا مات وقد قلت:

قوم لهم كل مُلكٍ دون رتبتِهم ... لكنهم ظَهَروا في زيِّ مسكين

لا يسكنون بأرضٍ يُعرَفون بها ... ولا يُقيمونَ في حالٍ بتعيين
رضَوا من العيش في الدنيا بأيسرِهِ ... وقَنعوا النفسَ في الملبوس بالدونِ
كان الفقرُ عيشَهم والذلُّ عزَّهم ... وهم مع الفقرِ أغنى من سلاطين
وما منهمُ غيرُ صبٍّ في محبتِه ... وعاقلٌ قد بدَا في زيٍّ مجنونِ
يراهم الناس جُهالاً بمسكنةٍ ... وهم مُلوكُ الورى في المالِ والدينِ

وهكذا كل من رتبه جليلة في الدنيا كالخلفاء والملوك والأمراء يتجسسون ويظهرون بخلاف حالهم الذي هم فيه لمقاصد لهم وأمور لا تقف بها غيرهم.

لمحات من سيرة الفاروق

فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته يطوف بالليل ويطلع على أحوال المسلمين وضروراتهم فيقوم فيها بما يجب عليه ويكشف ضروراتهم وقد كان ليلة من الليالي يمشي في المدينة وهو يسمع امرأة تقول:

ألا هل سَبيل إلى خَمْرٍ فَأشرَبُها ... أم هل سبيل إلى نَصر بن حَجاج

فأصبح وطلب نصر بن حجاج وكان نصر شابًا جميل الصورة وله شعر، فأمر بحلاقة شعره، فظهر في الحلاقة أحسن ما كان في الشعر فأخرجه من المدينة ولم يرجع إلى المدينة حتى طلعت لحيته.

وكان ليلة أخرى يمشي بالليل بالمدينة فوجد امرأة أرملة وعندها أطفال لها وهم يشكون من الجوع وهي تشغلهم وقد علقت على النار قدرًا ليس فيها غير الماء لتشغلهم بذلك عن الجوع، فراح أمير المؤمنين وحمل على عنقه الدقيق والحطب وأوقد النار وجعل ينفخ تحت القدر حتى احترقت بعض لحيته من نفخ النار ﷺ ومكث حتى أكل الصبيان وضحكوا ولعبوا، فسئل عن ذلك فقال: كرهت أن أتركهم إلا وهم يضحكون كما كانوا يبكون.

هَـارون والرعية

وقد كان هارون الرشيد في خلافته يتجسس ويظهر بزي التجار ويمشي في الأسواق ليطلع على ما يصل إليه من غيره ولا يشفيه سواه حتى اتفق له ما اتفق من أمر البرامكة وسمع ما سمعه في ذلك من ذكر أخيه العباس حتى آل أمر البرامكة معه إلى ما آل إليه ولا حاجة لنا في ذلك.

وكذلك أكثر الملوك أرباب الهمم العالية يفعلون ذلك، وكذلك جرى لعمرو ابن العاص رضي الله عنه وغيرهم.

محمّد المصْري

وحكى لي الصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى-قال: لما توجهت في صحبة الملك الظاهر إلى الشام ودخلنا دمشق كنت ألبس في الليل ثيابًا غير ثياب الوزارة -أو قال أخرج على زي القوم- وأدخل الجامع بدمشق أجلس عند الفقراء، فإذا كانت لهم حاجة في السوق أقضيها لهم، وكانوا يسموني محمد المصري، وكانوا يرسلوني أشتري لهم الناطف(١) وكيزان الماء.

فبقيت على ذلك خمسة وعشرين يومًا. قال: وكان يأتي للفقراء شخص من المسجد بطّال، وهؤلاء البطالون يظهرون أسرار الناس، فاتفق أن الفقراء قالوا له يا فلان، أنت إلى الآن بطّال -أو كلام هذا معناه- فقالوا له: لم لا تروح إلى هذا الوزير الذي مع السلطان؛ فإنه رجل جيد وفيه الخير ويحب الفقراء؟ فقال لهم: وإيش يوصلني إلى الصاحب؟ إن كان راكبًا فهو في زيارة الصالحين ولا أصل إليه، وإن كان جالسًا فالحُجّاب ودست الوزارة وما أنا من هذا القبيل -أو كلام هذا معناه- فقال الصاحب: فقلت له اكتب لي قُصة؛ فلي صاحب يعرف الوزير فقال: خلّني أو يا صاحبي، تحدث لي فلان وفلان وما حصل لي شيء، فقال واحد من الحاضرين: اكتب له قصة، يوجد في الإسقاط مالاً وورقة بفلس قال: فكتب لي قصة وجعلتها في جيبي، فلما أصبحت

(١) هو نوع من الحلوى.

أحضرت الدواوين -وربما قال طلب الحُسّاب وكل من كان متعلقًا بالخدم من الفروع والأصول، وسألت عن كل جهة ومن هو المباشر لها، وسألت عن ذلك الشخص الذي القصة باسمه فقضي الشغل.

وفي الليل جئت إلى الفقراء على العادة، وإذا بالرجل قد حضر فقال: خلّني أبوس وجهك، فقلت له لأى شيء؟ فقال: ما صاحبك إلا كبيرًا أو كلام هذا معناه، فقلت له: وإيش جرى؟ فقال أول ما جلس الصاحب ذكرني وتحدث في الأمر، قال: وكان هذا المذكور يصحب شخصًا من أصحابي الذين يعرفوني فاجتمع به وقال له: جرى لي كذا وكذا، وتحدث الصاحب في أمري فقال له: ومن الذي تحدث لك مع الصاحب؟ فقال له: شخص يسمى محمد المصري يحضر عند الفقراء في الليل ويقضي حوائجهم، قال: إنَّ له صاحبًا يعرف الوزير، فقلت له: تحدث لي فلان وفلان وما عمل لي شيئًا فقال: فلان يوجِد في الإسقاط ما لا يوجَد في الإسقاط- وكما قال، هل ذكر ذلك أم لا، الله تعالى أعلم- فقال له: صف لي هذا الرجل، فوصف له صفتي فعرفني ذلك بالوصف فقال له: ذلك ذاك والله هو الصاحب نفسه.. قال: فخاف ذلك الرجل، وحضر ذلك الذي يعرفني وأخبرني بالصورة فقلت له: خذه وأحضره إلي، فأحضره وأكرمه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الفضيلة في محبته لهذه الطائفة رحمه الله تعالى، وكذلك يكون كل محب لك في محبة محبوبه كل نوع من التوصّل إليه كما قيل:

نسيتُ كلَّ طريقٍ كنتُ أعرفُها ... إلاَّ طريقًا يودّيني لربِّكُمُ

وَأنتم أنتم في القَلبِ وَحدكُمُ ... وَكُلُّ كلِّي مشغولٌ بكلِّكُمُ

وكل طالب في طلبه وقاصد في مقصده ومحب في محبته على قدر همته في كل نوع من الأنواع وجنس من الأجناس.

مُروءة

كما حكى لي أبو القاسم بن عثمان الأقصري قال: لقيت شخصًا -أو قال صحبت شخصًا- فرأيت على زنده تحليق كى نار كالأسورة، فسألته عن ذلك فقال لي: كان لي والد وعم وهما تجار، وكان كل واحد منهما يسافر إلى اليمن سفرة ويقيم

الآخر بالإسكندرية، هكذا كان شأنهما -أو كما قال سفرة بسفرة - فزوجني أبي بابنة عمي، وسافر هو وعمي وتركاني بالإسكندرية وعندي زوجتي، وأنا أقفل الباب إذا خرجت لحاجة، فبقيت كذلك- وربما قال إنه كان يحبها- فاتفق أني خرجت يومًا لصلاة الجمعة وجئت لم أجد زوجتي، فاشتد ذلك علي، وقلت للجارية أو الوصيفة: أين ستّكم؟ فقالت: خرجت ولا نعلم، أو قالوا كلمها إنسان وهي في الطاق.

قال: فخرجت لا أعلم ما أصنع، ولا لمن أقول، ولا أى جهة هي فأطلبها، وماذا أقول لأبي وعمي إذا وصلا؟ وقد يقول أبوها إني قتلتها، ويقول أبي إذا لم تحفظ زوجتك أى شيء تحفظ؟

وبقيت لا آكل ولا أشرب، وكان لنا جار خياط كان أبي يأنس إليه، فلما رآني ورأى حالي متغيرًا قال لي مالك؟ فقصصت عليه القصة فقال لي لا تتغيب ولا تقول لقاضٍ ولا لوالٍ ولا لأحد، هذه ما أخذها إلا الإفرنج، فإنه سافر بعد صلاة الجمعة مركب من الإفرنج إلى عكّا، فهذه واعدها أحد، أحبته وراحت معه، فقلت له: وكيف الحيلة؟ فقال لي: ما ثَمَّ حيلة إلا أنك تخاطر بنفسك وأنا أكتب لك كتابًا إلى صاحب لي يسمى الحاج عثمان له سنين كثيرة هناك، وهو معروف بالخير عندهم ودكانه بالموضع الفلاني في الجهة الفلانية، تدفع له كتابي، ومهما قال لك تعتمده فإن تمت وحصل لك مقصودك فهو المطلوب، وإن كانت الأخرى فهي رُوحك ورُوح الحاج عثمان ورُوحي معكما، فقلت له بل أخاطر بروحي وأروح.

قال: فكتب لي كتابًا، وسافرت إلى عكا، واستقصيت على الدكان حتى وصلت إلى الحاج عثمان، فقرأ الكتاب وقال لي: يا ولدي، اجلس عندي على هذا الدكان، فإنها إن كانت أخذت إلى هنا وجاءت فهي تمر علينا هاهنا، وإذا رأيتها فاحذر أن تتكلم أو يظهر عليك تغيُّر فتروح روحي وروحك وروح الخياط، قال: فجلست عنده، فبينما نحن جلوس وإذا هي قد جازت بين اثنين شابين وهي سكرانة تتمايل وشعرها منشور- وربما قال مكشوفة الرأس- وهما كذلك، فكادت روحي تفيض حينذاك.

فلما رآني الحاج عثمان قد تغيرت دفعني إلى داخل الدكان ثم قال لي: أما قلت لك؟ وزجرني وقال لي: هؤلاء مماليك السلطان، وما فيهم حيلة إلا أنني أخاطر بروحي

وروحك وروح صاحبي الخياط، أو كما قال لي: ألك قوة على ما أقول لك؟ قلت نعم، قال: فصبر علي إلى وقت كبير من الليل، وأعطاني سكينًا، وأخذ معه كفة بها ميقاط[١] فيه دَرَج، ومشى معي إلى البيت الذي هم فيه وقال لي: اجعل هذه الكفة في رأس هذا الحائط، واطلع إلى السطح، وامش مشيًا لطيفًا، وإذا جئت إلى الدرج ضع يدك على صدر الدرجة السفلى تأخذ منها صفائح نحاسًا خفافًا، يجعلونها كذلك حتى إذا نزل أحد سقطت تلك الصفيحات النحاس فيمسكونه، حتى لو نزل القط يعرفون به، فتأخذ من كل درجة قبل أن تضع رجلك عليها، فإذا وصلت بالقرب منهم، فإن كانوا قد سكروا وناموا فادخل اذبحهما وخذ زوجتك وتعال، وإن كانوا ما ناموا فتبقى متسترًا حتى يناموا، وإياك أن تنظر إليهما وهما على تلك الحال من الشرب وغيره فيحصل لك شيء مما حصل لك فتروح روحي وروحك.

فأشبكت الكفة في الحائط، وسبقت إلى السطح، وجئت الدَّرج وفعلت ما قال لي، فوجدت الصفائح النحاس كما ذكر ونزلت، فلما رأيتها من باب القاعة والشمع نفذ وهم يشربون عليها لم أملك نفسي أن صحت صيحة عظيمة، فخرجا فمسكاني وضرباني ضربًا شديدًا وجعلت هي تقول: وإيش جابك؟ وتحرضهم علي، فأخرجا قدًا مبلولاً فقيدوا يدي ورجلي، وجعلا يشربان ويزنيان بها في حضرتي، ويقومان ويضرباني ثم يطعماني، ويخوفاني إن لم آكل قتلاني ليطيلوا بذلك عذابي، فبقيت كذلك ثلاثة أيام.

فلما كان بعد ثلاثة أيام شربوا تلك الليلة شرابًا كثيرًا وناموا الجميع سكارى، فصحفت إلى الشمعة وكان القد قد تيبس على يدى، فقربت يدى من الشمعة لأحرق القد فاحترق القد وحركت يدى وقطعت القيد الذي كان في رجلي، وقمت وأخذت سيفًا ماضيًا من سيوفهما، وضربتهما على أقصاب أرجلهما ضربة عظيمة حتى لا يقومان، ثم قتلتهما، ومسكت المرأة بشعرها فجعلت تحلّفني، فخشيت أن أقتلها فيطالبني أبوها بقتلها ولا يصدقني على قولي عليها، فقلت لها اخرجي، فقالت دعني آخذ من هذا الصندوق، ففتحت صندوقًا أخذت منه ألفي دينار كيسين، وخرجت أنا

(١) هكذا في الأصل، ولم أقف على معناه فيما بحثت فيه من معاجم.

قابضًا على ناصيتها والسكين مشهورة في يدي حتى وصلت طبقة الحاج عثمان، فوجدته قاعدًا ينتظرني وله ثلاثة أيام ما أكل ولا شرب، فأخذني ونزلني إلى مكان تحت الأرض أسمع فيه من يمر ولا يراني أحد ولا يعرف مكاني، في ذلك المكان كل ما أحتاج إليه من المأكل والمشرب وموضع الراحة.

وقصصتُ عليه القصة فقال لي: ابقَ ها هنا أنت وهي.

وأصبح النداء في البلد أي: من أخفى الذي قتل مماليك السلطان جرى له كذا وكذا، واستمر النداء إلى ستة أشهر ونحن عنده في ذلك المكان، ثم انقطع النداء بعد ستة أشهر، وأقمنا بعد ذلك إلى استكمال السنة- وربما قال سنتين- حتى نُسي ذلك الخبر، فواعد الحاج عثمان شخصًا من أصحابه من رؤساء المراكب المسافرة إلى الإسكندرية أن يأتيه عند خروج المركب وبعد قضاء حوائجها كلها وأن يأخذنا صحبته، وعمل لنا زوادة وكسوة وحوائج، وعمل للخياط هدية وحوائج، ثم جعلنا في صندوق - أو قال جعل كل واحد منا في صندوق- وحملنا إلى المركب، فنزّل الرئيس الصندوق أو الصناديق، وجئنا إلى الإسكندرية لأجد عمي ووالدي قد وصلا من اليمن وعملا تمام السنة من المأتم، ثم دخلت عليهما وحكيت لهما الحكاية وقلت لهما: هذه بنتكم وطلقتها ثلاثة، وقلت لهما إنما تركتها خشيةً أن تقولا قتلها.

عظة وفائدة:

وهذه الحكاية وإن كان أولها لأجل محبته ومروءته، وثانيها خوف العار والخشية من عمه ووالده، ففيها أيضًا عزم على إتلاف روحه وروح غيره لبلوغ قصده، وفيها ظهور مروءة هذا الحاج وفتوته ووفائه لصديقه الخياط حتى في إتلاف نفسه في المخاطرة بروحه والمروءة والمحافظة مطلوبة فيه وهي من حقائق الإنسانية، فـ **من لا مروءة له ولا محافظة فيه ولا وفاء فلا دين له.**

الوفاء

ولقد يظهر من الكلاب من المحافظة والوفاء لمن يربيهم أو يحسن إليهم ما يخجل به من يتصف به من الآدميين، وكما حكى لي البهاء البغدادي المستنصري قال: كنت أتجر قبل أن يشتريني الخليفة، وكان أستاذي تاجرًا، فحضرت ذات يوم إلى إنسان في

ابتياع شيء أو شراء شيء فوجدته جالسًا على طراحة وكلب جالس معه وعلى الكلب لباس- ربما قال من حرير أو جوخ- فأحضر الطعام وقدمه لي، فقلت: والله ما آكل حتى تعلمني إيش قصة هذا الكلب؟ وكيف تجلسه معك على طراحتك؟ فقال لي: قضيته عجيبة، وهو مستحق فوق ذلك، فقلت: وما ذاك؟ فقال: إنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها، وكنت قد عرست عليها، وخرجت لأتصيد، وإذا بعسكر التتار الذي أخذوا حلب اجتازوا بقريتنا، فأخذوها وأخذوا زوجتي، فجئت فلم أجدها فحصل لي أمر عظيم لا أقدر على السكون معه ولا النوم ولا الأكل ولا الشرب.

فلبست ثياب التتار وسرت طالبًا ذلك الجيش وأتكلم بلسانهم ومعي هذا الكلب، إلى أن وصلت إلى العسكر الذي أخذوا حلب، وكان الليل، فأوقفت الفرس وجعلت الكلب عنده وتعرّيت من ثيابي وبقيت عريانًا على أربعٍ شبه الكلاب، وبقيت أنظر خيمة خيمة، وإذا وجدت طنبًا قفزت كما يقفز الكلب إلى أن جئت خيمة فوجدتها جالسة وشاب جميل راقد ورأسه على فخذها، وشمعة عند رأسه وشمعة عند رجليه، فجئت من خلف سجاف الخيمة ورفعت السجاف، فلما نظرت إلي قالت: إيش جابك؟ والله إن لم ترح وإلا نبهته يقتلك، فبكيت وقلت: والله ما جاء بي إلا حبك حتى أنظر إليك، ثم جعل يتضرع لها ويسألها أن تخرج له من وراء الخيمة يقبلها ويرجع، ولم يزل كذلك حتى عطفت عليه وخرجت، فقال لها: سألتك بالله اجعلي لسانك في فمي، فجعلته.

فلما حصل لسانها في فمه قال: فقبضت عليه بأسناني وضممتها إلى صدري وحملتها وخرجت بها عن الخيام وركبت الفرس وجعلتها خلفي، وشددت على وسطي ووسطها شيئًا فربطتهما وجئت عن الطريق وسرت بالليل كله وأنا أحث السير والكلب يتبعنا إلى أن طلعت الشمس وضحى النهار، فقلت ننزل نستريح، فما بقي أحد يلحقنا ولا يعرف طريقنا، قال: فرقدتُ ونمت ونامت، فما أشعر إلا والكلب قد عض على إصبعي ونترني، فقمت فوجدت الشاب واقفًا بسيفه على رأسي، فقمت إليه وأنا من دهشة النوم، فعلقت به فرماني وقعد على صدري وقامت وقالت له: اقتله، فلما أخرج السكين ليقتلني وإذا بالكلب قد حمل عليه حين انحنى على صدري فحمل عليه من خلفه وقبض على خصوتيه ونتره عني فألقاه على ظهره.

فقمت وأخذت السيف أو السكين وذبحته وذبحت الأخرى إلى جانبه.

وكان سبب استدلال التتري عليهما حين وصل إليهما وملك طريقهما أن المرأة كان عليها ثوبٌ من حرير فجعلت تقطعه وترمي منه خرقة بعد خرقة حتى استدل بثوبها فلحقهما.

عظة وفائدة:

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكاية وما جمعت من الهمم والحيل وقوة العزم، وحفظ الكلب وفساد المرأة، إذ **لا ينبغي للعاقل أن يثق بهن إلا بالصالحات.**

حب الشهوات من النساء

ومما حكي في قوة العزم والإقدام على التلف والمخاطرة بالنفس في طلب الشهوة وحب النسوة أن رجلاً من المترفين كان ببغداد، وكان له ولد جميل الصورة وكان اسمه نعمة، وكان له جارية جميلة الصورة، فناداها وعلمها الغناء وكان اسمها نعم، فدفعها لولده نعمة، وكان نعمة يحب نعما ونعم تحب نعمة، كل واحد منهما يحب صاحبه كأشد الحب.

فاتفق أن أمير البلد الحجاج اجتاز ليلة فسمع غناءها فطلبها بالحيلة؛ لأن سيدها ما يبيعها، فعمد إلى امرأة عجوز وقال لها عن ذلك، فلبست العجوز ثياب أهل الصلاح وجعلت في يدها سبحة واجتازت بدار الجارية فسألت الإذن في الدخول لها لصلاة الضحى أو غيرها من الصلاة، فأذنت لها، فدخلت العجوز وصلّت وفعلت ما فعلت من ذلك، ثم جلست تتحدث بحديث الصالحين حتى حصل في قلب الجارية من ذلك أمر عظيم.

ثم خرجت من عندها والجارية متعلقة القلب بها حتى سألتها أن تعود إليها، ثم عادت بعد ذلك حتى تأكد ذلك عندها، وكان سيد الجارية يخرج في بعض الأوقات إلى أصحابه ومرحه، فجعلت تتحدث إلى الجارية وتخبرها برجل صالح قريب من بيتها تزور قبره، وجعلت تفعل في ذلك ثم قالت لها: لو زرتِ ذلك المكان لكان كذا وكذا، قالت: إن سيدي ما يأذن لي في الخروج، فقالت: نحن نزور ونرجع قبل حضور سيدك، وعملت عليها حتى أخذتها فأدخلتها على أمير البلد.

فلما رآها وأعجب بها حملها إلى عبد الملك بن مروان ليتحفه بها، ثم إن الصبي جاء إلى بيته فلم يجدها فحصل له من الألم ما لا يستطيع معه القرار ولا المنام ولا الطعام:

أسائلُهم عنها فهَلْ من مُخبرٍ ... فَمَالي بنعَمٍ بعدَ مُكثِنا علمُ
لو كنتُ أعلم أين جثمَ ركابها ... وأيُّ بلاد الله إذ ظعنوا أموا
إذا لسلَكنا مسلكَ الريحِ خَلفَها ... ولو أصبحتْ نعم ومن دونِها النجمُ

ووجد أبوه من ذلك وجدًا عظيمًا، وخشى على ولده الموت، ثم إنهم طلبوها فلم يجدوا لها أثرًا، ووقع الطلب في كل مكان فلم توجد.

وكان للشيخ والد الصبي صاحب خياط فقال له: لا تتعب، جارية ابنك ما راحت إلا لدار الخلافة، فإن كنت تخاطر بروحك وروح ولدك فأنا أخاطر بروحي معكما، إما يصل إلى مقصوده أو نموت جميعًا، فقال الشيخ: نعم.

فجهز الخياط بمال جزيل، فعمل الخياط نفسه حكيمًا وجعل معه من المماليك والخدام والعقاقير والأشربة والأدوية وغيرها ومن الآلات والفرش والخيام ما يناسب ذلك، وأخذ الصبي معه على أنه مملوك له، وكان رجلاً فاضلاً حكيمًا عارفًا، فجعل أى جهة يدخلها يداوي الناس بغير أجرة، ويعطي الشراب والدواء من عنده، وكان كذلك حكماء الفلاسفة المتقدمون يبتغون بذلك الثواب في بقاء الأنفس وحياتها.

فشاع خبر الحكيم في البلاد إلى أن وصل إلى دمشق وفتح بها دكانًا أو مكانًا، واجتمع عليه الناس ونظروا إلى حسن ذلك الشاب وما هو عليه من الجمال - وكانت نعم من حين دخلت على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان شغف بها وحصل لها مرض عظيم لفراقها لسيدها وجماله- فلما سمع بوصول هذا الحكيم وما هو عليه سيّر قهرمانة كانت عند نعم لتبصر حال الحكيم ولتصف حالها له، فلما جلست إلى جانبه وعليها آثار الحشمة عرف الحكيم أن ذلك من جهة الخلافة، فسألته عن جارية مريضة من مدة كذا وكذا وذكرت شيئًا من حالها فقال لها: كم سنها حتى يكون الدواء الموافق لها؟ فقالت سبعة عشر سنة قال: فأين مرباها؟ فإن الأمزجة والأهوية مختلفة

بحسب أحوال المربى والعادة فقالت: العراق فقال: فما اسمها حتى أحسب ما يوافقها من النجوم فقالت: نعم فعندما ذكرت اسمها تغير الصبي، وكاد أن يفتضح، حتى ذكره الحكيم وقال له: يا نعمة، قال: لبيك قال: هات الشراب الفلاني.

فأخرج قدحًا من ذهب فيه شراب، وأشار إليه أن يرمي خاتمه في الشراب قال: فأخذت العجوز القدح، وتوجهت إلى نعم وقالت: صفة الحكيم وصفة ذلك الشاب الحكيم وصورة ما جرى، فعندما سمعت الجارية قامت وقعدت وشربت الشراب ووجدت الخاتم في القدح فجعلته في فمها ووجدته خاتم سيدها.

ثم توجهت العجوز إلى الحكيم وقالت له ما اتفق في الجارية، وما وجدت من الراحة فقال: يا نعمة هات الشراب الفلاني، فأحضر الشراب وجعلت العجوز تنظر في أحوال الغلام عند ذكر الجارية ما يشهد له بالمحبة، حتى إنه يكاد أن يغيب، فتحققت من ذلك حبه للجارية، وكذلك تنظر من الجارية، وحصل للعجوز على الغلام رغبة فبدا عليها ذلك، ونظر الحكيم من أحوال العجوز وشهوتها وأنها تلقي روحها في النار لأجل الغلام فقال لها: إن عرّفتك حاله أتفعلين؟ قالت: أكون معه على الموت فقال: أتعاهديني؟ فعاهد العجوز، وعرفها الصورة التي أتوا فيها، وأن هذه جاريته، وهو يحبها وهي تحبه، وأنه يخاطر بنفسه لأجلها فقالت: لا أكون ثالثة لهما، ثم راحت وأخبرت الجارية، وعملت على وصول الغلام إلى جاريته.

فلما كان ليلة من الليالي جاءت بالغلام بثياب النساء، وخضّبت يديه، وألبسته لباس النساء وقالت له: امش على صورة كذا وكذا، فإذا وصلنا باب الدار فإن الخادم يقول لي من هذه التي معك؟ فإنني أعيّط عليه وأقول له أنت تريد أن تشوش على الست بعد أن تعافت؟ هذه جاريتها، فإذا كلمته أنا ادخل أنت، ورُح على يسارك لسابع مقصورة ادخلها.

فلما وصلا إلى دار الخلافة قال الخادم من هذه التي معك؟ ووقفت تكلمه، فدخل الغلام على أنه يروح على اليسار وراح على اليمين، فدخل سابع مقصورة، وكانت مقصورة أخت أمير المؤمنين، فدخلت فوجدت صورة امرأة في مقصورتها فقالت: من هذه؟ فلم يتكلم، فقالت: يا لك من أنثى! ومن هذه في قصرنا التي تدخل مكاني

بغير إذني؟ فعرفت أخت أمير المؤمنين أن هذه ما هي من القصر.

فجاءت ووضعت يدها فيه فوجدته رجلاً فقالت له: يا ولدي، وما الذي أغراك على إتلاف روحك ودخولك بيت الملوك؟ فبكى وحكى لها الصورة، وكانت صورته من الجمال البديع تجعل أى من يراه تأخذ بقلبه، فرقّت عليه وقالت: ما يصيبك إلا ما يصيبني.

ثم أرسلت خلف نعم فحضرت فقالت لها: يا نعم، هذا سيدك نعمة، فحصل لها من البكاء والسرور ما لا يعبر عنه، ثم قالت لها أخت أمير المؤمنين: يا نعم، غني لنا، فغنت وكانت تغني طيبًا، وكان نعمه يغني طيبًا، فربما غنت وغنى، فسمع أمير المؤمنين فقام ومشى وجاء إلى أخته فجلس عندها ونعم تغني، فجعل ينظر إلى نعمة وحسنه فقال لأخته: من أين لك هذه الجارية؟ فقالت يا أمير المؤمنين، ربيتها ووالله ما تقرّبها الجواري لك، فهذه عوض ابنتي -أو مثل ابنتي- ثم قالت لها: يا نعمة، غنِّ فغنَّ، ورقد على فخذ أخته وهو منشرح بغناء نعمة، وهو يحدث أخته وهي تحدثه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، بلغني أن رجلاً من المترفين كان له ولد جميل الصورة يسمى نعمة، وكانت له جارية تسمى نعم، وكان مشغوفًا بحبها وهي مشغوفة بمحبته، وأن أحد الولاة سمع غناء الجارية وكانت تغني وكانت جميلة، فاحتال عليها حتى حصلها وسيرها إلى ملك من الملوك، فحصل لنعمة من الألم ما كان أهون من الموت ولأبيه، وحصل للجارية كذلك.

ثم إن سيدها تحايل وسافر وخاطر بنفسه إلى أن دخل دار الملك واجتمع بجاريته، فلما حصل الاجتماع وهم على تلك الحال وإذا بالملك قد دخل عليهما فضرب عنق الغلام وأخذ الجارية منه، فقال أمير المؤمنين: بئس ما فعل، كان له مثلها كثير، وكان يرحم ذلك المسكين ويردها عليه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، فهذه نعم وهذا نعمة، فحصل عنده ألم لذلك وجعل يقول: ما كنت بالذي أحكم على غيري بما لا أحكم به على نفسي، ثم قال: خذ جاريتك واخرج الساعة، فأخذها وخرج.

عظة وفائدة:

فانظر رحمك الله تعالى إلى ركوب هذه الأخطار في طلب محبوب مثلك يموت ويزول ويفنى، وغايتك منه في حياته شهوة فانية بعد أتعاب متوالية، فإن مرض مرضت لمرضه، وإن سقم سقمت لسقمه، فكيف يُحب رب الأرباب ومالك الرقاب الحى الباقي الأبدي السرمدي الذي يعطيك البقاء والحياة وينيلك من جميع المحبوبات والشهوات ويورثك الغرفات في أعالي الجنات؟

فأين عزمك في طلبه؟ وأين مخاطرتك في محبته؟ وأين بذل نفسك في قربه؟ فكيف تدعي أنك من حزبه أو تطمع بوصله أو قربه؟

وقد قلت:

إذا لم تكن في الحبِّ للنفسِ باذلاً ... ولم تَعصَ في حبِّ الحبيبِ العواذلاَ
وتطرب للألحان من كل ناطقٍ ... وتَشتاقُ في ميلِ الغصونِ التمائُلاَ
وتبذل نوم العين بالسُّهدِ دائمًا ... نعم ويبقى الجسمُ بالسُّقمِ عاملاَ
وترتكب الأخطارَ في كلِّ منهلٍ ... وتَشربُ من ماءِ المياهِ القواتلاَ
فما أنت إلا مدَّعٍ غيرُ صَادقٍ ... تَرى الحقَّ في عيْنِ الحقيقةِ باطلاَ
فَتركُ الهوَى أوْلى لمن كان هكذَا ... كمَن يدَّعي علمًا به صارَ جاهلاَ

إسحاق النديم[1]

حكي أن إسحاق النديم دخل على أمير المؤمنين، فوجد عنده فكرة، وكان يتوجه كل سنة إلى البصرة بإذن أمير المؤمنين للاستراحة والفرحة، وكان له فيها صاحب من كبراء البصرة يسمى الشيباني قال:

فكنت عند الأمير فركب للصيد فقال لي: تركب معنا؟ فقال: أنا شيخ كبير وأنتم شباب ولا طاقة لي على ركض الخيل، فقال للطباخ: اطبخ لإسحاق ما يشتهي، فقلت له: إني أسمع أن أهل البصرة يتنوعون في عمل السمك، فاطبخ لي سمكًا قال: فطبخ لي

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (١/٧٥٤).

سبعين لونًا من السمك وأحضره، فأكلت من كل واحد لقمة أو لقمتين على قدر ما يعجبني مع طيبة السمك.

وقمت أتمشى لأنظر دروب البصرة، فمشيت، وحصل لي عطش شديد ولا قدرت على الرجوع إلى منزلي فإنه بعيد علي، فنظرت إلى درب، وإذا دار في صدر الدرب عليها ستر -ربما قال حرير- فيه جلاجل من ذهب، فقصدته لأطلب الماء منه، فسمعت صوتًا حنيِّنًا من قلبٍ حزين وهو ينشد:

قـد كنـتُ أسمـعُ بـالهوى فأكـذِّبُ وأرى المحـبَّ ومـا يقـولُ فأَعجـبُ

حـتى بُليـتُ بحُلـوِهِ وبمـرِّهِ مـن كَـان يَـتَّهمُ الهـوى فيُجـرِّبُ

لحُلـوٍ منـهُ تعتَريـهُ مَـرارةٌ والمـرُّ منـه للفـؤادِ معـذِّبُ

قال: فدنوت من الستر ورفعته، فرأيت جارية كالشمس الصاحية وهي جالسة على كرسي من الساج قوائمه من العاج، مرصعٌ بالجواهر مصفح بالصفائح الذهب، وعلى رأسها جوار.

فبصُرت بي فقامت وجاءت إلي ثم قالت لي: يا شيخ، شيبٌ وعيب؟ فقلت لها: يا سيدتي، أما الشيب فكما ترين، فما العيب؟ فقالت: وأى عيب أعظم من أن تنظر إلى دار ليس بدارك؟ وحرمة ليست بحرمتك؟ فقلت لها: يا سيدتي، أنا رجل غريب وعطشان قصدت شربة ماء، فأمَرت بإحضار الماء، فأوتي بكوز مملوء من الماء، وفيه الورد والروائح الطيبة، وعليه تفاحة من عنبر، فشربت بعضه وجعلت أنظر إليها، ثم شربت الثانية وجعلت أنظر إليها، ثم شربت الثالثة ووقفت.

فقالت: ما يوقفك؟ فقلت: إني متفكر في صاحب هذا الدار، كان صديقًا لي وما أدري ما صنع، فقالت: هو أبي رحمه الله تعالى، مات وخلف ضياعًا وأموالاً ولم يخلّف غيري، فدفعت قُصة إلى الأمير في ذلك، فكَتبَ على ظهرها أما المال فنماه الله، وأما الابنة فرباها الله، وأما الدافع فلعنه الله والسلام.

ثم وقفت فقالت: يا شيخ، استسقيتنا فسقيناك، واستخبرتنا فأخبرناك، فرُح وإلا صفعناك. فقلت لها: يا سيدتي، إني رأيتك وعندك ألم، فوجدت عندي لذلك ألما،

فاشتهيت أن أعلمه لعلي أُغني فيه فقالت له: ويلك، أو مثلك من يطلع على الأسرار؟ فقلت لها: ولم لا؟ وأنا إسحاق النديم أمير المؤمنين فقالت لي: أنت إسحاق؟! فقلت: نعم، فأخذت بيدي وأدخلتني إلى البيت، وأجلستني معها على الكرسي فقالت لي: يا إسحاق، إني كنت تربيت أنا وفلان الشيباني- وذكرت لي رجلاً لم يكن بالبصرة أجمل منه ولا أحسن صورة وكرمًا وأوصافًا وهو الأمير صاحبي- فألفني وألفته، فلما كان ذات يوم جلس معي هنا، وقد سرّحت الجواري رأسي، فقلت لواحدة منهن فرقي، فرأيته يرعد كما ترعد السعفة في يوم الريح العاصف، ثم خرج فلم أره بعد ذلك، ولقد كتبت إليه ألف ورقة فلم يرد علي جوابًا، وشفع عنده أمير البلد فلم يقبل، فقلت لها لعلي إن شاء الله أغني في ذلك.

فأخرجت لي خمسمائة دينار وقالت: هذه لغسل ثيابك -أو كما قالت- فتوجهت من عندها إلى دار الأمير لأجده قد جاء من الصيد، فجلسنا وأحضر العشاء فقلت له: لا آكل حتى تقضي حاجتي فقال لي: كل حاجة لك مقضية إلا حاجة بدور، وأعطاني خمسمائة دينار، فلما أصبحت أتيت إليها فوجدتها واقفة من وراء الستر تنظر قدومي، فحين رأتني توسمت ما وقع فرجعت وهي تنشد:

عَسى وعَسى يَلوي الزَّمانُ عنانَهُ بغـــرَّةِ صـــدقٍ والزمـــانُ غيـــورُ

فيُحـدثُ مـن بعـد اليسـيرةِ عَثـرةٌ وتَحـدُثُ مـن بعـدِ الأمـورِ أمـور

فدخلت وأرسلت لي خمسمائة دينار قال: فجئت إلى الأمير وجلسنا إلى الليل فقلت له: أريد أن أسمع شيئًا، فقال أحد جلسائه: إن الأمير لا يستطيع أن يسمع، فسمعنا نتكلم فقال: ما بالكم؟ فقلت له: أيها الأمير، إني قلت كذا وكذا ذات ليلة، فخرجت جارية ومعها صحبها فغنت، فخُيّل لي كأنها بدور.

فقال: واحد من الجلساء؟ فقلت: الأمير، ثم حملوه، فلما أصبحت أحضر لي الطشت والإبريق للوضوء وقالوا: الأمير معتذر عن لقائك، وأحضر لي خمسمائة دينار وسافرت، فلما كان ثاني سنة جئت إلى البصرة، فرجعت إلى دار الأمير فوجدتها خرابًا والدروب قد علاها التراب ولا بها حس ولا أنيس فبكيت ووقفت على الباب

وأنشدت:

يـا منـزلا عبـثَ الزمـانُ بأهلِـهِ فأبَـادَهُم بتفـرُّقٍ لا يَجمـعُ
أيـن الـذين عهِـدتُهُم بـكِ مَـرّةً؟ كَـانَ الزمـانُ بِهِـم يَضُـرُّ ويَنفـعُ

فكلمني خادم من فوق سطح الدار وقال لي: ياشيخ، لم تنعانا؟ فقلت له: ما أنعى إلا الأمير الذى كان صاحب هذه الدار فإنه صاحبي فقال: إن الأمير ملقى في صحن الدار لا يعقل ولا يسمع إلا إن ذكرت له بدور: فدخلت فوجدته كالحجر الملقى، فناديته أيها الأمير، فلم يجبني، فأنشدته شيئًا من شعر بدور، ففتح عيناه ونظر إلي فقلت له: أيها الأمير، ما الذي صار بك إلى هذه الحالة؟ فقال: حب بدور، ولقد كتبت لها ألف ورقة فما جاوبتني على واحدة منها، ولقد سعى إليها أمير البلد على أن تأخذ ما أملك وتجاوبني، فلم تفعل، فقلت له: أيها الأمير، فإني أسير إليها.

قال إسحاق: فرحت إلى دارها لأجد عليها من الحشم والخدم شيئًا كثيرًا، فاستأذنت عليها وقلت: إسحاق النديم، فأذنت، فدخلت فوجدتها جالسة على الكرسي والجواري على رأسها، فسلّمتُ وسلّمتْ، وقامت وأجلستني وأمرت بالطعام فقلت لها: والله لا آكل ولا أشرب ما لم تقضي حاجتي، فقالت وما حاجتك؟ فقلت: الأمير فقالت: يا إسحاق، ألست تعلم ما فعل لي وكيف كتبت في أمري وكتبت ألف ورقة وجاءني أمير البلد فلم أفعل، فقلت: يا سيدتي، سألتك بالله أن تروي جواب هذه الورقة فقالت والله ما عاملته ليس كما عاملني.

ثم أحضرت الدواة والورق وكتبت جوابًا لكن فيه ألم فسألتها التلطف فكتبت دونه، فسألتها التلطف فكتبت ألطف منه فقلت لها: والله يا سيدتي ما أظنني ألقاه حيًّا، فإني تركته على هيئة هي كذا وكذا، وما ظني أجده فقالت: وبلغ به الأمر إلى هذا؟ قلت: نعم والله، فقالت لي: تقدم وأنا أسير إليه خلفك. قال: فجئت إليه، وقرأت عليه الورقة، فعندما قرأتها قام وقعد، وإذا بها قد جاءت وقالت: وصل بك الأمر إلى هذا؟

ثم طلبت الحاكم والشهود فحضروا، فأذنت للحاكم أن يزوجها منه فزوجها، فأحضرت طبقًا مملوءًا ذهبًا فأخذت غَرفة بكفِّها للحاكم وغرفة للشهود وقالت: عليك

بباقي الطبق يا إسحاق.

وخرج الحاكم والشهود وجلسنا وهما يتحدثان فقلت في نفسي: إن هذين محبين وأنا قاعد بينهما لأى شيء؟ فقمت فقالا لي: لا تقم، فإنا إذا أردنا قمنا إلى مكان آخر، ثم بعد ذلك قاما وبتُّ أنا إلى السَّحر، وإذا بالأمير قد خرج ورأسه تقطر ماءً من الحمام، وإذا هي قد خرجت وفتحت صندوقًا وأخرجت منه كيسًا فتحته لي وقالت للأمير: افعل كما فعلت لفعل ذلك الأمير، وكذلك قال.

وكان أمير المؤمنين عنده هم وفكر فسُري عنه حين حكيت له هذه الحكاية.

الحكايات أجناد اللّـــه

فالحكايات والله أعلم أجناد الله تعالى إلى قلوب أوليائه والعارفين به؛ إذ كل حكاية فيها معانٍ مختلفة ولطائف مؤتلفة وحقائق مجتمعة وحكم متفرقة، تجمع شتات القلوب وتكشف عجائب الغيوب وتفرّج كربة المكروب وتواصل المحب بالمحبوب.

فإن السّالك إذا سمع ما يناسب حاله من صبر غيره صبر، ومن شكره شكر، ومن يقينه أيقن، ومن توكله توكل، ومن تفويضه فوض، ومن قوة عزمه عزم، ومن اجتهاده اجتهد، ومن جميع صفات المحامد اتصف، ومن ذم صفات النقائص تجنب، فيتبع المحدود ويتجنب المذموم ويتأسّى بمن تقدم ويفهم معنى ما قصّ الله تعالى على نبيه ﷺ في قوله تعالى ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ [هود: ١٢٠]، فيأخذ نصيبه من الآية وإرثه من التبعية ولا يسلك إلا ما يناسبه ولا يتبع غير جنسه، فإن: الجنسية ائتلاف الأرواح فلا شتات، وغير الجنسية اختلاف وعذاب.

حكاية السقّا والعقد

وقد حكي أن فقيرًا كان يملأ الماء بالقربة في بغداد للناس، وكان إذا شرب أحد من ذلك الماء وبه ألم أو سقم عوفي، فسمع الخليفة به فطلبه وقال له: أشتهي أن تسكب هذه القربة لنا ونعطي مثل ثمنها للناس- وربما قال من جهة طيبة- فصار يسكب القربة لدار الخليفة ويدخل عليهم بغير إذن كما أشار الخليفة، وقوي اعتقاد الخليفة فيه.

واتفق أن إحدى حظايا الخليفة في يدها عقد جوهر وهي تلعب به، فسقط من

يدها فالتقطه طاووس من الطواويس التي بدار الخليفة، فطلبته الحظية فلم تجده، فوقع في نفسها أن الشيخ الذي يملأ الماء سرقه.

فقالت للخليفة ذلك، فعزّ عليه كلامها وقال لها: هذه الخزانة، خذي منها ما تختاري ولا تقولي شيئًا من ذلك، فقالت: ما آخذ إلا عقدي بعينه، أو يحلف لي على المختوم أنه ما سرق عقدي - وكان عندهم المصحف الذي بخط عثمان بن عفان ﷺ، وكان عادتهم أى من حلف عليه وكان كاذبًا عمي- وكان الخليفة يحبها محبة عظيمة، وخشي على خاطر الشيخ من الحلف أو يقابله بذلك القول، وحلفت أنها ما لم يحلف أو يعطيها عقدها رمت نفسها من القصر.

فضاق أمير المؤمنين ذرعًا بذلك، وبقي في هم وفكرة، فدخل عليه الوزير فوجده على تلك الحال فقال له أو سأله عما أهمه فأخبره بما حصل له، فقال له: يا أمير المؤمنين، لا تتشوش، الفقراء فيهم احتمال عظيم، وأنا أروح إليه.

فركب الوزير وحضر عند الشيخ في مسجد فوجده يرقع في ثوبه أو دلقه أو دفاسه، فجلس عند ديوانه، وعرّض بتشويش الخليفة وما هو عليه، فسأل الشيخ عنه فقال له بسبب ضعف عقول النساء وتلطف معه في القول، فقال الشيخ: لا والله، لا يتشوش الخليفة، وأنا ما أخذت شيئًا، وأنا أحلف لها، هذا جرابي أفرغه -ولم يكن فيه شيئًا سوى رقعات- ثم قام ومعه الوزير وحضر إلى دار الخليفة، وأحضرت له الحظية كتاب القرآن وحلفته عليه، فعندما استوفى اليمين عمي في وقته، فحملوه إلى مسجده أعمى وشاع في بغداد أنه حلف حانثًا فعمي، وبقي على ذلك سنة والناس يتكلمون ويقولون سرق العقد وحلف كاذبًا وعمي.

ثم إن الحظية مرضت بعد سنة مرضًا شديدًا، وطلب الأطباء ولم ينجح فيها دواء، إلى أن ورد طبيب حاذق فوصف له حالها فقال: دواؤها قلوب الطواويس- أو أكباد الطواويس- وذلك الطاووس من جملتهم، فخرج العقد من حوصلتها، فلما رآه الخليفة قال هذا عقدك وقد فعلتي ما فعلتي في أمر هذا الرجل الصالح؟

ثم ركب، وسار إلى الشيخ، وعرفه الصورة، وتخضّع له، وسأله الرضا عنه وأن يعود إلى ما كان عليه فقال: ما أرضى إلا أن تحلف لي أنني إذا قلت لك شيئًا تفعله لي

فقال: نعم فحلّفه على ذلك أيمانًا مغلظة، وعاهده عليها، فلما فرغ من اليمين قال له: أحضر لي جملاً ومشاعلي، فأحضر الجمل والمشاعلي فقال: ركّبوني على الجمل ونادوا علي: هذا جزاءً وأشر جزاء من يصحب غير الجنس على صحة.

وهذه الحكاية وإن كان فيها تنبيهًا وتحذيرًا من صحبة غير الجنس كما حكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ أبي محمد صالح أن شيخه كان نهاه عن صحبة الملوك ومن يصحب الملوك، ثم إن السلطان قال لشيخه تخرج معي في مصالح المسلمين -وربما وجب على الشيخ ذلك- فأرسل الشيخ إلى أبي محمد صالح يقول له: إنا واصلون إليك، فأرسل أبو محمد يقول لشيخه: يا سيدي، والله إن جئت لا أجتمع بك؛ لأنك قلت لي: لا تصحب الملوك ولا تصحب من يصحب الملوك، وأنت قد صحبت الملوك.

عظة وفائدة:

ففي هاتين الحكايتين فوائد:

فإن الأولى: **حُذر فيها على صحبة غير الجنس**.

وفيها حقائق الامتحان ألا هي لأوليائه لتظهر بذلك حقائق صفاتهم من الصبر والرضى والشكر عند نوازل القضاء.

وفي الثانية: **تعيين الترك لصحبة الملوك**.

لما في ذلك من الخطر العظيم في الدين والدنيا، فإن الذي يصحبهم يحتاج إلى موافقتهم على مقاصدهم وفي ذلك فساد دينه وخسار آخرته، وهذا لازم في صحبتهم، وأما من يخالفهم أو يردعهم فما صاحبهم ولا صاحبوه إن سلمت روحه منهم وفي ذلك خطر عظيم في الدين.

خَطــر الدنيــا

وأما خطر الدنيا فإن القرب من السلطان كحد السيف؛ لأن ماله ودمه بين شفتيه، وما لم يكن مراقبًا له كما يرضيه منه في جميع أحواله وإلا أدّى ذلك إلى هلاكه، ومتى يكون الإنسان في جميع أحواله؟!

كذلك لا جرم لا ترى أكثر من قرُب من السلطان يئول حالهم إلى التلف، هذا مع هذه المراقبة وهو لا يأمن مع كونه ناصحًا له ومراقبًا لأحواله من يؤذيه ويكذب عليه

ويحسده ويوشي به؛ لأن منازل الملوك محسودٌ عليها.

والفائدة الأخرى امتثاله أمر شيخه، وصحة عقده مع الله تعالى كونه التزم أمر شيخه ألا يخالفه، حيث قال: لا تصحب الملوك ولا تصحب من يصحب الملوك.. فالتزم العقد حتى مع شيخه المسلك له؛ لأن انكشاف الغطاء ما بين العبد وبين ربه لا يبقي رتبة لذلك ولا لشيخ؛ لأنه يرى حل عقده مع الله تعالى معصية لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذه حقائق بعيدة عن الأفهام، وليس في هذا مخالفة لشيخه لأنه أمر بذلك وصحح الأمر الأول مع الله تعالى، وفي الثاني لم يأمره بخلافه، ولعل الشيخ إنما أراد امتحانه في هذا القول، وهل هو باقٍ على ما أمره به من النهى عن مصاحبة الملوك ومن يصحب الملوك أم لا؛ إذ لا يصح الامتحان بغير محنة، فإذا وقعت المحنة يحقق حال صاحبها؛ لأن الامتحان يصدقه ويكذبه، وقد وقع الامتحان لجماعة من الأولياء المتقدمين.

وفي صحبة الناس على الإطلاق بلاءٌ عظيم لا يقدر عليه إلا من قوّاه الله تعالى على ذلك ووسع باطنه له وشرح صدره بحمل الأثقال من أعباء العباد كالأنبياء والكمل من الأولياء، وأما من دونهم فإنهم يعجزون عن ذلك، وربما فسدت عليهم دنياهم وآخرتهم وهم على طبقات في ذلك.

وقد قلت:

أرِحْ فـــؤادَكَ أو لا فـــانتظرْ ألمـــا	في صُحبةِ الناسِ أو فيضَ الدموعِ دمَا
نعـــمْ ودينُـــك لا تبغـــي بِـــهِ بـــدلاً	فالسَّـعيُ بيـنهمُ مـع وصـفِهِم حَرَمَـا
ولا تقـل لِّي صـديقٌ كنـتُ أعبـدُهُ	إنَّ الـوفيَّ مــن الإخــوان قــد عــدَمَا
فالشـرُّ أجمُعُـه في النـاسِّ مقـترفٌ	فـلا تَـرى أحـدًا مــن شـرِّهم سـلَمَا
فالجــأ إلى اللهِ لا تبــغِ سِــوَاه ولا	تَرجــو سِــواهُ ولا تخشــى بــه نــدَمَا

حدثني الشيخ أبو العباس الملثم -رحمه الله تعالى-أنهم سمّوه ثلاث مرات، وحكي لي عن أبيه أنه كان ملكًا من ملوك الشرق، وأنه أخبره أنه يُسم ثلاث مرات، وأنه قال للخادم الذي كان يخدمني: آلف جسمَه بالسم، أو قربه منه فإنهم يسمونه، فكان

يقرب السم مني على طرف السكين فأتململ منه دفاعًا لذلك.

وحدثني الشيخ أبو زكريا بن إسماعيل اليمني -وكان خادمًا للشيخ أبي الحجاج الأقصري ﷺ -أن شيخًا من مريدي الشيخ أبي الحجاج الأقصري كان ينفعه قتله، ويعتقد أنه ينال رتبته، وأن حياة شيخه تحجبه عنها، فانظر إلى هذا الفساد الذي تخيله في عقله أن يتقرب إلى الله تعالى بقتل ولي من أوليائه أو يكون فتحه بقتل شيخه!.

الشيخ عمر الأشقر

حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن الشيخ عمر الأشقر كان له خادم، فاتفق أن الخادم أحب امرأة فقصد زواجها، فمنعه الشيخ من ذلك فغلبته نفسه عليها، فعاود الشيخ في ذلك فقال له الشيخ: إن تزوجتها ما ترجع تخدمني.. فغلبته نفسه فتزوجها.

فاستخدم الشيخ غيره فحصل عنده غيرة من ذلك، فقال للشيخ: يا سيدي، ما أقدر أن أرى أحدًا يخدمك غيري، فإني أغار عليك وأخشى أن أقتلك.

فقال له الشيخ: أنا أنذرتك قبل ذلك.. فخلا بالشيخ يومًا من الأيام وهو واقف يصلي بالمسجد وضربه بالسيف في رأسه فسقط الشيخ، فقبضوا عليه فقال الشيخ: من قتله أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، فاشتد على المسلمين قتل الشيخ عمر، وجعل الناس يأتون من كل مكان- فقدكان الشيخ عظيم القدر- فجعل الناس يتلقون من الشيخ ما ينتفعون به من الوصايا وغيرها، والناس يدخلون أفواجًا أفواجًا، ويقولون لذلك الخادم: ويلك، قدّر أنك سلِمت في الدنيا، أين تروح من الله وقد قتلت الشيخ عمر الأشقر؟ ويلك، أمثل عمر الأشقر يُقتل؟!

فجعل يحثو التراب على رأسه ويصيح، ودخل عند الشيخ وقال: يا سيدي، هؤلاء يقولون لي أين تروح من الله تعالى وقد قتلت الشيخ عمر الأشقر؟ فقال له الشيخ: اسكن، وعزة ربي لا أدخل الجنة إلا وأنت معي.

وهذه الحكاية فيها إيراد، سألني عنه الفقيه نجم الدين بن ناشيء -رحمه الله تعالى- ونفع به قال: كيف قال له الشيخ ما أدخل الجنة إلا وأنت معي مع إقدامه على قتل هذا الولي الكبير الشأن؟ فقلت له: الحق متعلق بالشيخ وقد تركه الشيخ، وارتكابه النهى في إقباله على قتله شفع فيه الشيخ عند ربه، فلما تكرم الشيخ بحقه على خادمه فالله أكرم من ألاّ يعفو من شفاعة وليه فيه وترك حقه له، ولأن الخادم لم يقدم على قتل شيخه لا بغضًا فيه ولا مع حضور عقل ولا اعتماد لذلك، وإنما غلبت عليه الغيرة

من قوة المحبة وأخرجته عن حيز العقول حتى وقع، فلما أفاق دخل إلى الشيخ على تلك الصورة.

في مقتل الإمام علي(١)

ثم مناسبة في قتل علي بن أبي طالب -كرّم الله تعالى وجهه- بسبب قطام الحرورية، وكون عبد الرحمن بن ملجم أحبها وأعطاها على مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبد وقينة، فأبت إلا قتل ابن أبي طالب ﷺ، وذكرت أنه قتل أباها في الحرب، لكن إقدام عبد الرحمن بن ملجم المزادي بسبب غلبة شهمته لا للغيرة عليه ولا للمحبة فيه، وكانت هذه الواقعة من أعظم الرزايا في الإسلام وقد قيل:

وهـــزّ علـــي بـــالعراقين لحيـــةً رزِيَّتُهـا جلـت علـى كـلّ مسـلمِ
ثلاثـــة آلافٍ وعبـــدٌ وقينـــةٌ وَقتـلُ علـيٍّ بالحُسـامِ المصـممِ
فَيَا ضربةً من خاسرٍ ضلَّ سَعيُهُ تَبــوّأ منهــا مقعــدًا في جَهــنّمِ

أشقى هذه الأمة

روي أن النبي ﷺ قال لعلي كرم الله وجهه: «**أشقى ثمود الأحيمر وأشقى هذه الأمة قاتلك يا علي**(٢)».

وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه سأل عبد الرحمن بن ملجم فقال له: يا عبد الرحمن، ألك اسم غير هذا؟ قال: لا، إلا أنني كنت أرى أمي ترقّصني وتقول: ارقص يا شقيق الأحيمر.

والأحيمر هو قدار بن سالف الثمودي عاقر الناقة(٣)، وهو رأس التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان عقر الناقة بسبب امرأة، والحكاية طويلة مشهورة بسبب الزيات وهذه حالة أجراها الله تعالى على لسانها، فإنه شقيقه في الشّقاء. ولما سمعه الإمام علي كرم الله تعالى وجهه هزَّ رأسه، وقد كان عبد الرحمن بن

(١) انظر: مقتل الإمام علي لابن أبي الدنيا، وخصائص علي للنسائي، والأسد الغالب لابن الجزري، والاستيعاب (١٨٧٥)، والحلية (٦١/٢)، والكواكب الدرية (٤).

(٢) رواه أبو يعلي في مسنده (٤٣٠/١) بنحوه.

(٣) انظر: الإكمال لابن ماكولا (٨١/٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣٥/١)، وتاريخ ابن خلدون (٢١/٢).

ملجم يخدمه، والقصة مشهورة بطولها في غير هذا الكتاب، وقد قتل عبد الرحمن.

التناسب في الامتحان

والتناسب في الامتحان دليل الكرامة على الله تعالى للحديث الوارد:

«نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً والأمثل فالأمثل[١]».

ولما امتحن سمنون المحب[٢] وقتل المجنون، وكان حسن الوجه حسن الكلام في المحبة وعذوبة المنطق فإن امرأة مالت إليه، فلما علم سمنون بذلك طردها عن نفسه، فجاءت إلى الجنيد، فقالت له: ما تقول في رجل كان طريقًا إلى الله تعالى، فذهب الله وبقي الرجل؟ فعلم الجنيد ما قالت فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم إن هذه المرأه عرضت نفسها على سمنون بالتزويج، فأبى عليها ذلك، فذهبت إلى غلام الخليل لما علمت من إنكاره عليهم فقالت: إن قومًا من الصوفية، فلان وفلان -وذكرت فيهم سمنون- يجتمعون معي كل ليلة على الحرام، فحرّش غلام الخليل عليهم العوام وسعى بهم إلى السلطان حتى أمر بضرب أعناقهم، وكشف الله لهم ذلك، فمنهم من غاب، ومنهم من توارى حتى خلصهم الله تعالى من ذلك.

وأنكر على **أبي سعيد الخراز**[٣] جماعة من العلماء ونسبوه إلى الكفر بألفاظ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هو سمنون بن حمزة ويقال: سمنون بن عبد الله، كنيته أبو القاسم. صحب سريًا السقطي ومحمد بن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، ووسَوَس. وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وشدة وَجْد، وهو من كبار مشايخ العراق. قال الخطيب: سمعت أبا نعيم الحافظ يقول: سمنون هو بن حمزة الخواص أبو الحسن. وقيل: أبو بكر. بصري، سكن بغداد، سمى نفسه سمنونًا الكذّاب بسبب أبياته التي قال فيها:

وليسَ لي في سِوَاكَ حَظٌّ ... فَكَيفَمَا شِئتَ فَاخْتَبِرْنِي

مات بنيسابور سنة ثمان وتسعين ومائتين. وانظر: حلية الأولياء (١٠/٢٣٨)، وطبقات الصوفية (٦)، وشذرات الذهب (٢/٤٢٥)، والكواكب (٢٤٩).

(٣) اسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد، وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم.

قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون. وتوفي رحمه الله تعالى سنة ست وثمانين ومائتين، وقيل: بل توفي سنة سبع وسبعين ومائتين. انظر: الحلية (١٠/٢٤٦)، وسير أعلام النبلاء (١٣/٤٢١)، وطبقات الصوفية (ص٢٢٨)، وشذرات الذهب (٢/١٩٢)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/١١٧)، وتاريخ بغداد (٤/٢٧٦).

=

وجدوها في كتبه منها في كتاب «**السر**»: فلو قلت له من أين وإلى أين لم يكن جواب غير الله مع ألفاظ أُخر.

ولما طُلب **ذو النون المصري** إلى السلطان وشهد عليه بالكفر قال ابن الفرجي: كنت مع ذي النون المصري في الزورق، وإذا الجماعة في زورق آخر فقيل له: إن هؤلاء يمضون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر فقال: اللهم إن كانوا كاذبين ففرّقهم فانقلب الزورق فقلت له: أحسب أن هؤلاء القوم، فسقوا بهذه القضية، فما بال الملاح؟ فقال لهم: حمل الفساق، ثم قال: إذا وقف هؤلاء في القيامة فرقًا بين يدي الله تعالى خير لهم من أن يقوموا شهداء زور، ثم انتفض انتفاضة وقال: وعزتك لا أدعو على خلقك بعد هذا.

حقيقة الدعاء وعلامته

نعم، هذا هو الدعاء حقيقة وله علامة، وكذلك يُستجاب ولا يُرد؛ لأن الناس يعتقدون أنهم يدعون الله تعالى وما دعوا حقيقة؛ لأنهم لو دعوه حقيقة أجابهم، ولو أجابهم لفسدت الأرض وما عليها؛ إذ في دعاء هذا فساد حال هذا وهلاك هذا، وفي فساد حال هذا صلاح هذا، وصلاح هذا فساد هذا، وذلك للعداوات والتضاد الموجود بين العباد والمقاصد الفاسدة، وطلب الفساد والحرام وغير ذلك.

ولما كانت قلوبهم غافلة في أكنة عن الدعاء فلا يصعد الدعاء إلى الله تعالى، وتحجبه الملائكة لغفلة القلوب عن الله تعالى والتفاتها إلى سوء المقاصد.

وللدعاء علامة يعرفها الداعي الذائق للإجابة وهي جمعية القلوب على الله وعدم الالتفات إلى غيره ووجود الاضطرار إليه، فإذا صح ذلك من الداعي وقعت الإجابة لا محالة، ولا خلاف عند من وجد ذلك البتة، ويجد الداعي حلاوة الإجابة في دعائه كما يجد الرامي في الظلمة حلاوة الإصابة وإن لم ير ذلك. فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

ومن وجد ذلك فليتق الله ولا يطلقه لغير وجهه الكريم فهو من كنوز السعادة، لكن هذه الصفات لا تجتمع لقلب ما لم يكن القلب قلبًا مخصوصًا ولو في تلك

=

الساعة، وما كل فقير يدعو عند نزول البلاء به ولا وقوعه في المحنة، وهم في ذلك طبقات، وهم درجات عند الله.

ضرورة التوبة

ولما قال **سهل بن عبد الله التستري**(١) -رحمة الله تعالى عليه- إن التوبة فريضة على العبد في كل نفس، وكان إلى ناحيته رجل ينسب إلى العبادة فهيّج عليه العامة ونسبه إلى القبائح وكفّروه حتى خرج منها إلى البصرة ومات بها، هذا مع علمه ومعرفته واجتهاده وعلو شأنه ﷺ.

ولعمري إن هذا لهو العجب، وذلك أن كل نفس يتنفسه العبد هو نعمة من الله تعالى عليه لا يقدر على شكرها، ويعجز عن أداء حق الله تعالى فيها ولو كان شاكرًا على الدوام مع الحركات والأنفاس، فكيف إذا خالط النفس غير الشكر؟ وأنى يكون العبد شاكرًا في كل نفس على قدر حق الله تعالى عليه، فهو مضيع حق الله تعالى فتجب التوبة في كل نفس وهي درجات الأكابر إذا كان شاكرًا على الدوام في كل نفس لا يخالطه غير الشكر، أما إذا خالطه غير الشكر من الغفلة ونسيان المنة لله تعالى وكفران النعمة أو خطرات المعصية أو ارتكابها، فهذا ظاهر لإخفائه في العموم.

وقد تقدم أن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله تعالى كما قال ﷺ:

«**..في كل يوم وليلة سبعين مرة**(٢)» مع جلالته وعلو منصبه وكماله وعصمته والمغفرة له لما تقدم من ذنبه وما تأخر، وذكرنا أن السبعين لم يقتصر عليها إلا أنها جارية في كلام العرب، فكيف يكفر من يقول إنه يجب على العبد التوبة في كل نفس

---

(١) قال السلمي: سهل بن عبد الله التستري وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى ابن عبد الله بن رفيع وكنيته أبو محمد أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال صحب خاله محمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة. وأسند الحديث. توفي قدّس سرُّه العزيز سنة ثلاث وثمانين وقيل: سنة ثلاث وتسعين ومائتين وأظن أن ثلاثًا وثمانين أصح، والله أعلم.

وانظر: الحلية (١٠/١٨٩)، وطبقات الصوفية (ص٢٠٦)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/٩٠).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٥/٣٨٣).

مرة؟.

ابتــــلاءات

ولما كان عند عمرو بن عثمان[١] جرو فيه علوم الخاصة فوقع في يد أحد تلاميذه فأخذه وهرب فقال: سوف تقطع يداه ورجلاه.

فقيل أنه كان الحسين بن منصور الحلاج، ففُعل به ذلك.

و**الجنيد** رضي الله عنه مع علمه ومعرفته شهد عليه بالكفر مرارًا حتى تستر بالفقه واختفى.

وما هذا بأعجب مما جرى لعامر بن عبد قيس حتى رفع إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال إنه خير من إبراهيم، وإنه يحرم ما أحل الله تعالى، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان، فأشخصه معاوية على قتب، فلما سأل عثمان بن عفان رضي الله عنه من عرف محله ومكانه من الذل والعبادة كرّمه ورده إلى موضعه، والمحن والأذى بحسب مراتب الرجال وأحوال الفحول والأبطال، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى بالرجل على قدر دينه[٢]»** وقد قلت:

شربتُ الهوى حلوًا وإن كانَ طعمُه أمــرَّ مــن الصــبرِ المـذابِ بعلقــمِ
بلاؤكــم عــذبٌ لــدي وقــتلُكم وذكرُكم أحلى من الشـهدِ في فمِي
وأرضى الـذي ترضَوهُ منْ كلّ فعلة وإن كان فيه سفكُ رُوحي مع دمي
وذلّي لكــم عــزٌّ وإن قيــلَ عبــدَكم عَلوت بكـم فـوق الفخـارِ بسُـلّمِ

(١) هو عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، وكنيته أبو عبد الله كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة.

ولقي أبا عبد الله النباجي، وصحب أبا سعيد الخراز وغيرهم من المشايخ القدماء، وهو عالم بعلوم الأصول، وله كلام حسن. وروى الحديث. مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومائتين، ويقال: سبعٍ وتسعين، والأول أصح.

انظر في ترجمته: حلية الأولياء (٢٩١/١٠)، طبقات الصوفية (٩)، (ص٢٠٠)، وطبقات الشعراني الكبرى (١٠٤/١)، وصفة الصفوة (٢٤٨/٢)، وشذرات الذهب (٢٢٥/٢).

(٢) سبق تخريجه.

ومــن أيــن لي أني عُبيــدُ عَبيــدِكم ومــن أيــنَ لي أني إلى العبــدِ أنتمــي

فقُــربكم منــه الجنــانُ وطيبُهــا وبُعــدُكم منــه الشــقا في جَهــنّمِ

وممن ابتلي **أبو عبد الرحمن محمد بن الفضل البلخي**(١)، وكان إمامًا ببلخ، وكان مذهبه مذهب أصحاب الحديث، فغادره أهل بلخ بسبب المذهب وقالوا له: لا نحب أن تسكن في بلدنا فاخرج منها، فقال: لا أخرج حتى تجعلوا في عنقي حبلاً وتأخذوني من إحدى أطراف البلد في السوق وتقولوا هذا مبتدع، نريد أن نخرجه من بلدنا، ففعلوا به كذلك وجرّوه إلى داحان ثم خلوا سبيله، ثم التفت إليهم وقال: نزع الله تعالى من قلوبكم معرفته ومحبته.

فقيل أنه لم يخرج بعد دعائه عليهم من بلخ صوفي من أهلها بعد أن كانت بيت التصوف والزهد، ومن كان فيها من صوفي فإنه غريب انتقل إليهم أو ولد غريب.

وقد ذكرنا من امتحن في زماننا هذا من أهل الدين، وقد كان بقفط **الشمس زريق** وهذا الاسم هو اسم الشيخ شمس الدين عبد الرزاق بن حسام، وكان متصوفًا متفقهًا، كثير الصيام والقيام، كبير المروءة والفتوة، يطعم الطعام ويتورع في المأكول، فأصبح فوُجد في بيته مقتولا وقد بقي فيه بعض النفس، وقد كسروا رأسه وأضراسه، وسقطت لحيته، ومات في يومه رحمه الله تعالى، واتهموا به شخصًا، ولم ير في نفسه خيرًا إلى أن مات، والله أعلم أهو فاعل ذلك أم لا؟ وقيل كانوا جماعة.

الابتلاء في الدنيا

والمناصب الدينية محل ابتلاء، وكذلك المناصب الدنيوية أيضًا، وكما جرى للطفراي، وقد كان يضرب ويرمي بالسهام وهو ينظم الشعر، لكن المناصب الدنيوية ما

(١) عارف عرف تزهده، وتبين تورعه وتعبده، كان جزيل الاجتهاد في الخير، محمودًا في السرى، مشكورًا في السير، وله من الناس قبول، ومعه بالتوفيق وصول، وكان من أكابر القوم وساداتهم.

أسند الحديث عن قتيبة بن سعيد وغيره، وصحب ابن خضرويه وغيره.

ومات بسمرقند سنة تسع عشرة وثلاثمائة. وانظر: طبقات الشعراني (١/٢٨٨)، صفة الصفوة (٤/١٦٥)، المنتظم (٦/٢٣٩)، والكواكب (٣٧٢).

تستحق لمن يبذل فيها شيئًا البتة لزوالها وسرعتها، وإن بُذل فيها شيئًا فيكون منها لا من الآخرة ولا من الدين ولا من النفس التي بها تحصّل الآخرة، فإن الذين ابتلوا في الدنيا بسبب مناصبها كثير، وهم أرباب العقول المكّارة أعاذنا الله وإياكم من كيد العقول وكيد الكائدين من جميع الإنس والجن والشياطين أجمعين.

الابتلاء في الدين

وأما الابتلاء في الدين فإنه نعمة من الله تعالى شاملة، ولم يقع ذلك إلا للأكابر كما جرى **لأبي يزيد البسطامي** ﷺ فإنه لما رجع إلى بسطام من سفرته وتكلم بما تكلم به في علوم لا عهد لهم بها، وتكلم في أحوال الأنبياء وأحوال الأولياء، أنكر ذلك الحسين بن عيسى البسطامي إمام ناحيته والمقصود في علم الظاهر، وأمر أن يخرج أبو يزيد من بسطام، فأُخرج ولم يعد إليها إلا بعد موت حسين بن عيسى البسطامي، ثم بعد ذلك ألفه الناس وعظموه وعظموا شأنه، وإلى الآن يتبركون بزيارته وقبره ومسجده ﷺ، وقد ذكرنا إخراجه من بلده غير مرة في هذا الكتاب.

والامتحان كثير والاختلاف موجود قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود:١١٩] فمنهم من يحسن الظن ومنهم من يسيء الظن.

ولما خرج محمد بن الفضل [من بلخ] إلى سمرقند [بسبب المذهب فنفوه][١] إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وأما **أبو محمد بن علي الترمذي**[٢] فإنه لما صنف كتاب «علل الشريعة[١]»

(١) غير واضح بالأصل، وتم تصويبه من طبقات السلمي (ص٢١٢).

(٢) هو صاحب التصانيف المشهورة، زاهد اشتهر بملازمة العبادة، وتفرد بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الإسناد، وناسك سلك طريق القوم وهجر في وصله التهجد وصل النوم، رحل في طلب الحديث والعلم، وتلفع بمروط التقوى والحلم، ولقي الأكابر وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرًا معظمًا وصوفيًا محدثًا مفخمًا، كثير الكيس واللطافة غزير المعارف التي تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقوده جيد زمانه وتأرجت الأرجاء بعرف عرفانه، لقي أبا تراب النخشبي والبلخي وتلك الطبقة وسمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره وهو من أقران البخاري.

=

وكتاب «ختم الأولياء» أنكروا عليه بسبب الكتابين، وقالوا: فضلتَ الأولياء على الأنبياء وأغلظوا عليه وأخرجوه من ترمذ، فجاء إلى بلخ وأقام بها أيامًا حتى رجع إليهم.

ولعمري لقد كان هذا الإمام أبو محمد الترمذي إمام عظيم وله كلامٌ جليل، وهو الملقب بالحكيم الترمذي، ومن وقف على كلامه في كتاب: «ختم الأولياء» وكتاب: «الغور وما يُؤمر به المريد» وكل كتبه جليلة تدل على عظم شأنه فإن:

«المرء بأصغريه: قلبه ولسانه(٢)».

ولقد حكي عنه أنه لما وردت عليه هذه العلوم وفندها في الكتب حصلت له فألقاها جميعها في البحر، فقيض الله تعالى لها سمكة فابتلعتها وألقتها في جزيرة، فوجدت، ثم انتشرت علومه ﷺ.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا الزهد من حيث الشهرة بالعلوم، فلما سلب اختيار نفسه بإخفاء حاله نوّه الله تعالى بقدره وأظهر علومه ليكون في ميراثه كل من انتفع بها ووصل إلى الله تعالى بسببها، وكل تارك حظه لله هكذا يكون حاله عند الله تعالى بحسب قصده ونيته وذلك لما علموا أن ذلك مما يرضي الله تعالى عنهم لقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فإن الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾[النازعات: ٤٠].

وقد قلت:

لو كانَ يسمحُ بعدَ البينِ أن يصِلا ... ما بتُّ أبكي الحمَا والرَّبعَ والطللاَ

=

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: كان إمامًا من أئمة المسلمين له الصفات الكبار في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث وفي شيوخه كثرة. وقال السلمي في طبقاته: له الشأن العالي والكتب المشهورة. نفوه من ترمذ وشهدو عليه بالكفر بسبب تفضيله الولاية على النبوة، وإنما كلامه في ولاية النبي ﷺ. وانظر: طبقات الصوفية (٢١٧)، صفة الصفوة (١٦٧/٤)، سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٣)، والكواكب (٣٦٣).

(١) تحت قيد الطبع ، باسم علل العبودية، طبع (دار النهار).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٨٧/١).

أو كنت أيئسُ من وَصْلي به تلَفت رُوحي عَليه وأدنى الحبِّ ما قتلاَ
أهلُ الشَّقَاء دُونَ الحبِّ رُتبتُهم ما أسعدَ الحبَّ إلا من به وَصلاَ
وجَنةُ الخُلدِ مأوَاهُم إذا وَصلُوا كذَا الجحيمُ حجابٌ يَقتضيه قلاَ
والصبُّ من وجبت في الحبِّ موتتُه ويَستحيلُ عليه أن يقالَ سلاَ
لو يَعقلُ الصبُّ يومَ البين لوعتَه لذَابَ وجدًا بها لكن ما عقَلاَ
والبين يذهل عقلَ الصبِّ لوعته والوصلُ يُرجعه للعقلِ إن وصَلاَ
عُد بالوصال ولو في النّوم تمطلُني ما أحسنَ الوعدَ في وَصل إذا مَطلاَ
قد ألبَسَ الحزن جسمي بالجفا حُللا وصيَّر الحبُّ قبي في الهوى مثلاَ
جَار العذول وما أغنته معذلةٌ لو كان يَدري الهوى والبين ما عذلاَ
نعم وفي العذل ذكرُ الحبيب به يَلذُّ قلبي ولكن في السّلو فلاَ
عَجِبتُ في البعد منه وهو مقتربٌ وفي التقرُّب من قلبي وما حصلاَ
ذللتُ في حبِّه ذلاًّ شَرفتُ به فعَزَّ في ذلَّتي في عزِّه وعلاَ

وحدّثني الشيخ أبو الظاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي صاحب **الشيخ أبي يحيى بن شافع** - قدّس الله تعالى رُوحه[1] - قال: دخلت يومًا على الشيخ أبي يحيى فوجدته يبكي مما حصل له من شخص من الأذى بالكلام أو بغيره، وهو من العوام، قال الشيخ أبو الظاهر: فأخذت -ربما قال- عكازًا تحت ثوبي، وأتيت إلى ذلك الرجل وكان في طاحون، ودخلت عليه وضربته بذلك العكاز ضربًا شديدًا إلى أن كسرته حتى قلت له وكيف فعلت أو كيف جاز لك ذلك؟ وهذا الشيخ أبو الظاهر جليل القدر،

(١) أبو يحيى بن شافع القنائي، صوفي صنعته المعارف، وطافت به العوارف.
كان بحانوت يتسبب فيه، فرآه الشيخ أبو الحسن الصباغ فقال: هذا يصلح للسلطنة، ويتزوج بنت الخليفة، فقام للوقت، وترك حانوته وتبعه، فأقام بخدمته مدة، وتسلك بالشيخ، وتزوج ببنت الخليفة، وظهرت له كرامات وخوارق باهرات. انظر: الطالع السعيد (٧٤٣)، وطبقات الأولياء (٤٨٣).

وقد ذكرنا كشفه واطلاعه، لم يحتمل أذى ولي الله تعالى حتى أنكره بيده، قامت عنده الغيرة الإلهية فغيبته عن النظر في الجواز في ظاهر الأمر؛ لأن هذا الذي شوش على الشيخ محارب لله تعالى؛ لورود الحديث: **«من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**(١)**»** فقامت عنده حالة من الأحوال فكان جندًا من أجناد الله المحاربين لأعدائه في نصرة أوليائه، وفي محن المتقدمين من الأولياء أسوة في محن المتأخرين، وسنة في الاقتفاء.

حكي عن **أبي يعقوب يوسف بن الحسين الرازي**(٢) أن زهّاد أهل الدين والمتصوفة منهم ما زالوا منكرون عليه، ويتكلمون فيه، ويرمونه بالعظام مع قلة مبالاته بهم؛ لتمام علمه واستقامة أحواله، إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

أما **أبو الحسين** أبو شيخي فإنه لقي من أهل بلدته ما لقي، أخرجوه منها إلى أن جاء إلى نيسابور واستوطنها ومات بها، رحمه الله تعالى.

وأبو عثمان المغربي(٣) مع تمام حاله وكثرة مجاهداته ورياضته حرس عليه العلوية

---

(١) ذكره القرطبي (٢٨/١٦)، ومجمع الزوائد (١٩٢/١).

(٢) انظر: هو يوسف بن الحسين الرازي الإمام العارف شيخ الصوفية، إمام الري والجبال في وقته. كان أوحد في طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص، أكثر الترحال، وأخذ عن ذي النون المصري، وأحمد ابن حنبل، وأحمد ابن أبي الحواري، ودحيم وأبي تراب عسكر النخشبي، وعنه أبو أحمد العسال وأبو بكر النقاش ومحمد بن أحمد بن شاذان وآخرون.

قال السلمي: كان إمام وقته لم يكن في المشايخ أحد على طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه، وترك التصنع واستعمال الإخلاص.

وقال أبو القاسم القشيري: كان نسيج وحده في إسقاط التصنع. وانظر: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وطبقا ت الشعراني الكبرى (١٠٥/١)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٥٨).

(٣) هوسعيد بن سلام، أبو عثمان القيرواني، صوفي جليل كبير عارف، عرف صيته أطيب من العبير، له الأحوال المأثورة والكرامات المذكورة، صحب الزجاجي والنهرجوري والدينوري وغيرهم، ولم ير مثله في علو الحال وصون الوقت وصحة الحكم بالفراسة وعظم الهيبة وجموم الأسرار وطرح الاختيار.

مات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ودخل رجل على الخطابي فأخبره بموته فقال: قال المصطفى ﷺ: «قد كان في الأمم ناس محدثون فإن يكون في أمتي فعمر وأنا أقول فإن كان في هذا العصر أحد فأبو عثمان المغربي». رواه الخطيب البغدادي. وانظر: طبقات الصوفية (٤٧٩)، وطبقات الأولياء (٢٣٧)، وطبقات الشعراني (١٢٢/١)، والكواكب (٣٣٩).

بمكة شرّفها الله تعالى، فضرب على رأسه ومنكبيه وطوّف به على جمل في أسواق مكة، حتى أحوجه ذلك إلى مفارقة الحرم، ودخل بغداد وأقام بها سنين، ومات بها رحمه الله تعالى.

و**الشبلي أبو بكر** ﵁ مع تمام علمه وكثرة مجاهدته ورياضته، وحدة حاله وفصاحة لسانه، شهد عليه بالكفر حتى من أراد معونته وخلاصه شهد عليه بالجنون حتى حبس في مارستان، وقال فيه أحد مشايخ بغداد الكبار، وهو أبو الحسن الخوارزمي: «إن لم يكن لله جهنم فإنه يخلق جهنمًا بسبب الشبلي، وإن لم يدخل الشبلي الجنة فلا أدري من يدخلها».

قول هذا الإمام أبو الحسن الخوارزمي ﵁: إن لم يكن لله جهنمًا فإنه يخلق جهنمًا بسبب الشبلي.. ولأن الذين افتروا عليه وآذوه وكفَّروه بالباطل لا بالحق مع كثرة أذاهم له، فقال ذلك القول بهذا السبب.

وأما **أبو بكر النابلسي**(١) مع فضله وعلمه وزهده، واستقامة طريقه تكلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هؤلاء المغاربة، فأُخذ وحُمل إلى مصر فلم يرجع عن قوله، فأُخذ وسلخ وهو حي قيل أنه كان يُسلخ وهو مكومًا ويقرأ القرآن، فكاد أن يفتتن به الناس فرفع ذلك إلى صاحب مصر فقال: اقتلوه ثم اسلخوه.

و**الحسين بن منصور الحلاج** فمع اختلاف الناس فيه وسائر أقوال المشايخ فإنه كان من القوم ولقي ما لقي مما لا يخفى، وإن لم يكن من القوم فلا كلام.

وذكر ابن خلكان في كتابه أنهم اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا، وأنه إنما سمي الحلاج لأنه جلس على دكان حلاج وبها مخزن قطن غير محلوج، وأرسل صاحب الدكان في قضاء حاجة له، فلما رجع وجد جميع القطن محلوجًا فسمي الحلاج لذلك.

---

(١) هو الإمام المشهور، الصوفي الكبير، كان ذا ورع وزهد وديانة واستقامة وحسن طريقة وأمانة، تصدر بالمغرب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فآذوه وأخرجوه مقيدًا مغلولاً إلى مصر، وشهدوا عليه الزور والبهتان بقبائح لا أصل لها، سُلخ وهو حي منكوسًا، فصار يقرأ القرآن ويملي علوم الحقائق وهو في ذلك الحال، فكاد أن يفتتن به الناس، فرفع الأمر للسلطان، فقال: اقتلوه ثم اسلخوه ففعلوا. وقيل: إنه أملى على بعض مريديه وهو في ذلك الحال مائة وخمسين بيتًا من نظمه في علوم الطريقة وإشارات الحقيقة، وإنه مازال يملى عليه حتى وصل السلخ سرته فمات رضي الله عنه. انظر: السير (١٦/١٤٨)، والشذرات (٣/٤٦)، والكواكب (٤٠٦).

وأنه كان يأتي بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف

وكان يمد يده في الهواء فيردها مملوءة دراهم، يسمونها دراهم القدرة، وذكر صاحب تاريخ بغداد فيه أمورًا غير مستحسنةٍ.

وكان الاختلاف في كفره كثيرًا جدًّا، وإنما شهد له إمامان عظيمان: أحدهما محمد بن خفيف، والآخر ابن عطاء بأنه عالم ربانيّ.

وأما سبب قتله فلم يكن عن أمر موجب للقتل - على ما حكاه ابن خلكان في تاريخه- حيث كان الوزير يعمل عليه، وأحضروه إلى مجلس الحاكم غير مرة فلم يظهر منه ما يخالف الشرع، إلى أن وجدوا له كتابًا فيه أن الإنسان إذا عجز عن الحج فعمد إلى غرفة في بيته فطهَّرها وطيبها -وربما قال وصام سبعة أيام وكسى سبعة أيتام- ثم طاف بها فيكون كمن حج البيت، فطلبه القاضي وقال: هذا الكتاب تصنيفك؟ قال: نعم، قال: فأخذت هذا عن من؟ قال: عن الحسن البصري، فقال له القاضي: كذبت يا حلال الدم، قد رأينا كتب الحسن البصري ولم يكن فيها ذلك.

فلما قال له القاضي: يا حلال الدم قال له الوزير: اكتب خط لك، فامتنع فألزمه بذلك، فكتب فقال له الحلاج: كيف يحل لكم دمي وأنا على الكتاب والسنة؟ ولي تصنيف في الشريعة؟ فتحدث الوزير مع الخليفة فدفع عنه نصر الخادم، فعاود الوزير الخليفة وخشي على نفسه، فأمر به فضرب ألف سوط ولم يتأوه، وقطعت يداه ورجلاه، وصلب وأحرق بالنار.

ونعوذ بالله من الفتنة والأهواء المضلة، ووقع الاختلاف في موته هل مات أم لا؟ أو هو غيره الذي صلب، وعلى الجملة فكان اختلافهم فيه كاختلافهم في عيسى ﷺ، وذكر ذلك ابن خلكان قاضي دمشق في تاريخه، والمحن كثيرة، وليس هذا القول يقبل فيه من يعتقد فيه الولاية مع شهادة هؤلاء الأكابر فيه، وظهور الخوارق على يده.

خروج الأكابر

وقد أُخرج جماعة من العرب في زماننا هذا، منهم أكابر **كالخولي**، والشيخ أبي الحسن **الشاذلي**، وجرى للشيخ أبي **محمد المرجاني** قريبًا من ذلك، ولطف الله تعالى به، وابن **المغربي** جرى له ما جرى.

وقد جرى للأئمة العلماء **كالشافعي ومالك** و**أبو حنيفة** و**أحمد** ﷺ، وحكاياتهم مشهورة مسطورة لا يسع هذا الكتاب الاختصار الذي قصدناه، وما نحن بسبيله من ذلك، وكذلك الشيخ **عز الدين بن عبد السلام**، والذي اتفق لقاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأغر رحمه الله تعالى، وما عمل عليه حتى حبس بعد ما أمر به من شنق وغيره، وتخلّص بعد ذلك وولي القضاء كما كان رحمه الله تعالى.

وأما **ابن سبعين**(١) فأخبرني الشيخ عامر قال: كنت مع الشيخ تاج الدين بن الرماح فقال لي: يا عامر، ورد الساعة فقير من الغرب قم بنا إليه.. قال: فقمنا، وخرجنا إلى ظاهر الإسكندرية، فوجدنا الشيخ عبد الحق بن سبعين قد وصل، فسلم عليه الشيخ وتحدثنا طويلاً فقال له: الشيخ تاج الدين: إن شخصًا ورد قبل ورودك ومعه محضر مكتوبٌ عليك فقال: وإيش مكتوب فيه؟ فقال له: مكتوب فيه: فأنت عين رحمته، ورسول حكمته، قال: وإيش في هذا؟ قال: وفيه: فأنت أنت وهو هو، قال وإيش في هذا؟ قال: بل أنت هو وهو أنت، فقال: ما قلت أنا ذا، ثم قال: والله لو علمت الذي كتب في المحضر ليعطيه الفص، أنا إن حُبست فخلْوه، وإن نُفيت فسياحة، وإن قُتلت فشهيد.

---

(١) سيدنا وإمامنا قطب الأقطاب: عبد الحق إبراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين.
قطب الدين أبو محمد الأشبيلي المرسي، والرقوطي الأصل، الصوفي المشهور.
درس العربية والآداب بالأندلس، ثم ارتحل إلى سبته، وانتحل التصوف على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم، وعكف على مطالعة كتبه، وجد واجتهد، وجال في بلاد المغرب، ثم رحل إلى المشرق، وحجَّ حججًا كثيرة، وشاع ذكره، وعظم صيته، وكثر أتباعه على رأي أهل الوحدة المطلقة، وأملى عليهم كلامًا في العرفان على رأي الاتحادية، وصنف في ذلك أوضاعًا كثيرة، وتلقوها عنه، وبثوها في البلاد شرقًا وغربًا.
وقد ترجمه ابن حبيب فقال: صوفي متفلسف، متزهدٌ متعبدٌ متقشف، يتكلم على طريق أصحابه، ويدخل البيت، لكن من غير أبوابه، شاع أمره، واشتهر ذكره، وله تصانيف وأتباع وأقوال تميل إليها بعض القلوب وينكرها بعض الأسماع.. انتهى.
قلت: لا يفهم كلامه بعين الذوق ومشرب أهل الحق، إلا من فُتح عليه بنور الفوق.
وانظر: مرآة الزمان (٢/٤٦٠)، فوات الوفيات (٢/٢٥٣)، ومرآة الجنان (٤/١٧١)، والبداية والنهاية (١٣/٢٦١)، والكواكب (٥٢٤)، ورسائل ابن سبعين، وبد العارف، ().

محن العلماء

وأما نحن المتقدمين فاختصرناها وهي كثيّر جدًّا حتى لا يكاد يخلو واحد منهم من محنة، منهم:

أبو القاسم النصراباذي(١)، لقي من أهل المدينة وعلمائها وأهل التصوف ما لا خفاء به، كانوا ينكرون أحواله وكلامه وبسط السماع ونعوده في هذا العالم إلى أن أخرج إلى الخدم ومات به.

و**أبو عبد الله السّجزي الكبير**(٢)، صحب أبا حفص، فإن أبا عثمان الحيري(٣) هجره، وأمر أصحابه بهجره، فقيل أن أبا عثمان حسده، وقيل أنه غار على ما كان يتكلم به من الكلمات العالية.

وحكي عن أبي حفص أنه قال إن أحدًا منكم ينبسط في الكلام حتى يهجر، ويمنع من صحبة العوام، ويحض بصحبة الخواص، فقيل: إنه كان أبو عبد الله السحري.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد أبو القاسم النصراباذي، شيخ خراسان علمًا وحالاً، كان في علم التصوف إمامًا، وفي فن التعرف لمن تقدم ختامًا، محالفًا للزهد والورع، مخالفًا لمن زاغ عن الطريق وابتدع، كاشف الهم هاطل الغمام، حسن الأخلاق لطيف الكلام، فصيح اللسان عذب العبارة، لا يلهيه عن ذكر الله بيع ولا تجارة.

أخذ الحديث عن ابن خزيمة وابن أبي حاتم والطحاوي وغيرهم، وعنه الحاكم وغيره، وصحب الشبلي والمرتعش والطبقة، وكان فيه نفع للناس في الشفاعة في قضاء أشغالهم، ومبادرة إلى تلقي مصالحهم، وتمشية أحوالهم لا يتوقف في خيره يقصد فيه، ولا يبالي إن كان فيه تلفه أم تلافيه.

مات في سنة سبع وستين وثلاثمائة. وانظر: الكواكب (٢٩٢).

(٢) هو من كبار مشايخ خراسان وفتيانهم، قطع البادية مرارًا على التوكل.

قال: علامة الأولياء ثلاثة: تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وإنصاف عن قوة. وانظر: الحلية (٣٥/١٠)، وطبقات السلمي (٢٠).

(٣) هو شيخ الجماعة ومقدم الطائفة، إمام جليل وحبرٌ نبيل، عارف لا يحتاج نهار فضله إلى دليل.

أصله من الري، ونشأ بها ثم تحول إلى نيسابور فسكنها، وسمع الحديث على الجماعة.

قال الخطيب: وكان مجاب الدعوة. ومات سنة ثمان وتسعين ومائتين، وقيل غير ذلك.

وانظر: حلية الأولياء (٢٤٤/١٠)، والرسالة (٢٥٠)،وطبقات الشعراني (١٠١/٢)، (٢٨٩/٤)، وطبقات الصوفية (١٧٠).

وأما أبو الحسين الحضرمي(١) فإنه شهد عليه بالكفر، وحكي عنه ألفاظًا، وكتب في مدرج، وحمل إلى أبي الحسن بن معروف قاضي القضاة، فاستحضره القاضي وناظره في ذلك، ومُنع من القعود في الجامع، وما زال ابن مسعود يتكّلم فيه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وأبو القاسم بن جميل كانوا يتكلمون فيه بكل عظيمة مع قلة مبالاته بذلك، قال: حكى الحكاية ولعمري لقد كان يرتكب أمورًا، ويفعل أفعالاً مع الكلام فيه، والإنكار عليه إلى أن رددنا خبره ببركة الفقراء، وعشرتهم إلى أن حسَّن طريقه، وقومها، ومات على ذلك رحمه الله تعالى.

وأبو بكر بن يَزْدانيار(٢): كان يسافر ويخدم مشايخ الصوفية، ويعرفون له محله وكان على ذلك سنين إلى أن رجع إلى بلدته استحلى الرئاسة، ورغب في صرف وجوه العامة إليه، وأخذ يدق على هؤلاء، وينسبهم إلى الزندقة، فلعله قال الشبلي: يا أبا بكر، لو كان بيننا وقبلته أريد أن يتبعنا ولكنا اثنين غيرين حدين؛ وذلك لما بلغه من الوقيعة في مشايخه.

وقال أبو بكر الطمناني: دخلت على ابن يزدانيار فحضرت مجلسه، فلما فرغ رآني فقال: ما تقول في هؤلاء العراقيين الجنيد ورويم وسمنون وابن عطاء؟ فقلت: أرباب التوحيد، ووجوه الدين، واغتاظ من كلامي وتغير، فقال أحد الذين حضروا: يا رجل، أنا لك ناصح، إن أقمت في هذه البلدة الليلة فأنت تكون مأثومًا من دمك، فاخرج منها، فخرجت.

فانظر رحمك الله تعالى ماذا جرى على المتقدمين والمتأخرين، فخذ لنفسك أسوة فيما يقع من المحن، وكلام الناس وأذاهم.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٢١٩/٤١)، وتاريخ بغداد (٩٥/٢).

(٢) هو الحسين بن علي بن يَزْدانيار: كان جليل القدر رحيب الصدر وافر المهابة ظاهر الإنابة كثير الخير والإحسان معظمًا عند الأكابر والأعيان، أخلاقه كريمة وبركاته عميمة وقدمه ثابت وغرس كرمه وكراماته نابت، أصله من أومينية، وله طريق في التصوف يختص به، وكان ينكر على بعض مشايخ العراق كالجنيد أحوالهم الفاضحة لأسرار الطريق. انظر: طبقات الصوفية (٤٠٦)، والحلية (٣٦٣/١٠) طبقات الأولياء (٣٣٥).

ثلاثاً ثلاثا

فإن كنت ممن له ضرورة بالاجتماع بالناس فيلزمك أحوال **ثلاث:** حمل الأذى منهم، وحمل الأذى عنهم، وإيجاد الراحة لهم.

ولا بد لك من أمور **ثلاث:** الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة للجميع مع ترك المؤاخذة- إذا لم تجد القدرة على ذلك مع عدم المعين، وكثرة المعاندين، وقلة الناصرين، حتى إنك يأتيك الأذى ممن تقصد له الراحة، والغش ممن تمحضه النصح، والخذلان ممن تقوم له بالنصر، والعداوة ممن تقصده بالمحبة.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

وكل من الناس يطلبك لما يختار من هواه، وسواء كان ذلك يهلك دينك ودنياك، أو يشقيك أو يسعدك، ليس له فيما تعود عليه مصلحتك إرب.

فإن وافقتَه هلكت دنيا وأخرى، ومع هلاك دنياك وآخرتك لا تقدر على رضاه؛ فإن غيره يقصد منك خلاف مقصده، فهم يتجاذبونك إلى هلاكك، هذا لو كانا شخصين فكيف بجملة الخلائق؟ وهم على ذلك من ضعفك وقلة إسعادك، وهم متفاوتون في الطلب فيك، كالحيّات والعقارب والكلاب والسباع والذباب من أصناف القواتل.

فمن لاذع قاتل كالحية مع لين لمسها قاتل سمها، ومن لاسع كالعقرب مع شدة ألمها وشدة طبعها، ومن موازع كالثعلب، ومن مهاوش كالكلب، ومن محتال كالذئب، ومن غبي كالدب، ومن محاك كالقرد، ومن مختال كالفهد، ومن شديد الغضب والبطش كالأسد، ومن بليد كالحمار، ومن حقود كالجمل، ومن وثاب كالنمر، ومن مستمع كالخلد، ومن مراقب شديد البصر كالفرس، ومن ناسٍ لخيرك كالجرذ -وهو الفأر- وأنت بينهم كالفرخ الذي لا ريش له، أو الطير الذي لا جناح له.

وهم يتساقطون عليك تساقط الذباب على العسل، والكلاب على الجيفة، والحربان على اللحم، وهم يتجاذبونك ويتناهشونك ويمزقونك ويقطعونك ويلذعونك ويلعنونك ويلسعونك ويقتلونك ويذمّونك وينسبونك، وكل واحد منهم يأخذ بقوة طبعه، وبحسب وسعه، وليس يعقلون فيك غير نفعهم، ولا يخافون فيك عصيان ربهم،

لأنهم لا يعقلون، ولا بالأوامر مكلفون.

وهذه الحالة وإن كانت في ضرب الأمثال ونصب المثال، فالحشرات والوحش وما ذكرناه أقل من الناس أذى لك ولا يمنعونك آخرتك، ولا يحجزون عنك نفسك، ولا يفشون سرك، ولا يعيبون عليك كلامك، ولا يحولون بينك وبين ربك ﷻ ودينك كما قيل:

ولي دونِكم أهلُون سيد عملس ... وأرقَطُ زهلول وعرفَا جبلُ

هم الأهلُ لا مستودعَ السّرِّ ضائعٌ ... لديهِم ولا الجَاني بما خير يفعَلُ

فانظر إلى هذا العربي مع غلظ طبعه وجاهليته، وغفلته عن معرفة دينه ومصلحة آخرته، كيف نفر عن أهله، وجعل له أهلاً من الذباب والضباع، وذكر من وصفهم ما ما ذكر مع ما جبلوا عليه مما ذكرناه أولاً من صفاتهم وشدتها، وعجائبها وذهاب عقولهم، وما ذاك إلا أن أذى الناس أكثر من ذلك، أعاذنا الله وإياكم من شرورهم في الدنيا والآخرة.

وقد قلت:

ولقد بلوتُ الناسَ في أحوالِهم ... وحَككتُ إبريزَ القلوبِ بمَيلقي

فرأيتُ غشًّا في البواطن كائنًا ... وظَواهر ابتدَوا بحسن تملُّقي

فنفضتُ كفِّيَ تائبًا عن وصفِهم ... ودَعوتُ ربي بعدَها لا نلتقي

ومحضتُ كل النصح من أحببتُه ... ألاَّ يُصاحب غيرَ خلٍّ متقِ

وقال غيري:

عوى الذّئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى ... وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وما ذاك إلا لعلمه أنه لا يقدر على التخلص من الناس وقد جرّبت ذلك وجرّبه غيري كما قيل:

أنِستُ بوحدَتي حتى لو أني ... رَأيتُ أبي لفررتُ منْه

ولن تدعَ التجارِبُ لي صَديقًا ... أميلُ إليه إلا مِلتُ عنْه

وهذا كلام من قدر على الوحدة ولزم العزلة، فكيف من لا وصول له إلى ذلك، ولا قدم لما هنالك، لما كلف من الأتعاب والأنصاب من كثرة العيال وحمل الأثقال، ولا يسعه الانقطاع مع كثرة الأوجاع، وما جبلت عليه الطباع من تضييع الحريم، وستر وجوههم عن البريء والسقيم، وقد كلف في الشرع القيام عليهم في الستر والقوت، كما ورد في الحديث: **«كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت[1]»** فهو في هذا الحال مع وجود هذه الأثقال لا يدري كيف يحيي ولا كيف يموت.

وقد قلت:

لولا العيالُ الذى خُلقتْ ما لهم ... حامٍ يذودُهم في الوِرْد والصدرِ

لكنتُ أشطحُ في الأكوان مُنفردًا ... ولم تقعْ غيرة عيني على أثري

وقد وقعت الحسرة والحيرة في الحيرة، وقد تحار الحيرة في نفسها وليس إلا الالتجاء إلى الله تعالى، والتفويض إليه، والتوكُّل في جميع الأحوال، والاعتماد عليه هو المفرج للكرب، والموصل للطلب، والمبلغ منه الإرب، وقد قلت:

يا من إليه شكوتُ الضرَّ والألَما ... ومن بحالي قبلَ الحال قد علِما

قد كنتُ قبلَ وجودِ الكونِ في عَدمٍ ... ولا وجودَ لمن صيَّرتَه عدمَا

وأنت تفعلُ ما تختارُ فيه ومَا ... لفعلِه أثرٌ كلاًّ وليس ومَا

فإن تردِهُ بخيرٍ فهو فاعلُه ... وإن تُردْ ضدَّه بالعكسِ قد فهِمَا

وقد تحيَّرتُ في قولي وفي عَملي ... فيمَا تريدُ ولا أدري لا يتمّا

أفي هداهُ ضلالٍ ليس يدركُه ... أم في الضلالِ هدًى أم في الجميع عَمى

والأمرُ منك حقيقٌ ليس يدفعُه ... عن الأنام سِوى من عقله سقمَا

وليسَ إلاكَ أرجوه وأسألُه ... يا مَن رجاه لكل المذنبين حمَا

أهْل الدنُّيا

(١) رواه ابن حبان (٥١/١٠).

وأعرف فقيرًا رأى في منامه كأن المكان الذي يسلك فيه كله حيّات مختلفات الألوان وهو يمشي بينهم على أطراف الأصابع وقائل يقول له: إن أردت السلامة فلا تخرج من بيتك إلا بعد المغرب.

ثم رأى بعد ذلك وحوشًا كالسباع والتماسيح وغيرها، وهو بينهم..

ثم رأى بعد ذلك أشخاصًا من الآدميين -ربما كان يألفهم ويألفوه- فحدث بعد ذلك من تلك الأشخاص له من الأذى كثير جدًّا.

وأعرف فقيرًا كان له صديقٌ آخاه ممن يعرف فيه الصلاح والدين والظهور بذلك، وهو ببلاد والآخر ببلاد، لا يجتمعان إلا بعد سفر بعيد، فربما وافق جماعة عليه - وقد يكون حسبهم على نفسه- فحصل بينهما ما حصل من الوحشة فكتب:

أأعتبُ أم لا يُفيدُ عتابيَا ... أخاكَ أم ترك الإخاء التصَافِيَا

دخرتُك سهمًا للعدوِّ فصرْتَ لي ... عدوًّا وسَهمًا يأتني من عداتيا

فليتُك لا كُنتَ العَدوَّ ولم تكن ... صَديقًا فتبقى لا عليَّ ولا لَيَا

فلا زادَ ذَاك البعدُ إلا تقاصِيا ... ولا زَادت الأيامُ إلا تماديَا

وأعرف شخصًا أحسن إلى شخص حتى بلغ فيه حد الجهد، وعادى عليه جمعًا كثيرًا، وعرَّض نفسه للأذى بسببه، فلم يكن إلا أن وجد نفسه أنه عاد له قوة أو عصبة، فعمل على إيصال ذلك الذي أحسن إليه من كل الأذى الذي وصل الجهد إليه، ورمى بينه وبين الناس من المعاداة وغيرها، ما بقي سنينًا.

ولقد أعرف ممن أحسن إليه، فأساء جماعة حتى لا أكاد أحصي منهم إلا المتعينين، وممن له منصب ديني، وهم كثير، فالله المستعان.

فليحذر الطالب لآخرته، والسالك طريق سعادته، والقاصد وجه ربه ﷻ من مخالطة الناس، كيف قدر بحد الجهد والاستطاعة ففي العزلة السلامة، والسلامة خير من المخاطرة في طلب الفائدة، لا سيما مع تحقق الفتنة.

وحدَّثني القاضي تاج الدين بن السكري أنه كان له صاحب، وكان يأتي إليه ويبات عنده الليلة والليلتين في المدرسة التي هم بها، فلما حصل له تمييز اجتمع به القاضي تاج

الدين فقال له أنت تسكن أين؟ قال: فقلت بمصر، فقال: في أين؟ فقلت في المدرسة فقال: ومدرستكم أين؟ فوصفت له الجهة إلى أن ذكر مواضع التعدية إلى الجزيرة.

فانظر إلى هذه الحكاية ما أغربها، كأنه لم يعرف المكان ولا بات فيه، فلذلك حذرنا من صحبة الناس مطلقًا إلا من تحققت ولايته ودينه، ومروءته وفتوته، وعلمه وعمله، فالفائدة بالاجتماع بمثله ظاهرة وحتى يوجد على هذه الأوصاف، وإن وجد فهو ينفر لمعرفته بالناس إلا أن يكون إمامًا موصلاً إلى الله تعالى كاملاً، فإنه يتحمل الأثقال.

وأعرف جماعة أرباب مناصب دينية، وظهورهم بذلك مشهور بحيث يُقتدى بهم، كان لهم صاحب معتقد فيهم الأخوة والصحبة للآخرة والإعانة في الدنيا والآخرة، حضر لهم شخص جاهل استمالهم بشيء وقصد أذى صاحبهم، فرجعوا عن صاحبهم وآذوه كل الأذى، حتى لم يبقوا مما يقدروا عليه شيئًا حتى وصلوا في أمره إلى أرباب الأمور.

والدنيا عجيبة وعجيب ما فيها، فلا يثق بها وبأهلها إلا غبيّ، جاهل أو محجوب القلب، غافل عن الله تعالى، ولقد أحسن الشافعي -رحمه الله تعالى- في قوله:

خبرتُ بَني الدنيا فلم أرضِهم ... سِوى غادر والغدرُ حشوُ ثيابِه

فجُرتُ من غِمدِ القَناعةِ صارمًا ... قَطعتُ ردائي منهم بذبابِه

فلا ذا يراني واقفًا في طريقِه ... ولا ذا يَراني قائمًا عند بابِه

فكيف قدرت على التخلص من شباك الناس فهو من الغنيمة وقد قلت:

خَانَ الصَّديقَ وخانَ الناسَ كلَّهم ... إلا البَرور فلا أدري بمن أثِقُ

وإذا قدَّر الله تعالى الاجتماع بالناس لواجب حق أو لضرورة خلق، أو إحياء نفس، فلا تعطهم من نفسك في الصحبة والاجتماع إلا بقدر الضرورة، مع الاحتراز من نفسك من فضول الأقوال والأفعال، ومنهم من يباع فلا فائدة فيه، والموافقة على ما لا فائدة فيه، فإن عدم الفائدة وصف الخسران، والاستقامة عزيزة لو وجدت، والسلامة غنيمة لولا أنها فقدت.

وكن ذليلاً للمؤمنين؛ فإن الذل لأجل الله تعالى ذلّة لله، والذل لله عز من الله في الدارين.

وعزيزًا على الكافرين، فإن العزّة عليهم نصرة للدين، وقيام لمنار المسلمين، وكن في الله مجاهدًا، غير خائف لومة لائم، فأنت إن فعلت من الموصوفين بقوله تعالى: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾[المائدة:٥٤] هذا فضل من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون:٨].

وكن طلق الوجه، وافشِ السلام مسارعًا للإكرام، غير جبان في الإقدام، ولا شجاعًا في أكل الحرام، معطٍ كل ذي حق حقه، وحق الله المبدئ على الحقوق، وإن كانت الحقوق كلها لله؛ لأنه الآمر بها.

ولتحفظ حواسك الظاهرة، وجوارحك الباطنة كلها، وخطراتك الباطنة من الجوانح بجملتها من مخالفة ذرة مما ورد به الشرع الشريف فإنه حد العبودية، وحقيقة الحرية، وهو صراط الله المستقيم الذي من سلك عليه في الدنيا جاز الصراط في الآخرة، وهو الدين الذي دان الله به عباده، وأقام به بلاده، وخلقهم لعبادته ليعرفوه ويعبدوه.

عُلماَء الرُّسُوم

وإياك والنظر إلى غيرك من علماء الرسوم الذين جعلوه صناعة للمعلوم، وسلّمًا يرتقون به إلى الرئاسات الدنيوية، والشهوات النفسانية، ومنعوا من العلم بظاهره، ولم يتحققوه بالعمل في حقائقه، والكشف عن حقائقه(١).

وليس الخبر كالعيان، ولا ذائق حلاوة العسل كمن سمع عنه بالآذان، وليس من سمع بوجود بغداد كمن رأى بغداد، ولا من رأى بغداد كمن دخل بغداد، ولا من دخل بغداد كمن سكن بغداد، ولا من سكن بغداد، كمن ولد ببغداد، ونشأ بها، وعرف جميع أحولها وأسماء أهلها، ومعائشها وملابسها وأسبابها، وعساكرها وجيوشها وملوكها

(١) قد كان من أحوال أهل الرسوم في هذه الأعصار: أن مَن لم يعرف منهم الأحكام والشرائع؛ يطعن في المعارف والحقائق، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولا يُذلُّ إلا مَن عادى الله ورسوله، والورثة من أمته.

قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة:٣٢]: أي كفَّار الحقائق، نسأل الله أن يرحمنا بالاعتقاد الصحيح والثبات عليه.

وجندها واصطلاح أهلها وألوانها وألسنتها، وإن كل العلوم وضعت ليعرف الله تعالى بها، فلا تكن من الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وليكن حدّك التقاضي والاحتمال في جميع الأحوال، والمجازات على الحسنات بأكثر منها في جميع الحالات، ولتفهم معنى قوله تعالى:

﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النساء: ٨٦].

ولا تجازِ على السيئات بمثلها، فإن السيئة تسوء صاحبها، ومتى استقبحت من غيرك شيئًا فلا تفعله تكن مثله، ولا يفهم من قوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠] أن ذلك أمر لك بالمجازاة؛ لأن صفات العدل تقتضي ذلك، والسيئة في نفسها عائدة على فاعلها، فذكر الوصف من حيث هو هو، فإنه مثلك قبل أن أساء إليك، وأنت مثله إذا قابلته.

فإن عفوت وأصلحت عاد أجرك على الله تعالى؛ لأن العفو من صفات الله فجعل مجازاتك عليه.

وأين المناسبة بين ما يعطيك الله تعالى من الأجر والجزاء وبين ما تقابل المسيء بالسيئة؟ وأين ذمة العبد المسكين المسيء من ذمة الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء؟ وترك المجازاة والمقابلة بالإساءات لا تسقط الحقوق والحسنات، بل هي تزيد من الحسنات، وترفع عند الله الدرجات، ويكون العطاء من المعطي بحسب ما يعطيه لا بحسب ما تتركه أنت لخصمك، فافهم ذلك.

وأعرف فقيرًا كتب له جماعة كتابًا فيه من القبائح المؤلمات ما تفر منه الطباع، ولا تحمله البشرية لما جبلت عليه من الألم والأوجاع، وطلب منه الجواب من أرسل إليه الكتاب، فقال:

جَــوابُهُم تــركُ الجــوابِ لأنّــه ... يُقابــلُ فحشًــا أو يعــودُ ملامَــا

وإني وإن قلــتُ الــذي أنَـا قائـلٌ ... كمَـا قـال ربي أن أقـولَ سـلامَا

ولما أكثر عليه القول في ذلك، وتكلم من تكلم، وقصد من قصد، أن تجاوب أولئك القوم، لأنه كان من غير موجب ولا سبب إلا ظلمًا وعدوانًا وتحاملاً وتألم لذلك جماعة من أهل العلم والدين، وذكروا أمورًا فقال:

ولمـا أتتـني مـن أنـاسٍ سَـفاهةً ولم يَرقُبـوا فيمـا أتَـوه مآبَـا
فنـزَّهتُ لفظي عـن مقالـةِ مثلِـهِ وقلـتُ أرَى تـركَ الجـوابَ جوابَـا

وعلى الجملة: فكل من اعتدى عليك أو [تجرأ] عليك في الإساءة فقد أهدى إليك حسناته، وزاد في الهدية بقدر ما أربا في الإساءة، فمتى اعتبرت ذلك وخلصت النفس من حظها وطلبها لعاجل حقها لزم أن تحسن لمن أساء إليك؛ فإنه وإن كان أساء إساءة ظاهرة فقد أحسن باطنًا، وإن كان أظهر بالإساءة التعالي عليك، والربح في دنياه فقد ظهرت الخسارة والذل عليه في أخراه، وحصل لك بالإحسان إليه مع إساءته إليك الإخلاص لله في الشكر على نعمه الباطنة.

حكي عن الشيخ ابن الخطاب أنه رأى الله تعالى في المنام قال: «فقال لي: يا ابن الخطاب تَمَنَّ، فسكت، قال لي: يا ابن الخطاب تَمَن، فسكت، ربما قال الثالثة فقال لي: يا ابن الخطاب، أعرض عليك ملكي وملكوتي، وأقول لك تمنَّ وأنت في ذلك تسكت؟ فقلت يا رب، إن تكلمت فبك، وإن نطقت فبما تجري به على لساني، فما الذي أقول؟ فقال لي: يا ابن الخطاب، قل أنت بلسانك، فقلت: يا رب، إنك شرّفت أنبياءك بكتب أنزلتها عليهم، فشرِّفني بكلام لا واسطة بيني وبينك فيه، فقال لي: يا ابن الخطاب، من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكرًا، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدَّل نعمة الله كفرًا، فقلت: يا رب، زدني، فقال: حسبك حسبك».

وابن الخطاب هذا أحد أشياخ ابن العربي، وكذلك جرى لأحد أشياخه لما شهد عليه بالكفر، فقال السلطان: لا تسمع الشهادة إلا بحضرة الشيخ، قال الشيخ: فطلبت ولم يكن معي شيء أتصدَّق به، فاقترضت نصف رغيف -ربما قال من بيّاع- فتصدَّقت به.

فلما حضرت عند السلطان قال الوالي للشهود: قولوا ما قلتموه في غيبته، فأطرق الجميع ورفعوا رءوسهم وقالوا: ما نعلم إلا خيرًا، فقال لهم الوالي: ما هكذا قلتم، وجعل يظهر الإنكار عليهم، والتعجب من مقالتهم، وأنا أضحك، فقلت له: لا تعجب من ذلك، هم باقون على ما في قلوبهم، وأنت باقٍ على ما في نفسك، وإنما

ورد في الحديث: «**إن الصدقة تطفئ غضب الرب**[١]» فتصدَّقت بنصف رغيف، وغضبكم أقل من غضب الله تعالى فدفِعت الأقل بالأكثر.

الصِّدق والصَّدقة

فانظر رحمك الله إلى صدق المتعاملين مع الله تعالى والإخلاص وتحقيق التصديق لما أتى به رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ، فلذلك ظهرت ثمرته في وقتها؛ لأن الأعمال كلها لها ثمرات، ولها حقائق وأنوار، لا يحجبها عن وقتها إلا الشوائب الداخلة في العمل، وقلة الإخلاص أو عدمه، فهذه هي القواطع لطريق العاملين.

وإذ قد عرفت تحقيق الإخلاص في الصدقة، وتحقيق تصديق الرسول فيما أتى به عن ربه ﷻ، وسرعة ظهور ثمرته، فاعلم أن الصدقة سارية في الأقوال والأعمال كلها، والكلمة الطيبة صدقة، وترك المؤاخذة، صدقة والتصدق بعرضك من أعظم الصدقات.

وقد كان أبو ضمضم يصبح فيتصدق بعرضه على المسلمين، وقد ورد: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم**[٢]» أو كما ورد.

والمال والعرض والنفس في سياق واحد في الذكر لقوله تعالى ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإن ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [آل عمران:١٨٦].

الشيخ الأكبر هو الخاتم الثاني الأطهر

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-عن خادم الشيخ محيي الدين بن العربي قال: كان الشيخ يمشي والخادم خلفه، وشخص يسب ابن العربي، وربما قال: يلعنه وهو ساكت لا يتكلم، ولا يرد عليه، قال: فقلت له: يا سيدي، ما تنظر إلى هذا وما يبدو منه في حقّك؟ فقال: ولمن يقول؟ قال: يقول لك، قال: ومن أنا؟ قال: أنت فلان بن فلان، وهذا فلان بن فلان، وهو يسبّك ويلعنك

(وسمى كل واحد باسمه واسم أبيه) فقال: ما يسبني أنا شيء فقلت له: كيف؟

---

(١) رواه الترمذي (٣/٥٠)، والحاكم (٣/٦٥٧)، والقضاعي في الشهاب (٦٨)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/٢١٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/٢٧٢).

قال: هذا تصوّرت له صفات ذميمة، فهو يسب تلك الصفات، وما أنا موصوف بها.

ولعله أخذ هذا من قول النبي ﷺ: «**ألا ترون ما دفع الله عني بسبب قريش؟ يذمون مذمّمًا وأنا محمد**[1]» والمعنى صحيح، لأنهم يسبون صفات مذمومة في مذمّم، ورسول الله ﷺ صفاته محمودة في محمد، متصف بها ﷺ.

ولقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-عن ابن العربي حكايات من هذا الجنس وغيره، مع ما يتكلم الناس فيه، ونسبوه إلى الكفر بألفاظ وجدوها في الكتب ما تأولوه في كتبه أم لا.. ونحن نبرأ إلى الله تعالى مما يخالف شريعته وما أتى به ﷺ، والأنبياء من قبله -عليهم السلام- وكذلك تكلم في ابن سبعين قدس سره.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أن شخصًا كان بدمشق أقرض على نفسه أن يلعن ابن العربي كل يوم عقيب كل صلاة عشر مرات.

فاتفق أن ذلك اللاعن لابن العربي مات، وصعد ابن العربي مع الناس في دفنه بعد الصلاة، فلما دُفن وجلس الشيخ عند أحد محبيه في بيته، وتوجَّه إلى القبلة، فلما جاء وقت الغداء، أحضر صاحب الدار الغداء فلم يلتفت الشيخ ولم يأكل، وبقي على توجهه.

فحصل لصاحب البيت ألم شديد بسبب ذلك، وربما خطر له أن الشيخ متشوش عليه، ورأى في طعامه ما يمنعه عن أكله.

ولم يزل على تلك الحال إلى بعد صلاة العشاء الآخرة، يصلي الصلوات ويتوجه، فلما كان بعد العشاء الآخرة التفت إلى الجماعة وهو مسرور وطلب الطعام، فقال له صاحب الدار: يا سيدي، حصل لي من الألم ما هو كذا وكذا، فقال: لم يكن عندي شيء من ذلك، وإنما التزمت مع الله تعالى ألا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي كان يلعنني، فبقيت كذلك، وعملت له سبعين ألف لا إله إلا الله، وقد رأيته وقد غفر له.

فانظر إلى هذا الإحسان لمن أساء إليه، والتبرؤ من الغيظ النفساني، وعدم

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٩/٣)، وابن حبان (٣١/١٤).

المؤاخذة، والعفو والصفح الذي يعود أجره فيه على الله تعالى.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-عنه حكايات تدل على عظم شأنه وكشفه واطلاعه، وحكى لي الشيخ الإمام محب الدين الطبري شيخ الحرم بمكة شرفها الله تعالى عن والدته -وكانت من الصالحات- أنها ربما أنكرت على ابن العربي كلامًا قاله في معين الكعبة لم أذكر منه إلا قوله: يا كعبة الله ويا زمزمه، فربما استعظمت ذلك منه قال: فرأيت الكعبة تطوف بابن العربي، ربما قال في المنام.

ولقد كان وقع بين الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام -قدس الله تعالى روحه- وبين الشيخ محيي الدين بن العربي، أخبر الشيخ عبد العزيز ذلك لأن الشيخ عز الدين منكر بظاهر الحكم.

وحُكي عن خادم الشيخ عز الدين -قدس الله روحه- أنه دخل مع الشيخ إلى الجامع بدمشق، فقال الخادم للشيخ عز الدين: أنت وعدتني أنك تريني القطب، فقال له: ذلك القطب. وأشار إلى ابن العربي وهو جالس والحلقة عليه، فقال له: يا سيدي، فأنت تقول فيه ما تقول، فقال: هو القطب، فكرر عليه القول وهو يقول له ذلك.

فإن يكن القطب فلا معارضة في قول الشيخ عز الدين لأنه إنما يحكم عليه بما يبدو من أمور الظاهر وحفظ سياج الشرع، والسرائر أمرها إلى الله تعالى يفعل فيها ما يشاء، فقد يكون يطلع على محله ورتبته فلا ينكرها وإذا بدا في الظاهر شيء مما لا يعهده الناس في الظاهر أنكره حفظًا لقلوب الضعفاء ووقوفًا مع ظاهر الشرع وما كلف به، فيعطي هذا المقام حقّه وها حقه والله أعلم أى ذلك كان.

والوقوف مع حسن الظن وما تعبدنا الله تعالى من اتباع الشرع وحسن التأويل أولى بنا، ولا نرجع في ذلك إلى الأتباع إذا بدا منهم ما يخالف الحق أن ينسب ذلك إلى الأشياخ، فإن أكثر الجهال إذا صدر من الأتباع شيء من النقائص أو الكفر نسبوا ذلك لأشياخهم، فليس هذا من العدل ولا الشرع قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [الأنعام:١٦٤]، فإن من أتباع هذا من حصل منه ذلك.

وحدَّثني الشيخ سراج الدين بن دقيق العيد -قدس الله تعالى روحه- وكان من

العلماء الكبار- قال: إن العفيف التلمساني- ويُعرف أيضًا بالكوفي[١]- تحدث معي ووضع يده على هذه الإسطوانة وقال: دلَّ الدليل على أن هذه الإسطوانة هي الله، فقلت: أخطأ في العبارة، وكفَر بالتعيين، وهذا الكلام كفر صريح؛ إذ يجعلون الحادث هو عين الحق القديم الخالق، بل هذا في ضعف العقل، بل في عدمه، بل أنزل من رتب المجانين، فإنَّا لا نرى المجانين وإن كانوا عقولهم مستورة يتكلَّمون في شيء من ذلك؛ لأن العقول قبل تسترها ارتسم فيها صور المعتقدات، فما يأتي بما يخالف نفس المعتقدات الصحيحة إلا ما كان فيه قبل ذلك تخيل أو تأويل في نوع من أنواع المعتقدات الفاسدات، ونعوذ بالله من ذلك، وأما من قال بهذا القول فهو أكفر من جميع الكفار، إذ يجعل عين الموجودات عين الحق، وهذا الكلام قد تكلم به عليهم من هذا الوجه.

وحكى لي الشيخ شمس الدين بن الجزري[٢] عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني[٣]، عن العفيف التلمساني، بمثل هذا القول الذي قاله الشيخ سراج الدين

(١) هو القطب المحقق: سليمان بن علي بن عبد الله ياسين العفيف التلمساني. الذكي الحاذق، المنطقي الخارق، تلميذ القونوي، صاحب شرح الأسماء الحسنى، وشرح منازل السائرين، وشرح مواقف النفري، وشرح الفصوص، وصاحب كتاب الخلوة، وعمل فيه أربعين خلوة، كل خلوة أربعين يومًا.مات سنة خمس وسبعين وستمائة. وانظر: الكواكب (٥١٢).

(٢) الصاحب شمس الدين ابن الجرزي محمد بن سعيد بن ندى الصاحب الوزير شمس الدين الجزري والد محيي الدين محمد المقدم ذكره نشأ نشأة طاهرة واجتهد في تحصيل العلوم فأحظاه ذلك، بأن كان من أئمة عصره المشار إليهم يعتمد في المذاهب الشرعية على نهيه وأمره وفوض إليه السلطان معز الدين سنجر شاه ملك الجزيرة العمرية النظر في أمور دولته وسلم إليه أعنة مملكته فقام باعبايها ولم يشذ عن ضبطه شيء من أمورها واشتهر بسداد الرأي وصار له في الديوان العزيز وعند الملوك قبول تام وكان يتوالى الدولة الأيوبية، توفي ثالث عشر جمادى الآخرة سنة عشر وستمائة، انظر: الوافي في الوفيات للصفدي (٣٤١/١).

(٣) هو محمد بن محمود بن محمد بن عباد الكافي العلامة شمس الدين أبو عبد الله الأصبهاني الأصولي قدم الشام بعد الخمسين وستمائة، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله، وانتهت إليه الرياسة في معرفة الأصول في الفقه وشرح المحصول للإمام فخر الدين شرحاً كبيراً حافلاً، وصنف كتاب القواعد مشتملاً على أصول الدين وأصول الفقه والمنطق والخلاف وهو أحسن تصانيفه، وله غاية الطلب في المنطق وله معرفة جيدة بالعربية والأدب والشعر لكنه قليل البضاعة في الفقه والسنة وولي قضاء منبج =

عن الذي ذكره الشيخ شمس الدين أنه قال عن إبريق أنه الله! وكان الشيخ شمس الدين الأصفهاني ذلك الوقت قاضٍ بقوص، وأراد أن يوقع به الفعل فأسلم، وكشف رأسه.

والعفيف هذا منسوب، لأنه تلميذ لابن العربي، ولم نذكر حكاية العفيف إلا للتحرير من كلامه، فإنه له كلام وشعر رقيق، فليحذر المطالع لكلامه من هذه الفتنة، والكفر التي لم يقل بها قائل من جميع الطوائف.

وإن كانت الحقيقة أن الله تعالى وجب الوجود لذاته، لم يكن معه غيره، وما كان معه سواه، فكل موجود فيه وجد وهو حادث أحدثه من غير شيء فكيف عمّن من وجد بذاته عينه وهويته، أو يقال عن المخلوق أنه عين الخالق! وعن الحادث أنه عين القديم! وعمّا تصنعه بيدك أنه إلهك! وعمّا تدخله في جوفك أو يخرج من جوفك أنه هو الإله! تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

لكن ما يلزم من كفر هذا أن يكفر شيخه.

وكذلك الشيخ قطب **الدين بن سبعين** تكلموا فيه، وذكروا عن بعض أصحابه أو أصحاب أصحابه شيئًا من الكفر، ومن هذا المعتقد فلا يلزمنا أن نعتقد في الشيخ ما لا نسمعه منه، ولا نشهد به عليه، ولا ما يقوله من ينتمي إليه، وليس لنا غرض إلا في تبعته الحق، وقول الصدق، ولا يجوز أن يترك ما تقول الناس عنه من الخير، ويقال ما يقولوه من الشر، ونحن إلى حسن الظن أميل، لأن الله تعالى حرم من المسلم ماله ودمه، وأن يُظن فيه ظن السوء.

كشف واطِّلاع

وقد ذكرنا ما اتفق للتاج الكاتب مع الشيخ قطب الدين بن سبعين بمكة شرفها الله تعالى، وكونه قال له: اكتب كاتب الصاحب أنت، قال: فكتب كذلك، وسافرت

=

في أيام الناصر ثم دخل مصر وولي قضاء قوص ثم قضاء الكرك، ورجع إلى مصر، وولي تدريس الصاحبية، وأعاد وأفاد، وولي تدريس مشهد الحسين وتدريس الشافعي، وتخرج به خلق ورحل إليه الطلبة وكتب عنه الحديث علم الدين البرزالي وغيره مولده بأصبهان سنة ست عشرة وتوفي بالقاهرة سنة ثمان وثمانين وستمائة، انظر: الوافي (١/٥٩٥).

من مكة، فحين وصلت إلى مصر سير إلى الصاحب، واستكتبني في الوقت، والكاتب موثوق به، وهذا كشفٌ صريح.

وكذلك ما حُكي عن ابن العربي أن شخصًا طلع له وهو بمفرقة بدمشق، وذكر أن الشيخ عز الدين كان حاضرًا، فقال له ذلك الشخص: إني أقصد الجهة الفلانية، فقال: يأخذ العرب، فقال: لا بُدَّ لي من السفر، فنزل، وإذا الشيخ يقول: هذا البدوي خرج عليه وأخذوا ثيابه، وها هو قد رجع، وجعل يقول: ها هو إلى أن قال: فلان؟ قال: نعم فطلع لنا عريانًا ونحن جلوس بمكاننا.

واشتبه عليَّ الحال: هل هو القاضي جلال الدين بن السكري عن قاضي القضاة وجيه الدين البهنسي، أم هو الشيخ عبد العزيز؟ وكلاهما إذا حكيا سواء، والله تعالى أعلم بهذه الأحوال، ونسأله السلامة والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، فإن البلايا والمحن غير مأمونة في طول الحياة، ومدة العمر لكل أحدٍ، وما ندري ما يئول إليه الحال.

وليس كلامي كشفُ واطلاعُ وإحاطة بالمعلومات كلها، فإن من أعطاه الله تعالى القطبية أو الغوثية فليس له إلا علم ما علَّمه الله تعالى، ولله تعالى في كل خلقه علم خاص، لا سبيل لغيره أن يصل إلى ذلك العلم البتة؛ لأن الوصول إليه مستحيل، لمشاركته لله في علمه، وذلك مستحيل من جميع الوجوه، بل يخفى على بعض المكاشفين في بعض الأوقات ما لا يخفى على غيرهم ممن لا كُشف له، لا سيما أحوال العادة، وما لا له تعلق بأحوالهم الدينية.

ولقد حكى الشيخ عبد العزيز عن الشيخ شعبان وكان يجلس بجامع مصر مع كشفه واطِّلاعه، أن بعض المسافرين جاء له بزبديّة ملوخية وقال: يا سيدي، أشتهي أن تأكل معنا ونؤاكلك، فأكل الشيخ معهم، وكانوا قد جعلوا له منها شيئًا من المسْكِر - وهو الحشيش الذي يذكره الناس بالسكر - فسكر الشيخ وجعل يقول: ما لي؟ إيش بي؟

هذا مع ما حكاه من تصريفه، مع الغيب في حديث المرأة التي جاءت إليه تشكو بعلها من عدم إنفاقه عليها وعلى أولاده منها، وأنها تغزل وتقوم بنفسها

وبأولادها، وأنه جاء وسرق غزلها، فكلمه الشيخ في ذلك فاعترف، وقال: والله ما أنا أقوم بها ولا بأولادها، وسرقت غزلها.

قال: وكان خادم الشيخ قد قال للشيخ: اخلع ثيابك حتى أفليهم لك في الشمس، ولم يكن قصده إلا أن يبصر جيبه الذي يخرج منه الدراهم للناس، قال أسد خادمه: فخلعت ثوب الشيخ وفليته وأبصرت جيبه ولم يكن فيه شيء، فلما جاءت المرأة وزوجها على تلك الحال أخرج الشيخ من جيبه دينارين، أعطاهما للمرأة، وقال لها: أنفقوا الواحد عليكم، والآخر اشتري به كتانًا، ثم التفتَ إليه وقال: يا سيد، جيوب الفقراء ما فيها إلا الذهب.

الكشْــف من اللّـــــه

وربما حكينا هذه الحكاية في غير هذا الموضع، فلا نظن أن عدم اطلاعهم على جميع الأحوال نقصًا فيهم، بل أحوال العادة التي الناس فيها ليس هي من شأنهم، وإنما شأنهم حفظ قلوبهم وسرائرهم مع الله تعالى في الباطن، وحفظ جوارحهم مع ما أمر الله تعالى به في الظاهر، هذا شأن الكمل، بل لا يلزم الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه العلم بكل أحوال الناس مع جلالهم وعلو شأنهم، وكرامتهم على الله تعالى، وكونهم حجة الله تعالى على الناس، إلا البلاغ بما أمروا به، والتحدي بالمعجزات الدالة على صدقهم، صلوات الله تعالى عليهم وسلامه، بل ليس لأحدٍ من خلق الله تعالى علم بما لا علَّمه الله تعالى من الجن والإنس والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين، قال الله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل:٦٥].

طــرائق الكشــف

فإذا أراد الله تعالى أن يعلم أحدًا من خلقه ممن اختصَّه لذلك من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين من علوم المكاشفات، والإخبارات بالمغيبات، كالأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه، بالوحي، أو الإلقاء، أو التنزل على قلوبهم، أو بالجملة مما يشاء من الأوامر بالإرادة، أو الإرادة بالأوامر، ووصل إليه العلم بما أراده من ذلك، أو بغير ذلك.

وتشترك في ذلك كل حواسهم الظاهرة والباطنة، وينوب بعضها عن بعضٍ في

ذوقية العلم به، ويقوم به وجداهم لذلك، فيظهر أثره في الحال على محلهم بما هم سبيله في إظهار المعجزة، وكشف الحقائق والإخبارات بما وراء العقول.

فيدعون إلى الله على البصيرة، ويخاطبون الناس بما يطيقونه من ذلك؛ لأنهم يشهدون ما يطيق الخاصة والعامة، وما يسعوه من ذلك التكليف.

ويأخذ كل وليٍّ نصيبه من ذلك بحسب ميراثه من نبيِّه وحصته من قسمته، إما بالنفث في الرّوع، أو بالكدح في البصيرة، أو القذف في القلب، فيتحصل له العلم، إما بالشهود أو الذوق أو الوجدان.

ويشترك في ذلك أيضًا الحواس، وينوب بعضها عن بعض، ويحرق سماع القلب فينوب عنه حاسية الأذن، وتكون العين مشاهدة لما تستمعه الأذن؛ إذ عين القلب تتبعها عين الحس، وتكون الأذن سامعة لما تشهده العين، وكذلك جميع الحواس.

فتكون الحواس والجوارح الظاهرة مانعة للمعاني والجوارح الباطنة، فإذا امتلأت البصيرة بالنور تعد أنورها نور البصيرة، فيكون البصر تابعًا للبصيرة.

رؤيـــة اللّـــه

ومن هنا يقول من يقول بالرؤية، وجوازها مع الاختلاف في ذلك بين أهل الظاهر، ودليل من قال بالجواز قول موسى عليه السلام: ﴿**أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ والنبي المعصوم لا يسأل المستحيل، وقوله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف:١٤٣] يحتمل التأويل في المنع عن الإدراك في الإحاطة والوقت نفسه، وغير ذلك من المحتملات، ولا يكون ذلك منعًا في جميع الأحوال، ولا في كل الأوقات.

الرؤيـــة والرؤيـــا

وإذا جوزنا الرؤية في المنام لغير الأنبياء عليهم السلام، فلا فرق فيما يأتي به الأنبياء في اليقظة والمنام، وقد كان بعض الأنبياء يوحى إليهم في المنام، وقصة إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده بنص القرآن الكريم، ولأن الشواغل التي تحجب غيرهم عن الكشوف لاشتغال الحواس بالعوائد، وارتكاب ما حظره الشرع عليها، فإذا سكنت الحواس بالنوم ارتفع حجاب الشواغل، وانكشف الغطاء عن الرؤية، فحينئذٍ يجوز رؤية

الله تعالى في المنام، وينظر وينظر ما كان بعيدًا قريبًا من البلاد البعيدة، وغيرها التي لا ينالها في طول الحياة بالسعي بالحس؛ لأن البُعْد والقُرب من صفات الأجسام، فإذا ارتفع عن العبد حجاب الهوى وحظ النفس، وارتفع الحدث الأكبر والأصغر، وطهرت نفسه طهارة كاملة، رأت كل ما يراه النائم في اليقظة، وهذا في حق غير الأنبياء، فكيف بالأنبياء -عليهم السلام؟- وقد قيل:

وقيّـدتُ نفسـي عـن طـلابِ مَرامـي غضـبتُ هـواي في زَمـان غرامـي

فسـيّان عِنـدي يقظـتي ومنـامي فصَارَ تعيين في الحقيقةِ شاهدي

هل رأي النبي ربه بعيني رأسه؟

والذي منع الرؤية استدل بقول عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدًا رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم على الله الفرية بعد قوله تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام:١٠٣].

والحديث الوارد: «**لو رُفع حجاب العزة لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**[١]».

وحديث ابن عباس في جواز الرؤية، وأن رسول الله ﷺ رأى ربَّه ﷻ، وكل الأقوال تحتمل التأويل، وهي غير متناقضة.

فالقائل بجواز الرؤية من غير إحاطة ولا تحييز ولا جهة ولا تمييز ولا إدراك ولا معقول ولا بما يعلم بالمعقول لكن بالاصطفاء والتخليص والمحبة والتخصيص، وقذف النور من الله تعالى في بصيرته، وتجلي الربوبية في سريرته، وذلك عند محو صفات العبد بتجلي صفات الرب، فيراه به ويشهده بقلبه، كما ورد: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**[٢]» فما شهد ربه إلا بربه، ولا عرفه إلا بتعرفه، كما ورد: «**فتعرفت لهم فبي عرفوني**[٣]» والعبد هنا كالآلة؛ لورود ما يرد عليه من تحريكه

---

(١) رواه مسلم (١/١٦١).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وابن حبان (٢/٥٨).

(٣) الأصل في ذلك حديث: «**كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أُعرَف فخلقت خلقًا فتعرَّفت**
=

=

إليهم فبي عرفوني» ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٧٣).

فائدة عظيمة: فإن الذات الأقدس منطوٍ فيه نفائس جواهر الاسماء الذاتية التي هي عين ذاته الأقدس، وكونه مطلسمًا: أي لا يطَّلع عليه أحدٌ إلا هو تعالى، فإن من عادة الكنوز أن يوضع عليها أسماء روحانيين تُسمَّى بالطلسم، حتى لا يطَّلع عليها أحدٌ، ولا يظهر منها شيءٌ، إلا لمن كانت هي له، والطلسم هو طل اسم.

قال الشيخ: هو مقلوب مسلط، ففي الكلام استعارة، حيث شبَّه ذاته الأقدس المنطوية على أسمائه الذاتية التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لغيبه بالكنز المطوي على النفائس التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لوضع الطلسم: أي الحروف المهمات عليه، المانعة من الاطِّلاع عليه.

فقوله: «فبي» من حيث حساب الجُمَّل اثنان وتسعون، وعدد حساب محمد كذلك.

فالمعنى من باب الإشارة فبمحمد ﷺ «عرفوني».

أو المراد: فبظهوري عرفوني، وهو ﷺ أول مظهر.

وأورد بعضهم: أن الخفاء من الأمور النسبية لابد فيه من مخفي، ومخفي عليه، لا يجوز أن يكون المخفي عليه هو الله تعالى؛ لأنه تعالى ظاهر بنفسه لنفسه عالم بذاته أزلاً وأبدًا.

ولا يجوز أن يكون هو الخلق؛ لأنهم لم يكونوا موجودين في الأزل حتى يكون الحق مخفيًّا عليهم.

وفي الحديث: «كان الله ولم يكن معه شيء».

والجواب بأن للأشياء وجودين وجودًا علميًا، ووجودًا خارجيًا.

فالوجود العلمي: الأعيان الثابتة وهي أزلية قديمة.

والوجود الخارجي: محدث، فخفاء الحق تعالى بالنسبة إلى الأعيان الثابتة في الأزل فلما أراد الله تعالى أن تعرفه الأعيان الثابتة أخرجها من الوجود العلمي إلى الوجود الخارجي لتعرف الله تعالى، يقتضي أن تعتبر الأعيان الثابتة مع الهوية الأحدية، وأن تساوقها، وليس كذلك بل الجواب الصحيح أن يقال: أن الخفاء كناية عن عدم عالم به سواه، فكأنه قال ﷺ:كنت كنزًا غير معلوم لأحدٍ سواي، على أن الأمور الذوقية، والأسرار الإلهية لا يلتفت فيها إلى مثل هذا الإيهام. وانظر: شرح الصلاة الأكبرية للقادري (ص١١٥) .

وقال الشيخ الكتاني: وقد كان سبحانه قبل أن يخلق هذا العالم في خفاء كنزيته وغيب هويته وبطونه الذاتي غير متعرف بقيد من القيود إلى من يحصل أو يأتي، فاقتضت حكمته الباهرة ومشيئته القاهرة أن يعرف المعرفة اللائقة بذاته، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته كما ورد في الحديث القدسي - قال في «الفتوحات»: الصحيح كشفًا، الغير الثابت نقلاً عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال ما هذا معناه - «كنت كنزًا مخفيًا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفون»،

=

وإسماعه وإنصاته وقيامه وقعوده، ليس له من حيث نفسه حركة ولا سكون ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا موت، فإن الجسد من غير رُوح فيه لا ينسب إليه فعل منه ولا عنه، كجسد آدم عليه السلام حين كان كالفخارة، فهل كان يسمع أو يفهم أو يبصر أو يعلم؟ أو يُنسب إليه جهل، أو علم، أو نفع، أو ضر؟ فلما نفخ فيه الروح قامت به الصفات، وهي من الله تعالى فافهم ذلك.

ولما كانت المعجزات والكرامات والخوارق للعادات، لا تأتي بالإكساب، ولا بشيء من الأعمال والأكساب، وهي من عالم الملكوت والعالم الأخروي، فكذلك حسن الاعتقاد والإيمان بالأنبياء والأولياء، وقد أخبر رسول الله ﷺ بعجائب الآخرة وأحوالها، وما فيها من النعيم والجحيم، وأخبر أنّ الناس يرون الله تعالى في الدار الآخرة،

=

انتهى.

وذكره في كتاب «الحجب المعنوية» أن الذات الهوية له بلفظ ورد في الكتب الإلهية قال الله تعالى كنت كنزًا مخفيًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني.

وفي كتاب «عقلة المستوفز» أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: يا رب لم خلقت الخلق؟ فقال له عز وجل: كنت كنزًا مخفيًا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني.

وذكره سيدي علي وفا في كتاب «مفاتيح الخزائن العلية»، وابن غانم المقدسي في كتابه: «حل الرموز» وجماعة بلفظ: «كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت وتعرفت إليهم فبي عرفوني».

وذكره أبو زيد الفاسي في «تحفة الأكابر» أوائل الكتاب نقلاً عن الشيخ محيي الدين البوني رضي الله عنه بلفظ: كنت كنزًا لا أعرف، فخلقت خلقًا فتعرفت إليهم فبي عرفوني.

قالوا: ومعنى قوله: خلقت خلقًا. قدرت أعيانًا تقديرية، فتعرفت إليهم بجلالي وجمالي، ودللتهم علي، فبي مني إليهم عرفوني، وكان هذا التعريف بلسان ترجمان القدم، وهو الحقيقة المحمدية التي هي أصل الكل.

وقال الجيلي في «كمالاته» هذا حديث صحيح من طريق الكشف، ضعيف من طريق الإسناد.

وقد أجمع المحققون يعني من أهل الله تعالى على صحته، وذكره غير واحد منهم في مصنفاته، انتهى.

وأما ابن تيمية من حفاظ الحديث فذكر أنه: ليس من كلام النبي ﷺ وأنه لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه بدر الدين الزركشي، والحافظ ابن حجر وغيرهما.

وقد وافقهم مؤلف «الإبريز» وقال: إنه لم يقله النبي ﷺ. ولعله أراد أنه لم يقله لفظًا، وإن كان له معنى، أو أنه من كلام الكتب الإلهية لا من كلامه عليه السلام راجعه وراجع «المقاصد الحسنة» للسخاوي رحمه الله. وانظر: جلاء القلوب، وقاب قوسين (ص٨٤) .

وما أخبره عن علم ويقين ورؤية وحق.

أهل السنّة والحقائق

ورؤية الله تعالى جائزة لغيره في الدنيا والآخرة من غير خلاف عند أهل السُّنة والحقائق، فقد دلَّ ذلك على رؤية رسول الله ﷺ لربِّه ﷻ لما قررناه من جواز رؤية غيره لربه في المنام في الدنيا، وجواز رؤيته له في الدار الآخرة.

ومنامه ﷺ ويقظته سواء، ورؤية الآخرة في الدنيا، والدنيا في الآخرة سواء؛ لأن حقائق الكشف الصحيح ترى كل دار من الدار الآخرة لا تحجب هذه، بوجود دخوله في غيرها، وأصحاب الكشف في المقام الرابع يعلمون أحوال الناس في الآخرة بعد مماتهم، كأشد ما كانوا يكشفونها في حال حياتهم، ومن كان كشفه في خارقه كان كشفه في داره الآخرة، تلك الدار أشد عمّا في الدار الآخرة أشد خرقا ووضوحًا لقوله تعالى: **﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].**

ومن كان في هذه الدار في لبس وعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولأن العبد يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه إلا من كان موقنًا بما في تلك الدار، ومؤمنًا بالغيب، قد رسخ الإيمان في قلبه، وشرح به صدره، وثلج به يقينه، فعندما ينكشف له الغطاء يجد كل ما أمر به، فلا يتحجب عنه كما ورد عن علي كرَّم الله تعالى وجهه **«لو كشف الغطاء لما ازددت يقينًا»**.

فإن كان يزداد وضوحًا فإن الشمس إذا ظهرت من وراء ستائر السحاب، وكان سحاب رقيق، ثم انقشع السحاب عن الشمس لم تزددْ يقينًا في أنها الشمس بانقشاع السحاب عنها، لكنّا ازددنا وضوحًا، ولذلك يحلى العروس بخمارٍ رقيق كالشعارى الرقيقة على الحاضرين، ثم كشفت ذلك الحجاب عنها لم يزدد الحاضرين يقينًا في كونها للعروس، لكن ازدادوا وضوحًا، وهذا بحسب درجات المكاشفين، وبحسب اطلاعهم ومقاماتهم، وكذلك بحسب قوة إيمان المؤمنين بالغيب، ودرجاتهم ومقاماتهم في ذلك، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أعلى الناس كشفًا واطلاعًا ووجدانًا وعرفانًا، فلذلك لا يمنع جواز الرؤية بالاختصاص الإلهي.

ونحـــــن الصوفية

ونحن نؤمن برؤية رسول الله ﷺ مع تحقيق التنزيه على ما يستحيل على الله تعالى من الكيفية والأينية، والتحييز بالإحاطة، والكمية والكلية والبعضية، وما يجب له من الكمال لذاته العلية من جميع الوجوه والأحوال، وما يجوز له في ذلك، ولن يقدر أحد من الخلائق يمنع على الله تعالى أن يتعرف إلى عباده بما شاء كيف يشاء، ولا يشهد كل مشاهد لربه إلا بحسب قوة كشفه، وما تعرف له به ربه ﷻ بحسب قوته واستعداده، أو ضعفه وحجابه.

وذلك كرؤية الشمس المحسوسة للعين المحسوسة في قدر الترس، وهي من أكبر من الدنيا في تقدير العقل مرارًا فظهر أثر البُعد في الحس، ولم يكن ذلك تصغيرًا للشمس برؤية العين، وكذا النجم على قدره وهو كالجبل العظيم، فلم يكن ذلك تصغيرًا للنجم كما قيل:

والعَيْبُ في الطَّرْفِ لاَ في النَّجْمِ في الصِّغَرِ

وسأل شخص عن حديث النبي ﷺ: «**إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامّون أولا تضارون في رؤيته**(1)» كيف والقمر جسم متحيز وربنا ﷻ ليس بجسم ولا متحيز؟ فكان الجواب أن رسول الله ﷺ إنما أراد ضرب المثل لا المثلية؛ لأن الهلال في أول طلوعه في أول الأشهر الدينية -وهي كشهر رمضان وذي الحجة- يتضامم الناس لرؤيته، ويحدّقون بأبصارهم إلى السماء، فتضررت أبصارهم بالتحدق في السماء، وليس رؤية القمر كذلك لشدة وضوحه، فضرب المثل في الرؤية والوضوح، ولم يضرب المثل لله تعالى، فالناس في الدار الآخرة يرون الله رؤية واضحة، ولم تدركه الأبصار؛ لقوله عزَّ من قائل:

﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولأن الأبصار محسوسة، والمحسوس لا يتعدى المحسوس، والبصائر لها الكشوف

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٤)، (٧٤٣٥)، (٧٤٣٦)، (٥٥٤)، (٥٧٣)، ومسلم (٤٣٩/١)، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١٧٦/١)، وأحمد في المسند (٣٦٠/٤، ٣٦٢، ٣٦٥)، وفي السنة (٣٧، ٣٨، ١٨٣)، وابن ماجه (١٧٧)، والدراقطني في الرؤية (١٠٦)، وكذلك (١٣٧)، (١٤٩)، (١٥٥)، (١٦٣)، (١٦٥)، . قلت: وألفاظ هذا الحديث وطرقه كثيرةٌ.

العلية، والأنوار المعنوية، فيهب الله تعالى للبصائر من نوره، ما تشهده به وتراه بنوره كما رأوه إلا به، ولا شهدوه إلا بنوره، والحديث: «**فبي يرى وبي يسمع**[(١)]» كما قيل:

أعــارُ لطــرفي منظــرًا مــن جمالِــه ... شَــهِدت بــه ذاك الجمــال بعينِــه

فــأفنى بــه قَلــبي وسَمعــي ونــاظِرِي ... وكــــوَّنني بعـــد الفَنـــاءِ بكونِـــه

سَماع كلام اللّـه

وقد ذكرنا من رأى الله تعالى في المنام. وأعرف فقيرًا سمع كلام الله تعالى في منامه، وكان هو وإدريس الطَّيْكِلاَ، وكان معهما صورة صبية، قيل لذلك الفقير إنها الست نفيسة، فقال إدريس الطَّيْكِلاَ: يا رب، إذا أنت جمعت الأولين والآخرين ما تصنع بنا أو تفعل بنا؟ فقال تعالى: إذا أنا جمعت الأولين والآخرين، كنت أنا الملك وأنتما مماليك لي، ثم انقطع الخطاب، وكان الخطاب من جهة العُلو، والله تعالى لا جهة له؛ لأن ذلك العلو هو جهة للسامعين لا جهة لرب العالمين؛ لأنه المحيط بالجهات والأرضين والسموات، وليفعل بحسب وصفة المتعالي لله تعالى، وإلا فالرافع يده بالدعاء للسماء كالواضع يده بالدعاء إلى الأرض في سجوده، والفوق والتحت جهة العبد لا جهة الرب.

وأخبرني فقير وهو عامر بن نسيم قال: كنت في خلوة، فربما وجدت عندي بسطة، فقلت: وعزتك لئن أعطيتني جاهًا في القيامة ما تركت أحدًا يدخل النار، فسمعت قائلاً يقول: «أتتكرم علينا وأنا أكرم الأكرمين»؟!

وهذا الخطاب بالجواب تحته أسرار وغوامض وحقائق جلية، يضيق هذا الكتاب عن شرحها، ويقصر العقل عن فهمها، وإنما نذكر نبذة لطيفة لإزالة اللبس لمطالع هذه الصحيفة إن شاء الله تعالى.

كرَمُ اللّـــــه

وذلك أن الكرم صفة من صفات الله تعالى، قديمة قائمة بذاته، فلو أعطى كل شخص من الناس مؤمنًا كان أو كافرًا جميع ما في الدنيا والآخرة من المتاع والأموال

---

(١) رواه الحكيم في نوادر الأصول (٢/٢٣٦)، وأصله في البخاري «كنت سمعه، وبصره..»، وفي رواية عند أهل الكشف.«كنته».

والحور والجنان، وكل ما حوته العوالم الدنيوية والأخروية، وأمثال أمثاله، في أمثال أمثاله، وأعطى من الأمنية والآمال ما يتمناه به ما وراء ذلك وتمني حتى تنقطع آماله، ويعطيه بعد ذلك ما لا نهاية له، وامتد الأمل كذلك مستمرًا على الدوام كامل العطاء ما نقص من ملكه ذرة، ولا رضاه من عبده دوام السؤال، وأزاده على ذلك مزيدًا لا يدخل تحت العقول.

ولو عصاه كل مخلوق خلقه وأوجده مع إنفاقه عليه وإكرامه له، بكل الإكرام أو كفر به كل الكفر لما ضرَّه ذلك، ولو عبده كل من خلقه ما عظم العبادات من أهل الأرضين والسموات في مدة بنائهم، وأعطاهم من القوة على العبادة ما لا نهاية له، وسجدوا على التراب، وجوّعوا الأكباد، وفارقوا العوائد.

ولو أن كل واحد منهم سجد السجدة الواحدة فلا يقوم إلى قيام الساعة، أو يقول الله الله، فلا يسكت إلى قيام الساعة، لما أدّ حق الله تعالى في نعمة واحدة من نعمه، ولما نفعه ذلك تبارك وتعالى، لا تنفعه الطاعة ولا تضرَّه المعصية.

ولو أدخل عابد عبده بل جميع خلقه النار لم يكن ذلك مناقضًا لكرمه، ولا جورًا في حكمه، وكذلك لو أدخل كل من كفر به من جميع خلقه وعصاه بكل معصية في جميع أحوال مدة حياته، وزاد في عمره، وعصى وكفر بما لا نهاية له، وأدخله الجنة، لم يناقض ذلك عزَّته وعلوَّه، وشدّة بطشه، بل هو الفعَّال لما يريد، ولا حجر على إرادته ومشيئته.

بل لو لم يذنب الخلق لخلق خلقًا يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم ويدخلهم الجنة، وبذلك ورد الحديث، وذلك لأنه بظهور الذنوب منهم تظهر صفة كرم الله تعالى عليهم، وكرم العبد مخلوق لله تعالى فيه لمن اختصه لذلك.

اسم الكَرم

ولا مناسبة في اسم الكرم ولا نوعه ولا جنسه، ولا للعبد من حيث نفسه قوة على الكرم، وبكلية الكرم المجعولة فيه، فإنه من كرمه إذا وصل إلى حد الكرم المخلوق فيه من غاية كمال الإنسانية في طول حياته، وكان له ملكًا يتكرَّم به لما قدم غيره على نفسه، لما جاد بها على غيره لا سيما إذا كان ذلك الغير عاصيًا له، ومخالفًا لأوامره،

وموصلاً للأذى إليه، فيتكرَّم العبد في مثل هذه الحالة الواردة عليه بما لا يملكه.

أما لو كان ملكه كان عند الفعل يتحقق دعوى هذه الحال، فقوله تعالى: «أتتكرم علينا وأنا أكرم الأكرمين؟» إما للاستفهام أو المنع للاعتراض، ولا يظهر فيه الإنكار؛ لأن الحالة الواردة عليه ليست منه، وإنما هي من فضل الله تعالى عليه لتحقيق المجمل، ولتمييز الاختيار لغيره؛ لأن علم الله تعالى بعيدة، قبل خلقه في كل أحواله وأفعاله، لا تتحجب ولا تتحدد، وإنما ذلك حجبه على غيره من جنسه.

وقوله: **«وأنا أكرم الأكرمين»** للتفهم، وضربًا للمثل، وإلا فما كان غيره كريمًا، ولا معه كرمًا حتى يكون هو أكرمهم، فانظر إلى ذلك، بل الكرم لله صفة من صفاته، والله تعالى هو الكريم المطلق، وهذا الوارد الذي ورد على هذا الفقير حتى قال هذا القول فيه طمع عظيم، ورجاءٌ كثير في رحمة الله تبارك وتعالى وكرمه؛ إذ عبد من عبيده يقول مثل هذا القول، وقد قال المأمون: لو علم الناس محبتنا للعفو لتقربوا إلينا بالذنوب، وهذا كله إذا صدر من العبيد كان موجبًا في كرم الله تعالى فافهم ذلك.

وسماع كلام الله تعالى ذكره جماعة ممن يوثق بهم، ويتحقق صدقهم وكرامتهم، وكذلك الرؤية.

وسئل فقيه عن حديث النبي ﷺ: **«إن الله تعالى يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لست ربنا، إنّا ها هنا حتى يأتينا ربنا قال: فيتحول في الصورة التي يعرفونها، فيخرّون له سجدًا[(١)]»**.

فكيف هذا الجحود وهذا التعوذ منهم ولم يعاقبهم؟! وكيف هذا التحول من الباري ﷻ، فكان الجواب أن الله تعالى تعرَّف إلى عباده بأسماء وصفات عرفوه بها على لسان رسوله ﷺ، ولم يحيطوا بأسمائه وصفاته علمًا، والحديث: **«بكل اسم سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك[(٢)]»**.

تجلّي اللّـه

فإذا كان يوم القيامة يتجلي الله تعالى على عباده بصفة لم يتعرَّف لهم بها في

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/٥٣٣)، وابن المبارك في الجهاد (٤٢)، وابن حبان (١٦/٤٥٠)، بنحوه.
(٢) رواه أحمد (١/٣٩١).

دار الدنيا، فيقولون: نعوذ بالله منك، وذلك حقيقة إيمانهم ولم يعاقبهم على ذلك؛ لأنه لم يبعث به رسولاً، قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء:١٥].

وإنما كان التجلّي امتحان لإيمانهم، ثم التحول لهم في الصورة التي يعرفونها لم يكن ذلك في ذات الباري ﷻ، لكن كان التحول في أبصار الرائين، وأسماع السامعين، حتى رأوه على الصفة التي تعرَّف لهم بها في دار الدنيا، يخرون له سجدًا.

وتجلَّى الباري ﷻ بصفات كماله وجلاله، ورفع حجاب العزة عن وجهه، لا يبقى مع هذا التجلِّي وجود لوجود غيره، وقد ورد الحديث: «**لو رفع حجاب العزة لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** [١]» وهذا الانتهاء حد للموجودات المخلوقة لا حد لرؤية الله تبارك وتعالى؛ لأن الحدود لصفات الله تبارك وتعالى مستحيلة عليه، فإذًا لا يصح الإدراك برؤية الله تعالى، والإحاطة لذاته العلية دنيا ولا آخرة، والله تعالى هو الأعلم بذلك كله.

وأما الشهود بحقيقة التجلي فإنه يغني الشاهد، ويمحو الشواهد، فلا يصح الكلام مع وجود الشهود؛ لأن الشهود يقع به الفناء؛ والكلام يقع معه الحجاب، والدليل الأول: ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً**﴾ [الأعراف:١٤٣].

والثاني: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى:٥١]. والحجب بحسب المحجوبين، وقد قلت:

لبقــاءِ وَهمِــك في الوُجــود تــوهمٌ ... فيــه يَغــبِطُ كــل مــن لا يَعلــمُ
لا تطلــبنَّ مــع الشــهود تكلُّمًــا ... إنّ الفنــاءَ مــع الشــهود مُحكَّــمُ
وإذا رأيـــتَ مكلِّمًـــا ومكلَّمًـــا ... فَــالوهمُ بالشــرك الخفــي مخــيَّمُ

كلامُ اللَّــــه

فالكلام مع الحجاب إما بوحي الملك، أو التنزيل على القلب، أو الإلهام، أو

---

(١) رواه مسلم (١/١٦١)، وأحمد (٤/٤٠٠).

الرسول، وهي حجب الكلام الإلهي، كالقارئ للقرآن يقول:«قال الله تعالى» وهو القائل الحاكي لكلام الله تعالى، فإن التلاوة غير المتلو من ها هنا، وقع من وقع في خلق القرآن؛ لأن من قال: **(الحمد لله رب العالمين)** وقال: هذا كلام الله تعالى، لا يقدر أن يمنع أنه كلام الله تعالى، ولا يقدر أن يقول أنه كلام الآدميين المتصف بالحروف والأصوات والمخارج واللهات لأن الحروف والمخارج مخلوقة، وتلاوتك مخلوقة، وكلام الله تعالى قديم قائم بذاته.

فإن قلت: إن الحمد لله رب العالمين، ما هي كلام الله تعالى، وإن هذا القرآن الذي يقرأه الناس ما هو كلام الله تعالى، أدَّى ذلك إلى جحود التنزيل، ورفع الأحكام، وذلك كفر، وإن قلت: إن هذه التلاوة نفسها المتصفة بهذه الحروف والأصوات كلام الله القائم بذاته، فقد قلت بخلق القرآن، وجعلت لله تعالى صفة مخلوقة، وصفاته قديمة قائمة بذاته، وكلا الحالين خطر.

فصْل الخطَـــاب:

وفصل الخطاب أن التلاوة غير المتلو، فتلاوة العبد حادثة، تتحصل له بالدراسة والكتابة، وتصدر عنه بالحروف والأصوات، وكلام الله تعالى قديم أزلي قائم بذاته، ونور يقذفه الله تعالى في قلوب عباده ليس بحرف ولا صوت ولا مخارج ولا لهاتٍ، ولا بقطع حروف وأصوات ولا إطباق شفاة، ولا تحريك لسان، ومن قال بشيء من ذلك فهو بعيد عن معرفة صفات الألوهية، متلبس بالأوصاف البهيمية، يتنزّل من حقائق الصفات والمعاني الربَّانية إلى الصفات الحسية، والآلات الجثمانية، ولو عقل عن الكلام حقيقة في نفسه لترك صوته وحروفه، ونظر في سرِّه، وخاطر نفسه حتى يخطر فيه الخطرة، وتجلبها الفكرة، ويقدر ما يقول في باطنه قبل إظهاره على لسانه.

هل كان ذلك السر والخاطر الذي في القلب بحروفٍ أو أصواتٍ أو مخارجٍ أو لهاتٍ؟ فإذا كان هذا في نفسك فكيف كلام ربك الخالق لما في سرِّك وجهرك؟! وقد قيل:

إنّ الكــلامّ لَفــي الفــؤادِ وإنمَــا جُعِــلَ اللســانُ علــى الفــؤادِ دلــيلاَ

وإذًا قد عرفت أن الكلام من الله تعالى لا يسمع إلا وحيًا أو من وراء حجاب،

فاعلم أن الذي يدَّعي أنه يسمع كلام الله تعالى مع وجود المشاهدة له، والتجلي عليه، مخدوع في دعواه؛ لأن التجلِّي الإلهي لا يثبت له شيء من الجبال والحديد فكيف بالإنسان ووجود الإنسان؟! وقد قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذا مع كمال النبوة والاختصاص والاصطفاء والرسالة والكلام، والاصطناع لنفسه العليَّة، فما ظنك بمن سواه ممن ليس بنبيٍّ ولا رسولٍ؟

كرامات الأولياء لاحقة بمعجزات الأنبياء

ولا يجوز تفضيل ولي الله على نبي الله- وإن كانت الكرامة والمعجزة في كونها خرق العوائد، وأنهما من عند الله تعالى، لكن الرُّسل -صلوات الله عليهم وسلامه- حجّة الله تعالى على عباده، ودعاة إلى الله تعالى على الإطلاق، فالمعجزة شرط في نبوتهم، وليس كذلك في حق الولي؛ إذ الولي يجب عليه اتِّباع الرسول، والأخذ عنه فيما يأمره به وينهاه عنه، وهو في ميراث النبي، وهو في محل الجواز لا في محل الوجوب، والنبي له الكمال والعصمة والتحدي بالمعجزة.

فإيَّاك ثم إيَّاك من اتِّهام من شطح في حالةٍ من أحواله المغيبة بحسه، وظهرت عليه آثار كرامة، وخوارق عادة في ساعة غيبته، فنطق بشيء من وجدانه، أو عبَّر على شئ من وراء العقل، أو شيء من القرب والوصول، أو غير ذلك، فنطق أن الأنبياء لم يجدوا ذلك.

فإن الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- أحوالهم مع الله تعالى محفوظة عليهم لكمالهم، ولم يعطوا الناس منها إلا على قدر عقولهم، وما وسعوه في سلوكهم، ولو ظهر من أحوالهم شيء لما قدر البشر على تبعيتهم فيه، والذي عرف الله تعالى من وجهٍ واحدٍ ليس كمن عرفه من جميع الوجوه الإنسانية.

ولا يصح الاقتداء بالشاطح -فحالته مقصورة عليه، ولو ارتفع عنه الحال صار إلى عبادة العوام، والنبي حاله محفوظ عليه، وهو قائم بأمر ربّه ﷻ، وموصلاً للخلق إلى الله تعالى، يعرف كل موطن، ويسلك كل طريق، ويخاطب كل عقل، ويتكلم بكل لسانٍ، ويشاهد كل قلبٍ، ولا يفعل إلا ما يُؤمر به، فيُحفظ في هذه المواطن، فإنها تبدو

للسالك في أوقات غلباته وقوة شطحاته، كفّروا من كفّروا.

ونحن لا نوقع عليهم درك المؤاخذة لغلبة الأحوال، وتوالي الحقائق المغيبة عن مقادير القياس، والحاجبة لمرأى العقول، فهم في غفلةٍ من غير ما وجدوه، ودهشة فيما شهدوه، لا يعرفون شيئًا غير الله تعالى، ولا يشهدون إلا الله، ولا يجدون إلا الله، فلو قلت لأحدهم إلى أين؟ لقال: إلى الله، ومن أين؟ لقال: من الله، حتى إنهم يسمون كل شيء وجد بالله اسم الله؛ إذ غاب عنهم ذلك الشيء وبقي الله، فلم يشهدوا إلا الله، ولو كانوا صحاة لكفّرناهم، ولو وجب عليهم القتل لقتلناهم، ومتى غلب الحب واصطلم القلب ذهب كل شيء سوى المحبوب من القلب، فسُمِّى كل شئ باسمه، وليس هذا من قبيل ما ذكرناه أولاً، ممن يدَّعي أن عين الخلق عين الحق، وأن هذا الخلق الحادث هو الحق القديم، فهذا مذهب المبعودين عن الله تعالى.

وأما الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه فإنهم يشهدون كل شيء بالله، ويقومون فيه بأمر الله، ويؤدون رسالة الله، ولا يحجبهم شيء عن الله، فالكل عن الأنبياء متَّبعون، وخلفهم سالكون، ومن زاغ عن طريقهم يسقط، ومن عمل بغير ما أتوا به عملاً فقد أحبط، والسلوك على طريق الأنبياء صراط الله المستقيم، ودينه القويم، وذرة واحدة من نور النبوة تشرق على جميع الأكوان.

ولن يدرك حقيقة النبوة إلا نبي أعطاه الله تعالى ذلك، وإلا فهم درجات عند الله، ولسنا نتكلم في تفضيلهم على بعضهم؛ لأنه غير معلوم بالتخصيص في واحدٍ دون واحدٍ، وإن كان الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض، لكن قد منعنا التفضيل بينهم؛ لورود الحديث:

لا تفضّلوا بين الأنبياء

وذلك لعزة مقامهم، وعلو شأنهم عند ربهم ﷻ، لا يعلمهم إلا الذي خلقهم.

وفضل نبينا محمد ﷺ منصوص عليه، وأنه «**سيِّد ولد آدم**».

وقوله: «**ولا فخر**[1]» لأنه لم يقصد بذلك الفخار، حاشاه من ذلك ﷺ ولو

---

(١) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وابن ماجه (٢/١٤٤٠).

افتخر لكان فخره بالله تعالى باصطفائه له، ومحبته، وإرساله، وكونه خاتم النبيين، ولا نبي بعده، وأمته خير الأمم، وغير ذلك مما أعطيه ﷺ، مما لم يعطه غيره من الغنائم، ونصره بالرعب، وغير ذلك، وإنما أراد الإعلام بذلك، كقوله: «**أنا أشهد أني رسول الله**[(١)]»

وقوله: «**أنا النبي لا كذب**[(٢)]»كل ذلك للإعلام، ولوجوب حق الله في الأدب معه، والامتثال لأمره، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات:٢].

فنبّه الله تعالى على الأدب معه بجلالته، وعلو شأنه، وقدره عند ربه، وصيانة لهم؛ لئلا تحبط أعمالهم، وهم لا يشعرون أن ذلك محبطٌ للأعمال؛ لأن الأدب معه هو الأدب مع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠]، وكذلك من عصاه عصى الله، ومن تأدَّب معه تأدَّب مع الله، ومن أساء الأدب عليه فكذلك، فقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**[(٣)]» للإعلام لهذا المعنى، وإلا فقد قال: «**لا تفضلوني على يونس بن متى** [(٤)]»، صيانةً لهم عن الدخول في هذا الأمر العظيم.

وذلك لأن مقامات الأنبياء عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، والترجيح والتعديل فيما بينهم خطر عظيم وصرَّح بقوله: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**[(٥)]» ونحن والحمد لله لا نرى بالتفضيل في غير الأنبياء، فكيف بالأنبياء عليهم السلام؟! وذلك أن حقيقة التفضيل محجوبة عنا لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، والأعمال والأوصاف الظاهرة لا توصل إلى ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٠٧٤).
(٢) رواه البخاري (٣/١٠٥١)، ومسلم (٣/١٤٠٠).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه البخاري (٣/١٢٤٤)، ومسلم (٤/١٨٤٨).
(٥) رواه البخاري (٢/٨٥٠)، ومسلم (٤/١٨٤٥).

وعندية الله تعالى غير معلومة لنا، والنبي ﷺ يقول: «**التقوى ها هنا**[١]» ويشير إلى القلب، والقلب خزانة من خزائن الحق، لا يطَّلع على ما أودعه فيها إلا هو ﷻ، والحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**[٢]».

والحديث الآخر: «**يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، ويعمل أحدكم بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة**[٣]».

وليست الأعمال ها هنا موصلة إلى حقائق النيات والضمائر، والسرائر المودعة في القلوب، ولا إلى التفضيل بالتقوى التي هي عند الله تعالى تقوى، فيكرم بها من يكرمه، وهذا سارٍ في جميع الخلائق غير الأنبياء عليهم السلام؛ فإنَّا نعتقد كرامتهم عند الله، ولا نفضل ما بينهم إلا ما أظهره الله تعالى من فضل من فضَّله كفضل نبينا محمد ﷺ.

التفضيل والتمييز

وأما سائر الناس أو جميع الناس فالتفضيل بينهم عرفي لا حقيقي، فلم يبق إلا التمييز، فيكون هذا أميز من هذا ظاهر بصفة الكرام، وهذا ظاهر بصفة البخل، وهذا ظاهر بصفة العلم، وهذا ظاهر بصفة الجهل، فلا يستويان، لقوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر:٩].

ويبقى باطن الأمر إلى الله تعالى في المقاصد والنيات، وما انطوت عليه الضمائر من الحقائق الخفيات، وما هو خالص لله، وما هو لغير الله، وما يدخل ذلك من الآفات في الأعمال من حقائق التقوى، أو ارتكاب الأهواء من السعادة والشقاء، وما يدخل كل علم وعمل من الآفات.

والحديث الوارد عن معاذ بن جبل بطوله في صعود الحفظة بأعمال العبد، وكيف

---

(١) رواه مسلم (١٩٨٦)، وأحمد (٢/٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (١/٣)، ومسلم (٤/١٥١٥).

(٣) رواه البخاري (٦/٢٧١٣)، ومسلم (٤/٢٠٣٦).

يرد مع شهادتهم له، وكيف يقول الله تعالى في آخر الحديث: **«أنتم الشهداء على جوارحه، وأنا الشهيد الحفيظ على باطنه[(١)]»**.

والحديث الآخر في العالم والمجاهد، وصاحب الثروة، والحديث الآخر الذي أورده الغزالي رضي الله عنه: **«إن أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعْه الله بعلمه[(٢)]»**.

والحديث الذي ورد: **«أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم ولا مال ..** [(٣)]» الحديث بطوله.

والحديث الآخر: **«إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله[(٤)]»**.

فهذا وأمثاله في أهل العلم، وكذلك في الأعمال، فكيف الخلاص ولات حين مناص، ما لم تكن العناية من الله تعالى وإلا فالهلاك واقع.

قيل لأحد الأكابر: أيُّما خير أنت أم الكلب؟ فقال: إن دخلت الجنة فأنا خيرٌ من الكلب، وإن دخلت النار فالكلب خيرٌ مني.

لم ينظر هذا إلى الأوصاف الظاهرة، ولا ما هو عليه، ولا لشهادة الناس فيه بظاهر الأمر، وإنما نظر إلى ما يئول إليه الحال من علم الله تعالى فيه، السابق للعلوم والمعلوم، فوقف عند ذلك، وخشية من النزعة الإبليسية التي قال فيها إبليس اللعين: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** [الأعراف:١٢] فوقف مع الألفاظ، وغاب عن تخصيص الله تعالى، وإكرامه لآدم عليه السلام،ونظر إليه بعين النقص .

كلمة «أنا»

فمن قال (أنا) غير الله تعالى لذاته أهلكه الله تعالى،كإبليس قال: (أنا خيرٌ منه)، ونظر إلى نفسه بعين التعظيم والأنية فقال: (أنا)، وكلمة (أنا) كلمة ما أفلح قائلها؛ لأن الأنية لا يستحقها إلا الله تعالى أخبار، فمن قائل: عبد الله ثمانين ألف سنة.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الشهاب في مسنده (١٧١/٢).

(٣) رواه ابن حبان (٢٥٩/١٠).

(٤) رواه الربيع في مسنده (٣٦٥/١).

ومن قائل: عبد الله تعالى في كل سماء سبعة آلاف سنة، وكان يسمّى طاووس الملائكة، وكان اسمه عزازيل.

وفرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ [النازعات:٢٥] فكل من تعاظم في ملك الله تعالى، أو تكبَّر قصمه الله؛ لأن من كان أصله العدم كيف يتكبر أو يرى لنفسه وجود استحقاق مع واجب الوجود؟! ولو نظر إلى نفسه بما فيه من الخبائث والقاذورات الباطنة والظاهرة، وحمله العذرات، ومن كان أوّله تراب وهو صائر إلى التراب، ويحاسب بعد ذلك، فإما إلى الجنان وإما إلى النيران، كيف يلذ له العيش؟!

وقد قلت:

وكيفَ يلذُّ العيشُ والموتُ كائنٌ ... وَمن بعدِه هو النشورُ مع الحشرِ
ومن بَعدِه هولٌ وَهولٌ وشدةٌ ... وَتحريرُ أوزانِ الحسابِ على الذرِّ
صراطٌ وعرضٌ والوقوفُ على شفَا ... ولاَ عذرَ في ذاك المقامِ لذي عذرِ
فمن ثقُلت ميزانُهُ فهو رَابحٌ ... ومَن خفَّ وزنًا فهو في أخسرِ الخسرِ
ولم أستطعْ قولاً لذي الهَولِ كلِّه ... وما فيه من وصفٍ يجلُّ عن الحصرِ
ولَو لم يَكن إلا المماتُ وما بِه ... ومُنكرُه ثم النكيرُ مع القبرِ
لكان لنا فيما سرى ذاك شَاغلٌ ... عَن اللهوِ واللذَّاتِ في السِّرِّ والجهرِ
فكيف وقول الصدق إمّا لجنةٍ ... وإمّا لنارٍ فهي قاصمةُ الظهرِ
وإما سَعيدٌ في الجنانِ مخلدٌ ... وإمّا إلى النيران في أبدٍ يسري
لا لي حَولَ ولا لي قوّةً ... ولاَ أثبتُ في خَيرٍ ولا المحو من شرٍّ
ولا غَوثَ إلا أنتَ يا غَايةَ المنى ... ويا مُنتهى الآمال في خيرةِ الأمرِ
وَلا الخوفُ يخشى لا ولا الأمنَ يُرتجى ... سِواكَ إذا بدَّلت عُسري باليسرِ
إذا لم يكنْ عُمري بحبِّك فانيًا ... فلاَ عوضَ فيه فيا ضيعةَ العمرِ

دعـــاء واستغاثة

اللهم إنك خلقتنا من غير شيء موجود في أحسن خلق وأحسن تقويم، وركبتنا في أي صورة شئت، وخلقت فينا ما شئت، وأمرتنا بأمرك، وأردت منّا ما أردت، وعلمتنا من أمرك ما علمت، وأخفيت عنا من إرادتك ما أردت، فعلمنا من أمرك ما وصلت إليه أفهامنا، ولم تعلم من إرادتك إلا ما وقع، ولا عذر لنا في ذلك، وقد خلقت لنا إرادة وعلمًا وعملاً، وأجريت على أيدينا وجوارحنا خيرًا وشرًا، ونسبت ذلك إلينا، كما نسبنا ما يصدر من غيرنا إليه، ولم يكن ذلك إلا بإرادتك فينا وفي غيرنا، وليس لنا عذر عندك، ولا حيلة فيما قدرته علينا، وقد أوجدتنا ودبرتنا في أصلاب الآباء، وبطون الأمهات، قبل أن تخلق فينا التدبير الظاهر لأنفسنا، ولا جريانه على جوارحنا، ونحن في حالة عدم اختيارنا، وغفلة عقولنا، وافتقارنا إلى كل ما أوجدتنا وأوجدته فينا مفتقرين، وفي حالتنا الآن بعد إيجاد ذلك كله أشد فقرًا إليك، وفي حالنا بعد الممات أشد من ذلك كله، وليس لنا سواك.

وقد هديتنا للإسلام، وعرَّفتنا بوحدانيتك على قدرنا لا على قدرك، فعاملنا بما أنت أهله في كل موطن من مواطن الدنيا والآخرة، يا ولي الدنيا والآخرة، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللهم إنك فعّال لما تشاء، اللهم إنك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، فشأني لمحبتك لي، وشاء المحبة للمشيئة فيَّ لك، وشأني للتوكل عليك في الإيمان بك، وبما أتت به رسلك، واجعلني متوكلاً عليك، راجعًا إليك، واجعلني عبدًا لك، مخلصًا مما سواك، واحفظني بك حفظك للذكر حتى لا أنساك.

يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك، يا أكرم الأكرمين، بل لا كريم غيرك يا الله، يا من وسع كل شيء علمًا، عليك توكلت كما توكل شعيب نبيك عليه السلام حين أخبرت عنه: ﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨، ٨٩]، فهذا هو حقيقة التوكل في الإيمان لأنه توكل في إيمانه؛ على الله، لأن المعرفة بالله تقتضي أن يعرف أن الله؛ له أن يفعل به ما يشاء، فتوكل على الله في إيمانه في قوله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقد ورد عن المسيح عليه السلام أنه قال: «أنتم معاشر الحواريين، تخافون الذنوب، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر».

وكذلك روي عن موسى عليه السلام أنه قال: «يا رب، إنك لرب عظيم، لو شئت أن تطاع لأطعت، وأنت في ذلك تُعصى فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله تعالى إليه لتنتهين عن مسألتك هذه» فانتهى موسى عليه السلام، ثم إن عزيرًا سأل ربه تعالى هذا السؤال الذي سأله موسى عليه السلام، فأوحى الله تعالى إليه لتنتهين عن مسألتك هذه فأعاد السؤال فأوحى الله تعالى إليه: «**لتنتهين عن مسألتك هذه، وإلا محوتك من ديوان النبوة**[1]» ذكره البيهقي.

مشيئـــة اللّـــه

ولله تعالى أن يخفي ما يشاء، ويظهر ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وسأل فقيه عن الحديث وكيف يمحوه من ديوان النبوة مع وجود العصمة وما وعد به الأنبياء عليهم السلام؟ فكان الجواب أن الله تعالى يفعل ما يشاء، ولا حجر على مشيئة الله، لأن الحجر عليها محال، والحكم لا يحكم على حاكمه، والعلم لا يحكم على عالمه، والمخلوق لا يحكم على خالقه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿**قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شيئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّه وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [المائدة:١٧].

إرادة الأمر وأمر الإرادة

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وكذلك ذكر في الاستثناء في أهل النعيم وأهل الجحيم بعد دخول الجنة والنار، وذلك أن الله تعالى أخبر عمّا له فعله، وإن لم يفعله فله فعل ذلك، وما فعله، وإن شاء فعله، ولأن الله تعالى شرع الشرائع، والشرائع علينا لله تعالى لا أنها عليه لنا، فهو يَحكم ولا يُحكم عليه، ويقع الفرق عندنا بين الأمر والإرادة، وإرادة الأمر وأمر الإرادة، فإرادة الله تعالى بالأمر فعناه أراد أن يأمر عبده، ولا أراد منه الفعل، فلم يقع الفعل، وأمر الإرادة جاريًا بالنفوذ فيما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠].

فإذا وافق أمر الإرادة إرادة الأمر في العبد كان طائعًا مخصصًا، وإذا لم تجر عليه إلا إرادة الأمر كان عاصيًا.

والإرادة من الله تعالى واحدة، والطاعة والمعصية يُنسبان إلى العبد عند تلبُّسه بالاتصاف والأعمال، وجريانها على جوارحه بحسب نيته وقصده المخلوقة فيه، ولا عذر له في ذلك، ولا هو يعذر غيره إذا صدر منه في حقه ما يشينه، وصفة العدل تقتضي أن يحكم عليك بما تحكم به على غيرك.

وكما أنك تحب أن يطيعك عبدك، وتغضب إن عصاك، فلا تجعل لنفسك من الحق على عبدك ما لا تجعله على نفسك لربِّك عَجَلَّ، أفتحب أن يطيعك عبدك ويعصي الله تعالى عبده؟ هذا مع كونه ملكك له ملك مجازي، وملك الله تعالى ملك حقيقي.

أما لو غبت عن أفعالك وأفعال الخلق بشهودك الفعل من الله تعالى ولم تشهد بغيره فعلاً، وغبت في شهود الإرادة من الله تعالى، واصطلمك الشهود وغيبك عن الوجود، لم يصدر منك ما يخالف أمره، ولم تؤاخذ غيرك بما يصدر منه في حقك، وأخذك الشارع عند غيبتك عن الخلق، وحضورك مع الحق، وذهول عقلك عن العلوم، وشواهد الرسوم، ولكنت في حكم الشرع غير مخاطب، كالمستور العقل أو النائم أو الصبي الذي لم يبلغ الحلم.

الاستحيَـــاء منَ اللَّـــــه

إنك لو وقفت بين يدى ملك من الملوك وبين يديه ما تحب من الجواري الحسان الصور، ونفسك تشتاق إليهن، وهو يرقبك بنظره، ويلاحظك بأعينه في حركاتك وسكناتك، هل كنت تعرض عن الملك وتغازل تلك الجواري وتحادثهن وتلاحظهن؟! أو تفعل بهن الفعل الذي هو معروف في العوائد من وطأ أو غيره؟ فإذا علمت من نفسك أنك لا تستطيع ذلك بحضرة هذا الملك، فلا تجعل ربك دون رتبة الملك في قلبك.

فانظر إلى هذا القياس، بل لو نظر إليك طفل وأنت تقصد ارتكاب معصية لاستحييت منه، أفلا تستحي من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ فقد ورد: «**يا ابن آدم إذا هممت بالمعصية غلقت بابك بينك وبين الناس، فلو اطلع عليك طفل لاستحيت منه وكنت أهون الناظرين عليك**[١]».

وإذا قد عرفت هذا من نفسك فلا تحتاج إلى خارج عنك، قال الله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١].

فعليك بالموافقة في جميع أحوالك بحسب الجهد والطاقة، فإن وقع منك ما نهاك الله تعالى عنه فبادر بالتوبة والندم، والانخلاع عن الذنب بالكلية والعزم الجازم ألاّ تعود أبدًا، بحيث يغنيك ذلك العزم عن جواز الوقوع، فلا يقع في خاطرك ذلك عند هذه التوبة، وحقّق العزمة، واصدق النية، وانصح التوبة، ولو قُطعت إربًا إربًا فيما عاهدت عليه ربك عَجَّلَ.

استغفــــار الكافريـن

وإيَّاك واستغفار الكافرين الذين يستغفرون بظواهر القلوب مع كون الشهوات في النفوس، ولا يتحققون النية في الصدق مع الله تعالى، والانخلاع الحقيقي، ويقنعون بأن يقولوا: أستغفر الله ظاهرًا، فقد ورد: «**يا عبدي، تعصيني بالليل، فإذا أصبحت خادعتني بالاستغفار، ألست الذي خلقت الخديعة والمكر؟ فإذا استغفرتموني فاستغفروني بالانخلاع عن الذنب**[٢]».

فإياك ومخادعتك لنفسك فقد قال الله تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا**

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة:٩، ١٠].

ولا تكن كالمتشبهة بالفقراء وأهل الطريق إلى الله تعالى في بعض الزِّي واللباس، والصفات الظاهرة مع خلو الباطن من ذلك كله، والمخادعة للناس، كمن يؤذي غريمه أو صاحبه أو صديقه بأشد الأذى في الأقوال والأفعال، ثم يخدعه بكشف رأسه، ويستغفر له، والباطن منه منطوٍ على أقبح مما فعل أو أكثر، فهذا مخادع لنفسه، والمصيبة أن يعزى ذلك إلى أهل طريق الله تعالى، ولم يأت لنا عن الله تعالى، ولا بما أرسل به رسله أن التوبة كشف الرأس دون ما لا يتصف به القلب من التبرؤ من تلك الأوصاف المذمومة، والاتصاف بالأوصاف المحمودة.

بل لقد بلغني عن غير واحدٍ، وربما سمعته يقول: تفعل كذا وكذا، ويُفعل بزيد كذا وكذا، وما ثمَّ إلا كشف الرأس، وقول أستغفر الله.

فانظر -رحمك الله- إلى هذه المقاصد الذميمة المبعدة عن جَناب الله تعالى؛ إذ يعصون الله تعالى بوصف الطاعة، ويبعدون عنه بوصف القربة، ويستعملون أوصاف الخير الظاهرة لأوصاف الشر الباطنة، ويذكرون الله تعالى بالاستغفار في مواطن المعاصي والاستكبار، ثم يُؤذون الأولياء، ومن تقدم من السادة الأصفياء واسم طائفة الفقراء بما نسبوه إليهم من هذا الاستغفار، وحاشاهم من ذلك -رضي الله تعالى عنهم- ورضي عنَّا بهم.

أركَــان الطَــريق[1]

فإن طريقهم مبنية على الصدق مع الله تعالى، وحفظ سرائرهم، وإخلاصهم فيه، ومحبتهم له، ومحو العلل المفسدة لذلك من قلوبهم، وعدم النفاق والغلّ والرياء والحسد للمسلمين، فإذا صدر من أحدهم شيء، أو جرى منهم شيء، أو وقع واقع لمجاري الأقدار، أو الاختبار والامتحان للأخيار صدقوا الله تعالى في التوبة مع الله في بواطنهم، وطلبوا طيبة قلوب إخوانهم في الله تعالى، وجمعية قلوبهم عليه، ولأنهم يد واحدة، وقلب

(١) انظر: قواعد التصوف للشيخ زروق، والمكتوبات لسيدنا الفاروقي، وشرح الحكم الصوفية لسيدنا الشرقاوي، وقوت القلوب لمكي، وإحياء علوم الدين، وكتب سيدنا الشعراني كلها تعرف منها أن للطريق أركان، وأنها أركان للطريق.

واحد، على باب ذلك الواحد متحابين متزاورين، قد وجبت لهم محبة الله تعالى لما أهلهم بذلك، فتراهم في مثل هذه الوقائع تخشع منهم القلوب، وتزرف العيون، وتظهر جوارحهم التواضع ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤] (١).

فإن كشفوا رءوسهم فذلك لوصف الخضوع، وهو تابع لخضوع قلوبهم في رضا محبوبهم، فلذلك تنزل الرحمة عليهم، ويسعد بهم جليسهم، ولا يزالون بخير ما تناقشوا وتناقدوا، وهذا نوع ثان عن الأول، فإنهم أهل صدق مع الله تعالى، وهم في سيرهم وتوجهاتهم لا يفترون، فإن فتر واحد منهم ناقشوه على ذلك؛ خشية عليه من الانقطاع، أو تنقطع معه أصحابه، وإن صدر منه شيء مما يقصر به عن أوصاف كمالهم طالبوه بكمال السلوك والصفات المحمودة، ومحاسبتهم من خلاف ذلك، وإن وقع ما لا يوافق الظاهر طالبوه عليه حتى يتبَّين الأمر في ذلك، فهم نصحاء لله تعالى، نصحوه في أنفسهم وفي أصحابهم، وفي عباده أجمعين بحسب الاستطاعة والقدرة.

وقد ذكرنا هذه في المطالبة والأخوة والشيخوخة فلا حاجة إلى إعادتها، وذلك في الأخوة والشيخوخة والشيخ والمريد، فليحذر السالك مما يخالف طريق القوم فإنهم أتباع نبيهم، وسالكو منهاجه وسبيله وصراطه المستقيم، جعلنا الله تعالى وإيَّاكم كذلك بمحمد ﷺ كما قيل:

ألاَ لله أقــــوامٌ أقـــامُوا ... علــى نهــجِ الطَّريقــةِ واســتقامُوا

أطـــاعُوا اللهَ في ســـرٍّ وجهـــرٍ ... وصَـــلُّوا خَاشـــعين لـــه وصـــامُوا

إذا نـــامَ الـــورَى بالليـــلِ قـــامُوا ... عَلـــى أقـــدامِهم لهـــم قيـــامُ

(١) يُشير –تعالى- إلى أعين العزَّة؛ لأن الذِّلَة لأهل العزَّة عزة، كما أن التكبُّر لأهل الكبرياء تواضع. فقد قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨].

أي: وللمؤمنين الذين أعزَّهم الله بعزَّة نفسه، وبعزَّة رسوله؛ فإنهم حزب الله الغالبون وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العزَّة ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذِّلة.

فالمؤمنون في درجة الذكورة، وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الأُنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبُّه بالذكور حتى تكون مذكَّرًا حقيقيًا.

ينـــاجُون المهـــيمنَ في الـــدياجي وَقـــد طـــابُوا وقـــد طـــابَ الكـــلامُ
فيُعطـيهم مـــن الإنعـــام مـــا لاَ يُحـــــدُّ ولا يُنـــــالُ ولا يُـــــرامُ
ويمـــنحُهم تعـــالى منـــه فَضـــلاً بنَيــــلٍ كلمــــا قعــــدُوا وقــــامُوا
ويخلَـــعُ مـــن محبـــتِّهم علـــيهِم دَلـــــيلاً حبَّـــــذا ذاك المقـــــامُ
وكيـــف ينـــالُ رتبـــتَهم ســـواهم وهـــم أحبـــابُ ربِّهـــم الكـــرامُ
فمـــــن هـــــو قانـــــتٌ لله داعٍ كقَــــومٍ في أســــرَّتِهم نيــــامُ
أولئـــــكَ أوليـــــاءُ اللهِ حقًّـــــا وهُـــم خـــيرُ البريّـــةِ والسَّـــلامُ

مُحاسَبَــة النَّفْــس

حُكي عن فقيرٍ أنه كلَّم فقيرًا كلمة فقام إليه وضربه ضربًا عظيمًا، وربما تجاوز ذلك الفعل فقام الفقير المضروب مستغفرًا، وكشف رأسه وقال: يا فقير، أنا كنت السبب في إخراج باطنه حتى صدر منه ما صدر.

فهذه وأمثالها محاسبة الفقير لنفسه، فإن الفقير حقيقة من نصر الحق عليه، ولا يرى لنفسه حقًّا على أحدٍ من خلق الله، تعالى وذلك في تحقيق السلوك؛ لأنه يرى كل حقٍّ لله تعالى من حقوق الخاصة والعامة لكون الحق تعالى شرعه، فإن صدر منهم في حقه شيء من الأذى بالقول أو الفعل نظر المحقق إلى قوله تعالى:

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فيرى أن ذلك مما اكتسبه، وأن الله تعالى عفا عن كثير، فيشكر الله تعالى على ذلك، ثم يشكر الذي جرى الفعل على يده، ولا يرى فاعلاً إلا الله تعالى، والأيادي إليه لمجاري الأقدار عليه، وشكره الذي أساء إليه؛ لكونه محلاً لجريان الخير على يده، ولأن الخلع من الملك إذا صدرت على يد أحد من عبيده يكرم الذي وردت الخلعة على يده، وبينه وبين الذي تأتي النقمة على يده فرق، وإن كان الجميع عن ملكٍ واحدٍ، والله المحمود في كلا الحالين وعلى الفعلين.

ولقد رأيت مرة جماعة من الفقراء المسافرين بظاهر الأقصرين، وقد ضُرب فقير

حتى تفتحت رأسه، وجرى الدم حتى رأيت جفنة كبيرة وهي مملوءة دمًا وماء، وهم يغسلون له ذلك الدم، وربطوا رأسه بآلةٍ معهم، وربما قام ووقف في الاستغفار، ورأيت الشيخ علي الأسناي ورجله الواحدة معطوبة، فسألته عن ذلك فقال لي:مع ندماني فعطبت رجلي.

واجتمع مرة بظاهر الأقصرين جماعة من المسافرين على الشيخ أبي العباس الملثم على أن يفعلوا به من الضرب أو غيره ربما لشيءٍ أنكره عليهم، فقام أهل البلد وخلصوه منهم، ولم يفعل فيهم شيئًا، وكان قادرًا على معاقبتهم؛ لاعتقاد الناس فيه في أمر الظاهر، وتصرفه في الحال الباطن -رضي الله تعالى عنه-.

ومثل هذا كثير، وإنما يحضرني عند التذاكر له، والقوم لهم التخُّلق بصفات العفو والكرم والإحسان مع الإساءة إليهم ليتحققوا بآثار الصفات الإلهية فيهم بنسبتهم إلى ربهم تعالى، وتخصيصهم بحزبه: ﴿**أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد قلت:

أنـاسٌ يَـرونَ العفـوَ وَصـفَ نفوسِـهم ... وأنَّ الجزاءَ بالسوءِ من أقبحِ الوصـفِ

فلسـتَ تـرى للظلـمِ مـنهم مُجازيًـا ... عَليـه بفعـلٍ أو مقـالٍ مـن العنـفِ

يجـازون بالإحسـان طبعًـا لمـن أسـاءَ ... ويَلقَـوه بالوصـفِ الجميـلِ وبـاللطفِ

ويعفُـو عـن الجـاني جـزاءً علـى الأذى ... وعطفًا على الآتي إليهم عَلى عطفِ

صَفت في صَفا الوصف حقًّا صفاتُهم ... وجلَّت عن التعريفِ في موطنِ العرفِ

بهـم يَرفـعُ اللهُ الـبلاءَ عـن الـورَى ... ويرفعُ ما قد كان يُخشى من الخسفِ

ومـن أيـن لي أني كـون كمـثلِهم ... ولا القولُ من فعلي جميلٌ ولا وصفي

فيـا غايـةَ الغايـاتِ يـا مُنتهـى المنى ... وَيـا عالِمـا بالسّر مـني ومـا أُخفـي

أعـنِّي بحـبٍّ منـك يسـعد حملـتي ... وَلـو أن في حُبـك يـا منيـتي حتفـي

فلسـتُ أبـالي بعـد حبِّـك مـا جَـرى ... ولاَ مـا أمـامي في الوجـودِ ولا خَلفـي

ولـو كنـتُ صـفًّا واحـدًا بـك قـائمٌ وكَـان جميـع العـالمين علـى صـفِّ
وأعطيتَــني التأييــد منــك مُــؤزَّرًا حملـتُ ثقـال الكائنـات علـى كفِّـي
وقلــت أعــادي الله شــرقًا ومغربًــا مقطَّعـة الأكبـاد مـن شـدة الرجـفِ
فقــتلاً وخســفًا ثم مَوتًــا برجفــةٍ ورَجعًـا على الأعقـابِ يـدفع بـالزحفِ
وقطعًـــا لأدبـــارٍ وحمـــدًا لربِّنـــا ورفعًـا لـدين الله بالعـدلِ والصَّـرفِ

الرحمة والشفَقَـة

ومنهم من يكون إحسانه إلى من أساء إليه من الشفقة على خلق الله تعالى مما يشهدوه من عواقب أمورهم، كما حدَّثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه كان لأحد المشايخ قريب -إما ابن أخ أو غيره- فكان يصدر منه أمور مؤلمة، فيشكونه إلى الشيخ فلا يؤاخذه ولا يكلمه، وربما أشفق عليه، ويسيء على أولاد الشيخ ويشكونه إليه فلم يشكهم، ويأمرهم باحتماله، وتزداد شفقته عليه حتى طال ذلك، وعاتبه الناس في ذلك، فقال الشيخ ﷺ: دعوه؛ فإني أشهده مشنوقًا، وقد شنق نفسه، فكلما شهدته على تلك الصورة أزداد شفقة عليه؛ لأنه يصير إلى جهنم.

وكان الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد -رحمه الله تعالى- يشفق على إنسان شفقة عظيمة، فتكلم الفقهاء في ذلك، وقالوا له: إنه ما يصلي، فقال: والله زدتموني شفقةً عليه، أنا كنت أشفق عليه في الدنيا، فصرت أشفق عليه في الدنيا والآخرة.

ولم يزل هذا وصف هذه الطائفة -رضي الله تعالى عنهم- جعلهم الله تعالى رحمة لعباده وعمارة لبلاده، بهم ينزل الغيث ويرتفع السخط.

إذا نــزَلُوا أرضًــا تــولّى محولُهــا وأصْــبحَ منهــا روضــةً وغــديرا
وإن رحلـوا عنهـا غَـدت وَرمالُهـا مِـن المسـكِ طيـبٌ والـتراب عبـيرًا
كـأنَّ مـواطنَ الخيْـلِ فيهـا أهلـةٌ وآثــارَ أخفَــاف المطــي بــدورًا

رَوحانيــّة الفقـراَء

وذكر أن روحانية الفقراء أو الولي إذا دخل مكانًا أو مشى في أرض، تبقى تلك

الروحانية ستة أشهر، ولقد عاينت ذلك.

وذلك أن مسجدًا في البر ما بين دمامين والأقصرين يُسمَّى مسجد «البدمود» لنا إليه تردد كثير، كلما دخلته أجد فيه انشراحًا وجمعية قلب، مع سعته وقدمه وبُعْده عن الناس، وكل من دخله يقول ذلك حتى لا يكاد أحد يدخله، ولا يجد ذلك إلا من كان قلبه في غلاف الحجاب الأكبر، وما ذلك إلا لورود الصالحين فيه، وكان الشيخ أبو العباس يزوره.

وبظاهر الأقصرين مسجد أجد فيه رَوحًا، وكأني أجد الشيخ أبا العباس فيه واقفًا يصلي، وكان السائل يجد به ذلك بالقياس.

وإن لم تكن رأيت مثل هذه الأماكن التي تدخلها الأولياء، فإذا نظرت إلى ضرائح المشايخ الأموات تجد عندك الانشراح، وإذا نظرت إلى دور أبناء الدنيا تجد الغمّة على قلبك، وكذلك إذا نظرت إلى الظَّلَمَة وأماكنهم، فتجد الفرق بين أماكن الظلمة من الولاة وغيرهم وبين المساجد والزوايا، لا يكاد ذلك الفرق يجهله إلا أكمه البصيرة، أعمى القلب، مزكوم المعنى، مخمور العقل.

فإن البيوت المنسوبة إلى الله تعالى تجد فيها الانشراح، وتلوح عليها الأنوار، وتجتمع فيها القلوب، وتجد في الأماكن المنسوبة إلى الظلمة ظلمة القلوب، وضيق النفوس، وعليها ظلام يتبعها قتام، حتى لا يكاد يستقر بها من له قلب نيّر وبصيرة، إلا من كان من أهلها، أو عمله بعملهم.

هذا شيء بالاستقراء ولا يكاد يخطئ- فانظر ذلك تجده؛ وذلك لأن أنوار الطاعة تظهر على تلك الأماكن المنسوبة إلى الله، وظلمة المعصية تظهر على تلك الأماكن المنسوبة للظلمة، ولأن الحياة قائمة بالأرواح المعنوية والحسية، تبقى روحانية الولي إذا نزل بمكان حياة معنوية، فإن قويت ظهرت حسًّا.

خصَائص الأرواح

فإن من خصائص الأرواح أنها لا تحل بشيءٍ، ولا تطأ بشيء إلا حيي ذلك الشيء، وقد كان السامري عارف بهذه الخاصية، فلما رأى جبريل عليه السلام، قبض قبضة

من أثر حافر فرسه، فنبذها على تلك الآلة فصار عجلاً جسدًا له خوار، فكان به إضلال قوم موسى الطَيْكِلا وقد قلت:

طَابتْ بطيبِ حديثِك الأوقاتُ وَسَرت إلى الأمواتِ منك حياةُ
وسَرت نسمةُ عرف ذيَّاك الحمى فتَباشَر الأحياءُ والأمواتُ
وغَدا لرُوحِ الرُّوح منك تعرُّفٌ قامَت به بين الأنام رِفاتُ
وطئ التراب بحافريه جَوادُه فبقبْضةٍ نبذت بها ومواتُ
صَار الترابُ على الجماد تجسُّدًا عجْلاً بجوز وهذهِ آياتُ
عبدوه فيك تجاهلاً في قصدِهم غَير الإله ولو رأوْك لماتُوا
فأتى الكليمُ وردَّهم عن جهلِهم وبَدا له من ربِّه ميقاتُ
وبدا الكلام من الإله لعَبدِه موسَى الكليمُ وما بدت أصواتُ
كلُّ الجهات لكلِّ عبدٍ وصفُه حَقًّا وما للرب قط جهاتُ
للعبدِ حَدٌّ تنتهي غاياتُه والرَّبُّ لا حدَّ ولا غاياتُ

أسْرار الأرواح

وأسرار الأرواح في الأحياء وفي غير الأحياء، والخصائص غامضة لا تدركها العقول، كما أن خاصية جبريل الطَيْكِلا في إحياء الأموات من جميع الأجناس والأنواع، حتى تصير أجسادًا ظاهرة قائمة متحركة متكلمة، فكذلك خاصية عزرائيل في إماتته الأحياء من كل نوع وجنسٍ، حتى تصير الأجساد ميتة وأرواحها باطنة، لا حركة فيها ولا كلام مع بقاء الأرواح، وهي مستورة على الأبصار، ومحجوبة عن الأجساد، إلا عند المساءلة، وعند الإذن من الله تعالى لها في السّماع، ويوم المعاد.

فلذلك تتمزق الأجساد وتأكلها الهوام والتراب، ولولا حجاب الأرواح عنها لما بليت تلك الجلود والعظام، فإن الأرواح من خصائصها ألا تمس شيئًا إلا حيي ذلك الشيء، ما خلا أجساد الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- فإنها محفوظة من الهوام والتراب، ومن حصل له نصيب من محبَّة الله تعالى، أو الشهادة فيه، فتبقى أجسادهم

للحياة المذكورة في القرآن.

وقد حُكي في ذلك حكايات ليس هذا مكانها، لكن لا بُد من تنبيه: فإنه قد ورد أن موسى ﷺ رُئي قائمًا في قبره يصلي.

وقد ذكر أن شخصًا نزل إلى قبر الخليل ﷺ فوجده جالسًا وهو يقرأ، فربما صاح به فحصل له ما حصل، إما العمى أو غيره.

وذكر أنهم نبشوا قبرًا في زمن عمر بن الخطاب ﷺ فوجدوا شخصًا ويده على رأسه، ففتحوا يده ففاض الدم فردوا يده عليها، وأطلعوا عمر على ذلك فقال: أبقوه على حاله.

وحُكي عن الشيخ أبي علي الروذبادي[(١)] -رحمه الله تعالى- قال: رأيت شابًّا ميتًا على مزبلة، فأخذت في جهازه وتكفينه ثم حضرت له وألحدته، وشققت الكفن عن وجهه، ووضعت خده على التراب، وقلت: يرحم الله تعالى غربته، قال: ففتح عينه ونظر إليّ وقال لي: أتذللني بين يدي من ذللني، لا نصرتك بجاهي غدًا يا روذبادي، فقلت: يا سيدي، أحياة بعد الموت؟! فقال: وأين الموت؟ أنا حيٌّ، وكل محبٍّ لله فهو حيٌّ، صدق -رضي الله تعالى عنه-.

فإن الله تعالى أخبر عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء يُرزقون فرحين، فما ظنك بمن قُتل في حبّه؟ وهذه الطبقة وما قبلها فرحت بالتخصيص؛ لأن الأول في سر الأرواح تخصيص في الإحياء، ولهذا أيضا تخصيص في الإماتة، والخصائص الإلهية لا يحجر عليها، ولا للعقول فيها مجال[(٢)].

---

(١) هو أحمد بن محمد بن القاسم ابن منصور بن شهريار بن مُهْرذاذاز بن فُرْغُدُدَ بن كسرى.

وهو من أهل بغداد، سكن مصر، وصار شيخها، ومات بها، صحب أبا القاسم الجنيد، وأبا الحسين النوري وأبا حمزة وحسنًا المسوحي، ومن في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام ابن الجلاء، وكان عالما فقيهًا عارفًا بعلم الطريقة، حافظًا للحديث. توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وانظر: طبقات الصوفية (٣)، (٣٥٤)، وطبقات الشعراني (١/١٢٤)، والحلية (١٠/٣٥٦)، والرسالة القشيرية (ص٣٤)، وحسن المحاضرة (١/٢٢٥).

(٢) **قلت**: قال الشيخ عفيف الدين اليافعي: «الأولياء ترد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت =

=

السماوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات، كما نظر النبي ﷺ أبي موسى في قبره قال: وقد تقرر ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدي قال:

ولا ينكر ذلك إلا جاهلٌ، ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة فلنكتف بهذا، والأخبار الواردة عن حاله، وحال الأنبياء في البرزخ مصرحة بأنهم ينطقون ويتزاورون كيف شاءوا لا يمنعون من شيء، بل وسائر المؤمنين الشهداء وغيرهم ينطقون في البرزخ بما شاءوا غير ممنوعين من شيء.

ولم يرد أن أحدًا يمنع من النطق في البرزخ إلا من مات عن غير وصية».

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: «حياة الأنبياء والشهداء في القبركحياتهم في الدنيا، ويشهد لهم صلاة موسى ﷺ في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسدًا حيًا، وكذا الصفات المذكورة ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدُّنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم، وكسائر الموتى» انتهى.

وقال الشيخ الهيتمي في «الجوهر المنظم»: «ثبت أن حياة الأنبياء ولا شك أنها أكمل من حياة الشُّهداء، مع أ نَّا نعتقد ثبوت نحو السمع والبصر لكل ميت، وعود الحياة له في قبره، كما ثبت في السُّنة ،ولم يثبت أنه يموت بعد، بل ثبت نعيم القبر وعذابه، وإدراكهما مشروط بالحياة لكن يكفي حياة جزء يقع به الإدراك، ولا يتوقف على حياة البنية خلافًا للمعتزلة. وأما أدلة حياة الأنبياء فمقتضاها حياة الأبدان كحالة الدنيا مع الاستغناء عن الغذاء، ومع قوة النفوذ في العالم، وقصة سماع ابن المسيب للأذان والإقامة من القبر الشريف مشهورة.

وقال: «نحن نؤمن ونصدق بأنه ﷺ حيّ يُرزق، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، وكذا سائر الأنبياء، والإجماع على هذا قيل، وكذا العلماء والشهداء والمؤذنون.

وصح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والأولياء، فوجدوا لم تتغير أجسادهم نعم الظاهر من الأدلة أن حياة الشهداء أقوى من حياة الأولياء للنص عليها في القرآن، ودون حياة الأنبياء؛ لأنهم بها أولى وأحرى، والتفاوت فيها بمعنى التفاوت في ثمراتها غير بعيد، وفي حصول هذه الحياة لشهداء الآخرة فقط كالغريق والمبطون توقف.

وأكّد جمهور العلماء على أن حياة الشهداء حقيقية.

وقيل: للروح فقط، وقيل: للروح والجسد بمعنى أنه لا يبلى وأنه تستمر فيه أمارات الحياة من الدم وطراوة البدن، وهذا هو المشاهد في أبدانهم، كما صح أن جابر بن عبد الله، وعمرو بن الجموح، وهما من شهداء أُحد حفر السيل قبرهما بعد ست وأربعين سنة، فوجدوا لم يتغيروا، وكان أحدهما جُرح، فوضع

=

يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ

وكما أن جبريل عليه السلام تنجذب إليه الأرواح بالظهور لكماله في روحانيته، فكذلك عزرائيل تنجذب إليه الأرواح في الأحشاء والبطون، فساعة تكون متروح على صورة عزرائيل، تنجذب إليه جذبًا خاصًا بحيث لا تثبت في الجسد، وقالوا: إن الملائكة الموكَّلون به رفاق له وأعوان على ذلك، وهي أسرار لا يعلمها إلا الله، وهو يقبض في كل ساعة من الخلائق في جميع العوالم ما لا يعلم علمه إلا الله تعالى، وهو يظهر لهم بصورة أعمالهم في مرأى حقائق أرواحهم فينجذبون إليه جذبًا، كل منهم إنما جذب غيره.

وهو في المثل كالشمس يراها كل الناس في أماكنهم من البلاد بحسب حاله، وضعف بصره أو قوته، وهي واحدة في حدِّ ذاتها الصقيلة المستديرة، كالكرة في جميع الجهات يتراءى في رأي العين الرائي والمترائى، سواء كانوا كثيرا أو قليلاً؛ لأنها مرآة الوجود، فإذا تحققت هذا المثال وما قبله لا تنكر كون عزرائيل عليه السلام يقبض آلافًا من الأرواح في اللحظة الواحدة، وكل واحد منهم يتحققه ببصره، وتنجذب إليه رُوحه، لأن المسافة والتقدير والقرب والبعد من صفات الأجسام لا صفات الأرواح، فافهم ذلك، فإنه بحر عميق تحار فيه الأفكار والعقول، وانظر إلى ما لله تعالى مما لا يتناهى من

=

يده على جرحه، فاميطت ثم أرسلت، فعادت كما كانت، وأصابت المسحاة قدم حمزة بعد خمسين سنة، فسال منه الدم» انتهى.

وبالجملة: فصرائح الأخبار والآثار والروايات، ونصوص جمهور العلماء سلفًا وخلفًا في دوام كرامات الأولياء، ووقوعها في حياتهم، وبعد مماتهم لا تنحصر كما تقرر وأما قول السراج الأُوشي- بضم الهمزة وكسر الشين المعجمة- في عقيدته اللامية:

كرامات الولي بدار دنياه لها كون فهم أهل النوال

فقد ذكر شُرَّاحها ما أطلق عليه أئمة أهل السنة من ذكر هذه المسألة في عقائدهم.

وللاستفاضة في مسألة حياة الأنبياء والأولياء في قبورهم بعد انتقالهم انظر كتابنا: «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال».

الملائكة، كجبريل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل، وغير ذلك مما لا يسعه هذا الكتاب، ولا يستعين عليه بخطاب، ولا عنه للسائل جواب.

فانظر إلى هذه الملائكة العظيمة فكيف بخالقها، والعالم بما فيها، والموجد لها من العدم؟

ثم إذا انكشف الغطاء وبُدِّلت الأرض والسماء، وصار ما كان باطنًا ظاهرًا، وما كان ظاهرًا باطنًا فتكون الأجسام باطنة، والأرواح ظاهرة، كما أن الأرواح ها هنا باطنة والأجسام ظاهرة، فيبقى ظهور الحلم للأرواح، والجسد باطن في روحه، كما كان الجسد ظاهرًا والأرواح باطنة فيه، والحكم في النعيم والجحيم على الجسد والأرواح معًا، مكمل هناك للدوام، وتجمع الأوائل والأواخر، وينكشف الغطاء ويظهر العمى ويجهر الخفي.

الَّذِي خَلَقَ الموْتَ وَالْحَيَاةَ

وكما أن الموت باطن الحياة، يبطن الموت ويموت، ويظهر الحياة وتحيا بالبقاء، لأن الموت حقيقة الفناء، فيظهر حقيقة البقاء.

وكما أن النيّات باطنة والأعمال ظاهرة، فتظهر النيات صورًا وتخفى الأعمال، ويبقى حكم النيات ويجازى صاحبها بصورة نيته في عمله، فإن النفوس تُحشر على صور أعمالها، وحقائق نياتها، وكذلك القلوب،ترى الله تعالى بصفات معتقدها؛ لأن الاعتقاد ينفع والملك عظيم، وحقائق الجنان وما فيها من شهوات الإنسان، والصور الحسان من الحور والولدان ومن الفواكه والرمّان، والأرائك والعيدان والألحان، وما لا يعبر عنه جنان، ولا ينطق به لسان، وتقر الألسن، وتلذ الأعين، ودوام الخلود وشهود المعبود، وإزالة الحصر والحقد، وقد نبهَّك الله تعالى على ما فيه الكفاية، فقال تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠].**

ولن يسع الزمان ولو طالت الأيام والأعوام استيعاب ما أعدَّه الله تعالى لعباده في الجنان، والروح والريحان، فسبحان الملك المنَّان، المجازي على السيئات بالغفران والإحسان، وإنما ذكرنا التنبيه على الخصائص في كل نوع؛ ليعلم العبد ما لهذا السيد عليه من النعمة المتوالية، وخواص الإلهام في كل نوع جاذب.

الدابّة والصِّل[١]

ولقد ذكر ابن حيان في كتابه أن الدَّابة المسماة بالصّباة ما بين حماليق عينيها فرسخ، وهي تأكل الحيات الصل أكلاً ذريعًا، وأن من خاصية الصِّل أنه إذا رآه أحد وهو حيٌّ مات الرائي له، وإذا رآه ميتًا لا يضره وهذه خاصة روحانية.

وكذلك إذا رأى الصل نفسه في شيء كالمرآة مات هو؛ لأن الخاصية في رؤيته وهو حي فيموت، وهو لا يرى نفسه ميتًا.

ولما كانت هذه الخاصية في هذا النوع من الحيّات وهو الصل، ولا لهذه الدابة أكل غيره، فألهمها الله تعالى أن تأتي أحجرة الصلا فتنفخ فيها، فيخرجون فتقلب أعينها، فينظرون أنفسهم في أعينها كالمرآة للمرأى، فيموتون فتأكلهم أكلاً ذريعًا، ويكون الصل منهم يبلغ خمسة آلاف رطل!

فانظر -رحمك الله تعالى- إلى هذه الخاصية وهذا الإلهام، وسر هذه الأرواح وما فيها، وما لها من الخواص، ويشمل هذه المعاني: الجمادات، والنبات، وخواص الأحجار لا ينكر لجذب المغناطيس الحديد القس، وقد رأينا ذلك.

ومن العجب ما أُخبرت به ولم أرَه، وإنما أخبرني عدلٌ أنه جَّربه، وهو الشيخ شمس الدين عبد الرزاق بن حسام -رحمه الله تعالى- أن المغناطيس إذا لطّخ بالثوم بطل فعله، فإذا لطخ بدم تيس زال عنه المانع، أو العكس، والله تعالى أعلم، أي ذلك قال!.

وكنت يومًا جالسًا والصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى- وقد ذكرنا عندنا من يحتاج إلى الدهنج لزوال بياض بعينه، فاستدعى بلويحات صغار تقدير الظفر أو دونه، فأخذ واحدة منها، وحك بها على سكين الدواة، وجعل عليها ليمونة أو مسحها بليمونة فصارت السكين نحاسًا أحمر فقال: هذا الدهنج[٢] الخالص يفعل هكذا.

أسْرار اللّـــه

وأسرار الله تعالى منبعثة في جميع المخلوقات من الجماد والنبات والتراب والنار

---

(١) الصل: بالكسر، الحية. وانظر: القاموس المحيط (١٣٢٢/١).

(٢) الدَّهْنَجُ: بفتح الهاء، جوهر كالزمرد، قال داود الأنطاكي: إذا اكتحل بحجر الدهنج أذهب البياض من العين، «مجمع المنافع البدنية» (ص٣٢) .

والهواء والحيوان والإنس والجن، فلا تنكر يا ولي ما يعطاه الإنسان الذي هو أشرف الموجودات والأقرب من ربه ﷻ، فكيف بالكمال ومن أعطي غاية الترتيب الإنسانية؟ فكيف بالنبوة والولاية؟

فيجري الله تعالى على أيديهم وجوارحهم ما فيه النفع والضر والخير والشر والموت والحياة والسعادة والشقاء.

وانظر إلى ما يجريه الله تعالى على ألسنة الأنبياء والمرسلين من الأقوال وعلى أيديهم من الأفعال، وكيف يتحدّون به ويقع في الوقت المطلوب منهم، كما وعدوا به من إهلاك الأمم الخالية وما نزل بهم من البلاء في الدنيا، وظهور حقائق ما تواعدوهم عليه في الدار الآخرة من العذاب والعقاب، فلا تجد شيئًا قالوه إلا وقع، ولا شيئًا فعلوه إلا ثبت ولا يقع خلافه، وهم معصومون عن الخطأ والنقائص.

وانظر إلى الأولياء وهم أتباعهم والآخذون عنهم والوارثون علومهم وأحوالهم -وإن كانوا غير معصومين- وفرّق ما بين النبي والولي، وهم في محل الجواز، ولا يلزم من الجواز الوقوع، وكيف يتصرفون في الأكوان وفي انقلاب الأعيان؟ وما يظهر على جوارحهم وألسنتهم من الآيات والبرهان والكرامات التي لا يختلف فيها اثنان.

وانظر ما أُعطوه من القوّة الرّوحانية وشدة الجنان حتى أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن أن ملك الموت جاء ليأخذ ولدي فقلعته منه إلى هذه القوة والجنان.

سيدنا موسَى وملَك الموت

ولذلك مناسبة من الإرث النبوي، فإن في الحديث الصحيح أن موسى عليه السلام **«لطم ملك الموت ففقأ عينه**[1]**»**، وأن الله تعالى ردها عليه وقال له: ارجع إليه، وقل له: الحياة تريد؟ ضعْ يدك على متن ثور، فما حازت من الشَّعر تعيش بكل شَعرة عاماً. قال: ثم؟ قال: تموت. قال: فمن الآن.. فقبض روحه.

وتحت هذه الحكاية أسرار عظيمة، وجلالة الأنبياء -صلوات الله عليهم

(١) رواه البخاري (١/٤٤٩)، ومسلم (٤/١٨٤٢).

وسلامه- لكونهم لا يقبض ملك الموت أسرار وليس هذا مكانها، وقد ذكرنا من رأيناه وتصرفاتهم ومن أخبرونا عنه.

حكايات من كرامات الأولياء:

١- الوزارة

وحدثني أبو الحكم المغربي قال: كنا بدمشق بمسجد قريب من دار بن السعلوس[١]، وكان ببرنا وإذا جاءنا فقير نروح إليه فيعطينا ما نطعمه به، فورد علينا فقير فأخرج لنا خبز وصحيفة بيده وقال: يا فقراء، إذا كان للإنسان حاجة ما تقضونها، فأتينا إلى ذلك الفقير وقدمنا له ذلك الطعام وقلنا له الذي قال له ابن السعلوس فقال: في نفسه الوزارة- أوقال الحسبة والوزارة- وهو يتولى الحسبة والوزارة بمصر والشام، أو قال عرّفوه فربما عرفناه، فما مضت أيام حتى ولي الحسبة ثم ولي الوزارة بمصر والشام رحمه الله تعالى.

٢- ملك مصر والشام

وحكى لي طلحة الدماميني -رحمه الله تعالى-وكان فقيرًا صالحًا -قال: كنت أنا وفقير والشيخ خضر بالشام، وكان الملك الظاهر يأتي إلينا قبل أن يملك وعليه عباءه ويجلس عندنا بالمسجد، فحضر عندنا يوم ثم خرج، فقال لنا ذلك الفقير: هذا ملك مصر والشام، ثم سافر الفقير، ثم حضر الملك الظاهر فعرفه الشيخ خضر أنه يملك مصر والشام، فعاهده أنه إذا ملك كان قسيمه وقال له: إذا رأيتني امسك إبهامي، وكانت هذه إمارة بينهما، فلمّا ولي الملك الظاهر جاء الشيخ وحضر إليه ومسك إبهامه وحصل له معه ما حصل من تلك الأحوال قال: فلما وصلت إلى مصر اجتمعت بالشيخ خضر فقال لي السلطان يطلبك، فحلفت له ما أجتمع به، ولقد رأيت هذا الفقير طلحة في أيام الشتاء يلتف في حُصر المسجد ويرقد وما اجتمع بالملك الظاهر،

(١) نسبة لابن السعلوس أخو الوزير أحمد بن عثمان بن أبي الرجاء الرئيس شهاب الدين ابن السعلوس التنوخي الدمشقي، أخو الصاحب شمس الدين كان ديناً عاقلاً ثقيل السمع يحب سماع الحديث، وهو كثير البر والصدقة، رزق الجاه العريض في دولة أخيه، ثم ذهب ذلك وعاد إلى حاله. مات كهلاً سنة سبع وتسعين وستمائة. وانظر: الوافي (٩٣٧/١)، والبداية (٦٢٢/١٣).

إلا أن مملكته أشرف من ملك الدنيا وممن جعلوا همهم التصريف في الحياة وبعد الممات.

٣- الشيخ أبو النجا والسُّكر

وحكى لي عز الدين بن عبد الرحمن البوشي أنه توجه إلى الإسكندرية قال: وكان معي ستمائة وعشرين مغلف سكر، فدخلنا فوه وهم يأخذون في فوه على كل مغلف سكر درهم، فطولبت بذلك، فقال الناظر والوكلاء: هذا رجل جيد يعرفنا، كم معه مغلف؟ فقالوا لي كم معك؟ قلت مائتي مغلف، فقالوا الله تعالى شاهد عليك؟ قلت: نعم، ثم إني قلت لصاحب المركب سافروا بنا.

فبينما نحن كذلك وإذا برسول حضر من الناظر وطلبني، فصرت إليه فقال لي: يا ولدي، الوكلاء قالوا إن معك حملة عظمته ولا لي معهم حيلة، انزل عدْ معهم فقلت: خليهم يتقدموا: وحصل عندي ألماً شديداً لكوني معروفًا عند الناس بالخير وكوني أكذب.

وبعد أن قلت ذلك القول دخلت إلى قبر الشيخ أبي النجا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبكيت عليه وتوسلت به، ثم خرجت من عنده فوجدت الناظر راكبًا. قلت: يا سيدي، إلى أين؟ قال: أسلم علي ناظر الإسكندرية. فقلت له: يا سيدي، ما تروح حتى تخلصني فقال: يا ولدي، وإيش أعمل فيهم؟ قلت له: يا سيدي، كان معي ثمانية عشر مغلفًا وديعة، قلت ما أدفع عليها شيئًا، فقال ادفع لهم عشرين درهمًا وسافر، ثم قال لغلامه رح معه إلى الوكلاء وقل لهم هذا ضيف القاضي، خذوا منه عشرين درهمًا واتركوه.

فقالوا ضيف القاضي ما نأخذ منه شيئًا، فحلفت عليهم، ووزنت عشرين درهمًا وسافرت ببركة الشّيخ أبي النجا.

٤- الكتّــان

وحكى لي القاضي زين الدين البوشي عن والده قال: كان بيني وبين ابن قرصة صحبة، وكان ناظر البهنساوية: فاحتاطوا عليه بعد عزله، وكنت أوسقت مركبًا كتانًا، فلما وصلت إلى مصر وإذا بجندارين يحاذيان المركب، فلما دخلت إلى عند دار الوكالة

مسكوا الرئيس وقالوا له: هذا النفيس ابن قرصة، ثم رسم بحمله إلى دار الوكالة فحملوه، فتألمت لذلك ألماً كثيرًا، وتشفَّعت بجماعة فلم يفدني ذلك، قال: فطلعت إلى القاهرة فاجتزت بمسجد لأصلي فيه فوجدت فيه جماعة من الفقراء، فقالوا لي: ما لك هكذا؟ فقلت: ملهوف ملهوف، فقالوا: اجلس وأطعم الفقراء شيئًا -وكان معي رفيق- فدفعت إليه درهمًا اشترى به ما يأكلوه، وأحضره إليهم فأكلوه، ثم هممت بالقيام فقالوا لي: اجلس، فجلست.

فلما فرغوا من الأكل زيقوا زمانًا ثم رفعوا رءوسهم وقالوا امضِ؛ فقد قُضيت حاجتك وزال همّك، فخرجت من المسجد ومشيت قليلاً فوجدت شخصًا يعرفني، فقال لي: سررت بما سمعت من إطلاق الكتان، فقلت: وكيف ذاك وقد فارقتهم على أن يقبنونه وأيست منه؟ فقال ابن قاضي دارا: حضر لزيارة القاضي النفيس ابن قرصة، فوجده متشوشًا بسببك، فأطلق الكتان وردّوه إلى المركب. وذلك ببركة الفقراء.

٥- الشيخ أبو النجا والكاشف

وحكى لي الأمير ناصر الدين بن الخازندار -وكان موثوقًا به- قال: كنت نائبًا لأحد الأمراء في الجيزية، فجاء كاشف فأراد أن يشوّش عليَّ فجمعت أصحابي والفلاحين الذين عندي وهجمت عليه وضربته، فانحدر في وقته.

وخشيت منه على نفسي الشنق، فدخلت على الشيخ أبي النجا وجعلت في عنقي منديلاً، وربطتها في ضريح الشيخ أبي النجا فأخذتني سِنة فرأيت الشيخ أبا النجا، فقلت: يا سيدي، من أنت؟ فقال: أنا سا لم، وربما أشار أو كما قال: بالسلامة. قال: فاستيقظت وقمت، وتوجَّهت إلى مصر متخفيًا في وصولي، وسمعت أن ذلك الكاشف حين وصل احتاطوا عليه، ورموه الجب.

ببركة الشيخ أبي النجا قدَّس الله تعالى روحه.

٦- العــزومة

وحكى لي الفقيه شهاب الدين السفطي الرشيدي أنه عزم عليهم في مفتاه بسفط رشيد-وكان ذلك المكان منزلة لأمير البلد، إذا حضر ينزل فيها- فبينما نحن مجتمعون وأكلنا وانبسطنا، قيل: الأمير وصل، فحصل للجماعة من ذلك شيء.

وكان بيننا فقير، فجعل يقول: ها هو قد جاء، ها هو قد قرب من المنزلة، فقال الفقير بيده: ارجع، فلم نشعر إلا وهو قد رجع ومن معه.

فسألت أحد أصحابي عن سبب رجوع الأمير فقال: ما أعرف إلا أنه قال: روحوا بنا المنزلة، فلمّا قربنا منها قال: ارجعوا فرجعنا.

٧- الكلـــب

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-قال: كنا جلوسًا والفقراء، فجاء كلبٌ فجعل الفقراء يطردونه، فلم يبرح، فأدخل فقير رأسه في عبّه أو زيقه وقال للكلب: رُح، فراح الكلب يجري إلى أن راح بالكلية.

٨- موت وبقاء

وحكى لي الفقيه شهاب الدين المقدم ذكره أن فقيرًا قال له: قُلْ للقاضي زين الدين بن مخلوف[١] أن ابن دقيق العيد يموت ويبقى بعده مدة، وهما راكبان طيبان في ذلك الوقت، وعرَّفته بذلك.

وقد توفي الشيخ تقي الدين وبقي القاضي زين الدين بعده إلى الآن.

التأْثيــــر في المَوجُــودات

أما عن الخواص والتأثيرات في الموجودات، فلهم منها ما لا يسعه هذا الكتاب، فلا يتوهمن في ذلك، فإن كثرة الحجب إنما وقعت على المحجوبين من عدم الإيمان بهذه الطائفة، والتخصيص الإلهي، ووقوفهم مع العوائد، ولو عقلوا لعلموا أن من العوائد ما هو عند غيرهم خرقًا للعوائد، فإن زيادة النيل ونقصانه في أوان الحاجة إليه خرق عادة عظيمة، وقد صار عادة حتى إن من كان من غير أهل هذه الديار ينكر ذلك.

ولقد كان معي رجل مغربي ونحن بساحل مصر قبل طلوع النيل، فذكرنا حديث

(١) قال ابن كثير: زين الدين بن مخلوف توفي عن أربع وثمانين سنة وله في الحكم ثلاث وثلاثون سنة. البداية (٨٧/١٤).

زيادة النيل، فعجب لذلك وحلف ألا يسافر إلى بلده حتى يطلع النيل وينظره يفعل ذلك، وكذلك الأمطار في البلاد التي ليس بها النيل، تأتي في وقت الحاجة إليها.

تدبير إلهي

وبلغني أن بعض البلاد محجّر، فإذا كان أوان احتياجهم إلى الزراعة يهب ريح فيأتي لهم بالتراب، حتى يملأ تلك النواحي التي يزرعون فيها، ثم يمطر المطر عليه فيزرعون، فإذا حصدوا وحملوا غلالهم جاءت الريح فحملت التراب عنهم.

بين الحق والباطل

فانظر إلى هذا التدبير الإلهي الذي تعجز العقول عن إدراكه، ثم الخواص التي في الإنسان عن النبي والولي؛ إذ المضاددة يستبين فيها الحقائق.

فالنبي والولي في رتبة الحق، والساحر والسيماوي في رتبة الباطل، وتخرق العادة للجميع، لكن الساحر يأتي بالتخييل، فتخيل ما هو موجود ولا يوجد شيئًا من غير شيء، والسيمياوي يُوهم بالتزيين ولا حقيقة له، والمعيان من أعاجيب الإنسان إذ ينظر إلى الشيء بعين التعجب أو الاستحسان فيذهبه أو يهلكه، أو يقع فيه الفساد.

ابن عربي البدوي

وقد كان عندنا شخصّ بدويّ يُسمَّى ابن عربي، كان إذا نظر إلى الشيء حصل له في وقته الفساد، ولقد رأيت مرة النواتية يجرون خلفه ليقتلوه، وكان قد رأى مركبًا وهو مربوط بالساحل فاستحسنه فقطع المركب الحبال وشمر ولا قدروا على ردّه، وكان مركبًا كبيرًا، وبلغني أنه نظر إلى نخلة موسوقة بالأسابيط فاستحسن ذلك الوسق فسقطت أسابيطها في وقتها.

وكان عندنا بالأقصرين شخصًا من أولاد الأكابر كذلك حتى في ماله وأحوال نفسه، وهذه من الخواص العجيبة- وكل ذلك أسرار إلهية تجري بحسب الإرادة في مخلوقاته بالنفع والضر والإيمان والكفر.

آثار الرحمة والغضب

والله تعالى يظهر آثار الرحمة على جوارح المختص من عباده كأنبيائه ورسله وأوليائه والخواص من عبيده، ويجري آثار غضبه على أيدي الجبابرة من عباده والمبعودين

من بابه من أعدائه.

مملكة داود وسليمان

وانظر إلى خلافة داود وملك ولده سليمان -عليهما السلام- وتسخير الجبال في الذِّكر والطير وإلانة الحديد، وتسخير الجن والريح والشياطين لسليمان، وتلك المملكة العظيمة.

الإسكندر ونمرود

وكذلك الإسكندر ذو القرنين وما فتح الله تعالى على يده من البلاد وما هدى به من العباد.

وانظر إلى مقابلة ذلك في نمرود بن كنعان، وكيف ولدته أمه بالبريّة، وماتت وتركته، فأرضعته نمرة فبذلك سمي نمرودًا ونشأ وكان منه ما كان من التجبّر.

فرعــون

وانظر إلى فرعون بابتداء أمره وما صار إليه حاله ودعواه الإلهية مع معرفته بنفسه وصغر جسمه -قيل أن طوله كان ذراعًا ونصف، وأن لحيته كانت إلى سرته، وأنها كانت خضراء كالصلق- وكيف آل أمره إلى ما آل إليه.

بختنصّــر [1]

وانظر إلى بختنصر وما كان بدء أمره مع كونه كان يتيمًا بأرض بابل وأبوه حطّاباً وحصل ما حصل.

ولولا الإطالة لذكرت ابتداء كل حال واحد منهم وما صار إليه مبسوطًا، وإنما قصدنا التنبيه على الخواص في كل مخلوق لله تعالى، وأفضل المخلوقات الإنسان الكامل.

هَــــذَا خَلْقُ اللّـــــه

وانظر إلى عجائب الملكوت العلوي وما فيه من الملائكة وما هم عليه من عدم الأكل والشرب وطعامهم التسبيح ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾

(١) إشارة إلى بختنصر وقومه - وهم عبدة النيران - وهم الذين خربوا بيت المقدس وحرقوا التوراة. وانظر: تاريخ دمشق (٣٣١/٤٠).

[الأنبياء: ٢٠].

وفي عجائب الملكوت من العجائب ما تتعجب من العجائب وليس هذا مكانه فانظر إلى هذه المملكة العظمى.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وانظر إلى اختلاف الألسنة والألوان في كل لون حسن في كونه لا يلتقى في غيره، وفي كل لسان تعارف من جنسه لا يلتقى بي غيره، لأن من جمع بين ألسنة أو لسانين أو جميع الألسنة كلها وهذا يفهم عن جنسه، حتى صياح الحيوان يفهم بعضًا بعضًا من سائر الحيوانات كلها ولغاتها وكلامها وألسنتها وألوانها مسبحات لله تعالى قائمات لعبادته.

لغَــة أهْل الجنّــة

ومن كانت حقيقتة محمدية وفصاحتة معنوية عربية فهم جميع الألسن ونطق بأحسنها وهو لسان العرب الذي يكلم الله تعالى به الناس يوم القيامة، وهي لغة أهل الجنة، وهي أفضل اللغات في البيان، وهي محل الاعتدال لقوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

ولما تكلم الله تعالى بالقرآن وهو كلامه على الدوام على لسان العرب كان من أكبر المعجزات، لأنهم أفصح الخلق، ولم يقدروا علي مثل سورة ولا بعض سورة، ولو اجتمع كل من في الأرض من الجن والإنس والملائكة والشياطين، وفصاحة العرب طبيعة فيهم ومنهم لكتاب الله تعالى أعني القرآن العظيم لأنه عربي.

من بلاغيِات عِوامِ العرب:
تبارَك الله

حكى لي الشيخ أبو العباسي الملثم -رحمه الله تعالى- قال: كنت أمشي في البرية وأنا أقرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فقلت في نفسي: ما هوالتبارك؟ وتحيرت في ذلك، وإذا ببنات من بنات العرب يلعبن، وإذا واحدة منهن صعدت علي تل من رمل وجعلت ترقص وتقول تباركت عليكم تباركت عليكم، فعلمت أنه التعالي.

وأخبرني الشيخ مجيد الدين مهنا قال كنت يومًا أمشي بأبيات العرب وأنا أتلو

(وَهُوَ الَّذِي مادَى الأَرْضَ) فرفعت إمرأة سجاف البيت وقالت له: يا فقير، حقق الأمر ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ [الرعد:٣].

وهذا الكلام في صغارهم وكبارهم وعبيدهم وإمائهم ورجالهم ونسائهم.

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أنه سمع عبدًا صغيرًا يقول لبياع عندهم أعطني ملحًا بفلس وبذى البيضة حنّا، فقال له البياع: من سيدك؟ أنني ويحك عند الأمير ابن مهنا.

الجاريَــــة

فانظر إلي هذه الطبيعة.. كما حكى لي أن غيلان ذو الرمة مرّ بأبيات وهو عطشان، وإذا بجارية سوداء فطلب منها ماء فسقته فقال لها: ما أحرَّ ماءك يا جارية! فقالت: لو نظرت إلي عيب شعرك لأشغلك عن حَرِّ مائي وبرده، فقال لها: وما ذاك؟ فقالت:

ألستَ الـذي شبهتَ عير البقـرة ... لهــا ذُنـب فـوق إسـتها أم سَــالم

جعَلـت لهـا قَـرنين فـوق جبينِهـا ... وصـبين مسـتودين مثـل الحمـائم

وسـاقين إن يسـمكنا منـك تبركًـا ... بجسـمِك يـا غـيلان مثـل المياسـم

أيـا طيبـة أبـا عسبا بـين خَلاخـلٍ ... وبَــينَ البقَــا آبــت أم أم ســالم

قال فنزل غيلان عن ناقته وقال لها: سألتك بالله خذي ناقتي هذه واكتمي عني.

الأعـرابي

وكما حكي عن الأصمعي أنه كان سائرًا في فلاة فرأى أعرابيًا على ناقة وهي ترقص به في الأراك، فدنا منه ليتباسط، فسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الأصمعي: يا أعرابي، أعندك في هذه البرية طبيب؟ فقال: حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار، فقال الأصمعي: إني قلت بيتًا من الشعر فأشتهي أن تخبرني بها فقال قل، فأنشده فقال:

قــومٌ بجنــانٍ عهــدْناهُم ... سَــقَاهم اللهُ مــن النُّــوء

فقلت: نوء إيش يا أخا العرب؟ فقال:

نُــوء السَّــماكين ورواهمــا ... نـوءٌ يـرى مـن بُعـد إنمـا فيـه ضـوء

فقلت: ضوء إيش يا أخا العرب؟ فقال:

ضـــوءٌ تـــلألأَ في ليلـــةٍ مُضـــمرةٍ مقفـــرةٍ لـــوْ

فقلت: لو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

لَــو مــرَّ بهــا راكــبٌ ســائقٌ عَلــى نَجيــب الأرضِ مــن طَــوْ

فقلت: طو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

مُنطـوي الكشـح هَطـيم الحشـا كالبــازِ إذا انقــضَّ مــن الجــوْ

فقلت: جو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

جــوُّ الســماءِ والـرّيحُ يعلـو بـهِ فاشـــتَمَّ ريـــحَ الأرض فـــاعلوْ

فقلت: فاعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

فــاعْلو لمـا قـد فـاتَ مـن صَـيدِهِ لاَ بـــدَّ أن يَلقـــى ويلقَـــو

فقلت: يلقو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

يلقَـــو بأسْـــيافٍ يمَانيَّـــةٍ وعـــن قَريـــبٍ ســـوف يُفنَـــوا

فقلت: يفنو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

إن كنـــتَ تُنكـــر مـــا قلتُـــه فأنـــتَ عنـــدي رجـــلٌ بَـــوْ

فقلت: بو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

البَـــو لا يَنقـــل عـــن أمِّـــه يَـــا أحمـــقَ النـــاسِ تـــروح أو

فقلت: يا أخي، عليك عزيمة؟ فقال: لا يأبى الكرامة إلا لئيم.

قال: فأخذته وجئت به إلى البيت، وأحضرت له جفنة وعليها دجاجة، وقلت: يا أخا العرب أنا وأنت، وابنين وبنتين، وصاحبة البيت، فاقسمها بيننا، قال: إن الله تعالى قد قسمها، الرأس للرئيس، وأنت رئيس الدار، والجناحين للابنين، والرجلين للبنتين، والعجز للعجوز، وأكل مطايب الدجاجة.

فلما كان في اليوم الثاني أتيته بجفنة وعليها ثلاث دجاجات، وقلت له: يا أخا العرب، نحن كما علمت، فاقسمها بيننا أزواجًا، فقال: إن الله تعالى قد قسمها، أنت

وابنيك ودجاجة زوج وزوجتك وابنتيها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج.

فلما كان في اليوم الثالث أتيته بجفنة وعليها خمس دجاجات، وقلت له: يا أخا العرب، نحن كما علمت، فاقسمها بيننا أفرادًا، قال: إن الله تعالى قد قسمها، أنت وزوجتك ودجاجة فردًا، وابنتيك ودجاجة فردًا، وابنيك ودجاجة فردًا، وأنا ودجاجتين فردًا.

فقلت له: يا فتى، هذا مخبرك، فما خبرك؟ أو هذا حسبك فما نسبك؟ فوجدته علي بن زيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقلت: أبا الفضل إلا أن يكون لأهله، وفصاحة العرب ليس فوقها فصاحة.

فصاحة الإمام علي

ولعلي بن أبي طالب عليه السلام خُطبة لا ألف فيها؛ لأنهم تذاكروا أي الحروف أدخل في الكلام فقالوا: الألف، فخطب خطبة بلا ألف فيها، ووقفت عليها.

ويضيق هذا الكتاب عن كل ما في النفس من هذا وغيره لمكان غرضنا، وإعراب القلوب الفعل، وإعراب الألسن النطق، فإذا غرقت الألسن، ولحنت القلوب، فلا يفيدها إعراب ألسنتها، وإن لحنت الألسن، وأعربت القِلوب، فلا يضيرها لحن ألسنتها.

الفقــير والأســـد

وحُكي أن جماعة من الفقهاء توجَّهوا إلى زيارة فقير، فآن وقت الصلاة، فتقدم الفقير فلحن في القراءة، فامتنع الفقهاء من الصلاة خلفه، فتأخَّر وتقدَّم غيره، وصلَّى بهم، فلما خرجوا من عنده اعترضهم الأسد في الطريق، فامتنعوا من التوجُّه، فجاء الفقير إلى الأسد ومسك أذنه وفركها، وقال له: ألم أقل لك لا تعترض على ضيوفنا، وجعل الأسد يئن كالتائب، ثم قال لهم روحوا، أنتم عدلتم ألسنتكم ونحن عدلنا قلوبنا، والكمال الجمع بين إعراب القلوب وإعراب الألسن، جعلنا الله وإيَّاكم كذلك وقد قلت:

وَمـا يَنفـعُ الإنسـانُ إعـرابُ لفظِـه إذا كـان لحـنُ المرء مـن وصـفِ قلبِـه
كسيفٌ يساوي غِمدُه ألفَ درهم وليس يساوي الفلسُ في وقت جذبهِ
ومـا الغمـد في وقـت اللقـاء بنـافعٍ إذا لم يكـن حـدُّ الحسـام وضـربِه
كـذلك مـن يـأتي بحُسـن ظـواهرَ وفي قلبِـه أن لا يميـلَ لربـه
يُجـاهرُ بالـدِّين الحنيـف تصـيُّدًا وباطنُـه وصـفُ اللعـين وحزبِـه
فكـن حـذِرًا منـه علـى كـلِّ حالـةٍ فمَـا بـان قتـلُ السُّـمِ إلا بشـربهِ
ولا تقـربنَّ مـن كـان بالوصـل كاذبًـا فمَـا البعـدُ كـل البعـد إلا بقربـهِ

دعَـــــاء

اللهم إنا نعوذ بك من كل وصف يبعدنا عنك، أو يبعدنا عن جنابك، أو يردنا عن بابك، ونسألك أن تسعدنا إسعاد من أسعدته بك، وفرحته بقربك، وخصصته بحبِّك، واخترت له خير ما عندك، وتوليته عن نفسه بك، وكنت عليه وكيلاً وحفيظًا وكان بك سميعًا بصيرًا وبلَّغته بك فوق الأماني والآمال، وكنت معه وله في كل حال من الأحوال، فلا تهوله الأهوال، ولا تزعجه الأقوال، ولا يحتاج إلى السؤال، ولا يلحقه أماني الآمال، قد استوى عنده الخبر والإخبار، وانطوى في حقِّه الإخفاء والإظهار، وفات في حقيقته بك الليل والنهار، فهو سعيد الدارين، ومالك الكونين، والمنزَّه في تنزيهك من الكيف والأين وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الإلحاد في التوحيد

وإيَّاك وطريق من ألحد في توحيده وتزندق في تفريده، وجحد في تحميده، فإنها نزعة تلبيسيّه ونزعة إبليسيّه، فإنه لم يتحقق بالشهود، ولا بأوامر المعبود، فلذلك امتنع عن السجود، وضرب القياس ومال إلى الانعكاس، ونظر إلى أمّهات العناصر، ولم يعقل حقيقة البواطن والظواهر، ففضل عنصر النار على التراب، ولم يقف مع تخصيص رب الأرباب، ونظر إلى ذاته بالتمييز والتعيين، وقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ**

وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وعلّة الحسد كانت كائنة له في توحيده، ومانعة له عن سجوده، وحاجبة له عن امتثال أمر معبوده، فعاد وصفه عليه بالإبلاس، وظفر من صفقته بالإياس، فكان من الكافرين، ورجع إلى أسفل سافلين، فلما تحقَّق بما صار إليه، وعود صفة علمه عليه لزم غشه في طريقه، وعاد يدعو الناس إلى تحقيقه، ويزين لهم أباطيل الدعوى في زخاريف الأهواء، بما يطلع عليهم من الأغواء.

برهَان الأوهَام

من هنا يظهر الباطل في صورة الحق، والتكذيب في مقابلة الصدق، ويستميل كل واحد إلى شهواته، ويحثه على طبائع عاداته، ويجذب نفوسهم الخبيثة بمغناطيس فكره، ويقيدها بحبائل صيده ومكره، وإبدالهم على الإلحاد في صورة الاتحاد، وإن عين الوجود عين واحدة في كل زمان، ويستحيل عليها الزيادة والنقصان.

فلا أمل ولا آمال، ولا ماضٍ ولا استقبال، فليس سواه ولا موجود إلا إيَّاه، فهو الصامت والناطق، والمخلوق والخالق، والسابق واللاحق، والناقص والكامل، والمحمول والحامل، والسنة والفرض، والكل والبعض، والعلم والمعلوم، والموجود والمعدوم، والجنة والنار، والليل والنهار، والحامد والمحمود، والحركة والسكون، والنواظر والعيون، والشكر والنعيم، والعذوبة والجحيم.

فمَن المنعم والمعذب، والصادق والمكذب، فليس غيره من جميع الأنواع والأجناس، وجميع المعاني والحواس، فتوسَّعوا في معتقدات الضلال، وجمعوا عليهم جماعة من الضلال، وتصوروا حقائق المحال بالمحال، وتوهموا الواجب بما زال وما استحال، وزعموا أنهم أهل الوصول، وأن الناس دونهم في غمّة وغرور، وأن الحقائق قد انكشفت لهم دون من تقدَّم وتأخَّر، ومن بطن وظهر، وأن جميع الأديان والشرائع قشر على هذا اللباب، وستائر مسدولة على دخول هذا الباب، خشية ألا يدخله غير أهله ولا يعبر عنه غير شكله.

والكلام بهذا الكفر من أخس الكلام، وصاحبه أضل من ضلال الأنعام؛ لأنه من برهان الأوهام، وتوالي سدف الظلام؛ لأن كل كافر جنح في كفره إلى تنزيه معبوده،

وتعاليه في مقصوده، وهؤلاء جعلوه بمحل القاذورات، وغيرها من سائر المخلوقات، ولا حاجة إلى ذكر ذلك؛ لأن السامع يعقل ذلكِ بفهمه.

هذَيــــان

ومثل هؤلاء لا يرضي أهل العلوم والأديان، وأرباب الشرائع والأعيان لمخاطبتهم؛ لأنه نوع من الهذيان، ونزغات من الشيطان، وتلافيق من البهتان، لم يقم عليه دليلٌ ولا برهانٌ ولا حجةٌ ولا بيانٌ، ولا شهود ولاِ عيانٌ.

أحبَـاب الشَّيطَان

وأصحاب هذا الكلام أحسن الخلائق عند الشيطان، لا يرضى أن يعزى إليهم طريقهم، وإن كان السبب في كفرهم وتشويقهم، وتجميعهم على ذلك وتفريقهم، وهم مع ذلك يوحونه إلى أوليائهم، ولا يتظاهرون به إلا لمن كان من أصدقائهم، ويجعلون أهل العلوم وأرباب الدين والأولياء والصالحين من أعدائهم، وليس لواحد منهم كلمة واقعة في القلوب، ولا له فراسة يخبر عمّا في القلوب، ولا له كشف يظهر له ما كان عنه محجوب، وهم في أغلس الأحوال، وأشد النكال، ويرون ذلك أنه عين الخير.

والمصيبة العظمى والبلية الكبرى أنهم يظهرونه لك، ويزينونه بأوصاف أهل الطريق، ويدخلونه في سلوك أهل التحقيق، ويذكرونه بنوع من علم الفناء في الوصول إليه، وأنهم ما وصلوا لذلك إلا بالفناء عن نفوسهم، وتحققوا بشهود مشهودهم، وأنهم وجدوه عن الخبر والمآثر والأثر، وهذا والله هو عكس الحقائق، والانحراف في مزاج الذائق، فإنه يجد المرارة في الحلاوة، والحلاوة في المرارة، وهذا سمع باسم الفناء، فعبر عنه بما لا يعلمه، وفهم غيره من جنسه بما لا يفهمه(١).

(١) فائدة وتتمة: قال سيدنا ومولانا شيخ الإسلام مصطفى البكرى ﷺ: قال الجيلي قدَّس الله سرَّه في إنسانه الكامل الباب التاسع والخمسون في النفس وأنها متحد إبليس ومن تبعه من الشياطين أهل التلبيس، ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ:

واعلم أن إبليس له في الوجود تسعة وتسعون مظهرًا على عدد أسماء الله الحسنى، وله تنوعات في تلك المظاهر لا يُحصى عددها، ويطول علينا استيعاب شرح مظاهر جميعها، فلنكتفِ منها بسبعة مظاهر هي أمهات جميع المظاهر، كما أن السبعة النفسية من أسماء الله تعالى أمهات جميع أسماء الله الحسنى، ثم ذكر المظاهر الست وقال: المظهر السابع: المعارف الإلهية يظهر فيها على الصديقين والأولياء =

=

والعارفين إلا من حفظه الله تعالى، وأما المقرَّبون فما له إليهم من سبيلٍ، فأول ما يظهر عليهم به في الحقيقة الإلهية فيقول لهم: أليس أن الله تعالى حقيقة الوجود جميعه وأنتم من جملة الوجود والحق حقيقتكم؟ فيقولون: نعم. فيقول: لِمَ تتعبون أنفسكم بهذه الأعمال التي يعملها هؤلاء المقلدون؟ فيتركونها. فإذا تركوا الأعمال الصالحة قال: افعلوا ما شئتم فإن الله تعالى حقيقتكم، فأنتم هو، وهو لا يُسأل عما يفعل، فيزنون ويسرقون ويشربون الخمر، حتى يزول بهم ذلك إلى أن يخلعوا رتبة الإيمان: أي عقدته من أعناقهم بالتزندق والإلحاد.

فمنهم: مَن يقول بالاتحاد، ومنهم: مَن يدَّعي في ذلك الإفراد، ثم إذا طُولبوا بالقصاص وسُئلوا عن منكراتهم التي فعلوا، يقول لهم: أنكروا ولا تمكنوا من أنفسكم، فإنكم ما فعلتم شيئًا وما الفاعل إلا الله، وأنتم كما أنتم في اعتقاد الناس، واليمين على نية المستحلف، فيحلفون أنهم لم يصنعوا شيئًا.

وقد يُناجيهم في لباس الحق فيقول لأحدهم: إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، أو فافعل كذا وكذا من المحظورات فلا إثم عليك، فيفعله وكل هذا لا يكون غلطًا إلا إذا كان إبليس هو الظاهر عليهم، وإلا فالحق سبحانه بينه وبين عباده من الخصوصيات والأسرار ما هو أعظم من ذلك، ولمواجيد الحق علامات عند أهله غير منكورة، وإنما تلتبس الأشياء على من لا معرفة له بها مع عدم العلم بالأصول، وإلا فمثل هذا لا يكاد يخفى على من له معرفة بالأصول.

ألا ترى إلى حكاية سيدي عبد القادر لما قيل له وهو في البادية: يا عبد القادر، إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، قال: كذبت إنك شيطان.

فلما سُئل عن ذلك وقيل له: بما علمت أنه شيطان؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف:٢٨]، فلما أمرني هذا اللعين علمت أنه شيطان يريد أن يغويني. على أن نفس مثل هذا قد يجري لعباد الله مع الحق، كما جرى لأهل بدر وغيرهم، وهذا مقام لا أنكره، أخذ الوقت من بدايتي طرفًا منه، وكنت محقًّا فنقلني الحق منه ببركة سيدي وشيخي أستاذ الدنيا، وشرف الدين، سيد الأولياء المحققين: أبي المعروف إسماعيل ابن إبراهيم الجبرتي، فقد اعتنى بي وأنا في تلك الحالة بعنايةٍ ربَّانيةٍ مؤيدة بنفحات رحمانية، إلى أن نظر الحق بعينه عبده فجعلني ممن عنده، فنعم السيد الفاضل، ونعم الشيخ الكامل، ثم شرع في مدح أستاذه بقصيدةٍ عظيمةٍ.

وقد سألت بعض هؤلاء الزنادقة: كيف جاز علي مشهدكم الذي تنفون به وجود الأغيار، والمظاهر الثابتة صورها في أعين الأخيار، وادعاؤكم أن الظاهر الحق ولا سواه في سائر الأطوار، ونفيكم الخليقة بالكلية أن يكن به، فلم يرد جوابًا. فقلت له: هذا من عدم المعرفة بما هو الأمر عليه، وعدم السلوك على من يوصل إليه.

وانظر في قول سيدي عبد الكريم الجيلي: «وكنت محقًّا فنقلني الله ببركة سيدي وشيخي» تعلم منه أن هذا المقام ولو كان صاحبه محقًّا، بأن كانت مواجيد الحق عنده معلومة أو خصوصيات الحق له في

=

وحقيقة الفناء لا تدرك بالقياس، ولا تصل إليها الفهوم والحواس، ولا تدركها العقول، ولا يقوم عليها الدليل والمدلول، وإنما تلك أذواق ومنازلات ترد على السالكين إلى جناب الله، والمخصوصين من أحباب الله والواقفين على باب الله، بحسب طاقتهم، فمنهم من اجتباه، ومنهم من اصطفاه، ومنهم من اصطنعه لنفسه، وغيَّبه عن يومه وأمسه.

وعند ورود الوارد، وابتداء التجليات، يستولي عليهم الفناء والاصطلام، ويتحكم فيهم المحاق والانعدام، وتضمحل في حقهم الرسوم والأعلام، ولا يقظة ولا منام، ولا سكوت ولا كلام، ولا عقل ولا أوصام، ولا صلاة في حقِّهم ولا صيام، ولا دهر ولا أعوام، ولا شهور ولا أيام.

فإن بُدِّلت عليهم لوائح الشهود، وتجلت عليهم صفات المعبود، فعند ذلك يشملهم الهلاك والمحاق، واللحاق والاستحقاق، والفناء عن الفناء، فلا شعور لهم، ولا شعور بأن لا شعور، ولا خفى ولا ظهور، وفي هذا التجلِّي الكريم والشهود العظيم يتحقَّق من ردّه الله تعالى إلى البقاء من فناء فنائه، بابتداء نشأته من العدم، وكيف أوجده الله تعالى من غير شيء كما أراد في القدم، ويتحقق بقوله تعالى:

﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨] بقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فإن * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧].

فيشهد حينئذ ما يشهد بما يشهده ربه تعالى، فيبصر به ويسمع، ويذل له ويخضع، ويئوب من سفرته ويرجع، فهذا كله، والناس فيه متفاوتون بحسب ما شاء الله تعالى لهم من التخصيص، وليس مع الله تعالى مشارك فيمن يعنيه ويفنيه، فإن الفاني لا

=

التعريف والتعرف مفهومة، لم يكن هذا المقام مقام كمال يقف السيار لديه، أو يعول الطيار في سلوكه عليه، فكيف بمن لم يدرِ اليمين من الشمال، ولا الفرق بين مظهري الجلال والجمال، ووقع في هذه الورطة وسقط في تيار هذه الغلطة، وصار شيخه إبليس اللعين، وهو يظن أنه ممن يرشد السالك ويعين، وكيف يرشد الغير من ضل في السير، حتى نفى الخليقة الثابتة بالكتاب، وادَّعى معرفة وحدة الوجود وسرها المستطاب. وانظر: السيوف الحداد (ص٩٨) .

يعقل نفسه فكيف يعقل غيره؟ ومتى عقل نفسه فليس بفان، ولا تعتقدن أن الفناء القائم بك يشمل الموجودات؛ فإن الله تعالى يعدم ما يشاء ويوجد ما يشاء، ويبقي ما يشاء ويفني ما يشاء، يوجد من العدم ويعدم من الوجود، وهو الواحد الموجود الواجب الوجود، وإنما ذلك الفناء في حق نفسك، والوجود كله بالنسبة إليك فان؛ لأن حقيقة غيبته عنك حقيقة غيبتك عنه، وفناؤك عنه فناؤه عنك، والرسوم والأطلاء باقية على حالها إلا أن يشاء الله بزوالها، أو إبدالها بغيرها..

﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨].

حساب القيامة

وليس هكذا الحساب يوم القيامة، فإن كل واحد يُحاسب يوم القيامة، ويعتقد أن الحساب ما قام بأحد غيره، وهو شامل الجميع بكلمة واحدة، يُحاسب بها الخلائق أجمعين، فقوله:«يا عبدي» يحاسب بها كل عبد لله تعالى..

﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [لقمان:٢٨].

﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً** ﴾ [الكهف:٤٩].

وأعرف فقيرًا وجد ذلك في مرضة مرضها، فوجد جميع أعماله في لحظة واحدة، أو زمن فرد من حين طفوليته إلى حين تلك الساعة عرضت عليه، وبقي يحول وجهه عما يكرهه من عمله، حتى ظهرت له رأس من حائط، وصاحبها يسرح لحيته بيده، ففهم الإشارة بالسراح في ذلك الوقت.

من حقيقة الفَنَاء

وأما الفناء اللازم لكل واحد تخصيصًا، وبجميع الخلائق عمومًا بقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، وما قاله المفسرون، وما هو معروف من كلام العرب، ولأهل الكشف والأذواق فيه معان بحسب ما وجدوه في ذوقهم، وكشفوه في سيرهم.

اعلم أرشدنا الله تعالى وإياك إلى الصراط المستقيم أن الفناء لكل موجود حقيقة؛ لأن أصل الموت العدم، ووجودها بغيرها، فالإنسان عدم في نفسه؛ لأن بقائه

بربِّه ﷻ لا بنفسه، فما له من حيث نفسه؛ لأنه في حال إبقائه بربِّه في محل جواز العدمية، ثم وروده إلى الموت واضمحلال رسمه، ولابُدَّ من الفناء في حالة موته، وهي حالة تشمل الخلائق، وهي حالة تغيبه عن كل شيء، وتغيبه عن غيبته تلك فيه خاص وعام.

فالخاص ما يجده أهل الطريق إلى الله تعالى في سلوكهم، فقد ذكرنا نوعًا منه، وهي حالة ترد على السالك، فتغيّبه عن كل شيء عن غيبته.

والفناء العام عند النفخة الأولى، والصعق، فهذا العام وهو شامل لكل موجود، فلم يبق إلا مالك الوجود حتى إن الإنسان لا يجد راحة إلا حالة الفناء، وهي حالة لا يعبر عنها إلا من وجدها، وأفصح العبارة عنها؛ لأنها حالة وجدانية لا تُعرف إلا بالذوق، والمنازلة بمرارة الصبر، وحلاوة العسل، وشهوة الجماع، والواجد لها متى عبر عنها بالوحدة لها فما وجدها؛ لأنه متى عقل أنه فني فما فني، والوقت والخبر، والزمان والمكان، والماهية والكيفية، مغايرة لهذه الحالة، وإنما من المخصوصين من إذا ردّه الله تعالى من الفناء إلى البقاء، فأبقاه يسمع بالله، ويبصر بالله.

فكيف له برؤيته ربه حقيقةً؟ وذهابه ورجوعه وإيابه؟ فتحقق بذات نفسه وصفاتها، وإيجاده من العدم، ونشأته في ابتداء خلقه، ونزوله في صلب أبيه، وبطن أمه، ويشهد نفسه في النطفة والتخلق.

النُّطفَـــة

وأعرف فقيرًا حصلت له حالة، ورأى نفسه نطفة، وكان هناك كناسة البيت، فكانت تلك النطفة معلقة في تلك الكناسة، وهو يشهد نفسه نطفة، ويرى أهله، ويسمع كلامهم، وكانت له زوجة وعليها لباس، وهي تخاطب أمها بخطاب وهو يسمع ما قالت، ويراها وما عليها، ثم صار مضغة، وهو على ما هو عليه من عقله وعلمه وفهمه وسمعه وبصره، وجميع أحواله، ثم صار علقة، ثم تخلق ثم نما، ولم يزل ينمو حتى عاد على صورته الأولى، ولقد بقي مدة ينظر إلى بدنه وأعضائه؛ لأنه انقسمت عنده الصورة الأولى حين كان نطفة.

اليَقيـــــن

ومن وجد هذه الأحوال، وتحقَّق بها تحقق أنه عدم في أصله، موجودٌ أوجده خالقه من غير شيء ويعرف نفسه، فإذا عرف نفسه عرف ربه، فعظمت الربوبية في قلبه، وكان على بينة من ربه، فلا يقع في شباك المعتقدات الفاسدات، ولا تصيده الحبائل الشيطانيات، فمن هناك تجد كلام الأكابر من الأولياء والمحققين لا يدخله شيء من هذه العقائد الفاسدة، وتراهم إذا سمعوا كلام الله تعالى يكادون يذوبون لسماعه، وإذا سمعوا حديث رسول الله ﷺ خضعوا له، وسمعوا وأطاعوا، لا يخرجون عن الكتاب والسنة، وأما من فني بعد موته فلذلك محل آخر، وله أذواق ولا يُعبر عنها إلا صاحبها.

ولقد سألت أخًا لي بعد وفاته في المنام، فقلت له: أخبرني كيف أنت بين الأموات؟ فأخذ يريني بيده ويقول لي: أنا مثل شيء وما عليه كنت، يُشير إلى كشف الغطاء، فقلت له: فكيف أحوال هؤلاء الأموات؟ فجعل يلتفت يمينًا وشمالاً ليضرب لي مثالاً، ثم قال: الساعة تدخل وتبصرهم، فعلمت أنها أحوالاً ذوقية، لا يقدر على أن يعبر عنها بأكثر من ذلك.

وسألته مرة أخرى هل هو حيٌّ يُرزق؟ فإن الله تعالى قال عن الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم أحياءً يُرزقون -وكان قد قتله الكُفَّار- فقال لي: إيش عندك آكل؟ فقمت على أنني آتي له بشيء، فقال: إذا خرجت الملوخية في ابتداء خروجها اطبخها بالقراح وصدّقها؛ فإن الصدقة تصل إلينا.

فتحققت أنه حيٌّ يُرزق، ولكن رزقه بما يناسب الدار التي هو فيها؛ إذ الأرزاق مختلفة الأغذية، حتى إن الملائكة يعيشون بالتسبيح والأذكار، فهذا غذاؤهم، وكذلك جماعة من المتوجهين إذا غلب عليهم الوارد يقيمون الأشهر بلا طعام ولا شراب.

وقد ذكرنا أن الشيخ أبا العباس أقام سبعين يومًا لا يأكل ولا يشرب، فالرزق في البرزخ مما يناسبه في تلك الحال إلى أن يصيروا إلى الجنة، فيأكلون ويشربون بجملة الأجساد والأرواح.

وقد ذكر أبو طالب في قوته عن الشيخ أبي محمد سهل بن عبد الله التستري أنه قال: أعرف بالبصرة مقبرة تروح وتغدو عليهم أرزاقهم من الجنة بكرةً وعشيّة، وهم مع ذلك في هموم لو وُضعت على أهل الأرض ما وسعوها، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنهم

لم يكن لهم من هذا التوكُّل نصيب.

تفاوت الأرزاَق

والأرزاق متفاوتة في الطيبة في الطعام واللطافة والكثافة، وما يكون به قليل الفعل كالموز والبطيخ وغيره، وما شاكله.

وما يكون منه كثير الفعل كالخبز والأرز والفول والحمص وما شاكله.

وما يكون طيب الطعم والريح.

فكذلك تتفاوت الأرزاق بحسب طيبة المحل، وطيبة الأغذية ولطافتها، كما أن طيب الأرض تكون الثمرة بحسبها.

وقد أنزل الله تعالى المائدة على عيسى ، وكانوا يأكلون ويعود ما يأكلونه، ولا يتبقى شيء.

من أحوال الصالحين

وقد ذكر رسول الله ﷺ حديث العنقود من الجنة(١)، ورأيت فقيرًا بعد موته وسألته عن حاله، فأخرج لي عنقودا وقال لي: هذا من الجنة.

فالفناء شامل وكذلك الهلاك؛ لاستمرار بقاء الله تعالى ودوامه وسرمديته، وليس معه غيره ولا كان معه سواه، ولا يصح وجود غيره معه تبارك وتعالى، وكل شيء موجود، فوجوده بالله تعالى لا بنفسه، فليس له مع الله تعالى بقاء، ولا وجود حقيقة، فالبقاء لله تعالى صحيح على الدوام والاستمرار، والفناء لما سواه صحيح على الدوام والاستمرار.

فإذا نُفخ في الصور النفخة الأولى، وصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فيتحقق لك هلاك كل شيء إلا وجهه، وفناء كل شيء إلا ذاته، ولم يزل كذلك قبل ذلك حقيقة، وإنما ما ظهر لك حسًّا وقوله: ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ لما لله تعالى فعله، وإن لم يفعله؛ لأن لله تعالى أن يهلك الجميع، وله أن يهلك بعضًا ويبقي بعضًا، وله كل ذلك على الاستواء في جميع الأحوال، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (٣٥٧/١)، ومسلم (٦٢٦/٢).

[القصص:٨٨].

وإنما ظهر لك هلاكهم من حيثك، ونظرك من حدّك، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، أعادهم إلى الاتحاد بعد الإعدام، وإلى الحياة بعد الهلاك، وإلى البقاء بعد الفناء، وإلى الدوام السّرمدي والحياة الأبدية.

فكل من يقوم به في هذه الدار تخصيص بالفناء والهلاك، ورجع البقاء بالله، فهو مخصوص في الدار الآخرة، وإن بقي في فنائه في هذه الدار فهو مخصوص في تلك الدار بحسب رتبته، ومن لم يجد ذلك إلا في العموم فهو بحسب معرفتهم وإيمانهم، فإن مقاماتهم في تلك الدار والتخصيص من الله تعالى بحسب معارفهم بالله تعالى في هذه الدار، والجزاء بحسب الأعمال، ولا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وما عدا ذلك فليس بشيء، ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً**﴾ [الفرقان:٢٣] .

من فضل الزُّهْـــــد

و أعرف شخصًا كان على هيئة الصلاح، والأعمال بحسن الهيئة في العمل، والبكاء فيما يُوجب البكاء، والسرور فيما يُوجب السرور، ورأيته بعد موته في المنام وسألته عن حاله، فأخبرني أنه لم يجد من تلك الأعمال شيئًا، وبحثت عن أعماله بعد موته لما رأيت هذه الرؤيا، فلم أسمع إلا أنه كان يأتيه الشيء فيدخره، ويدخر الطعام حتى يتغير، ولا أعلم هل هذه علة فساد عمله أم لا؟ لأنه ورد: «**لو صمتم حتى بقيتم كالأوتار، وصليتم حتى بقيتم كالحنايا، لم ينفعكم إلا الزهد في الدنيا**[1]».

فضل ركيعـات

ولما كانت أعمال الجنيد صحيحة رئي بعد موته فقيل له ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: ذهبت تلك الإشارات، وانقضت تلك العبارات، ولم يبق لها إلا ركيعات كنا نركعها في جوف الليل.

فذكر فناء الأعمال، وذلك صحيح لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ**

(١) رواه ابن مندة في مسند إبراهيم بن أدهم (٢٣).

عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

فيفهم الخطاب أن من أساء العمل فقد أضاعه؛ لأنه لا يُقبل منه، فمخالطة الرياء في الأعمال مفسدة لأصل الأعمال، وهي درجات، وأقبحها أن يعمل عملاً يُرائي به الناس، فيُقال لهم في القيامة: **«ارجعوا لمن عملتم لهم، لا أجر لكم عندي[1]»**.

فسَـــاد المعتقدَات

وأما فساد المعتقدات فهي إخلال باطن الدين، فإذا فسد المعتقد فسد ما دونه، فيعمل في غير معمل، قال الله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾** [الغاشية:٢، ٣، ٤]، فهي تعميم في فساد المعتقدات، وإن اختصت في سبب النزول بقوم مخصوصين، وأما ما يدخل من الرياء في الأعمال مع صحة المعتقدات والمقاصد والنيات المقصود فيها غير ذات الله تعالى ووجهه الكريم، فقد قال الله تعالى في ابنى آدم عليه السلام: **﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾** [المائدة: ٢٧]، وقال: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** [المائدة:٢٧]، فهي وإن كانت خاصة في ولد آدم فهي عامة بالمعنى فيمن لا يتقي الله ولا يخشاه، كونه يعمل العمل ويريد به غيره أو يريد رتبته.

تفاضل درجات السالكين
في العبودية

وعلى هذا المعنى تتفاضل درجات السالكين إلى الله تعالى في الأعمال، فليس من يقصد بعمله ما يناله من الله تعالى في دنياه من الخيرات، وعلو المكانة في قلوب الناس، ودوام الصيت وانتشار الجاه.

وليس من يقصد بعمله هذا الثواب كمن يقصد بعمله أعلى الدرجات، وظهور الكرامات، والتصريف في الكون، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وكشف

---

(١) كنز العمال (٣/٨٧١) بنحوه.

الغيوب.

وليس من يقصد بعمله هذا القصد الذي هو في هذه الدار كمن يقصد بعمله الحور والجنان والغرف والأمان وثواب الآخرة، وما فيها وما أعد الله تعالى لأهلها.

وليس من يقصد بعمله هذا المقصد كمن يقصد السلامة من النار، والخوف من الحساب والعقاب، وما أعدَّ الله تعالى لأهل تلك الدار من الوبال والنكال.

وليس من يقصد هذا القصد كمن يقصد بعمله القرب من الله تعالى، والرِّضا عنه، والمحبَّة له، وليس من يقصد بعمله هذا القصد كمن لا قصد له في عمله إلا استحقاق العبادة عليه لربِّه تعالى، والوقوف عند أمره ونهيه وحد عبوديته، ولا يعترض عليه في إرادته، ولا يختار ما لا يختاره له، ولا يريد إلا ما يريده، وقد يبرأ من حوله وقوته، وعلمه وعمله، وقصده وإرادته، وجنته وناره.

فلا يريد إلا ما يريد، ولا يختار إلا ما يختار، قد سُلب الاختيار مع ربِّه وبقي محجوبًا عن نفسه، فقد استوى عنده النعيم والجحيم، والموت والحياة، والدنيا والآخرة، والعلو إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، لا يرى نفسه محلا للعطاء، ولا أن له عملاً يستحق به الجزاء، فهو يأتي بما يأتي إلى الأعمال الصالحات، المخلصة في الإخلاص عن رؤية الإخلاص، وهو في وجل وخوف وحذرٍ وتقوى وخشيةٍ، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وهو يشهد جريان الأقدار، وسريان الإرادة في أعماله فيما يأمره به ربه تعالى، فلو سجد مدة عمره على النار شكرًا لربِّه تعالى على ذلك لما أدَّى شكر تلك النعمة؛ لأن الشكر على النعمة يستحق شكرًا عليها بمقتضى الأول، والباقي من النعم التي لا يعبر عنها اللسان، ولا تدخل تحت الحصر بالإحصاء والبيان، ولا يستوعب شهودها العيان، ولا يسع ذلك الزمان والمكان، فقال الله الملك المنَّان الرحيم الرحمن.

فهذا عبد الله حقيقةً لذاته، وهذه عبادة القلوب التي وزن الذرة منها تعدل عبادة ألف سنة، وإلى ما لا يتناهى من السنين، وهي كالكبريت الأحمر الذي يسمع به ولا يُرى، وإذا ألقي منه الذرة على ألف قنطار صار ذهبا، وهذا مثال مضروب ومثال

منصوب، وما عدا ذلك ممن عبد الله لطلب الجزاء فهي حجب بعضها دون بعض، تحجب صاحبها عن الله تعالى بحسب قصده في عبادته، هذا مع صحة المعتقدات، وهي كالأصنام المعبودة من دون الله تعالى، فإن عُبَّاد الأصنام قالوا إن عبادتهم لها تقربهم إلى الله تعالى زلفى، وهذه أصنام معنوية، وتلك أصنام حسّية.

فلينظر العامل لمن يعمل، وليخلص لله تعالى في عمله من كل شيء سواه، فللَّه أن يعذبه وينعمه، وليس على الله أن يثيبه على عمله، فللَّه الحجة البالغة، فلا يستحق أحد من الخلق على الله تعالى شيئًا من إطعام ولا رزق ولا حر ولا حياة، ولا لأحد على الله تعالى حقّ بوجه من الوجوه.

ولو أن العبد يعمل طول مدة الدنيا وهو ساجد أو راكع أو داعٍ أو مبتهل أو صائم أو قائم أو جامع لجميع هذه الأوصاف يطلب عليها الجزاء لما قابلت نعمة واحدة من نعم الله تعالى عليه، ولا بعض بعض نعمة من النعم، وهو إيجاده من العدم، فما ظنك بما وراء ذلك من إيجاده في أحسن صورة وأحسن تقويم؟ وميزه دون سائر الحيوان في الصورة والحواس، والفعل الذي هو أشرف الموجودات؟ثم بالإسلام؟ ثم بامتثاله الأمر واجتنابه النهي؟ فكيف بالجزاء لبعض بعض نعمة من هذه النعم؟ فلو ضرب عليه عرق في جسده، ومنعه القرار والمنام، وقيل له لا تسكن إلا بأن تكون عبادتك له، لما سوى تسكين العرق، كما حكي عن أحد العبَّاد أنه عبد الله تعالى كذا وكذا سنة، وأنه قيل له: تدخل الجنة برحمة الله تعالى، فقال: بل بعملي، فحصل له العطش، فسأل الشرب فقيل له: بنصف عملك فقال: بنصف عملي، فسُقي، فلحقه الاحتياج إلى الشُّرب ثانيًا، فقيل له: بنصف عملك الثاني فقال نعم، فقال: أدخل الجنة برحمة الله تعالى، وهذا ضرب مثال، ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور:٣٥]، وقد قلت:

يا مُنتهى أملي في الكونِ من أمَلي ... يا غايةَ القصْد من علْمي ومن عَمَلي
مَا لي جزاءٌ ولا علمٌ ولا عملٌ ... بل كلُّ ذلك فضلٌ من عطائك لي
والشكرُ منك على نُعماك متصلٌ ... وليس ذلك من حولي ولا حيَلي

مـن أيـن لي إنـني أثـني عليـك بمـا | أبديتَ فضلاً وما أهديتَ من سبلي
مـا كنتُ شيئًا فمذ كونتَني وغَدتْ | نعمـاك شـاملةً في الـوعرِ والسَّـهلِ
أصبحت ثـان بعجزي عن فضائلِها | والكلُّ منك وليس البعضُ من قبلي
أغـرقتني في بحـار الجـودِ مـن كـرمٍ | وجـود وجـودِك يغنيـني عـن الحيّـلِ
أشهدتَني الحقَّ في سري فلستُ أرى | عيـني واسمـي ولا رسمـي ولا طللـي
وهمـت في كـل معنى من جمالِـك في | فبـاقي الحسـن في نـوعٍ مـن الخبـلِ
حـتى لـو ظـن بي كـلَّ الظنـون بـه | وصـرتُ بـين الـورى ضـربًا مـن المثـلِ
بصـرت فـيهم محـلاًّ للخـلاف فهـم | كـلٌّ تعيس على ضَرب من الدخلِ
مـتى بقيـتُ بوصـفي كنـتُ مضـطربًا | أُمسي وأُصبحُ من خوفي على وجلي
إن لم يكـن بـك يبقـى العمـر ماضية | يـا ضيعةَ العمر فيما فـاتَ من أجلي
فمـا أفـادَ تقضـي العمـرَ في لَعِـب | ولا أفـادَ البكـا بـالنوح والثُّكـلِ
لكـن إليـك التجـائي في البقيـةِ لي | وفيـك منـك عَليـك الله متكلـي

دُعَـــاء

اللهم اجعلني متوكلاً بك عليك فيك، وفي إيمانك وتعرّفك لي، ومحبتي إياك بمحبتك لي، يا نعم الوكيل يا نعم النصير، لست أهلاً لما أسألك، لكن أنت أهل لما تعطيني، والذُّل وصفي وصفتي، والعجز عن عجز العجز معرفتي، وليس لي غيرك فأرجوه، ولا سواك فأسأله، ولا ملاذًا فألوذ به، ولا ملجأ فألجأ إليه إليك.

بك التجأت بجملتي، ورميت مهجتي، وتوكلت بك فيك عليك، أنت غايتي ومنيتي.

يا **الله**، يا الله، يا الله، يا ربي ورب كل شيء، أنت أقرب لي مني، وأذب لي عني، وأرحم بنفسي من نفسي، وآنس من آنس يؤنسني، فها جملتي ومهجتي، وحريتي وكليتي، في قبضتك وإحاطتك، في دنياي وآخرتي، وديني وعلمي وعملي من منّتك، ولا

وصف من جهتي إلا ما وصفتني به بالجهل والعجز والذُّل والذنب، وما ناسب ذلك وصفي، ولا عذر لي، ولا قوة إلا بك على سلب ذلك عني، فعليك بك توكُّلي، وإليك بك ومنك نجاتي ومؤملي، حسبي بك دنيا وأخرى، ودينًا وحرزًا من كل مخوف، وأمانًا لكل ملهوف، وبلوغًا لكل أمل وسرور، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم إني أسألك بكل ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ، وبكل ما توسَّل به إليك عبدك ونبيك، محمد ﷺ بأسمائك وصفات ذاتك، وأستعيذ بك استعاذة نبيك وبما استعاذك به عبدك ونبيك محمد ﷺ، وأعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

إلهي بك أعوذ، وبك ألوذ، وبك وعليك أتوكل، وإيَّاك أسأل، وإليك مصيري، ومصير كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء لا تضرك معصيتي كما لا تضرك مغفرتي، فاغفر لي ما لا يضرّك كله، ولا تنفعك طاعتي كما لا ينقصك إعطائي فأعطني، وهب لي ما لا ينفعك ولا ينقصك، أنت أهل الجود وأهل العطاء والنعم، وأهل التقوى والمغفرة.

يا الله، يا الله، يا الله، مستمدة الدوام بلا انقضاء، ولا انقطاع، ولا انصرام، حسبي حسبي، أنت ربي لا إله لي غيرك، ولا رب لي سواك، يا مفرج الكروب، يا ستار العيوب، يا علام الغيوب، يا كاشف ضر أيوب، وحزن يعقوب، اكشف ما بي من ضر الدنيا والآخرة مما علمت وما لا علمت، وما أنت أعلم به مني، وارفع عني حزن الدنيا والآخرة مما علمت وما لا علمت وما أنت أعلم به مني، وبدلني عنهما بك عن ذلك كله فرحًا وسرورًا ونعيمًا وحبورًا وشهودًا لوجهك الكريم وسروحًا في ميادين معرفتك، وفي عوالمك الباقية لك بك مما علمت وما لا علمت وما أنت أعلم به مني.

اللهم إن أملي وآمالي، وطلبي ومطلبي، وقصدي ومقصدي، ونيَّتي وأُمنيتي، وما أعطيتني من ذلك، ووصلتني إليه من الأماني والآمال والمقاصد والمطالب والأمنيات، بل تمني كل الخلائق لا يصل إلى بعض بعض ما عندك، ولا إلى ما هو معلوم لك في علمك، فأعطني بعلمك ومن علمك، وبفضلك من فضلك، وبكرمك من كرمك، وبجودك من جودك، وبمعروفك من معروفك، وبشهودك من شهودك، فلا حول لي ولا

قوة إلا بك، عطاؤك أفضل من سؤالي، وجودك أوسع من آمالي، فاختر لي وكن الخيرة من كل خيرة لي، فلا خيرة لي في شيء غيرك، ولا راحة لي في شيء سواك، ولا مبلغ لعلمي بما عندك، ولا خيرة لي في غيرك، فاختر لي واخترني للخيرة، واختر خيرتي، وكن أنت موضع الاختيار لي من خيرتي مع لطفك لي، ومحبتك وعطفك ومنّك.

يا الله، يا الله، يا الله، انقطعت الآمال إلا منك، وخاب الرجاء إلا فيك، وبيدك غياثي فأغثني يا غياث الملهوفين، يا غوث الغوث وغياث الغياث، إليك التجأ كل موجود بالافتقار، وحقيقة للاضطرار، وأنت الغني على الإطلاق عن الافتقار إليك، والعبادة لك، وأنت المنزَّه عن البرية، فكيف يلحقك التشبيه، إلهي كن لي عوضا عن كل شيء، فلا حاجة لي في شيء سواك، بل كان بك وجود الأشياء ولا كان وجودك بشيء، يا منتهى الآمال، وغاية السؤال، وحقيقة المقاصد، ورجاء كل قاصد، وقفت العقول عن مثالك، وذهلت فيما دون ذلك.

أنت العلي الأعلى، المتعالي عن العقول والأفهام، وما وصلت إليه الأفكار لا يُعرف بالقياس، ولا يضرب لك المثال ولا للعقول والبصائر من معرفتك ذاتك مجال حيث انتهت، فذاك حدها، ومتى تيقنت القرب منك فذاك بعدها لا يعرفك سواك ولا يحققك غيرك، ولا يدركك إلا أنت، أنت المحيط بكل شيء، ولا يحيط بك شيء، والعالم بكل شيء ولا يعلمك شيء والقادر على كل شيء ولا يقدر عليك شيء، والموجد لكل شيء ولا يُقال أوجدك شيء.

واحد بذاتك قبل وجود الشيء وبعد الشيء ولا كان الشيء والقبل والبعد والقرب والبعد محال عليك، وهو صفة لأنفسنا المعقولة بالحدود والجهات، ولا جهة لذاتك يا موجه الجهات، ومحيط بالكليات والجزئيات، وحافظ الأرض والسماوات، ليس فيك غيرك، ولا غيرك فيك، استيلاؤك عن كل شيء استيلاءً كليًا وقبل وجود أعيانها حين أردت وجودها، وسبق علمك إيجاد كل شيء، ضلَّ من قال: هل أنت داخل في الوجود، أو خارجٌ عن الوجود، فأين كان الوجود قبل إيجادك له؟ حتى يقول القائل بذلك حارت أفهامهم فخبطوا في أوهامهم، زعموا أنك مستقرٌّ على عرشك فأين كان العرش قبل أن توجده؟ أو على أي شيء كنت قبل أن لم يكن؟ لما جهلوا

حقيقة صفاتك العزية عن صفات الموجودات، والمنزَّه في ذاتها عن الإحاطة بالعلوم والجهات، رجعوا إلى نفوسهم فشهودك بما علموا من أنفسهم.

تعاليت عن ذلك علوًّا كبيرًا سبحانك لا إله إلا أنت ما علمك غيرك ولا وجدك سواك، وأنت المنزَّه عن تنزيهنا نا فكيف بتشبيهنا، يا عليّ يا عظيم.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قلت:

في وَصف ذاتِك سَارَ العَقل في التّيه ... محيّـرًا لـيس يـدري كيـف يُبديـه
إن سَـارَ خَلْفًـا فـلاَ خلـفَ يوصِـلُه ... وإن تقـدَّم فـالأنوارُ تُعْميـه
وإن غـدًا صـاعدًا رُدتْ بَصـيرتُه ... خسـيئةً وهـي حسـرًا في ترامِيـه
وإن يُـرى هابطًـا فالتحـتُ يحجبُـه ... أو يمنـة ويسـارًا فهـو يحوِيـه
يقـولُ عقلـي لعقلـي كيـفَ تعرفُـه ... يقـولُ والله حـارت فكـرتي فِيـه
ولـيس يدركُـه عقـلٌ ولا بَصـرٌ ... ولا سمـاعٌ ولا أفكـارٌ تُدريـه
يُخفـى ويُظهـر فيمـا لا خَفـاءَ بـهِ ... وفي الظُّهـورِ معـانٍ فيـه تُخفيـه
وكيـف يُـدركُ خلـقٌ وصـفَ خالقِـه ... أم كيـفَ يفهـمُ معنى مـن معانيِـه
ضـلَّ المشـبهُ فيمـا في عقيدتِـه ... جـلَّ التعـالي عـن حـدٍّ وتشـبيه
مـا كـان شـيء سـوى ربي فيشـبهُهُ ... أم كيـفَ يشـبهه خلـق يسـوِّيه
بمـن أشـبهه عمَّـن أنـزهُهُ ... ولم يكـنْ غـيرُه حـتى أسمِّيـه
مـا نـزَّه العبـدَ إلا وصـفُ نسـبتِه ... وهـو المنـزَّه عـن تنـزيهِ تنـزِيه

معنى ذلك أن العبد إنما سلب عن الحق أوصاف النقص، وهي صفات العبد من الضد والند و الشبيه، والحق تعالى لم يكن متصفًا بشيء من ذلك حتى يسلبه عنه، فهو بغير تشبيه، كمن قال لملك من الملوك: أيها الملك، لستَ بحائك ولا سماك ولا

مشاعلي، فقد نسب الملك إلى أوصاف نقص لم يتصف بها مثله.

وصــفُ التَّعــالي فيمــا أنــت تدركُــه	وَصــفٌ تحــلَّ تعــالى الله باريــه
حيـث انتهـى بـك سـيرٌ للعقـول بـه	حــدٌّ فـذلك وصـفٌ العبـدُ يبديـه
ولــن يــراه بعــينِ الحــسِّ غــير فــتى	أماتَـــــــه الله ثم الله يُحييـــــــــه
إمّــا بمــوت المعــاني فهــو يَشــهَدُه	أو مَوت حسٍّ ففي الأخرى تُرائيه
مـن قـال في العـرشِ إنَّ العـرشَ يحملُـه	أو اســـتقرَّ عليـــه في تعالِيـــه
فــذاك قــولٌ ســخيفٌ في تحمُّســهِ	وقَولُــه راجــعٌ مــردودٌ في فيــه
مــا كــان مفتقــرًا للعَــرش يوجِــدُه	ونفــسُ إيجــاده للعــرش كافيــه
والعـــرشُ مفتقـــرٌ لله معـــترفٌ	والله يحملُـــــه حقًّـــــا فيـــــه
لــه الغــنى الــذي بالــذاتِ متصــفٌ	والخلـــقُ مفتقـــرٌ لله يُغنِيـــه
والحرفُ والصوتُ قولُ العبدِ يقرؤُه	وقـــولُ ربي قـــديمٌ في تعالِيـــه
مــا كــان لله وصــفٌ في خليقتــهِ	ولـيس في الخلـقِ وصـفٌ منه يَحويـه
فــالخلقُ مــن عــدمٍ والله أوجــدَهم	وهـو القـديمُ بوصـف الجـود يُبديـه
ومــن يُخصصــه فيمــا يريــدُ بــه	كالمصطفى فهو شيءٌ ليس يُبديه
صــلى الإلــه عليــه كلمــا طلِعــتْ	شمـسُ النهـار لمـن يُهـدى فيَهدِيـه

تنـزيه الله حتى عن التنَّـزيه

وتنزيه العبد ربه ﷻ إنما هو سلب أوصاف النقص عنه، وأوصاف النقص مستحيلة على الله تعالى، وسلب المستحيل مستحيل، كما سلب العبد عن ربِّه تعالى إلا صفات نقصه، أعني نقص العبد، وصفات النقص صفات العبد لا صفات الرب ﷻ.

والله تعالى متنزّه عن التنزيه، فكيف بالتشبيه[١]؟ ومثال العبد في هذا التنزيه كمثل عبد من عبيد ملك أراد أن يمدحه ويثني عليه، فرفع صوته وقال: أيها الملك ما أنت بحائك، ولا سمّاك ولا مشاعلي، ولا فحّام، ولا قرموصي، ولا زبّال، ولا غسّال..

وذكر أوصاف النقائص وهيّن الأعمال لذلك الملك، وهو ملك عظيم الملك، كبير الجلالة، شديد الهيبة، مطاع الكلمة، فقد نزّه الملك عن صفات نقص لم يكن الملك متصفًا بها، فهو معرض نفسه إلى القتل بهذا المدح الذي لا يناسب المملكة.

فانظر أيها المنزِّه كيف تنزه ربك سبحانه وتعالى بما يليق بتعاليه وعلو شأنه، وعدم اتصافه بصفات غيره، وتنزيهه عن تنزيهك، فإنك إنما سلبت عنه صفات نفسك من الضدِّ والندِّ والشبيه، والمثل في الأقوال والأفعال.

ومتى كان الحق متصفًا بشيء من ذلك حتى تسلبه عنه؟ وإنك لو قلت لرجل جليل القدر، أو ملك من ملوك الدنيا: فلان ليس مثلك، أو ليس هو عديلك، أو ليس هو نظيرك، لما هان ذلك عنه، ولكان سببًا لإهانتك عنه، وطردك عن بابه، فأنصف من نفسك، ولا تجعل الحق تعالى دون رتبة ملك من ملوك الدنيا في قلبك، ونزهه عن تنزيهك، واستعذ به من تشبيهك.

فما كان مع الله غيره حتى تماثله، ولو كان لما كان، وتستحيل المثلية والضدية لما قدمناه؛ لأن حقيقة الوحدة للتنويه، فكل موجود الله أوجده، وفي وجدانه إيَّاه نفي للمثلية من جميع الوجوه، كقول المجادل لنفسه أو القائل هل تقدر تخلق مثله؟ فكونه يخلقه نافيًا للمثلية له، فإن تعليق وقوع المستحيل على مستحيلٍ مستحيلُ، فجميع توحيدك وتنزيهك وتقديسك وتحميدك هو حد علمك، ووصول فهمك، والله تعالى من وراء ذلك بما لا يعلمه إلا هو، ولا يدركه غيره، فافهم ذلك وقف عند حدك، وطرز عبوديتك، ولا تتعدى أمر ربك ﷻ على لسان نبيك ﷺ، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦] ﴿**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ**﴾ [البروج:٢٠].

اللهم إنا نعجز عن معرفتك بأنفسنا فتعرَّف إلينا منك بما يعرفك به بما تحبه منا،

---

(١) انظر: كتاب الميزان الذرية في بيان عقائد الفرقة العلية للقطب الشعراني (طبع دارة الكرز).

وتختاره لنا، وامحُ بجميل صفاتك قبيح صفاتنا عنا، إنك أكرم الأكرمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلم.

حديث المتطـــوِّع

وقد ذكرنا حديث المتطوع الذي وجده الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- في مسجد، وربما قال على درج المنبر، وهو يذكر الله تعالى، فدخل أقوامٌ من العرب ومعهم غداء، فسألوه الأكل معهم فامتنع، فلما خرجوا قلت له: أنت صائم؟ قال: لا فقلت: فلم لا أكلت مع هؤلاء؟ فقال هؤلاء من العرب، ما يتوقُّوا أكل الحرام.

فأعجبني منه ذلك، فأخرجت كسيرات فعزمت عليه فأكل معي، ثم قال لي: يا حاج. قلت: نعم، قال: أنا ذات يوم -أو قال ذات ليلة- كنت أذكر الله تعالى في هذا المسجد، وإذا شخص وهو نور دخل عليَّ وقال لي اسجد، لي أنا ربك، فقلت له: اخسأ يا شيطان، فقلت له: وكيف قلت له هكذا- ألا ترى ما عنده؟ فقال لي: بالله ارفق عليَّ، فإنه لما قال ذلك قام عندي أن ربي ما هو صورة، وملك فما يكذب، فما ثم بقي إلا الشيطان.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه المعرفة الوحدانية بالقلب من تعرف الله تعالى إلى هذا المتطوع الذي لا يدري العلوم، وكيف جمع في هذه الكلمة الواحدة بين إثبات وجود الرب ونفي المثلية والكيفية، والتنزيه له، وتصديق الملائكة، وتكذيب الشياطين، وأنهم يبصرون، ويكذبون على الله تعالى ليفتنوا السالكين بالصور والنورانية، وما ذاك إلا نور يقذفه الله تعالى في القلوب، ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

وما ذاك بأعجب من الحجارة والجمادات والأشجار في تسبيحها وانجذابها ومعرفتها بربها تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٧٤].

وذلك في مقابلة قلوب المحجوبين من الكفار، فإنها أشد قسوة من الحجارة، وقد سبَّح الحصى في كف رسول الله ﷺ، وكلَّمه الحجر، وجاءت إليه الشجرة تجر عروقها،

كل ذلك شوقًا إلى الله تعالى، وطاعةً لأمره في نبيه ﷺ، وانجذابًا إليه بالسرِّ الإلهي، وقد قلت:

تَشتاقُ حبَّك جملةُ الأشواقِ وبكتْ عَليك بدَمعِها المِهراقِ
والعشْق أصبحَ في هوَاك متيمًا وصبت إليك صبابةَ العشّاقِ
لو كان يَقطعُ في هواكِ مسافةً لقطعتُها سَعيًا على الأحدَاقِ
أو كانَ للشوقِ المبرِّح مهجةٌ لأذبتُها يوم النوى لفراقي
أو كان يملك واهبٌ رُوحًا له لوهبتُ رُوحي فرحةً بتلاقِ
يا جاعلاً قلبَ المتيم ربعةً ما بالُ ربعِك موطنُ الإحراقِ
جُذِبتْ إليك قلوبنا بأعنَّةٍ فغَدوت عندك لا أريدُ عتاقي
علي إليك وسيلة أرجو بها من قيدِ هجرِك والجفى إطلاقي
بي علّةٌ لمنالِ وصلِك في الهوى لا تنطفي أو ترتوي أشواقي
لدغت بأسود هجركم قلبي فما من سمة ينجو الفؤادُ يراقي
وأنا اللديغ وعندكم ترياقُه عجّل عليَّ بما فيه ترياقي
فوحقِّكم ما لي شفيعٌ غيرُكم من ذا يعبر غيرُكم أخلاقي
من ذا برزق الذرِّ بل كلِّ الورى والكَونِ أجمع كافلُ الأرزاق
من ذا يُميتُ الحيَّ يحيي ميتًا ويعودُ حيًّا باقيًا بالباقي
من ذا يمِدُّ النورُ في شمسِ الضحى في الكائنات إلى مدَى الإشراقِ
من ذا الذي يُعطي لكلِّ مؤمل كلَّ المراد بغير ما إشفاق
ويعيد ما أبدى عطاءً دائمًا من غَير ما ملكٍ ولا إملاقِ

فالكونُ أجمعُ والوجودُ بأسرِه بل ... فوقَ فوق الفوق والأعماقِ
في جودِه وعطائه أمثالِه ... للأقل من جودِك في الإمحاقِ
يا خالقَ الخلقِ الجميل وضدِّه ... يا مالكًا قَلبي ويا خلاقي
يا من بقلب كلِّ قلبٍ كائنٍ ... فيما يشاءُ من خيرِه ووفاقِ
قلّب فؤادي في رضاك محبةً ... واتبعْه بالإحسان والإرفاقِ
من أين لي شكرًا لما أوليتني ... أُدعى بعبد الغافر الخلاقِ
ويطوف اسمي بالوجود بعَبدِكم ... في سائرِ الأقطارِ والآفاقِ
من أين لي هذا الفِخارُ ومن أنا ... أدعى بعبدِكم على الإطلاقِ

دُعَاء

اللهم إن قلوبنا بيدك تقلبها كيف تشاء، فقلِّب قلوبنا في محبتِّك ورضاك، وحبِّبنا لما تحب منا حتى لا نحب إلا ما تحب، ولا نرضى إلا ما ترضى، ولا نختار إلا ما تختار، وهيئنا لذلك واقدره علينا، وخصصنا به عندك دون غيرنا ممن حجبته عنك، وأبعدته عن بابك، وخصصته ببعدك وحجابك حتى نعاديه فيك، ونحب من تحبه لك، يا الله، يا الله، يا الله، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

شهود المراقبة

ورد في الحديث: «**إن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يصرفه كيف يشاء**[(١)]»، فما أعظم هذه الحالة لمن شهدها، وما أغفل عنها من انتهى إلى غيرها فلم يجدها، وفيها السعادة والشقاوة، والفقر والغنى، والآخرة والأولى، وتغيير الأعيان وتكوين الأكوان، وصبغة الألوان، والموت والحياة، والمحو والإثبات، والقوة والتعجيز، وتبيين الطيب من الخبيث في التمييز، ومحك الميلق لظهور الذهب الإبريز، تتحول فيه الزيادة إلى النقصان، والطاعة إلى العصيان، والكفر إلى الإيمان، ودخول من ظهر بعمل أهل

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٤٥)، وابن حبان (٣/١٨٤).

النار إلى الجنان، ودخول من عمل بعمل أهل الجنة إلى النيران، وذلك سرٌّ من أسرار الربوبية، وصفةٌ من صفات الألوهية، تظهر لها شواهد في هذه الدار، لتخصيص الانتفاع، ورؤية الأغيار، ودلائل قائمة بالحجة على الكفَّار.

فإذا انكشف الغطاء، وانقضت مدة هذه الدنيا، وظهر ما بطن من الدار الآخرة، ورجع على أهل الجحود الكرّة الخاسرة، ظهرت حقائق ذلك للخاص والعام، وبدا النور، وانقشع الظلام، فلا ينفع حين ذلك الندم حين يزل القدم، ويسأل الكافر إلى العدم.

وفيما يراه من عجائب التغيير في هذه الدار كفاية في كل ساعة ولحظة وزمان في سائر الناس وسائر الحيوان، وفي المعادن وغيرها من المانع والجامد، والعابد والجاحد، والناقص والزائد، وكيف يعالج بالأدوية الأمراض، ويعالج ببعض العقاقير في أمراض الأجساد، حتى يخرج كل شيء عن ماهيته، ويخرج عن كيفيته بمعالجات وغيرها من غير معالجات، كالبركة الماء التي يوجد بها النطرون، وأي شيء وقع فيها صار نطرونا، وكذلك الملح كيف يتكون ويصير ملحًا والله تعالى يخلق ما يشاء، وكيف يتكون الحصى ولله أن يخلق ما يشاء كما يشاء.

ولقد رأيت فأرة لطيفة في الحرث، نصفها طين ونصفها لحم، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص:٦٨].

من انقلاب الأعيان

ولقد حكى لي مسلم الحصري بمدينة قوص-وهو من التجار الكارمية، وكان رجلاً موثوقًا به، وله عبادة وصدقات- أنه سمع بنهر من الماء كل ما رمي فيه صار حجرًا قال: فمشيت حتى وصلت إليه، قال: وكان معي منديل سكندري، فدليتها في الماء فصارت حجرًا خفيفًا. قال: وكان معنا غراب، فدلّيناه فصار حجرًا إلا ما لم يصل إليه الماء، قال: ورأيت أسماكًا حجارة فيه، وذلك أنه يجري فيدخل في البحر فيطلع فيه السمك فيصير حجارة. قال: وكانت معنا عصا فدليناها فصارت حجرًا، وبقي ما كان بأيدينا خشبًا على حالته. قال: وأي دابة وضعت فمها فيه صار حجرًا في وقته، وأي من خاض فيه صارت رجلاه حجرًا في وقتها!

فانظر إلى هذه العجائب وهذه الأسرار الإلهية المودعة في هذا الماء.

وكذلك حكى لي عز الدين الحلبي المعروف بالكولمي[(١)] عن بركة من الماء، أن النساء ينزلون فيها فيحبلن.

وأخبر بعجائب كثيرة، وكل ذلك أسرار في تغيير ما يريد تغييره، فمن أين لنا الأمان والقطع بوصف من الأوصاف، أو حالة من الأحوال، مع وجود هذه الأحوال ومعاينة هذه الأهوال، وإذا كان هذا الانقلاب في وجود الجمادات والمائعات فما ظنك بالإنسان؟! وتقلب قلبه في كل زمان من الأزمان، فمن أين نعطي الأمان في انقلاب الأعيان، وتحوله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان.

وكيف بورود الحديث: «**القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء**[(٢)]»، وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام:١٢٢].

يحتمل معان منها: كان ميتًا في العدم فأحييناه بالإيجاد، ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان، ميتًا بالجهل فأحييناه بالعلم، وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس، نورًا في قلبه: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]، في بصيرته: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:١٩٨] نورًا بالقرآن، ﴿**فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة:٤٧]، ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا**﴾ [الأنعام:١٥٣]، نور بالإيمان، ونور الإيمان الذرة منه تغلب على نور الشمس والقمر، ويطفئ النيران، نورًا بالشريعة والتبعية: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨] وهل من يمشي بهذه الأنوار كمن مثله في الظلمات؟ جعلنا الله وإيَّاكم ممن كان ميتًا فأحياه، كمن

(١) هو هبة الله بن صدقة بن عبد الله بن منصور الطبيب العالم نفيس الدين ابن الزبير الكَولمي، ولد بأُسوان وبرع في العلم الطبيعي وولي رئاسة الأطباء بمصر، وكان فيه عدالةٌ وله نَظَرٌ في مذهب الشافعي، وروى عنه المنذري والدمياطي وجماعة، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

قلت: وهو غير رئيس التجار المعروف بعز الدين .. والله أعلم. وانظر: الوافي للصفدي (١/٣٣٩٥).

(٢) سبق تخريجه.

ذكرته في كتابك: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وأخرجنا من الظلمات إلى النور برحمتك يا أرحم الراحمين.

وفي المعادن وظهورها من الأحجار والتراب ما يزيدك تنبيهًا على سعادتك، وزاجرًا عن شقاوتك، وليست السعادة ولا الشقاوة بيدك، لكن اتباع ورود الأوامر والانتهاء بالزواجر مما كلفته، ولا عذر لك فيه لما أنت معمور فيه، ومستصحب له، وواقف مع معقولك وإرادتك، وشهواتك ومقاصدك.

عبَـــاد اللَّــــه

فأنت تعاقب على ما يخالفك به عبدك أو غيره ممن تقدر عليه، وتجازي على الإحسان، وتصف الخير والشر أن يجريه الله تعالى على يده، ولا يعذره في ذلك، ولا ينظر لجريان الإرادة من الله تعالى فيه، فطالب نفسك بما تطالب به غيرك، واحكم عليها بما تحكم به على غيرك، فإذا زال العقل، أو وقعت الغفلة بالنوم، أو الطفولية، لم يحكم عليه بشيء حتى يحكمون على حكم المحكوم عليه من البلوغ واليقظة من النوم، ووجود العقل.

ولو استتر العقل بورود الأحوال الشريفة المغيبة عن العوائد المشهدة، لورود الإرادة وما يرد من الله تعالى من الحضور مع الله تعالى، والغيبة عن أفعال العباد بالكلية أيضًا مخاطب في تلك الحال، ولا يصح أن يقع منك المخالفة لله تعالى فيما يأمرك به؛ لأنك لو كنت واقفًا بين يدي ملك من ملوك الدنيا، وهو يرقبك بنظره، ويلاحظك بعينه، لما قدرت أن تعرض عنه فتنظر إلى مماليكه وجواريه بعين الشهوة والفسق، فإذا كان ذلك في رؤية ملك من ملوك الدنيا فكيف تلاحظ ذلك الجناب الأعلى على العلو الأعلى والأسنى من السناء، مالك كل شيء، ورب الآخرة والأولى؟ فلا يقع منك ما يخالف أمره، كما لا يقع من المخصوصين من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين.

وإن كان الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه معصومين، فهم حجة الله تعالى على عباده، فالأولياء محفوظون، فإن كانوا في محل الجواز وإن قدر وقوع شيء للاستيلاء، وتصريف الإرادة، رجعوا بالتوبة إلى الله تعالى، ولا يكون ذلك قدحًا في

ولايتهم، ولا مزيلاً لها ما لم يكن مختلاً بأصل الإيمان، أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من ذلك كله، وأن يقع ذلك إلا في حكم النادر لمن أراد الله تعالى به ما أراد؛ لما لله تعالى فعله كما فعل ببلعام بن باعوراء وغيره، نخاف على القلوب الضعيفة من ذكرهم وما وقع.

النَّاس معَادن

وأما من كان وليًّا في علم الله تعالى فلا تتغير ولايته؛ لأن الحقائق الوضعية لا يقدح فيها النقائص الكسبية، وليس هذا موضع كلامنا في هذا النوع والإحياء والإماتة، فيما ذكرناه من الاحتمال، وللمفسرين فيه أقوالٌ بحسب ما تقتضيه طريقهم، وورد الحديث: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة[(١)]»**.

والذهب والفضة موجودة في المعادن، والمعدن الأصل صحيح، وقد تدخل عليه علل تفسده في ظاهره أو تفسد حاله، وأصل المعدن في نفسه صحيح، لا يخرج عن معدنيته، كذلك المؤمن الحقيقي لا يخرجه ما جرى على جوارحه من النقائص عن حقيقة إيمانه، ولا حقيق ولايته، ودعوى من يدَّعي علم الكيمياء أن أصول أكثر المعادن ذهبًا وفضّة من النحاس والرصاص والقصدير وغير ذلك، وإنما دخلت عليها علل وأمراض، فغيرتها عن ذلك، وأنهم يعالجون تلك العلل حتى ترجع إلى عادتها، وأوردوا حديثًا غريبًا: «من داوى الفضة ألحد ما أكل حلالاً» ويعنون بها القصدير، وكل هذه الأقوال التي ذكروها من جهة المداواة، وما ذكر عنهم من ذلك لا نعلم له حقيقة، ولا وقعنا على شيء من ذلك، والحمد لله لنفرة نجدها في القلوب من ذلك وسماعه، والوقوف مع الحقائق من المعدنية الصحيحة التي ورد فيها الحديث أولى بكل من يخشى على دينه في مأكله ومشربه وملبسه، وإنما ذكرنا المعادن الحقيقة الإنسانية، فإن من كان أصله عند الله تعالى مؤمنًا كالمعدن فهو يرجع إلى أصله وإن كان أصله كافرًا فهو يرجع إلى أصله، والأمر مستور عنا، أعني أمر الإرادة وسريانها.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣١/٤)، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢).

وأما الأمر الحكمي والأوامر الشرعية فهي معلومة بما ورد به الشرع، وانقلاب الأعيان لله تعالى فعله يفعل ما يشاء بقلب التراب ذهبًا والذهب ترابًا، والجماد مائعًا، والمائع جمادًا أو النبات حيوانًا، والحيوان نباتًا، وقد جعل لك منهاجا وسبيلاً، وعقلاً تدرك به حقائق الموجودات وأصلها، وفي قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء: ٣٠] كناية.

المعَـــادن

والمعادن الظاهرة من الجبال والتراب والسباخ وعيون المياه وغير ذلك من أعجب العجائب.

وفي أرض الصعيد سبعة عشر معدنًا معروفة، منها: معدن الذهب، وهو بموضع يُسمَّى، العلاقي، وهي خلية قديمة خراب، وهو فوق أسوان بأيام.

وفي زمان الملك الظاهر توجَّهوا إليه ووجدوا هناك طواحين يطحنون بها التراب الذي هناك، وربما يحيطون علمًا بكيفية إخراجه، وما وجدوا فيه كبير فائدة في مقابلة الإنفاق والكلفة عليها.

ومنها: السادج، وهو من المعادن الجليلة، وله خواص في الأحجار.

ومنها: الشبُّ الأبيض.

ومنها: الطَّفْل الأحمر الذي يعمل منه الفخار الأُسواني، ويعمل منها كوز الفقاع.

ومنها: الصَّول الأحمر والأسود، ومنه يجيء جميع الصول إلى البلاد المصرية.

ومنها: المرمر، من فوق من قوص الزمرد، ولا يجيء من غيره، ومعدن الرخام الأبيض والجبس الشطوي، وهو الطلق الأبيض، والجبس القصيري وهو طابق، وهو الذي يعمل في المعاصر.

ومنها: جبس آخر من فوق قفط للعمارة، ومنها القصري والطَّفل الأبيض.

ومنها: معدن البرام فوق قنا، وعيون النفط، وشجر الأسنان.

وبالأقصرين معدن الكيزان الذي يعمل منه الكيزان، وإن كان في غيرها لكن ليس مثله، وطين التصغير للبيوت، ولما يحتاجوا إلى غيره.

وفي طريق عيداب الحديد، وهي حجارة توقد النار ويخرج منها الحديد وحجر

البازهر، وحجر المنشور الأصفر.

وبالأقصر القديمة بركة ما تنقص أوان النيل عند طلوعه، وتزيد عند هبوطه، وماؤها فيه ملوحة لا يشرب منه أحد، وإذا حفر بجانبها يكون طيبًا، وليس بالكبيرة يغسل فيها الأكسية، وثياب الصوف، وغير ذلك من الثياب، فيصفيها ومن لا له صابون يروح إليها، ويغسل فيها، ومن كانت به المثلثة يرمي بنفسه فيها، فربما يشفى، وقدشفي بذلك جماعة، ووصلت إليها مرارًا كثيرة، ولم نستقص ذلك، وإنما هو ظاهر لنا، ولو استقصينا لوجدنا ذلك كثيرًا جدًا، وإنما عرضنا بذكر ذلك ما لله تعالى من الحكم في كل شيء.

والإنسان على جملة ذلك في نفسه، والحديث:«**الناس معادن**[١]».

وفي إخراج هذه المنافع من الأحجار كالحديد من الحجر، والنار من الشجر، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والحي من الميت، والميت من الحي.

رجل النَّار

وحدِّثني الشيخ عمر البلغياي ابن الفاخراني -رحمه الله تعالى-قال: دخلت إلى علي بن يعقوب وحضرت عند معمل الحديد والفولاذ، وهناك المسبك وصاحبه لي به معرفة، وهو كان بقنا، وإلى جانبه من ها هنا أكوار للنفخ جملة من هذا الجانب، ومن هذا الجانب، ويضعون فيه من آلة الوقيد شيئًا عظيمًا، ويوقد من عليه فينفخ الأكوار من ها هنا فيكون أمر عظيم، فيذوب الحديد والحجارة وغيرها، فيجعلون الحديد في بوادق كبار وينفخون عليها، فيذوب الحديد ويصفى، ويخرجون له بآلات لهم، فينفخ البودقة فيسيل فيكون الفولاذ من ذلك.

فحضر عنده جماعة من الفقراء وأنا عنده يطلبون منه ما يعملون به سلفات لهم.

فقال له واحدٌ من الفقراء: أعطني من هذه البودقة، وأدخل الفقير يده البودقة وهي نار؛ فغرف منها وأخرج كفه مملوءة من الحديد الذائب.

فقال له صاحب المسبك: أنت تظهر علينا كرامتك؟ عندي عبد يشرب المرز،

(١) رواه البخاري (١٢٨٨/٣)، ومسلم (١٩٥٨/٤).

يدخل إلى هذا المعمل ويقلب البيادق، ويخرج ولا يصيبه شيء، ثم نادى: يا فلان، فحضر عبد أسود فقال: تدخل تعدل هذه البيادق فقال: حتى تعطيني درهم أشتري به مزرًا، فأعطاه، فدخل ذلك العبد إلى ذلك المسبك، وجعل يخوض في النار إلى وسطه، ويقلب تلك البيادق بيده، فجعل يقول له: هذه تريد الإصلاح، وهذه كذا، ثم يرجع خارجًا فيقول له: بقي عليك كذا وكذا البيدقة الفلانية، فيرجع ويخوض في تلك النار رائحًا وجائيًا ونحن جلوس ننظر إليه حتى فرغ مما قاله له، ثم خرج والماء يقطر من جسده، ولا أصابه من تلك النيران العظيمة شيء.

فانظر إلى هذه الحكم الإلهية، فجلس الفقراء وطالبوا صاحبهم بسبب ذلك، فهذا العبد يحتمل أن يكون وليًّا لله تعالى، ويظهر خلاف ذلك حتى يستر حاله، ويقول: أشرب بهذا الدرهم مزرًا، ولا أراه يشرب، وقد يكون ما يشير إليه غير مسكر، ويحتمل أن يكون فيه خاصية تمنع النار منه، ولا تؤثر فيه كطير السمندل، وحجر الياقوت، وللإنسان في نفسه أشرف منهما، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

ورأيت بالأقصرين خاتم فضة فيه فص أبيض في يد السراج، وعبد الله ابن الصابوني -رحمه الله تعالى- فكان يضع منديله على الفص، ويضع فوق المنديل جمرة من النار، فلا يحترق لكونها على الفص، أعني المكان الملامس للفص لا يحترق، وهذه خاصية، وكان يقول إن ذلك الفص هو من اليشم الأبيض المعدني، فالله تعالى أعلم بذلك. وقد قلت:

يَـا خَـالقَ النابـتِ والمعـدنِ ... ومُجـرِيَ اللفـظَ علـى الألسـنِ
ومظهـرَ الصـامتَ مـن نـاطقٍ ... وصَـامتٌ يَظهـرُ مـن مُعلَـنِ
وجاعـلَ الخـائفَ في مَـأمنٍ ... وموجـدَ الخـوفَ مـن المـأمنِ
ومُخـرجَ الأفصـحَ مـن الكـنِ ... ومُخـرِسَ الأفصـحَ والألكـنِ
وباعـثَ الميـتَ مـن قـبرِه ... حيًّـا وكـان العظـمُ منـه فـنِي
أعـدَّ حيـاةَ القلـبِ مـن موتِـه ... وبَـدَّلَ الأقـبحَ بالأحسـنِ

وانظرْ لكسري فيك يا سيدي ... من ذا الحادثِ والمزمنِ
وارفع حجابَ الرانِ عن قلبِه ... وانظر إليه نظرةَ الأعينِ
فمن له غيرُك يا سيدي ... من ألتجي من أرتجي من يكفني

دُعَاء

اللهم إنا نسألك سؤال المضطر إليك، والوافد بأفعاله عليك، فلا لجأ ولا ملتجأ منك إلا إليك، اللهم ارفع عن قلوبنا كل حجاب، وافتح بيننا وبينك جميع الأبواب، وقنا برحمتك كل عذاب، وأنزلنا منك منازل الأحباب، وسهِّل علينا الأمور الصعاب، وسامحنا بكرمك من مناقشة الحساب قبل الحساب، ولا توردنا موارد حساب ولا عقاب، إنك أنت الكريم الوهَّاب.

اللهم اكشف عن قلوبنا الحجب المعنوية والحسية، والكلية والجزئية، من الران والغان، والكن والغشاوة، والختم والطابع والقسوة، وما علمناه من الحجب وما لا نعلم، وما لا يعلمه غيرك مما يبعدنا عنك، أو يحجبنا دونك، أو يحجب عنا نورًا من أنوارك، أو سرًّا من أسرارك، أو نوعًا من أنواع الخير للدنيا والآخرة، ونسألك أن تبدّلنا عنه بالمكاشفة منك، والشهود لك، والتخصيص الإرادي، والسر الإلهي، ومحبة الحب منك بخصائص الحب حتى نحبك بحبك لنا، ونشهدك بما تشهدنا، وخذنا على أنفسنا حتى نكون بك لا بأنفسنا، يا حي يا قيوم، يا غني يا كريم، يا عزيز يا قادر، يا أول يا آخر، يا باطن يا ظاهر، حسبي حسبي حسبي، أنت ربي، لا إله إلا أنت، عليك توكلت وإليك أنيب، وصلِّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

عجائب الله

ومن العجائب الظاهرة في هذه الدار كثير في البلاد متفرقة، قد صارت لأصحابها عادة، وهي في حق غير أهلها خرق عادة، كما حُكي أن ببلاد الهند أرضًا يسافر منها المسافرون، وأنهم نزلوا مرة فعلقوا القدر، فلما فرغوا وأطفئوا النار وجدوا ما تحتها قد صار فضة من تراب تلك الأرض.

وحدَّثونا أيضًا عن بلاد أُخر أنهم علقوا القدر، وحفروا تحتها، فطبخت القدور

من غير حطب، وأن النار كامنة في الأرض، فطبخوا لهم وربما الأرض في طريق سُعّرت.

وأحضر لي مرة شخص من الأصحاب ترابًا من أرض صرمين، وكان عندنا أيامًا، فلم يأت إلى مكانه شي من الدبيب العقارب، وذكر أن العقارب إذا رشَّ ذلك التراب في بيت تموت العقارب، وثم خواص أخر من غير المعدن في الحروف والأسماء، فمن أتقنها وعرفها وحققها وجد كذلك.

وقد ذكر منها الشيخ علم الدين المنفلوطي -رحمه الله تعالى- جملة، ذكرها عمّا وجده في منازلاته من خواص الحروف والأسماء والقراءة وسور القرآن، وله في ذلك مجموع رأيته واضح ما يوجد في هذه الطريق بطريق الكيف والمنازلة، وقد ذكر في سيرة الإسكندر من ذلك أمور عظيمة، من أنه كان إذا غلب على بلد من بلاد الكفرة إذا كانوا يعبدون الغربان وقد دخل بلدًا يعبد أهلها الغربان، فلما استولى عليها عمل لها طلسم فلم تعد الغربان تعود إلى تلك الأرض -أعني ذلك المكان- خشية عليهم أن يعودوا إلى عبادتها كما كانوا.

وكذلك أخذ بلدًا كانوا يعبدون العصافير واستولى عليها وعمل لها طلسم، فما رجع العصفور يعود إليها، وكل ذلك من خصائص الأسماء والحروف، وكان الشيطان يدخل في أجواف تلك الغربان والعصافير، ويتكلم على ألسنتها، فعُبدت، وكذلك كان يفعل في الأصنام، ودخوله في أجوافها، والكلام على ألسنتها، وحديث ذي الخصلة مشهور.

وكذلك الشجرة التي كانت تعبد، وذلك كثير جدًّا، وإنما مرادنا الكلام في الخواص الذي في الحروف والسور وحقائقها، وهي كثيرة جدًّا ومتى صحَّت لغير من يخشى الله تعالى تزندَّق، ولا يقع ذلك إلا نادرًا، وإنما أهل الاطلاع والكشوف يجدون ذلك حقيقة.

وكان من تقدَّم من الحكماء ممن وجد ذلك علمًا، وذلك عن الأنبياء المتقدمين، ووضعوا منه ما وصفوا.

الإسكَنْــــدر

وكان الإسكندر له منَّ الله تعالى عناية وولاية، وتمكين في الأرض، وكان له في

ذلك اطّلاع، وكان مراده إدحاض كلمة الشرك، وإظهار كلمة التوحيد، فله من الطلسمات في ذلك أشياء.

الدَّقائق والرَّقائق

وكل من كان له علم من علوم الكشوف علم أسرار الحروف؛ إذ لابُدَّ في كل شيء سر من أسرار الله تعالى، وكل شيء مسبّح لله تعالى بالحقائق والدقائق والرقائق، كلها مسبحة لله تعالى.

فحقيقة كل شيء وجوده وعينه، وكل شيء موجود من جامد ونابت وساكن ومتحرك وسفليٍّ وعلويٍّ، فإذا جزَّأته أجزاء إلى حدٍّ لا يقبل القسمة حسًّا أو ذهنًا فلها رقيقة من الرقائق وتلك الرقيقة هي روح لتلك الدقيقة، وتلك الدقيقة مسبحة لله تعالى ومقدّسة له، وهي في ذاتها لها فلك وهواء وأرض وسماء، ووجود عامر لله تعالى، لا يعلم ما فيه إلا هو.

فمتى أخذت حقيقة من هذا العالم الثاني وقسمتها إلى حدٍّ لا يقبل القسمة صار دقيقة وله رقيقة هي روح تلك الدقيقة، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له، وكذلك لها فلك وهواء وأرض وسماء، وعالم عامر لمن فيه أمم أمثالكم إلى ما لا نهاية له.

يدور الحال كذلك كلما أخذت حقيقة من ذلك العالم، وجزّأته إلى حدٍّ لا يقبل القسمة حسًّا كان أو ذهنًا، كان ذلك الجزء دقيقة، وله رقيقة هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له.

فانظر ماذا يأتي في كل عالم من حقيقة؛ إذ حقيقة الشيء وجوده وعينه، فإذا كان الانقسام إلى حدٍّ لا يقبل القسمة كان ذلك الجزء حقيقة، في نفسه له دقيقة، وهو أن تبسطه إلى أن يصل إلى حدٍّ في الذهن لا يقبل القسمة له هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له.

فانظر ماذا يكون في هذه الأرض والسبع أرضين، وما فيها من العوالم كلها والسماوات السبع، وما فيها وما فوقها وما تحتها، وما بين الأرضين والسماوات، وما في

الأرض من الرمال والجبال والبحار والأشجار من كل عين موجودة، والحيوان والإنسان، وكيف يجعله آخرًا إلى حدٍّ لا يقبل القسمة، فيكون له دقيقة في الذهن، ثم يكون لتلك الدقيقة رقيقة هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له إلى ما لا يتناهى، وهي في فلك وهواء وأرض وسماء كما هذه الدنيا، وتعود القسمة كالأول، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

فانظر أين حدّك من ذلك، واعرف قدر نفسك وافهم، ولا فهم يصل إلى ذلك بمعنى قوله تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨]، وقوله ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٤٧].

وهذه نقطة واحدة من نقط الحقائق، ودائرة من دوائر الطرائق، ولطيفة من لطائف الرقانية، وروحانية من أرواح الرقائق في العوالم والمعالم، والرسوم والجسوم، والمعاني، تجد منها كل واحد بحسب حاله يخلقها الله تعالى أشباحًا وأرواحًا مسبحة لله تعالى بالليل والنهار، وعلوم القطبية والفردانية من وراء ذلك، والغوثية رتبة يحيط بما دونها والإحاطات والدوائر بحسب العطاء والوهب والولاية على تلك العوالم، ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس:٨٣].

المملكة البرزخية

فانظر أيها الولي والأخ السالك إلى المقام العالي، أين ملك الدنيا أجمعه؟ أين جميع الممالك في هذه النقطة الواحدة من المملكة البرزخية؟ فهي بالنسبة إلى هذا النوع المذكور في هذه الدار الدنيوية في السعة في العوالم والمعالم والحقائق والدقائق والرقائق كنسبة سعة الدنيا إلى ضيق البطن الذي كان فيه الطفل وخرج منه وبكى على مفارقة موطنه حتى يفهم معه الدنيا وما فيها، ويدرك ويعقل ويلذ الملذوذات كلها من الحسّيات والمعنويات.

ولو قيل له ارجع إلى بطن أمك الذي بكيت عليه حين خرجت منه لاستقل عقل القائل له ذلك، ولكان ذلك عنده من المستحيل وينفر طبعه من سماع ذلك الكلام، ولا يقع في ذهن أحد العود إلى بطن أمه بعد الخروج أن أحدًا من خلق الله تعالى يختار ذلك، فكذلك إذا دخل البرزخ ويجري الحال في حقائقه ودقائقه ورقائقه كما

جرى في الدار الدنيوية.

سَرمديَّات

ثم إن الدار الآخرة بالنسبة إلى البرزخ في السعة كسعة البرزخ بالنسبة إلى الدنيا، وسعة الدنيا بالنسبة إلى بطن أم الطفل الذي خرج منه في حقائقه ودقائقه ورقائقه.

ويستمر حينئذ الدوام في الحقائق والدقائق والرقائق بالحياة الأبدية والعلوية السرمدية قيامها بالله تعالى ودوامها به، لا يموتون ولا يمرضون ولا يتألمون ولا يحزنون ولا يسامون ولا يبكون ولا يمنعون، ولا يقطع عنهم العطاء، ولا يجدون غلاً ولا شمسًا ولا زمهريرًا، أوقات مستمرة الدوام من غير ليالٍ ولا أيام ولا شهور ولا أعوام ولا أوجاع ولا آلام ولا أمراض ولا أسقام ولا محل السلام والسلام من السلام في دار السلام، والملائكة الداخلون عليهم من الأبواب بالسلام.

والخلق في الجنة بحسب ما ذكرناه من الحقائق والدقائق والرقائق أشخاصًا مسبحون لله تعالى، قائمون في غاية الحسن والجمال من غير نهاية ولا نقصان، ولا يضيق بهم مكان، بل تتسع الجنان بما يخلق فيها الرحمن، والأنهار جارية، والقطوف دانية، والسرر مرفوعة، والنمارق موضوعة، والفواكه غير مقطوعة ولا ممنوعة، والحور الحسان والولدان على أنواع من الحسن والإحسان، والأباريق والأكواب والكواعب الأتراب والكئوس والشراب، وإجماع جماعة المحاب من المأكل اللطائف والأسرار والمعارف والأصوات والنغمات واللذات من المطربات وسماع يطرب للسُّمَّاع ويراع محجل اليراع وشرب كئوس الخمور والشراب الممزوج بالكافور وختام المسك الأدفر من الدفور ما غير ما الحيوان منظور ولذة العيش والسرور، والنعيم متوارد والخير متزايد، وكلما بدا صار عليهم عائد، لا يتناهى جمال إلى حدٍ نهايةٍ في الحُسن والمال.

حسن على حسن

ومعاني الحسن والكمال عاد إليهم بما هو أحسن في الحال في نظر الاستقبال، والأول باق على حالته لا يقبل الزوال ولا تحوله الأحوال، وإذا استكمل الحسن الثاني

ورد الثالث والأول والثاني على البقاء، وكذلك مستمر الحال في كل حال إلى الغاية والكمال ولا غاية ولا كمال.

وكذلك في المطعوم ولذة المطعوم، وفي النكاح وأرواح الأرواح ورؤية الأبواب كالخلع من الجسوم في صورة الحسن الملبوس، وكل صورة ظهرت بحسنها وطلب حسنًا ثانيًا رآه كشف له ذلك الحسن وحسنها الأول باق كذلك، وكذلك شم الروائح من كل نوع من روائح الإنسان من الرَّوح والريحان وما لا يعلمه من الروائح من كل نوع قبل ذلك.

وإن كان ما رسم في هذه الدار تشويقًا لما هنالك لكن أين العين من العين والحسن من الشين، فكلما يتنفس من نعيم عاد إليه نعيم أكثر من ذلك النعيم والأول باق على حالته على الدوام والاستمرار؛ لأنها دار الحيوان والحياة السرمدية والأمان في غرفات الجنان وزيارة الرحمن وشهود الكريم الديان، والمقامات في هذه الدار بحسب تعرّف الله تعالى إليهم فيه تعرفه في تلك الدار فيعطون بحسب تعرف الله تعالى إليهم، ولا حد لهذا العطاء ولا معرفة لهذه المعرفة بالإحاطة ولا إحصاء، فهذه نبذة ميسّرة في بعض بعض بعض جزء من مخلوقات اللهِ تعالى، ولا لنا إلا العجز والله واسع عليم.

عوالم الله

وليست العوالم منحصرة فيما يصل علم الخلائق إليه، بل لله تعالى عوالم لا يعلمها إلا هو.

وأما عوالم الدنيا والآخرة الذي وصل علم الخلائق إليها فمن طريقين: أحدهما بالمشاهدة كالسفر إلى البلاد البعيدة وغيرها، والثاني بالإخبار. إما من جهة الأنبياء عليهم صلوات الله تعالى وسلامه بما في الدنيا مما لا يصل إليه العلوم وبما في الآخرة التي لم يصل إليها، وأما ما أطلع الله تعالى عليه الأولياء بحسب طبقاتهم وميراثهم من أنبيائهم فهم يخبرون بما يشاهدون وراء ذلك ما لا وصل إليه العلم ولا يدركه الفهم والعقل والقياس ولا تسعه عقول الناس.

وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

والرسول -صلوات الله عليه وسلامه- إنما يخاطب على قدر العقول فلا تعتقدن أن العوالم محصورة فيما علمته أو فيما أخبرت عنه معتقدًا أنك أحطت بما لله تعالى من المملكة بل في قوله تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٨] كفاية عن الكلام في ذلك، وهذا مع استمرار الخلق والاختراع لأنه خلاّق، وهي صفة قديمة له قائمة به فتقتضي استمرار الخلق على الدوام والاستمرار، وكذلك بارئ فهو يبرئ على الاستمرار والدّوام، وجميع أسمائه وصفاته فعالة -تبارك وتعالى- مستمرة الفعل على الاستمرار والدوام، فافهم ذلك، وقد قيل:

يا خالقَ الخلقِ وأفعالَهُمُ ... ومُظهرًا ما كان في علمِه
ومُبطنًا ما شئتَ من ظاهرٍ ... ومظهرًا ما شئتَ من حكمِه
وعالمًا بالكونِ من قبلِ ما ... قدْ كان كونًا في مدِّ أسهُمِه
ودائمَ الخلقِ بأمثالِه ... في حسِّه على نوعه بل باسِمه
يخلقُ كلَّ الكَون في لمحةٍ ... من غَير ما شيء ولا رسمِه
وواسعَ العلم فلا عالمًا ... يعلم ما في العلم من علمِه
يُبدي الذي شاءَ ويُخفي الذي ... يحتارُ فيه العاجزُ عن فهمِه
ذوق فؤادي الحب ثم اسقِني ... بشربةِ الودِّ على ختمِه
وامزج بكأسِ الودّ كأسَ الرّضا ... وشمه السابق عن لثمِه
تبرى بها قلبي عن دأبهِ ... ومن ضنا كوني ومن سقمِه
فإنني أصبحتُ في مانعٍ ... مثل امتناع الطفلِ عن أمِّه
يبكي على الفائت من رضعهِ ... ولا يجد صبرًا على فطمِه
يا من تعيدُ الحلبَ في ضَرعه ... ويجري الخالص من دمه

جاعــلُ السُّــمِّ شــرابَ الشّــفا وقاتــل الأســود مــن بهمِــه
ومالــكُ الملــكِ وكــلِّ الــورى ورازقُ الخلــق علــى قســمِه
ولــيس في الكــون سِـوى فعلِـه وفعــلُ كــلِّ الخلــقِ عــن علمِــه
والأمــرُ فــيهم إن يشــا واقــعٌ يجــري بــه الواقــعُ مــن حكمِــه
فــاجبر بجــبر الجــبر كســري بــه واشــددْ بنصــر النّصــر مــن عزمِــه

دُعَـــــاء

إلهي، لمن أسأل، لمن أتضرع، لمن أرجو؟ أيرجى في الشدائد غيرك؟ أيفعل ما يشاء سواك؟ أيخرج شيء عن مشيئتك؟ أيقدر أحد على فعل ما لا تريد؟ أسلطان فوق سلطانك؟ أيد فوق يدك؟ أملك فوق ملكك؟ تباركت وتعاليت عن ذلك علوًا كبيرًا، فعلى من تردني؟ وإلى من تكلني؟ ومن يكفني أمري غيرك؟ تولّني كيف شئت برحمتك إياي، شأني لمحبتك لي يا غاية الغايات ونهاية النهايات ولا غاية ولا نهاية لك، ارحمني يا أرحم الراحمين.

إلهي، أنت أعلم بما عزم عليه أعدائي وما في نفوسهم من أذاي، ولا ناصر لي غيرك، ولا دافع عني سواك.

إلهي، إنك أعطيت أعدائي جاهًا ومالاً وقوةً في الدنيا، ولا جاه ولا مال ولا قوة لي إلا بك، ونسبتني إليك إلهي فخذهم عني بما شئت كيف شئت، واكفني أمرهم بما شئت كيف شئت، واحجبني عنهم، وكن أنت حجابي فلا يصلون إلي بسوء.

يا الله يا الله يا الله، ربي وربّ كل شيء ورب الدنيا والآخرة وملك الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

يــا رَاحــمَ الشــيخِ الكبــيرِ وجــابرِ العَظــم الكســير ويَــا رَجــاءَ المرتجــي
مــالي ســوى رُحمــاك تفــرج كــربتي مــن لي ســواك ومــن لهــا مــن مُفــرج
عجِّــل بغــوث الغــوث منــك لمهجــتي وتحــيّري وتعــبري وتلجُّجــي
وانصــرني علــى الأعــاء نصــرًا دائمًــا فــيمَن يقــيم ومــن يــروح ومــن يجــي

وارحم شكايةَ ما بقلبي من أسى ... وتخضُّعي وتفقُّري وتحوُّجي
وتقلُّقي وتحرُّقي وتفرُّقي ... وتشتُّتي وتهجُّجي
واختم بخيرِ الخيرِ منك لجُملتي ... كي أستقيمَ وكي يزالَ تعوجي
يا غوثَ غوثِ الغوثِ يا غوثَ الورى ... جُد بالسَّلام على الكسير الأعرجِ

اللهم اجعلنا أحبابًا لأحبابك وأعداءً لأعدائك، وانصرنا على أعدائنا وأعدائك ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم.

التحذير من إيذاء الأولياء

ومن المصائب العظيمة الدَّالة على البعد من الله تعالى والشقاوة في الدنيا والآخرة أذى أولياء الله تعالى أو أحد ممن ينسب إلى الله تعالى، وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أنه كان مرّة في بيت وحده فطلع عليه لص وجعل يشوش عليه، وقلوب الفقراء لا تحتمل من يشوش عليهم؛ لأنهم يكونون في جمعية مع الله تعالى فيفرقوهم.

قال الشيخ: فخرجت من البيت -وربما قال: وقفلت الباب - فأُخذ ذلك اللص وقُطعت يده، وربما قال لي تألمت لذلك ولكن وإن تألم الشيخ فإن غيرة الربوبية عليهم موجودة.

وحدثني عامر بن نسيم أنه شوّش عليه الناصح الذي كان ناظرًا بالواح، وكان الشيخ عامر بن نسيم مقيمًا في ذلك الوقت بالواح، فأخذ الناصح تلك الأخذة المشهورة وهلك وزالت نعمته ولم يبق له أثر.

وبلغني أنه وجد في حوطته خمسمائة خونخاة، وكان هذا الناصح مشهور كبير القدر وله مكارم وضيافات وهمم عالية لكن ما ينفع ذلك مع وجود أذى لهذه الطائفة الشريفة، والحديث الوارد: **«من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**[1]**»** ومن ذَاَ لهَُ طاقة بمحاربة الله تعالى؟

(١) سبق تخريجه.

وإياك يا ولي أن تقف مع فهمك وعقلك في معرفة أولياء الله تعالى، فإنهم ما لهم بك حاجة حتى يتعرفوا إليك، فإن من الله تعالى عليك بما يميل به قلب ولي الله تعالى إليك، أو يتعرف إليك بنوع ما من المعرفة فهذه منّة عظيمة من الله تعالى في حقك لا تقوم بحقها، ونعمة لا تقوم بشكرها، فإنه ما يتعرف إليك إلا بأحد أمرين: إما أن يكون له معك نسبة، أو يكون ذلك التعرف مكرًا لإظهار ما في باطن ذلك الشخص الذي يتعرف له الولي بشيء فيظهر منه الإنكار عليه والاستخفاف أو الاستهزاء به فيكون سبب هلاكه وقيام الحجة عليه في معرفته له، ولهم مقاصد مع ربهم ﷻ لا يطلعون عليها الخلق، وإن أطلعوا أحدًا ممن هو أهل ذلك الإطلاع فعلى قدر وسعة، كما حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه كان ببغداد شيخ من المشايخ مجاب الدعوة لم تخطئ دعوته قط.

وكان بالمدينة رجل عالم، وكان يقصد خروج ذلك الشخص من المدينة، فتحدث العالم مع الخليفة، وكان الخليفة يسمع عليه فتحدث معه في إخراج ذلك الشيخ المجاب الدعوة فأبى عليه، وجرى في ذلك كلام، فسمع الشيخ المجاب الدعوة فخرج وقال: لا أدع أحدًا يتشوش بسببي، فحصل لأصحابه من ذلك ألم عظيم لخروجه، ولكونه خرج ولا قدروا أن يخالفوه وتألموا لذلك كما عادة المحبّين فقالوا له: يا سيدي، نحن وافقناك على خروجك، وبلوغ هذا العدو مقصوده فيك فادع عليه لأنه ظلمك فقال: ما أدعو عليه، فتألموا لذلك، وقالوا: ما نقدر على هذا، ولا بد أن تدعو عليه قال لهم: ما أدعو، ولو دعوت عليه ما أفاد، قالوا له لم؟ فإنك قط ما أخطأت لك دعوة، فقال: هو في حراسة نيته، فقالوا له: وما كانت نيته؟ قال: والله لم يطلب خروجي كراهية في ولا حظ نفس منه، وإنما خطر له أنني فاسد العقيدة، وأن الناس يجتمعون فأفسدهم عقيدتهم، ففعل ذلك لله تعالى ولم يطلع عليه أحد غير الله تعالى.

فسمع الرجل العالم بذلك فخرج إلى الشيخ وهو مكشوف الرأس لما علم اطلاعه على ما في باطنه وصحة معتقده فاستغفر الله تعالى وسأل الشيخ الرجوع إلى المدينة فامتنع وقال: نحن خرجنا لله تعالى فلمَ نعود؟ وبقي مقيمًا بخُص ظاهر ببغداد.

وهكذا حدثني عن فقير كان بالمركب وهم مسافرين في ظلمة الليل قال: قلت في

نفسي: يا ترى من هو خفير هذه المركب؟ وإذا شخص وضع فمه على أذني وقال لي: أنا خفير المركب، فالتفتُّ إليه فوجدته الشيخ أبا بكر العيس بابي.

وحدثني شمس الدين مكي الحلبي قال: كنت في السجن فوجدت الشيخ عبد الله البعاشيقي -رحمه الله تعالى- ورحم الآخر، ولا أدري أيهما سبق إلى دخول السجن من جهة السلطان فجلست عنده فقال لي: يجري كذا وكذا في أمر المملكة فقلت له: إيش تقول؟ فقال: الذي تسمع، فخفت مما قاله أن يبلغ عنه، وكنت في شدة من السجن فقال لي: أنت تخرج إلى كذا أو كذا يوم، وأنا أقعد بعدك كذا وكذا، فكان كل ما ذكره رحمه الله تعالى.

وكان الشيخ عبد الله البعاشيقي له حالة جليلة، وكان يتسبب في الثلج، وكنا بمصر حين كان بها وربما نزل ذلك، وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن أحد المشايخ أنه كان جالسًا، وهو يميل تارة على يمينه، وتارة على شماله فقيل له عن ذلك فقال: العسكر كان انتصر على المسلمين فملت على السرية، أو قال: العسكر إذا مال علي جهة ملت عليه حتى ينتصر، وملت على الآخر حتى ينتصر.

فانظر إلى هذه الأحوال العجيبة، وإن كانوا لم يظهر عنهم ما إلا ما تحمله العقول ويكون ذلك بالنسبة إلى أحوالهم الجليلة سترًا عليهم، فإنهم ما يعرفون إلا بتعرف الله تعالى إياهم، ومن ظن أنه يعرف الرجل في كلامه فقد أخطأ في مرامه، وكذلك من زعم أنه يعرف الولي من أقواله وأفعاله فقد غاب عنه في سرائره وأحواله ولا يعلمهم إلا الله، فإنهم يخفون في ظهورهم ويظهرون في خفائهم وقد قلت:

يا عالمَ الباطنِ والظاهرِ ... وجامعَ الأولِ والآخرِ
وجامعَ السابقِ في لاحقٍ ... وملحِقًا الواقفِ بالسائر
وساترَ السرِّ على هاتكَ ... ومظهرَ الخيرِ على ساترِ
انظر لكسرِ القلبِ مني فَما ... لكسرهِ غيرِك من جابرِ

* * *

دُعَاء

اللهم لا تكشف عنا سترك، ولا تأمنا مكرك، وأعطنا حقيقة الإيمان الذي هو أمان عندك في حقيقة الأمان، والإيمان بحقك ووجود ذاتك، وراعنا بأعينك، وخذ بنواصينا إلى جميل الخيرات بيدك، وألحقنا بالسابقين إليك والمقتربين منك، ولا تحوجنا إلى صفاتنا المعلولة وأعمالنا المدخولة وأحوالنا الحائلة وأقوالنا البالية مع معاصينا المتوالية وتقاعدنا عن الخيرات وتكاسلنا عن الواجبات، واغفر لنا ما كان وما حل وما هو آت، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى اللهِ علىِ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

جمـــل الطاحـون

ومنهم السائر في وقوفه والواقف في سيره أعني السالكين، فإن الجمل الذي في الطاحون طول عمره يمشي ليلاً ونهارًا ولم يفارق المدار ولا علم ما وراء ذلك، وهو مع ذلك في جهد جهيد وتعب شديد وهو مغطى العيون عن دورانه، وغيره يقطع في الليلة الواحدة مسافات في سيره.

والعرب تقول: «لا تكن أمانتك كأمانة الجواد لمسطح، وغيلان لصيدح» وصيدح: اسم ناقة لغيلان كانت تأخذ مسيرة الشهر في الليلة الواحدة، وكان يقال أنها من الجان.

وكان غيلان إذا اشتاق إلى [شيء(١)] ركب البراري التي لا ماء فيها ولا مرعى لعلمه بسرعة مسير الناقة، وكان يسير على علم النجوم ويهتدي بها على غير طريق الجادة، وجرى له في ذلك خبر عجيب فضلوه به في الكرم على حاتم مع شهرته.

غيـــلان الدمشقي

وذلك أنه بات ليلة في برية مقفرة، وإذا بذئب كان قد ضل فسمع الحس فمشي وأتى إليه، وكان الذئب قد عطش وجاع، فقال غيلان: ما هذه بأرض ذئاب ولا وحش لأنها لا ماء بها، فأنت يا ذئب ضال، وأنت ضيفي، ولا عندي شيء إلا الأصدح، إن ذبحتها هلكت أنا وأنت في هذه البرية، وإن تركتك بغير شيء كان عار علي.

فعمد غيلان إلى لحمة وركه فقطعها وأطعمها الذئب، وربط عمامته على فخذه

(١) في الأصل (مي).

ربطًا شديدًا، فلما حضر إلى عند مي سألته وألحت عليه في السؤال حتى أخبرها، ففضلوه على حاتم في نفس الكرم؛ لأنه تكرم بنفسه على من لا يعقل ولا يمدح ولا يذم.

وأما كون ذلك جائزًا أو غير جائز فتلك مسألة أخرى من حكم الشرائع، وحاتم وغيلان من الجاهلية، ثم إن غيلان سافر مرة أخرى في برية لا طريق فيها ولا ماء ولا مرعى على عادته لوثوقه بسير الناقة، وكان من عادته أنه إذا تعب أناخها ورقد على ركبتها حتى يستيقظ، فاتفق أنه وجد ظبيًا فصاده وربطه على ظهر الناقة وأناخها ورقد على فخذها ونام، فتحرك الظبي على ظهرها أو عضها فوثبت وطارت كالطير وتركت غيلان هناك فمات في البرية.

فمن ثمَّ قالت العرب ذلك القول فصارِ مثلاً.

حكاية الجمل وصاحبه

وحكي لنا أنه كان بأُسوان شخص اسمه عبد الله الكنز[1] عمر، وكان عنده جمل أصهب، وكان يركبه كل وقت أو كل ليلة ويقربه إلى بحري أُسوان ويعود في ليلة، وكان له عدو بطود فما برح يقربه، ويعود إلى أسوان إلى أن وثق به أنه يروح إلى طود ويعود في ليلة.

فصلى ليلة خلف سيده عشاء الآخرة، وركل الأصهب وساق إلى أن وصل إلى طود، فقتل عدوه ورجع فصلى الصبح خلف سيده بأسوان، فلما كان بعد أيام وجاء ورثة دم المقتول إلى الأمير ركن الدولة، وقالوا له: غلامك قتل صاحبنا في الليلة الفلانية، فقال لهم: غلامي صلى خلفي صلاة العشاء الآخرة تلك الليلة، وصلى خلفي صبحها فقالوا: قتله غيره فلما أرادوا أن يحلف لهم قال له الغلام: لا تحلف أنا قتلته، قال: كيف عملت؟ قال: ركبت الأصهب الفلاني، ورحت ورديت في ليلتي وهذا في تقدير خمسة أيام في الرواح وفي المجيء كذلك، وطلب الكنز الجمل فذبحه فوجدوا صدره لوحًا واحدًا لا ضلوع فيه.

---

(١) هكذا في الأصل.

ورأيت مرة جملاً وعليه إنسان راكب، وكان صبيحة يوم السبت بعد طلوع الشمس، وهو جمل أجرب وصاحبه يجد في السير، وكنت بالقرب من دمامين فقلت له: من أين؟ فقال: من أسوان فقلت: كم لك يوم؟ فقال: يوم واحد، ركبت صبيحة يوم الجمعة وها أنا سائق فقلت: وما الخبر؟ فقال: داود النوبي نزل على أسوان صبيحة يوم الجمعة بالأمس فركبت - وكانت دولة الملك الظاهر - وخرج الأمير علاء الدين حزبنا، ونادى في البلاد بالجهاد، وسافرنا إلى أسوان، وذلك قبل توجه العسكر إلى النوبة ثم بلغ السلطان ما اتفق في عيداب، وقتل من قتله داود وسبى العذارى وأخذ الأموال وقتل الرجال وقتل الحاكم والوالي والخطيب وأسر من أسر، وكان من جملة من أسره السراج القصري رحمة الله تعالى عليه وكان تاجرًا [معروفًا] وجرت له حكاية عجيبة.

قسيس المسلمين

وذلك أنهم أسروه وراحوا إلى بلاد النوبة-وكان كثير القراءة للقرآن وهذا شأنه إلى أن مات- وجعلوه على مصانع المزر ولم يقتلوه، وقالوا:هذا قسيس المسلمين.

وبقي عندهم، وأثبتوا وفاته بمدينة قوص على القاضي جمال الدين السبكي رحمه الله تعالى، وفرَّق الورثة التركة وتوزعت، وتزوجت زوجته، وربما أخذ وكيل السلطان شيئًا جيدًا من التركة، فلما طلع العسكر وأخذوا النوبة وأحضروا الأسارى حضر من جملتهم السراج القصري، فوجد زوجته متزوجة، وماله قد راح، ولم يحصل على شيء، وإن كان فشيء يسير، وربما أسقط القاضي الشهود.

وما تحققت كيفية الشهادة، هل هي بالاستفاضة أو هي بالمعاينة؟.

السَّائرون إلى اللَّـه

والسائرون إلى الله تعالى وأهل الأسفار كثير، فمنهم من يسافر لطلب شيخ يربيه، ومنهم من يكون سياحًا يسافر للسياحة، ومنهم من يكون مقيمًا في مكانه وهو يسافر بباطنه.

وكما أنك ترى بعين الفكر مع قعودك في مكانك أمورًا وأحوالآن، وكذلك في منامك أسفارًا ومواطنًا، وتطلع على ما لا تصل إليه بالسعي، وحتى على الملكوت

السماوي؛ فكذلك الفقير يرى ذلك كشفًا، ويسافره معنى.

ومنهم من يخطو الخطوة الواحدة إلى الجهة التي يطلبها، ولقد رأيت في صحراء عيداب أثر قدم واحدة وتقدير طوله ذراع، ومشينا مشيًا كثيرًا على جبالها نطلب أختها فلم نر شيئًا، وكانت القدم حافية.

وأخبره الأمير علاء الدين أنهم وجدوا في جبانة أخميم أثر قدم كذلك، وجماعة من العدول وإذا تلك القدم ذراع، ولعلها أختها، الله تعالى أعلم.

والدنيا كلها خطوة مؤمن والسفر على طبقات كما قيل:

مـنْ أيـنَ لي مثلُـك يـا مـدلِّلي ... تمشـي الهُوينـا وتجـيءُ في الأولِ

هذا سَفر العارفين من غير إتعاب ولا أنصاب، وإنما هو سَفر القلوب كما قيل:

سـافَروا، أنـتَ بهـم فـيهِم كمَـا وجبَـا ... واذهـبْ ذهابًـا يُـريكم أرضَـكم ذهبَـا

من حلَّ بالبيتِ صلَّى حيثُ شاءَ إلى ... كـلِّ الجهـاتِ وصَـارَ نخلـةُ عِنبَـا

صلي كما أشار إذا كان بقُطر من الأقطار، إما أن يكون فيه قبلة يصلي إليها كالمدن والقرى الإسلامية، أو كان في موطن لا قبلة فيه كبلاد الكفار والصحارى والقفار، يجتهد ويصلي بحسب اجتهاده أن تلك الجهة جهة الكعبة.

فإذا حصل في المسجد الحرام وراء الكعبة فكل الجهات قبلة، كذا العارف بالله تعالى، إنما ينحصر في سلوك واحد وطريق واحد لاجتهاده فيما يوصله إلى ربه ﷻ، فإذا تعرف الله تعالى إليه وحصلت له المعرفة بالله تعالى والقرب منه صارت الطرق عنده كلها موصلة إليه، فإن السالك طريق الخوف غير السالك طريق الرجاء، والمشاهد للجمال ليس كالمشاهد للجلال، والكعبة قبلة الأجسام لورود التعبد والأحكام ومقابلة الجسم المحسوس بالمحسوس المعقول، فالناس يطوفون إليها ويطوفون بها بأجسادهم، وأما توجهات القلوب وصلاتها فإلى ربها تبارك وتعالى، ولا جهة له، والقلوب لا جهة لها محصورة يحصرها، فهو حج القلوب، تحج إليه كما تحج الأجسام وتطوف بعرشه كما يطاف بالبيت الحرام.

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: قال لي فقير مرة: صلِّ في

وجودك. فقلت: وما صلاة الوجود؟ فسمعتِ قائلاً يقول: صلاة الوجود شهود المعبود.

دُعـــــاء

اللهم اجعل حج قلوبنا لذاتك، وطوافها بعرشك، وعرفاتها معرفتك، ودعواتها الثناء عليك بالعجز عن الثناء عليك بما أنت أهله، ورمى جمارها رمى الأرجاس بالأنوار المحرقة المانعة عن استرقاق السمع من الشياطين والقطاع في طريقك والناكثين لعهدك والبائحين بسرك.

واحفظها في حفظك بحفظك، ورد ما أودعته فيها عليك بك حتى يشكرها على الوفاء لك يا أكرم الأكرمين، وكمل نسكها بذبح الهدى والفداء كما فديت عن نبيك وابن خليلك بالكبش، واجعله في ذبح الشهوات النفسانية والخواطر الدنيوية كما ذبحت ملك الموت عن أهل جنتك، فبقيت لهم الحياة الدائمة بإبقائك يا أكرم الأكرمين. وقد قلت:

إذا حجت الحجاجُ يومًا لمكةَ ... وطافوا بها حينًا حججتُ إلى قلبي
وقلبي له حجٌّ وسعيٌ كمثله ... ولا حجَّ إلا أن أحُجَّ إلى ربي
فإن جردوا الأثوابَ جردتُّ باطني ... وإن لبسوا الإحرام أحرمتَ بالسلبي
وإن طوَّفوا بالسعي فرضًا وسنةً ... أطوفُ بقلبي في المشارقِ والمغاربِ
وإن ذبحوا فذبحي لمهجتي ... بها قربةُ الأحبابُ في شِرعةِ الحبِّ
وليست تساوي مهجتي بذلَ نفسَها ... ولكنه جهد المقلِ على القربِ
ولم تك لي نفسٌ أجود ببذلِها ... ولكنه فضلٌ كما العفوُ لذنبي
وإن شربوا من ماءِ زمزمَ شربةً ... شربتُ بها كأسا يجلُّ عن الشرب
وإن رمَوا الأجمارَ أرمي مهجتي ... وأُتبعُها وصفي وأظهر من عجبي
وإن ودّع البيتَ العتيقَ مودّعٌ ... أودّعُ قلبي من عتابٍ ومن عتبِ
وإن كملوا نسكًا فلستُ مكملاً ... وعجزي عن شكرِ المقام به حسْبي

كمـالي ونقصـي فيـك جمـعٌ كواحـدٍ وأى كمـــالٍ للفقــيرِ مــع الحجْــبِ
فرفــع حجـــابي فيــه غــيرُ حجابِــه وكيـف يَرفـعُ الحجـبَ إلا عـن القلـبِ
ورب العُــلا لا شــيءَ يحجــبُ ذاتَــه عـن الخلـقِ لكـن الخلائـق في حجـبي
تـراهم علـى مـا هُـم عليه وقبـل مـا يكـونهم في الكـون شعبًا علـى شعـبِ
فلـــو رفـــعَ اللهُ العزيـــزُ حجابَـــه لأحـرقَ كـلَّ الكـونِ في لمحـةِ السُّـحبِ
وذلـك حـد الكـون بعضًـا وجملـةً وربُّ العلا عـالٍ عـن الكيـف والسلـب
ولكـن لـه حجـب مـن الرحمـة الـتي بهـا انتفـاعُ النـاسِ في السـهلِ والصعـب
يعيشـــون فيهـــا رحمـــةً لبقـــائهم فلـو رفعـت أفـنى الـورى هيبـةُ الـربِّ
وأمـــا حجـــاب الكـــافرين فنقمـــةٌ بهـا تسـعَّرُ النـيرانُ مـن شـدَّةِ اللهـبِ
وإني عبـــدٌ خـــائفٌ مـــن حجـــابِهم وراجٍ بـــربي رفـــعَ ذلـــك عـــن قلـــبي
كـــذلك خـــوفُ العـــارفين جميعهـم لتـأثيرِ وصـفِ اللهِ في المنـعِ والوهـبِ
أتيـــت بـــذنبي للكـــريمِ ولـــيس لي سوى عمل يفضـي إلى الخُسرِ والـذنب
ليفـــرجَ لي كـــربي فَمـــا ثَم غـــيره ومــن غــيرُه قــل لي فيفــرجُ لي كــربي

فالحجب ها هنا بحسب العبيد، والله تعالى لا يحجبه شيء عن خلقه، وحجابه للعزة عن مثاله بالرؤية وغير ذلك ليس ينال حقيقة شيء غيره -جل وعلا وتبارك وتعالى- لأن الإحاطة به مستحيلة، وعلمك بالأشياء إحاطة لها إما بالرؤية أو العقل أو الفكر أو السماع، وما تصل إليه بالحواس الخمس والمدارك الحسية والمعنوية، والله تعالى متعال عن ذلك.

ورؤية الناس له -تبارك وتعالى- في القيامة قد ذكرناه، وليس ذلك إحاطة أصلاً فافهم ذلك.

ولولا الحجب الرحمانية والترائي لهم بوصف الربانية لما أكلوا ولا شربوا ولا تنعموا ولا عقلوا، ولو كشف حجاب العزة عن وجهه الكريم ونوره العظيم لأحرقت سبحات

وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، والرؤية حقيقة كما ورد الخبر «**كما ترون القمر**[١]» لأن القمر واضح الرؤية عند كماله، ورؤية الله تعالى أوضح من ذلك، والمثل مضروب لرؤية القمر لا لرؤية الله تعالى، فإن الله تعالى لا يضرب له الأمثال.

ولأن القمر في نفسه محجوب بالرؤية ظاهر في رؤيته واضح في شهوده، ونفس رؤيته نفس حجابه، والشمس كذلك مع قوة ظهورها وشدة وضوحها محجوبة برؤيتها مستورة بنورها، لأنها في كيفيتها وعظم حجمها أكبر من الدنيا مرارًا، ولذلك استولى نورها على الدنيا وظهرت لكل راءٍ في بعد البلاد وقربها، وهي مع ذلك لا يراها الرائي الأعلى قدر الترسة، فكانت رؤية الرائي نفسها حجابها في رؤيتها.

وهذه من بعض مخلوقات الله تعالى فكيف برؤية رب الأرباب؟ وأنّى لك أيها العبد الضعيف والإحاطة برؤيته؟ لأن ذلك امتنع بحجاب العزة، ولأن الإحاطة به سبحانه وتعالى مستحيلة لأنها حكم عليه تعالى الله عن ذلك، ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ [طه: ١١٠].

وحدثونا عن أحد أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي -قدّس الله تعالى روحه- أنه سأل الشيخ أن يرى الله تعالى، فقال له: امض إلى البحر وقف هناك قليلاً، فمضى المريد إلى المكان الذي أشار إليه الشيخ، فظهرت له صورة ملك من الملائكة نورانية، وقد سدَّت الأفق بين السماء والأرض وملأت الكون كلّه فلم يطق تلك الرؤية وصعق وغاب عن حسّه- وربما بقي أيامًا- فلمّا أفاق أتى إلى الشيخ وأخبره الخبر فقال له: يا ولدي، صورة ملك من ملائكة الله تعالى ما أطقت رؤيتها، فكيف برؤية خالقها؟

محمد العيذابي

وأخبرني فقير -وكان له تصريف في الجن ويرى من صورهم العجائب والغرائب ويتحكم فيهم ورأيت منه مرة تصريفًا فيهم يدل على ما كان نذكره- قال: سألت الله تعالى أن يريني إسرافيل عليه السلام قال: قال فبدا لي وقال لي ما تريد؟ فصعقت، وبقيت سبعة أيام لا أرفع رأسي.

---

(١) سبق تخريجه.

وكان هذا الفقير يعرف بمحمد العيذابي وأصله من طود، وكانت له عبادة واجتهاد وتوجهات وفراغ عن الدنيا، وكانت له معرفة بالأسماء وخواصها، وكان يتصرف بذلك، وما كان يكاد يكتمني شيئًا، وكان له تصريف آخر في أمر الدنيا، وكان لا يرضى يلبس إلا شملة سوداء يجعلها كالفرجية بلا أكمام وقميص تحتها ويلف رأسه بشيء إما ذراعين أو ثلاثة أذرع وفي رجله قبقاب، وهو وحده حيث كان.

وذكر لي أنه إذا أراد أن يقتل من يختار يكتب حرفًا على سكين معه فيقتل ذلك في أي مكان كان، وكان من جهة أعوان له من الجان.

وحكى أنه كان له صاحب يسمى ابن الفايد بـ «عيذاب» قال: انبسطتُ عليه مرة، فأمرت عفريتًا، فحمله بسريره وهو نائم، فوضعه في الباحة بالبحر المالح، فاستيقظ فوجد نفسه كذلك فكاد يهلك، فأمرت العفريت فردّه إلى بيته.

وإذا كان بعض المخلوقات من الجن والملائكة لا يقدر الإنسان على رؤيتهم فكيف بخالقهم؟

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان في ابتداء الوحي يقول: «**زملوني ودثروني**[1]» وورد أنه قال لجبريل مرة: «هل تستطيع أن تريني صورتك التي خلقك الله تعالى عليها؟ فقال: لا تطيق ذلك، ثم ظهر له -فربما خاف- فقال له: كيف لو رأيت أخي إسرافيل؟»**.**

رؤيـة الملائكـة

ورؤية الملائكة متفاوتة، ولو شرحنا بعض ما سمعناه من رؤية الملائكة وعظمها لما وسعه الكتاب، وما غاب أكثر مما ظهر، فإن البشر لا يطيقون أكثر مما ظهر لهم، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨] كفاية وإذا كان العلم منا لا يحيط بهم، فكيف الرؤية؟ وفي ذلك الملك الذي ما بين شحمة أذنه إلى أذنه الآخر خمسمائة عام، ولذلك كذا كذا ألف وجه، في كل وجه كذا كذا ألف ألف لسان، كل لسان يسبح الله تعالى بلغة غير لغة اللسان الآخر.

---

(١) رواه البخاري (١٨٧٥/٤)، ومسلم (١٤٣/١).

مواجيـد الأوليـاء

وأما مواجيد الأولياء وأرباب الكشوف وما يجدونه في تطوراتهم وما يفتح الله تعالى عليهم به وما يشيرون إليه في شهودهم فهي بحسب ما يجده كل واحد، وقد ذكرنا الشهود بعد الفناء بالله تعالى وما يجدونه من وراء العقول ولا يدخل تحت المعقول وقيل:

نعِمنـا بـه في لـذةِ العَـيشِ بُرْهـةً ولاَ مـنَ المعقـولِ في عـالمِ الكشـفِ

فيا عجبًا من غائبٍ وهو حاضرٌ ومـن نـازحٍ دانٍ ومـن ظـاهرٍ مخفـي

* * *

عَـالم الوهْـم والخيال

فأما عالم الوهم والخيال مما يظهر في صورة شكل ومال فهو عالم عجيب، معمّم الأطوار، سائع المسافات والأقطار.

والعوالم الوهمية لا تدخل تحت الحصر، ولا يسع هذا الكتاب بعض بعض البعض منها، وإنما نحن نشير إلى نبذة لطيفة من ذلك لتحذير السالك منها والتبرؤ في سلوكه وطريقه عنها؛ لأنها عوالم مقابلة لعوالم الحقائق للضدية، ولها دقائق ورقائق ،كما أن الحق ضده في مقابله الباطل، والعلم مقابله الجهل، والخير مقابله الشر، وكل عالم من عوالم الكون يقابله عالم مضاد له ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

وهذا العالم الوهمي من أعجب العوالم، وله غلبة عظيمة في الاستيلاء على قلوب الضعفاء وعقول الحمقاء، ومن لا يصلح للاصطفاء، ولا للمحبة واللقاء.

ومنهم من يحجب بحجاب الشقاء لتحقق الشقاء، وهم طبقات أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك كله.

فمنهم طوائف الكفار على اختلاف فيهم، ومنهم أرباب العقائد الفاسدة على اختلاف فيهم، ومنهم أرباب البدع والخوارج على اختلاف فيهم.

وكل ذلك من غلبة الأوهام وتوالي سدف الظلام، فهم يتخيلون الأنوار في الظلام والبركة في الأسقام والحلال في الحرام، وكلما زادت الحقائق وضوحًا يزدادون

عمى، وكلما بدت طرائق الرشد والهدى ارتكبوا طرائق الغي والهوى، وهم في ذلك طبقات على هذا الحال في ارتكاب الضلال والتحلي بالمحال واستحالة ما وجب وإيجاب ما استحال.

خلقوا لذلك، وسلك بهم هذه المسالك لحكمة الإرادة وتحقيق الشقاوة والشهادة، فهم عباد الأصنام وما تخيلوه فيها من الأوهام، والشموس والأقمار والظلمة والأنوار والنجوم والأسحار والملائكة والأنام والأرواح والأجسام، وكل في عبادته مغرور، وهو في غروره مسرور، يقابلون على ذلك وِيقبلون ويحيّون فيه ويموتون.

طبقات الكفّار

وقد تقدم في محاربة الكفار مع الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- ما تقدم وتأخر إلى هذا الزمان-ومنهم النصارى واليهود في عبادتهم المسيح والعزير- وهم طبقات.

ومنهم الاتحادية والحلول، ومن يجعل الحق عين الأشياء والأشياء عين الحق وهم طبقات.

ومنهم الحشوية والجسمية وهم طبقات.

ومنهم الخوارج والجهمية وطوائف المارقين والمبتدعين.

ولا حاجة بتعدادهم(١)، ومنهم من يكونون في دائرة النبي ﷺ لكنهم توهموا أوهامًا وحكموا بها على الأنام.

ومنهم طائفة سلكوا على أنهم على الطريق وحصلت لهم الأوهام فتوقفوا معها وحجبوا عن الله تعالى بها وهم طبقات، وتعداد هذه الطبقات لا ينحصر لسعة العالم الوهمي، وما لله تعالى فيه من الحكم للإهداء والإضلال، وتمييز الهدى من الضلال وظهور الظاهر بالأقوال والأفعال، وإخفاء البواطن والسرائر والأحوال ﴿**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾ [القمر:٥].

فأما **الأوهام** القائمة لعباد الأصنام فقد تقدم ما احتجوا به من الوهم الضعيف لضعف عقولهم بأنها تقربهم إلى الله، وأنهم وجدوا عليها آبائهم، مع كونهم ينحتونها

(١) انظر: البرهان في عقائد الفرق والأديان للسكسكسى، وعدة رسائل أخرى في الفرق، () طبع العلمية بيروت.

بأيديهم! وكون الشيطان كان يغويهم بكلام على ألسنتهم، وكونهم يرون غيرهم يكسرها ويحرقها ويعدمها ولا يحصل له من ذلك شيء من الأذى. وهم على ضلالهم في طبقاتهم.

وأما **النصارى** فحجتهم ضعيفة، وهم أقل من الكلام فيهم، وقد ذكرنا احتجاج النفس الذي لهم وارد عليه ولم يجد له عن ذلك محيصًا، وكونه يعتقد أن المسيح ابن مريم مخلوق ويعتقد أن مريم مخلوقة وحادثة وأنه صدر عنها ويعتقد فيه القدم والألوهية.

وحجة اليهود قريب من حجتهم، ويدعون في التوراة كما تدعي النصارى في الإنجيل، وقد بدّلوا فيها ما بدّلوا في نفس المعتقدات:

﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[المنافقون: ٤]

وأمّا **الفلاسفة** وغيرهم من هذه الطوائف الذي يطول ذكر معتقداتهم مع فسادها، والأصل في ذلك ما توهموا في الألوهية فحجبوا بذلك، وليس لنا غرض في ذكرهم لتشعب الكلام، وإنما غرضنا أن نذكر ما يحذر به السالك عن الوهم الذي يجده في طريق سلوكه، والخيال الذي هو قائم به حتى لا يفتتن، فإن السراج إذا ظهر في صفاء الماء يظهر سراجًا مثله في الماء، وكذلك القمر، وكذلك الصورة في المرآة، فلو كسرت المرآة وأذهبتها لزالت الصورة المرئية فيها، ولا تزول الصورة التي نظرت في المرآة أصلاً، ولو مسكت السراج الذي ظهر في الماء لما آلمك ولا أحرقك ولا وجدت شيئًا تمسكه، وكذلك القمر، فلو شربت الماء الذي ظهر فيه القمر لما استتر القمر نفسه، وكذلك الشمس، وكذلك المرأى في أي مرآة كانت.

فهذا مثال تفهم به صورة الوهم التي تظهر على صورة الحقائق وليست بحقائق، وإنما الأوهام القائمة بنفوس الضعفاء يظهر لهم أنها حق فيقفون معها لأنهم محجوبون عن الحقائق وليسوا بأهلها، ومتى ظهرت لهم صورة ما تخيلوها على ما في نفوسهم لأنها ضعيفة عن الإقدام على حقائق الأمور، ولا سيما إذا كانت محسوسة.

حكايات في الوهم:

١- الحمار ذو الفروة

كما حكي إليها عبد المنان وهو من عدول الذروة قال: كنت بمدينة قوص، فجئت بالسَّحر إلى حمام الزبير، فأخذت المفتاح وفتحت الباب وقفلت علي الحمام،

وأخذت السراج ودخلت وقعدت على الحوض، وجعلت السراج على مكان ينور على، وإذا أنا أسمع شيئًا يمشي على أربع وهو يدق برجليه على ذلك الرخام، فمشى حتى أتى إلى عندي فأدخل رأسه، وإذا فروة مربوطة على وجهه وآذان طالعة، فنفخ في السراج فأطفأه، فصعقت ووقعت وغبت عن حسي، وبقيت كذلك وطلع النهار والباب مقفول من داخل والناس يطرقون الحمام ولا عندي علم بذلك، وتسوّر الحمّامي وفتح الباب فوجدني على تلك الحالة، فحملوني وأخرجوني وأقمت وقتًا حتى أفقت، فقال الحمامي: هذا حمار أخذه القصر فربطوا على وجهه ورقبته فروة وأدخلوه الحمام ليزول ما به، فبقيت ضعيفًا شهرين.

فانظر إلى هذا الوهم الذي قام به، فما كانت نفسه ضعيفة استولى عليها الوهم، ولو كان في رتبة شجاعة الأولياء لما توهم شيئًا، وكان ذلك عنده لو كان جنيًّا حقيقة أو عفريتًا لقام إليه وأمسكه وأهانه.

٢- الوتَد والكسَاء

وبالأقصر القديمة مكان يسمى أبو دويرة، إذا دخله الإنسان وحده في النهار يخاف، وهي عمارة للأوائل من برابي وحجارة، وذلك المكان المخصوص فيه أماكن مظلمة وهي بعيدة عن العمارة.

فتكلم جماعة من أهل الأقصر: أيهم يروح في ظلمة الليل ويدق وتدًا هناك؟ وجعلوا على ذلك جعلاً فراح منهم شخص إلى ذلك المكان في الليل ودق الوتد على كسائه وقام فأمسك الكساء من عليه فتوهم أنه جني فوقع مكانه- وربما قام وراح وخلّى الكساء- فلما أصبحوا حكى لهم أنه مُسِك، فراحوا ووجدوا الوتد قد دق على الكساء.

فانظر إلى فعل الوهم.

٣- الوطواط

وحدثني السراج أبو القاسم الأقصري قال: خرجت مع شخص إلى الأقصر القديمة فدخل إلى مكان فيها ووقفت أنتظره وبيدي حربة وأنا في ظلمة، وإذا بالحربة قد

خطفت من يدي من أعلاها، فحصل عندي خوف وجزع -وربما قال هربت- فلما أصبحنا جئت إلى المكان لأجد وطواطًا كبيرًا قدر الحدأة كان طائرًا في الظلمة والحربة قائمة، فلحقها بجناحه وهو طائر، فمن قوته انقلعت وشرمت جناحه فوقع فأصبح ميتًا، فتوهم وجود جذب الحربة أنه جني!

٤- نواويس الموتى

ومنهم من يكون أقوى في وهمه من غيره لتفاوتهم، ومثل ذلك في المخاطرة على دخول الأماكن المخيفة في الليل، وبغرب الأقصرين شامة وطامة من عمائر الجاهلية الأوائل وأهل البرابي، وبهما نواويس أموات وهم صحاح.

ورأيت منهم جملة وهم على هيئتهم، وعظامهم بيض وأسنانهم وأظفارهم باقية، وجلودهم على أجسادهم، ولعلّهم كانوا يداوونهم بأدوية فلا تضمحل أجسادهم، وبعضهم يربطونه جميعه، وكذلك يفعلون بالطيور من الغربان وغيرهم من الحيوانات كالقطط وغيرها، ويجعلون بعضهم في قوالب من حجارة مملوءة عسل نحل، فلا يتغيرون لأن العسل لا يتخلله الهواء، والهواء يسرع إلى فساد الأجسام.

٥- المُكفَّـــــن

وحكي عن جماعة كانوا يتعيّنون الفرجة في بلادنا تقاولوا فيمن يروح إلى شامة وطامة ويحضر لهم ميتًا من تلك الأموات، فقال أحدهما: أنا أروح -وربما جعل لمن يروح جُعلاً كالرهان- فلما تقرر ذلك سبقه المراهن له، فأخذ كفنًا ولبسه كما يلبس الميت، وبقي ملقى- أو قال متكئًا- فلما دخل ذلك الذي راهن على أن يحمل الميت وجد ذلك المكفّن، فوضع يده فيه فقام وقبض عليه فلم يضطرب لذلك فتكلم هو وهو فلما لم يجد منه بد أظهر عليه.

الخيالات الفاسدة

ومن الخيالات الفاسدة والوهميات الغالبة ما حكي أن شخصًا كان معروفًا بالكرم، وكان يضيّف الناس ضيافةً عظيمة، لكنه كان يضرب الضيف، فسمع به شخص فقال: والله لا بد لي منه لأعرف حقيقة حاله.

قال: فتوجه إليه كالضيف، فأكرمه وعمل له ضيافة كبيرة تكفي مائة رجل، قال:

فأكلت ولم أقل شيئًا، وبقيت عنده ثلاثة أيام على تلك الحال، ولم يصدر لي منه إلا خيرًا فقلت: يا أخي، الناس يقولون عنك إنك تكرم الضيف وتضربهم، ولي عندك ثلاثة أيام ما رأيتك فعلت إلا خيرًا فأخبرني ما قضيتك؟ فقال: ما لي قضية إلا أن الضيف يجيء إلي فأعمل له مثل ما عملت لك فيقول: ليش هذا كلّه، وبعض هذا يكفي؟ فأعرف أنه نحس بخيل كثير الفضول، فأضربه، فإنه ما له إلا ما يأكله، وأنت لم تفعل شيئًا من ذلك..

قال: فاتفق أنه رقد لينام ولبس في وسطه سراويلي، فهبت الريح فكشفته فقلت له استر، فقام إلى وضربني ضربًا شديدًا حتى لم يبق في مكان -أو كما قال- قال: فبقيت حتى أفقت فقلت له: سألتك بالله ما ذنبي؟ فقال: أنت قلت لي استر، واستر تصحيفه اشتر، وما يشتر إلا الجمل، والجمل تصحيفه حمل، والحمل له قرون، فأنت قلت لي يا قوّاد.

فانظر إلى هذا الخيال المتشعب من الوهم وما رتب عليه من الحكم حتى ضرب الرجل، ولم ينفع إكرامه لوقوع ما حصل لِه من الإهانةِ.

وخيـــال أفســـد

وأفسد من ذلك خيالاً ما حكي أن شخصًا كان له ولد، وكان ذلك الولد فاسد الخيال متشعب الوهم ضعيف العقل، يتخيل خيالات ويفعل بمقتضاها ويهتم لها، فشاب وهو في سن الشبيبة.

فاتفق أن أباه جلس عند جماعة وهو معهم، وأبوه شاب أسود اللحية وهو شيخ أبيض اللحية، فكلم أباه باسم الأبوة فقال الحاضرون: هذا والدك ويسميك بالأبوة؟! فقال: لا والله، إن هو إلاّ ابني. فقالوا: فكيف هذا الشيب؟! فقال لهم: إن له أخلاق توجب ذلك من خيال فاسد والساعة تبصرون.

قال: فغاب ساعة، وحضر وهو قد كشف رأسه ونتف لحيته وقال لوالده: أنت قاعد ساكت وما تبصر ما نزل بنا؟ وجعل يصيح ويغتاظ ووالده ساكت والناس يتعجبون من ذلك ويقولون للولد: ما شأنك؟ ووالده يعلم أن ذلك عن لا شيء. فقال له: إيش قضيتك؟ فقال: حمارة جيراننا ولدت جحشة بلا ذُنُب. فقال له والده: وإذا كان هذا إيش يكون؟ فصاح وفعل بنفسه أفعالاً، ونتف لحيته وقال: وتقول لي هكذا؟

وإذا وحلت الجحشة وطلبوني أساعدهم لا ألقى لها ذُنب أمسكه.

فهذه وإن كانت من نوادر السخف والحمق فقد كان عندنا فقير يخدم ولا يعلم به، كذب وهو مشتغل بالقراءة والأعمال ليس له غير ذلك، وإنما كان يتخيل الشيء في نفسه ويبديه بالقول، وكنا نصدقه لما نعلم من صدقه، فربما توهم أو حدس شيئًا على شخص فيقوله فيعتقد صحة ذلك فيحدث ومع ذلك لم نجد له أصلاً إلا ما تخيله.

وكنا نرسله فيما نحتاجه فيحيل المصلحة في غير الذي طلبناه فيفعله، فإذا قيل له في ذلك يجادل ويحاجج، وكان في نفسه دين، فما قدرنا على صحبته، وتركناه لهذا السبب.

وأعرف من كان لها دكًّا، وكانت تتخيل وقوع الجائز الذي هو في رتبة المستحيل من البعد، لكنها كانت تغضب بسبب ذلك.

وإنما ذكرنا هؤلاء الذين عرفناهم في رتب الوهم للاستدلال على الذين تعبّدوا الأوهام وتخيّلوا المستحيلات واجبات، فوقعوا في حبائل التخيلات واستولى عليهم الوهم وتحكم عليهم الخيال.

وخيالات أكثر فساداً

حتى أن منهم من تخيلوا ربهم على أنواع من الصور المحسوسة؛ إذ الخيال الوهمي لا يتعدى رتبة الحس والمحسوسات، والمدارك الحسيات والفكر الخاليات والوهميات لا تتعدى المحسوسات والأشكال المخلوقات وليس لها طور فوق ذلك.

فلذلك تخيل بعضهم أن الله تعالى في صورة جميلة، وأنه شاب أمرد، وأنه يجلس على العرش، وفي رجله قبقاب من ذهب.

وتخيله بعضهم أنه صورة كبيرة عظيمة، واختلفوا في تخيلاتهم.

وتخيل بعضهم أنه يحل في الأشخاص الذين لهم مناصب كعلي بن أبي طالب وغيره ممن ذكروه- وهذا باب واسع- والذين تخيلوا أنه صورة جميلة وأنه شاب أمرد اشتدت الفتنة وتوسعت حتى رأوا كل شاب جميل بذلك.

كما حكى لي الشيخ جمال الدين بن الشيخ عبد الله -نفع الله تعالى ببركته المسلمين -أنه كانت صورته جميلة في حال شبيبته، وكان أمردًا، وأنه جلس عند

صاحب له يقرأ القرآن، فقام صاحبه وتركه عند الصبيان قال:

وإذا صورة فقير واقف ينظر إلى نظرًا شديدًا فتشوشت لذلك، والشيخ ﷺ فيه طباع الغرب، وهو مغربي الأصل ولا يحتمل مثل هذا قال: وكان معي فقرأ قال: فربما قال له: إيش تطلب؟ أو إيش تحتاج؟ فغضب.

قال: فقال لي أنا أطلبك في السماء وأنت معي في الأرض؟ فظهر عليه معتقده الفاسد، فجعل الفقراء يضربونه، وهو لا ينفك وربما مسكه الشيخ -رحمه الله تعالى- وكسر رأسه وهو يلتذ بذلك ويستحليه ويستلذ به، ولم يخلصوا الشيخ منه إلا لما لم يبق فيه رمق يمسكه به.

وسمعت في ذلك حكايات كثيرة يضيق الوقت عنها، ثم إن هذا الباب وإن كان ثم من يعتقد هذا المعتقد الفاسد بالوهم الذي غلب عليه، فالشيطانية من التزيين للنفوس الخبيثة الملائمة الشهوات الخبيثة ما يول به مع التزيين والتحسين لمن لم يعتقد ذلك، لكن يروا بالشاهد لصورة الحسن في حسن الصورة فيخرجهم ذلك إلى عشق المرد، ويستولي عليهم في شاهدهم الخذلان، ويمكر بهم اللعين مع الشهوات الخفية في الأنفس الخبيثة حتى بقي ذلك في أكثر المتلبسين بالزي.

وحدثني الشيخ عبد العزيز ﷺ عن الشيخ شهاب الدين السهروردي ﷺ أنه قال: ولقد تتبعت هذا الأمر فوجدت الخالي من كل علّة عنده رغوة الشراب، ولو لم يكن شراب لم تكن رغوة لا جرم.

رئي إبليس في المنام وهو يقول: إن لي فيهم لطيفة لما ذكر له أوصاف الصوفية، وهي النظر إلى الشباب، وهذا في حال يرنو من بالشاهد من غير رؤيته؛ لأن الاحتياط أولى.

وقد عرفت فقيرًا كان بعيدًا عن هذا الوهم بعدًا عظيمًا، حتى يكاد يكون الميل في حقه مستحيلاً مع جوازه، ومع ذلك وجد مع طول المدة الميل الذي يحدث منه المفسد.

ولقد تتبعت ذلك في جماعة وأصحاب أعتقدهم بالصلاح والدين والتقوى فرأيت المخالطة للشباب مفسدة، ولذلك اشترطت في وقف الرباط ألاّ يقيم به الشباب المردان الذي يخشى من إقامتهم المفسدة، إلا أن يكون شابًا متوجهًا غائبًا بالاجتهاد في طلبه

عن أحوال العادة، فلا يمنع من مقصده، ويعان على ذلك، ويتولى الشيخ أمره، ولا يجلس الشباب إلا خلف الحلقة، ولا يواجه الناس بوجهه، ولا يخالط أحدًا من الفقراء حتى يلتحي.

نُفُوس خبيثَة

وقد كان الفقيه أبو الطاهر خطيب مصر رجلاً صالحًا، وكان قد اشترى مملوكًا جميلاً بجملة كبيرة، وعلمه القرآن، فلما كبر أراد بيعه فنقص عن قيمته كثير فتعجب الشيخ ذلك، وكان قلب الشيخ أبي الطاهر طاهرًا مما في النفوس الخبيثة من أمر الفاحشة، فجعل الشيخ يقول: اشتريته صغيرًا وعلمته القرآن وعلمته صنعة الشراب، وكبر والتحى فنقص عن ثمنه؟! فعرفه بعض من يدل عليه بالعلة فقال: والله ما اعتقدت أن أحدا فعل ذلك غير قوم لوط.

ولقد حضر عندنا مرة شاب جميل، وكان قد ورد مع خال، فاتفق فصلهما عن بعضهما، وكانا مسافرين إلى الحجاز، فسأل الشاب أن يقيم عندنا حتى يتوجه إلى بلدة مع من يصلح للتوجه معه، فامتنعت من ذلك للشرط الذي اشترطته، ولمعرفتي بأحوال الناس.

وكان أخي الشيخ مجد الدين نفع الله تعالى به ورحم سلفه من أهل الخشية والدين، متقي الله تعالى فقال لي: يا أخي، إذا منعت هذا القعود في هذا المكان فأي مكان يحفظه؟ قلت له: لم يكلفني الله تعالى ذلك، وإنما لنا حفظ أنفسنا ومن عندنا، ونخشى من المفاسد الداخلة علينا، فقال لي: يا أخي، جرى مثل هذا لأصحاب سيدي الشيخ أبي الحسن الصباغ.

المملُوك الحَافي

وذلك أنه ورد عليهم مملوك جميل الصورة من مماليك الملك الصالح، فقال الفقراء: لا يقيم هذا عندنا أصلاً، فقال الشيخ أبو الحسن: إذا لم نحفظه من يحفظه؟ ثم أمر بحلق شعره، وألبسه ثوبًا أزرقًا، وبقي في الخدمة إلى أن سمع به السلطان فسير طلبه، فأرسله له على تلك الحالة، ففرح السلطان بتلك الحالة. فتركت ذلك الشاب وقلت له: يغير زيه فغيره، وبقي حافيًا يملأ الماء مكشوف الرأس بثوب أزرق، وبعد ذلك حصل التشويش بسببه.

الفقير الأعمى

وكان قد ورد علينا فقيرًا أعمى، وقيل أنه مجبوب، فأحب ذلك الشاب، فأخرجت الشاب، وأرسلته إلى أهله مع ثقة وأخرجت الأعمى هذا بعد أشياء.

فقد رأيت بالزاوية من لم أكن أره قبل ذلك اليوم يلازم الزاوية، وخشيت استيلاء المفسدة والفتنة.

الرجلان

وحدثني الشيخ علي خادم الخليل عليه السلام وهو قد عمّر كما ذكر مائة وثلاثة وأربعين سنة، حدثنا من شهر رجب سنة ثمان وسبعمائة أنه لما جاء غازان إلى بلاد الشام فدخل اثنان من بني عمه إلى الجامع يصليان، وأنا جالس، فصلى أحدهما بجانبي الأيمن والآخر من الأيسر، ورموا سراتيجهم، وتخففوا بمناديل معهم.

فقال لي أحدهما: أنت مسلم؟ قلت: نعم فقال: كذبت، ثم قال لي الآخر: أنت مسلم؟ قلت: نعم فقال: كذبت، ثم جلسا وقالا لي: أنت تشوشت من كلامنا؟ قلت: لا قال: كذبت، ثم كلماني فقلت لهما: يا كلاب يا أبناء الكلاب فضحكا وقالا: ما قلنا لك أنت تتشوش قلت: لا مسلمًا يكذب ويحلف كذب، ويزني، لا مسلمًا يشرب خمر، لامسلمًا يعلم قول الله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾ ويقول (رجالكم حرث لكم)، ثم أخرج أحدهما عشرين دينارًا فامتنعت، فحلف أنها من شغل يده، وأنهم في الثلاثة أشهر ما يأكلون إلا من كسب أيديهم.

مفسدة صُحبة المُرد

ومفسدة صحبة الشباب المردان من أكبر المفاسد، فليحذر السالك من ذلك، ومن يدعو الناس إلى طريق الله تعالى أن يجمع بين السالكين والشباب في مكان إلا أن تكون له قوة تأييد وحفظ باطن بالقلوب والقلوب بالحراسة الإلهية.

فإياك أيها السالك ثم إياك أن تتكل على طهارة نفسك وخلو ذاتك من الشوائب، فإن للنفوس دقائق خفية تؤثر فيها المخالطة وتسرق الطباع بعضها من بعض، ويرجع إلى العوائد بطول المدة ولا يرجع إلى أقوال من كان مغلوبًا في سيره إلى ربه عز وجل فذلك حكمه في نفسه أنه كامل، قوي بالله، قد أحرق الله تعالى بنور قلبه

نيران شهوات نفسه، وحرق الحجب العادية، واستولى على المملكة الإنسانية لقوة الروحانية، وعاد إلى سلوك الخلق بعد كماله، فتراه يصنع شيئًا، فتعتقد أنت أنك تبعته من غير أن يأمرك به، أو تكون مريدًا له، ففي ذلك مزلات في الطريق وخروج عن قواعد التحقيق.

الاحتيَاط

ولقد كنت مرة أمشي أنا والشيخ أبو الطاهر -رحمة الله تعالى- عليه وهو قد أسن، فاجتزنا على مكان به مغنية، فهرول الشيخ أبو الطاهر فقلت له: وما هرولتك؟ وأين الفقر وما يتوهم المتوهم من العادة؟ فقال: الاحتياط والوقوف مع الشرع أولى.. وكنت إذ ذاك في حال الشبيبة.

والسلوك والذي وقع في هذه المفسدة من الخلق ما لا يحصر عددهم وشملهم البلاء وقطعهم عن السير إلى الله تعالى، والمصيبة العظمى والبلية الكبرى إن أدى ذلك إلى الفاحشة التي سبق لها قوم لوط فأهلكهم الله تعالى بالخسف، ومدائن قوم لوط المخسوف بها الآن في طريق الشام بركة ماء لا يشرب منها ولا وحش ولا ينبت بها شيء.

بِركة سَدوم ومَا حَولَها

وذكر لي فقير عن فقير أنهم كانوا جماعة من الفقراء عند هذه البركة فقال واحد منهم: هذا مكان أصحابنا قال: فخرج حُوت، وجرّه برجله ودخل به في الماء. وهذه البركة اسمها سدوم وما حولها، وكانت سبع مدائن حملها جبريل ﷺ على خافقه من جناحه حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب فقالوا: من هؤلاء المغضوب عليهم؟ ثم رمى بها وقلبها فبقيت بركة ماء.

وليحفظ نظره؛ فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وخلفه الفضل ابن العباس فجعل يحول بوجهه عنها يمنة ويسرة.

رؤية الأمـرد

وقد اختلفوا في تحريم رؤية الأمرد، أما النظر بشهوة فالتحريم ظاهر لوجود العلة، وأما بغير شهوة فمن قائل بالإباحة ومن قائل بالتحريم، وذكر النواوي التحريم مطلقا

بشهوة وبغير شهوة: ألا ترى إلى تحريم النظر خشية من الوقوع في التحريم؛ لأن ما يتوصل به إلى الحرام فهو حرام، وما لا يتوصل بالواجب إلا به فهو واجب.

وإن كانت علة تحريم النظر خشية المفسدة فالحرة والأمة والأمرد في ذلك سواء، وإن لم يرد في الأَمة شيء ولا في الأمرد شيء؛ لأن العلة تشمل الجميع إن كان التحريم تابع للعلّة.

وإن كان ذلك تعبد لا يعقل معناه وقفنا معه وعند حده وقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور:٣٠] حكم عام، ويفهم معنى الغض في قوله تعالى: ﴿**وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور:٣٠] ففُهمت العلّة أن البصر داعية إلى فعل الفرْج، فأمر بحفظه.

وقد اتفق أكثر العلماء على أن علّة تحريم النظر كونه داعية إلى الوقوع في الزنا، وفيه معنى خاص، وهو أن النظر يستميل القلوب إلى محاسن الصور الجميلة حتى تحبها وتعشقها وتتهالك عليها وتفنى فيها حتى تهلك، وعلى ذلك جمع كبير يطول ذكرهم، كقيس بن الملوح مجنون ليلى، وعامر، وعودة بن خزام، وثوبة، وجميل، وجماعة لا ينحصرون من العرب وغيرهم.

وكان سبب ذلك النظر- فملكت الصورة الجميلة قلوبهم، والقلوب لا يصح توجيهها ولا ملكها لغير خالقها فوقع التحريم غيرةً على القلوب ألاّ يملكها غير الله تعالى ولا تشتغل بغيره، وهذا معنى لطيف، أو يفهم معنى قوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٢٢] فكأنه أنزل هذا المحبوب من قلبه منزلة الرب ﷻ الذي لا يصح توجه القلب إلا إليه، ولا يحل فيه غيره فجعل ذلك المحبوب في محل الإله المعبود.

ولذلك قال ابن العلم:

غض ما داعي الهوى إلى النظَرِ   ليسَ مأمونًا على القلبِ البصرُ

وعلى الجملة:

فمن جوَّز رؤية الأَمة والأمرد لغير شهوة فهو متأوّل، وكذلك الأمة والمحرمات من الأنساب والرضاع كذلك، وأمّا مع وجود الشهوة فالتحريم شامل للجميع، فقد روي أن جماعة زنوا بمحارمهم -وليس هذا موضع الكلام فيه- والغض عن الجميع من عدم

الشهوة أولى للمحترز، فإن الغيرة الإلهية سريعة التأثير في المخصوصين.

فقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن أحد المشايخ أنه كانت له مملوكة، وكانت تسكب عليه الماء للوضوء، فنظر إلى ثديها وقد برز، فوضع إصبعه عليه فاسود إصبعه.

وأعرف فقيرًا كانت له زوجة، وكان في وقت الاشتغال غائبًا عن أحوال العادة ولا يجتمع بزوجته، فاتفق أنه ليلة من الليالي جلس معها على فراشها للجبر أو للسُّنة ولم يدنُ منها، وإذا بملك معه آلة وقد رفع الآلة -وهي كهيئة الدبوس- ليضربه بها وصاح فيه صيحة عظيمة وقال له: متى ترجع إلى الله تعالى؟ فقال: الساعة، فحصل له من تلك الصيحة أمر عظيم، فكاد أن ينخلع قلبه، وبقي تلك الليلة كلها لا ترقى له دمعة إلى الصبح.

هذا مع تحقيق الإباحة وطلب الجبر واتباع السُّنة، لكن كان فيما هو أخص من ذلك من عدم الالتفات إلى غير الله تعالى لحظة أو ساعة ولذلك قيل:

طَرفٌ يراكم ويرنو نحوَ غيرِكمُ ... لا التذ يوم اللقا بالفوزِ بالنظر

ومسمعٌ ذو نصيبٍ من حديثِكمُ ... أصمَّهُ اللهَ إن أصغى إلى بشرِ

تفديكم مهجتي يا من أحبُّهمُ ... ليست على قدرِكم لكن على قدري

وحقِّكم لو دعاني عبدُ عبدِكُمُ ... لبيتهُ طائعًا أمشي على بصري

دعَــاء

اللهم وجه كلياتنا إليك، واجمع قلوبنا عليك، ولا تجعل فينا سمعًا لغيرك ولا ملاحظة لسواك في ذرة أو نفس أو لحظة من اللحظات أو ساعة من الساعات أو زمن من الأزمان الفرديات، واستول على جميلة قلوبنا بشهودك، وأشهدنا كل شيء شهدناه بك، واملأ جوارحنا وجوانحنا بحبك، وأقمها وقوها في عبوديتك، وكونها في كل كون بك يا عزيز يا كريم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

شُهود الجمَال

ولتعلم يا أخي أن شهود الجمال مستولٍ على جذب القلوب بالخاصية، وظهوره في فاعل عندي ثم من منفعل؛ لأن الرتبة تقتضيه، وهو عند من ذكره من الأكابر في

منفعل لهم، والمحاسن والملاحة أنواع بحسب سلطان الجمال، والجمال اسم يعم كل ذلك.

والتفاوت في الملاحة والمحاسن بحسب الاستعداد، حتى ظهر ذلك في الأحجار والنبات والحيوان من كل نوع، وكمل ذلك في الإنسان لكونه خلق في أحسن تقويم، فأخذ حدّه في ذلك، وقبل من المحاسن والملاحة بحسب قوته واستعداده كما قبلت الملاحة والمحاسن من الجمال بحسب قوتها واستعدادها، وشهدها الرائون للصورة بحسب درجاتهم ومشاهدهم وطبقاتهم بحسب استعدادهم ومراتبهم ومقاصدهم ونياتهم وحديثهم المعافى من حيث كل واحد بما وجده، فاختلفت المطالب واتسعت المذاهب وذهب إلى هواه كل ذاهب.

فعُشقت النسوان والمردان، واستولى على قلوبهم الشيطان، ودسّ عليهم في مطالبهم دسائس الزور والبهتان؛ لأن الشاهد بحقائق الجمال والفائت عن الصور والأشكال عزيز في كل زمان وفريد في كل أوان، فزعم من زعم من أهل التدليس أنه ما لاحظ إلا ذاك المحل النفيس ولم يدر أن ذلك من غرور اللعين إبليس، حتى إذا صار في حبائل الشيطان واستولى على قلبه كان المردان أعز من الرحمن، ووافق في عشقه الشيطان.

العادة من أجناد الله

ولم يزل به الشيطان من رتبة أعلى إلى أدنى، ثم من أدنى إلى أدنى ومن أدنى إلى أدنى حتى يوقعه في الفاحشة التي هي أرذل القبائح وأشنع الفضائح، ثم يتعود ذلك حتى تعسر عليه التوبة، لأن العادة جند من أجناد الله تعالى تحجب التوبة.

خاتمة الأشقياء

فإن خطر له خاطر التوبة سوَّف به من حين إلى حين آخر، ومن وقت إلى وقت آخر، ومن زمن إلى زمن آخر حتى يستحكم الفساد ويظهر العناد ويغضب رب الأرباب، فيسوَد باطن القلب والعياذ بالله تعالى، فلا تؤثر فيه المواعظ، ولا يجعل بقائم في ذلك ولا قاعد، فعند ذلك يخاف عليه من الختم والطابع التي بها يكون بها خاتمة الأشقياء- أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

فإن استدام ولم ينخلع انخلاع الثوب عن الجسم والجسم عن الأخ، ويلجأ إلى الله تعالى بصحة الاضطرار والاستعانة آناء الليل وأطراف النهار وإلا استمر القلب على ظلمته وعمي عن الرؤية للهدى وتبدل عن البصيرة بالعمى، فطبع عليه وختم له بما سبق في العلم ومات عن ذلك ويبعث عليه.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من منازل الأشقياء وجنبنا وإياكم موارد سوء القضاء، وأحلنا بكرمه منازل الأتقياء وخلاصة الأولياء، وجعلنا ممن اختصته محبته فلا يجد لقلبه عن ذلك محيصًا ولا مردًا ولا سبيلاً، وكان لنا وعلينا حفيظًا ووكيلاً إنه الكريم وحده، وصلى الله عليه وسلم.

فليحذر السالك هدانا الله تعالى وإياه من هذه الشبائك، والاحتراز بالكلية أولى من أن ينظر في التحليل ولا في التحريم ولا في التأخير ولا في التقديم، وليقطع حبل الشيطان من أول الحال، ولا ينظر إلى ماض ولا إلى استقبال؛ فإن هذه الفتنة قد كثرت في هذا الزمان، وكان ارتكابها عندهم شديد ثم هان، حتى أن الناس ينظرونهم يزيّنونهم أشد من زينة النسوان، ويلبسونهم أحسن الملابس من الثياب الحسان، ويتغالون فيما يباع منهم بجزيل الأثمان، ولا ينكر على ذلك منكر ولا يغضب لله تعالى مقبل ولا مدبر.

لا جرم قد تولى البلاء واشتد الابتلاء، وكثرت المطالب وبعدت الغنائم وتقترت الأرزاق، واستولى عليها المحاق، وبلغت النفوس إلى التراق، وصار كل واحد مشغول بنفسه، وغائب في يومه عمّا جرى في أمسه، وإذا كثر الزنا وقع القحط وقلت الأرزاق وكثر موت الفجأة، وقد ظهر ذلك، ونخشى والعياذ بالله الموت على ذلك.

اللهم إنّا نسألك التوبة فتب علينا حتى نتوب، وأرجعنا إليك حتى نرجع ونئوب، واستعملنا فيما تحب حتى لا نحب إلا ما تحب، وأردنا بما تريد حتى لا نريد إلا ما تريد، إنك حميد مجيد وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وقد قلت:

لا كـانَ مَـن يهـوى بغـيرِ هواكَـا ... كـلاَّ ولا قلـبٌ يحـبُّ سـواكَا

حاشـا جمالُـك أن يكـونَ لعاشـقٍ ... يعتـاضُ مـا يعتاضُـه إلاكَ

فــالكونُ أجمــعُ والوجــودُ بأســرِه يهـوى الهـوَى وكـذا الهـوَى يهـواكَ
والعشـقُ أصـبحَ فيـك يُعشـقُ كلُّـه مــا كــان يعشــق عشــقَه لــولاكَ
كيــف التصــبُّر في هــواك لمغــرمٍ هــا قلبُــه وفــؤادُه مأواكَــا
بي علَّـــةٌ مقروحـــةٌ وصـــبابةٌ لا تنطفـــي إلا يـــومَ لقَـــاك
فعسـاك تُحلـيَ مـا بقلبيَ مـن أسَـى ممَّــا بهــا يــا سـيدي وعســاكَا
قلــبي يلــذُّ بكــلِّ مــا تختــارُه إلا جفــاكَ فــلا أُطيــقُ جفــاكَ
أدنيتـــني حـــتى إذا تيمتَـــني أقصـــيتَني وتـــركتَني بضـــناكَا
مـا كنـتُ أهـلاً أن أكـونَ لعبـدِ مَـن يَهــواكَ عبــدٌ كيــف لي بهــواكَ
حاشـاك مـن أنـسٍ يبـدَّلُ وحشـةً يـا سـيدي ومـن الجفَـا حاشَـاكَ
عد بالوصال ولو على سِنةِ الكرَى فلعلَّــني عنــد الكــرَى ألقاكَــا
ومـتى المنـام بطـرَف صـبٍّ سـاهرٍ إن لم يـــرَ في نومِـــه رؤياكَـــا
فبحـــقِّ عـــزِّ العـــزِّ في ذلِّي لكـــم وبحـق فقـري في الهـوَى لغنـاكَ
إلا رضيتَ وجدتَ عفـوًا بالوصـالِ وجعلـــتُ قلـــبي تابعًـــا لرضـــاكَا
فبقلـــبِ قلـــبي كـــلُّ يـــومٍ حســـرةٌ يخشـى الـذي في قلبِـه يخشـاكَ
إن وجـدوا شـركًا لغـيرِك في الـورَى إني وحقِّـــك لا أرى إشـــراكَا
وبعــين قلــبي أنــت يــا كــلَّ المـنى حيــث التفــتُّ أو اتجهــتُ أراكَــا

اللهم صن قلوبنا من محبة غيرك وجوارحنا من مخالفة أمرك وافن جملتنا في محبتك وحببنا لقربك وأشهدنا بإشهادك جميل صفاتك وحقائق ذاتك يا كريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

سِـــقامُ الغـــرامِ شـــفا المـــرضَ وحبُّـــك لي في الهـــوى معـــترض

وكـــلٌّ لـــهُ غـــرضٌ في الهـــوَى ولا لي في غـــيرِكم مـــن غـــرض
أقـــول لمـــن جـــاءني ســـائلاً يـــومَ عهـــودًا لهـــا قـــد نقـــض
أيـــا مـــن تعـــوض في حبِّـــه فبـــالله قـــل لي بمـــن ذا العَـــوض
تقيـــدت للـــوهمِ في سَـــيره ووهنُـــك في ســـيره قـــد ركَـــض
فالجـــأ إلى الله ســـبحانَه لسـبط الـذي عـن كفـاه قـيض
وجـــرِّد بســـيفِ التُّقـــى صـــارمًا واقطـــع بـــه الـــوهم إن اعـــترض
وارفـــض ســـوى الله حقًّـــا فمَـــا يخيـــبُ الَّـــذي لســـواه رفـــض

دُعَـــــاء

اللهم إنا نعوذ بك من حلول البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء وموت الفجأة، ووقوع الملامة ومحل الندامة، ونسألك وجود السلامة ودار المقامة والفوز برؤيتك والنجاة من كل ما يبعدنا عنك أو يحجبنا دونك، والغيبة بالشوق إليك والمحبة فيك عن كل عقاب وعذاب وحساب في الدنيا والآخرة، وأنزلنا منازل الكرامة بالمحبة منك في كل المنازل مع صحة القصد وشهود الحق وبلوغ الأماني وغرف الأمان وأعالي الجنان والروح والريحان إنك الكريم المنان.

وصلى الله على سيدنا محمد وآلِه وصِحبه وسلِم تسليمًا كثيرًا.

الموت والحيـاة

واعلم أن الموت والحياة من الأوصاف اللازمة للإنسان، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار، فباطن هذا ظاهر هذا وظاهر هذا باطن هذا، فالموت باطن الحياة والليل باطن النهار، فالنهار كالحياة للحركة والمعاش والاكتساب للحسنات أو السيئات، والموت كالليل للسكون والخمود والمنام قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

وقال جلَّ من قائل سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهَ والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [يونس: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

أسْرَار ربَّانيـة

وكما أن النوم في الليل برزخ بين اليقظة واليقظة فكذلك الموت برزخ بين الدنيا والآخرة، وإن كان القبر أول منازل الآخرة لكنه في السير لا في الاستقرار، لأنه آخر منازل الدنيا ولا عود إليها، والبرازخ كثير لا نهاية لها، لأن حقيقة البرزخ هو الحد المانع من نفي الشيء على الشيء، وهو حد معنوي قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، وإن كان مرج خلط- فانظر إلى لطافة الماء ورقته وهذا البرزخ المانع من وجوده في غيره من نوعه من الماء أو جنسه، وكذلك الحد الذي بين سواد العين وبياضها، فبين كل شيء من المحسوسات والمعقولات برازخ تمنع أن يبغي هذا على هذا حكم إلهية وأسرار ربانية يعجز الفكر والعقول عن إدراكها مع كونها يعقل وجودها ونؤمن بحقائقها.

البـــرزَخ(١)

وبين كل شيء موجود في الدنيا والآخرة برزخ، والبرازخ علوم وأحكام وحقائق وأطوار وعوالم ومشاهد ومواجيد وأذواق.

والبرزخ الذي نحن بسبيله وصائرون إليه وهو الحد بين الدنيا والآخرة بعد تجرع

(١) الحياة في البرزخ؛ فإن للميت هناك حياة لائقة به مع سمع وإبصار وكلام كل ذلك بحسب المقام البرزخي، وسينكشف لك الأمر بعد الانتقال بالموت، وليتك كنت من قوم قيل فيهم: المؤمنون لا يموتون؛ بل يُنقلون من دار إلى دار، فإنه أفاد أن المؤمن الكامل؛ وهو الحي بحياة الإيمان والعرفان؛ كالمنتقل من دار إلى دار في هذه النشأة، فكما أن انتقاله ذلك لا ينافي حياته؛ فكذا انتقاله بالموت.

فالموت عبارة عن مفارقة الروح الإنساني عن البدن، وعبَّر عنها بالذوق في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥].

لِما أن الروح الحيواني لا يخلوا عن إحساس الألم وقت الانتقال، وتلك المفارقة لا تقتضي الموت بالكلية؛ فإن الروح حيٌ قائم بنفسه، محي للبدن الدنيوي أو البرزخي الذي هو على صورة عمله، فاعلم ذلك.

كأس الموت الذي لا بد منه ولا محيد عنه، قد جرعها الأوائل والأواخر وأصحاب الكشوف والسرائر والبواطن والظواهر، ولم ينجُ من الموت ملك ولا شيطان ولا عبد ولا سلطان ولا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون.

حَكم الله تعالى به على جميع العباد ونفذ فيهم من حكمه ما أراد وجعل ميعادهم إلى يوم المعاد، فهم في برزخ إلى يوم يبعثون، ويجازون فيه بما يعملون، فأما هول المطلع فهو أمر يهول، يذل فيه الفحول وتذهل لفجأته العقول، مشهده عظيم وخطبه جسيم أعظم من أن يذكر وأشد مما به عنه.

وقد ذكر منه أحد المحتضرين ما ذكر مما يطول فيه الشرح، ويعجز عنه الصبر، ولا يقدره حق القدر، ولا يكفي في ذلك ما ذكر عن آدم ونوح عليهما السلام وما بينهما من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وكذلك إبراهيم الخليل مع مقامه الجليل، وما ذكر عن موسى عليه السلام في ضربه ملك الموت.

وقد ذكرنا ما حضرنا من الاعتذار عن موسى عليه السلام في ضربه ملك الموت.

وفي وفاة سيد المرسلين من الأولين والآخرين كفاية، وقوله ﷺ: «**واكرباه**[(١)]» وقول فاطمة «واكرباه لكربك يا أبتاه» فقال لها: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**[(٢)]» وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، ومزدجر لمن ازدجر، وقطع الإياس من الحياة والصبر على ما لا بد لك منه من الممات، والتهيؤ لذلك قبل حلوله، والإصلاح للمنزل قبل نزوله.

وجاءت سكرة الموت بالحق

فليس في أمره ترخيص ولا لك بعد حلوله محيص، لا يقبل الرشا ولا يأخذ الفدا، ولا يرحم الأطفال ولا يرثى لبكاء العيال، لا ينجو منه القوى ولا الضعيف ولا المشروف ولا الشريف.

قد قصم بسطوته ظهور الجبابرة وقصر آمال القياصرة، وساوى بين الملك والمملوك والغني والصعلوك والعبيد والأحرار والأبرار والأشرار، وهو أمر محتوم ولا وقت له معلوم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/١٤١).

(٢) رواه ابن حبان (١٤/٥٩٢).

إن بسطت أملك إلى يوم أو نصف يوم، فقد مات ابن ساعة ونصف ساعة، وإن بسطته إلى جمعة فقد مات ابن يوم، وإن بسطته إلى شهر فقد مات ابن جمعة، وإن بسطته إلى سنة فقد مات ابن شهر، وإن بسطته إلى عشر سنين فقد مات ابن سنة، وإن بسطته إلى عشرين فقد مات ابن سنتين، وإن بسطته إلى خمسين فقد مات ابن خمس سنين وإن بسطته إلى شيء من السنين فقد مات ابن عشرين وثلاث وثلاثين وأربع وأربعين وخمس وخمسين.

ولم يكن واحد منهم له أمان في زمن من الأزمان ولا حال من الأحوال، ولا ينفع فيه قول ولا قال، ينزل على رغم الأنوف ويأخذ الخائف والمخوف والمجهول والمعروف، فيفرّق بين الأرواح والأجساد والأمهات والأولاد والوالد والمولود والحكام والشهود والمنحوس والمبعود.

كم خرب من القصور وعمّر من القبور، وكم أهلك من القرون وأبكى من العيون.

لا تمنعه الحصون ولا القلاع ولا الجيوش والأتباع ولا ملك مطاع، كم أنزل من ملك عن سريره إلى ظلمة خفيرة من بعد السعة والمهود إلى ضيق اللحود، ومن تنعيم الأجساد والخدود إلى الصديد والدود.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

فكم من معشوق الجمال ومحبوب الفعّال وفاتن وفاتنة ومصون وصائنة قد غيرت محاسنهم بالتراب، وزال عنهم الشيبة والشباب، وتمزقت الجلود وسالت منهم العيون على الخدود وغاب في تلك الأجساد الناعمة الدود.

يخاف كل واحد منهم من يراه وينفر عنه من يهواه، قد بدل ذلك الطيب بأنتن الريح، وامتلأ من صديدهم وديدانهم الضريح، وضاق بهم المجال الفسيح.

قد تقلعت أوصالهم وتمزقت جلودهم وهُشمت عظامهم وأكل تراثهم وتفرق ميراثهم ونكحت زوجاتهم واندرست أسماؤهم وآثارهم.

وامتزجوا بالتراب وسلا حديثهم الأهلون والأحباب، ودخلوا في خبر كان ومضت عليهم السنون والأزمان.

وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى

فإن كانت أعمالهم صالحة فهم بها يذكرون وعليها يشكرون وينعمون، وإن كانت قبيحة فهم بها يذمّون وعليها يعاقبون، يذكرها في أسمارهم السمّار وينظم بها في التواريخ الأشعار، هذا بعد ما عاينوه من هول المطلع من المخاوف والفزع.

أحوال الموتى

أما الأمر الأفظع، فإن ملك الموت عليه السلام يتجلى لكل واحد عند انقضاء أجله على صورة عمله، فإن ذاته قابلة للتصوير وصفته متصفة بالتغيير ولا يقبل عند فروغ الأجل التقديم ولا التأخير.

يشهده كل محتضر كرؤية الشمس للأبصار بشهود أوضح من النهار، فإن الدائرة الدنيوية مع اتساع حدها وقربها في البلاد وبعدها يشهد الجميع الشمس واحدة، لا ناقصةً ولا زائدة.

وملك الموت لا تبعد عنه المسافات، ورفاقته منبثة في الأرضين والسماوات، يتجلى لصور المخلوقات على أنواع من الصفات بما يقتضيه أوصاف التجليات بحسب أخلاق الأعمال، وتحول الأحوال حتى في التنزل إلى رتبة الأطفال.

وأعوانه على تلك الأشباح قائمون، وللأرواح من المفاصل والعروق يجذبون، وفي سائر أعماق الجسد منبثون، وله حربة متشعبة الرقائق، وشربة مريرة المذاق معدة لقبض أرواح أقوام من الأنام، وريح طيبة لمن اختصه الله من الأنام.

والمحتضر يعالج تلك السكرات ويتخوّض تلك الغمرات والناس له ينظرون وهم بحاله لا يعلمون، ومنهم من يود لو ضرب ألف ضربة بالسيف -كما ذكر عن أحد المحتضرين من المحسنين- ومنهم من يقول: اجذب نفسي، كأن كل عرق من عروقي علق في أصل شوك وجذبه شديد الجذب، فقطع منه ما قطع وأبقى ما أبقى.

وآخر يقول: فوجدت الموت كسفود في صُوف.

وقد ذكر عن بعض المحتضرين أنواع من الكلام بحسب وجداهم مع أحسابهم.

وأما أرواح الكفار -أعاذنا الله تعالى وإياكم من أقوالهم وأعمالهم وصفاتهم ومجازاتهم مما يعبر عنها لأنهم ما يستطيعون يخبرون عنها- وقد ذكر عن بعضهم أشياء

نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها، وإذا كان هذا مع الإيمان ووجود الإنسان وما ذكره الأنبياء والمرسلون.

ويقول خاتم النبيين «**إن للموت سكرات**[١]» ويذكر الكرب، فما ظنك بما عدا ذلك؟

فإذا استعد الملك للقبض عند فراغ الأجل المحتوم وجاء الوقت المعلوم تجلّى بصورة خاتمة العمل عند انقضاء الأجل عندما تشهده أبصار الأرواح سارعت بالخروج من الأشباح وهي مجذوبة إليه بالتخفيف والتشديد كانجذاب المغناطيس الحديد.

فمن صائرة إليه بأطيب روح وريحان، ومن صائرة إليه بأشد عذاب وخسران، ويقبض روح المؤمن بيمينه ويستبشر برؤيتها عندما يرى ما على جبينه، فيجعلها في حريرة من ورق الجنة، ولا تلبث في كفه ساعة حتى تأخذها ملائكة السماء ويصعدون بها إلى عليين.

وأما روح الكافر فيقبضها بشماله وهي في أنتن ريح، يعرض عنها بوجهه، ويجعلها في مسح أسود، ولا يلبث في كفه ساعة حتى يأخذها ملائكة العذاب ويهبطون بها إلى إلى سجّين وأسفل سافلين.

أعاذنا الله وإياكم من ذلك، قال الله تعالى: ﴿**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم يقوم الصياح على الميت من باكٍ وباكية وشاك وشاكية والملَك يقول: ما بالكم؟ والله ما قطعت لأحد منكم رزقًا ولا نقصت له، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة ثم عودة.

فلو كانوا يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم، حتى إذا جهزوه وحمل على سريره، فإن كانت روح مؤمنة قالت: عجّلوا بي عجّلوا بي، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويحها، أين تذهبون بها؟

وقد ورد في التعجيل بالميت: «**فإن كان خيرًا تقدموه إليه، وإن كان شرًا**

---

(١) رواه البخاري (٤/١٦١٦).

تضعوه عن رقابكم[1]». حتى إذا ألحد في قبره واجتمع خيره وشره وودعه المودعون وانصرف عنه المنصرفون قال: يا ليتني كنت مع المنصرفين، فيتقدم له الملكان، فيعدانه ويسألانه عن ربه ونبيه ودينه، وما كان يعتقد في محمد ﷺ، فإن كان من المؤمنين لقن حجته ووحد ربه وشهد ربه بالرسالة، وذكر ما كان عليه الإسلام فيقال له: نم في قبرك كالعروس، على الحق كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له إلى الجنة بابًا يشهد منه الجنة.

وإن كان غير ذلك فيقول: لا أدري -كما ورد- فيقال له: لا دريت على الشك كنت وعلى الشك مت وعلى الشك تبعث، ثم يفتح له إلى النار بابًا يجد به ما يجد، ثم يضرب بمرزبة.

وفي الحديث: « ثم يكونون -أعني الناس- في البرزخ على طبقاتهم بحسب أعمالهم ومعتقداتهم».

وورد أن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فإذا قالت: وارجُلاه واكذا واكذا أخذ بناصيته ويقال له أنت كذا؟ ولعل ذلك مما كان يختاره الميت كما كانت الجاهلية يفعلون.

والأحاديث في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه صحيحة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥] لا يناقض الحديث، إذا كان ذلك في نية الميت وقصده وأمرهم به، فيعذب بذلك القصد.

كرامات الموتى

ومن ظهر عليه عند موته وقبض روحه علامات السعادة كثير، ومن تكلم بعد موته كثير، ومن ظهر عليه عند غسله جماعة يطول ذكرهم وعددهم، قد ذكرهم المتقدمون في كتبهم.

وكذلك تظهر حالة الكآبة وسواد الوجه وزرقة الأعين، وهي علامة ردية أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

---

(١) رواه الترمذي (٣/٣٣٥).

ومنهم من يظهر عليه أثر السرور والابتسام وبياض الوجه تلك علامة السعادة لقوله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أَوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾** [عبس:٣٨/٤٢].

ومنهم من خلل لحيته لما تركه المغسل، ومنهم من وضع يده على عورته فسترها، ومنهم من جلس وتكلم ورجع إلى ما كان عليه.

حكاية الشيخ أمين الدين

وقد ذكرنا حكاية الشيخ أمين الدين جبريل من أصحاب الشيخ أبي يحيى، أخبرني القاضي بهاء الدين بن الصاحب شرف الدين بن الفائزي -رحمه الله تعالى- أن الشيخ أمين الدين مات معهم في الطريق قبل دخول القاهرة، فلما وصلنا إلى الباب وهم يمنعون الميت أن يدخل المدينة، رفع الشيخ أصبعه ويده فدخلنا.

وحكى لي فقير أنهم كانوا جماعة من الفقراء قالوا: سمعنا أن الوالي بعكّا يكرم الفقراء، فجئنا إليه، فلما فرغ مما هو فيه قال ادخلوا، فأدخلنا إلى دار له، ثم فتح سردابًا وقال: انزلوا، فخشينا على أنفسنا ثم نزلنا وتوكلنا على الله تعالى، فوجدنا مكانًا طيبًا وفيه الماء ولكنه للعبادة، فلما نزل معنا نزع ثياب الولاية ولبس ثياب الفقراء وقال: يا فقراء، أنا منكم وأنا على دينكم.. فقلنا له: ما السبب لذلك؟ فقال: كان قد حصل لنا خراب مع السلطان الملك الظاهر، وقُتل منا جماعة ومنهم، فخرجت فوجدت رجلاً عظيمًا مقتولاً، فقطعت رأسه وأخذتها على قربوص سرجي وقلت: أما تقولون إنكم أحياء عند ربكم ترزقون؟ فتكلمت الرأس وقالت: نعم أو قرأت القرآن الآية، فأسلمت من وقتي، ورجعت فدفنت الرجل والرأس معه، وبقيت على هذه الحالة.

-وربما ذكرنا هذه الحكاية على غير هذه الصورة-

وحكى لي زين الدين البوشي عن الفقيه عبد الرحمن النويري ﷺ أنه لما كانوا في المنصورة وأسروا المسلمين وكان الفقيه عبد الرحمن النويري يقرأ القرآن فتلى **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** [آل عمران: ١٦٩].

فلما قتل الفقيه عبد الرحمن حضر أحد الفرنج وفي يده حربة فلكزه بها، وقال: قسيس المسلمين أنت، تقول قال ربك إنكم أحياء عند ربكم ترزقون، أين هو؟ فرفع

الفقيه رأسه وقال حيٌّ ورب الكعبة، قالها مرتين، فنزل الفرنجي عن فرسه وجعل يقبل وجهه، وأمر غلامه بحمله معه إلى بلده.

وذكر عن الفقيه عبد الغفار البهنسي عن ابن الأزرق أحد مشايخ طنبدي[١] أنه دخل إلى بلاد الفرنج وأنه وجد الكندي فأحضره معه إلى منزله وقال له: لي إليك حاجة، وغلق الباب وأنزله إلى سرداب، فوجد مرقعة الشيخ معلقة وقبره في السرداب وقال له: هذا قبر عبد الرحمن النويري.

وقد ذكرنا حكاية الشيخ حسين النجار السعرتي بالرواية الصحيحة وحكايات جماعة يطول شرحهم، وأتممنا الغرض فيمن سمعنا عنه في زماننا.

ورأيت الفقيه نجم الدين بن ناشىء على سرير غسله متبسمًا صفة المستبشر، وسمعت الشيخ أبا الظاهر إسماعيل عند احتضاره وهو يقول: أين أصحابي؟ والله لا رضيت لهم إلا بالفردوس الأعلى، ثم ذكر شيخه أبا يحيى فقال أبو يحيى: أنا صاحبك في الدنيا والآخرة.

وقد ذكرنا الشاب الذي وجده الشيخ أبو علي الروذبادي على المزبلة وكونه ألحده وشق الكفن عن وجهه وجعل خده على التراب ليرحم الله غربته قال: ففتح عينيه وقال لي أتذللني بين يدى من ذللني؟ لا نصرتك غدًا بجاهي يا روزبادي.. فقلت: يا سيدي أحياة بعد الموت؟ فقال: وأين الموت؟ أنا محب لله تعالى فهو حي.

وأما الأنبياء والمرسلون فالملك لا يقبض رُوح كل أحد منهم إلا بإذنه صلوات الله تعالى عليهم وسلامه.

وفيما اتفق لكل واحد منهم عند وفاته صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يحتاج إلى كتاب مفرد لذلك وما تحته من المعاني والأسرار، وما أكرمهم الله تعالى به، ويليهم الأولياء بطريق الميراث.

ولما دخل ملك الموت على نبينا محمد ﷺ فقال له: زائرٌ أم قابض؟ فقال: زائر وإن شئت فقابض .

أحوال القبر وعذابه

وأما أحوال القبر وما فيه من الغرائب والعجائب وعذاب أهل القبر فقد ورد في

(١) اسم قرية من قرى مصر.

الحديث وهو مذكور، وحديث عائشة وقول النبي ﷺ:

«يهود تُعذب في قبرها[(١)]».

والاستعاذة من فتنة القبر، وفي حديث اليدين، وفي قناني القبر وهما المنكر والنكير وصفات خلقهما وتصورهما على أنواع من الصور المفزعة، وأنهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرة، وتارة الفتنة وتارة الإخبار وتارة الامتحان، وهما على الصورة التي ورد فيها الحديث، وذلك هو الغالب على صورتهما؛ إذ الغالب على أكثر الناس فتح الصفات، فهما يتصفان بصفات العبد من الحسن والقبيح، وكل مسئول يسألانه فهو امتحان لعقيدته وفتنة في حاله.

وأما من كان على بينة من ربه وولاية من عنده وشهادة في موته قبل موته عليه حكم يظهران له به، وقد ذكر جماعة عن أنفسهم قبل موتهم أنهم كانوا إذا سألوهم يسألونهما، فمنهم من قال له: من ربك؟ فقال: ومن ربكما أنتما؟ وكل ذلك من قوة اليقين والتثبت من الله تعالى فلا يخافون غيره.

وحدثني الشيخ بهاء الدين الأخميمي -رحمه الله تعالى-أنه كان للشيخ أبي يزيد مريدًا يحمل فروته-وكان مغربيًا- فذكر له منكرًا ونكيرًا وسؤالهما فقال: إذا سألاني لأجبتهما، فقال له: ومن أين لنا أنك تكلمهما؟ فقال: اقعدوا على قبري تسمعوا فتوتي، فقعدوا عند قبره فسمعوا سؤال الملكين له فقال لهما: أتسألاني وقد حملت فروة أبي يزيد على عنقي؟

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع لما اقتضاه ذلك الموطن.

وسمعت مرة صيحة من قبر بالأقصرين بظاهرها بمقبرة تحت مسجد كنت آوي إليه، وهي صرخة تروّع، فكاد عقلي يبرز من شدة تلك الروعة حتى ثبت الله تعالى قلبي، وبلغني أنها عن شخص سمع شخصًا يعذب وقد أخرجوه من قبره ثم ردوه إليه.

وحدثني فقير عن شخص أنه أراد أن يفعل فاحشة مع شاب في تربة بالقرافة، فقال له ذلك الشاب: والله ما غضبت الله تعالى ها هنا أبدًا، لأنني كنت مرة فعلت

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣/١)، ومسلم (٦٤٣/٢) بنحوه.

ذلك فانشق القبر وقال الميت: ما تستحيوا من الله تعالى؟

وفي حكاية صالح المري ﷺ أنه مرّ بمقبرة وإذا شخص يُضرب فاشتعل القبر نارًا، وهو يقول علام تضربوني أو علام تعذبوني؟ وقائل يقول له: مرّ بك مظلوم فاستغاث بك فلم تغثه، فهذا حال الذي لم يغث المظلوم، فكيف حال الظالم؟

ولعل ذلك الرجل كان قادرا على إغاثته فلم يغثه والله أعلم إذا ما كان عاجزًا فليس عليه إلا القول، فإن ترك القول فهو في مرتبة أضعف .

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه رأى إنسانًا من أهل النار ورأسه قدر الجميزة العظيمة.

وحدثني القاضي نجم الدين بن الفقيه نصر أنه رآه في نومه بعد مماته في قاعة طيبة وفي أعلى القاعة شاب جميل الصورة فقلت له: يا عمي، كيف وجدت الموت والقبر؟ فقال: والله يا ابن أخي ما دريت بروحي إلا وأنا هنا. فقلت له: ما حال منكر ونكير؟ فقال لي: ما رأيتهما، إلا أني سمعت حسهما فحال هذا الشاب بيني وبينهما وقال لهما: أما تعلمان أنه كان يقرأ القرآن؟ فيقولان: نعم، فيقول لهما: فلا تسألاه.

فلما طال ذلك أجرى الله تعالى على لساني أن أقرأ: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨] فتركاني ومضيا.

فقلت له: فكيف رأيت هؤلاء الأموات؟ فقال: جاءت أرواح المؤمنين سلّمت علي، وجاءني عمي فتح الدين -أو جلال الدين الله أعلم- وقعد على طرف الإفريز فقال لي: إي والله يا سيدي، أنت ما يسألك أحد وغيرك في كذا وكذا، وقام عَجِلا فقلت لهذا الشاب: ما بال عمي فتح الدين ما قعد؟ فقال لي: عليه الترسيم، فقلت: لماذا؟ فقال: إنه شهد شهادة هو وابن الأكوع حي فهو في الترسيم حتى يموت ابن الأكوع ويؤدّوا الشهادة بين يدي الله تعالى.

وحدثني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي -رحمه الله تعالى-قال: كان الرشيد بن الحارة صاحبي وهو فقير، فلما توفي رأيته في المنام فسألته عن الموت فقال لي: ما وجدت له وحشة إلا ما يكون يمشي مع واحد في طريق ويفارقه فقلت: وكيف رأيت

الألم؟ فقال: ما وجدت ألمًا، إلا لما كانوا يمشون كان في النعش مسمار لحقني في جنبي فقلت له: فكيف وجدت القبور روضة أو حفرة؟ فقال: ما وجدت هذا ولا هذا فقلت له: لا بد من أحد الأمرين؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر بذلك ولا بد منه.

فقال: يا شيخ عبد العزيز، ما يعلم حكم الله تعالى حقيقة إلا النبي ﷺ، ولم يقل أنه إذا نزل القبر يكون القبر روضة أنه يدخل الجنة ولا يكون حفرة أنه يدخل النار، وإنما إذا أنزل المؤمن القبر تأتيه البشارة بما هو صائر إليه من الجنة فتكون تلك البشارة روضة، وإذا مات المنافق أو الكافر كما قال تأتيه البشارة بما هو صائر إليه من الشر فتكون تلك البشارة حفرة.

وكنت أعرف فقيرًا يسمى حسن كان يصحب الشيخ عبد العزيز، فلما مات أخبرني الشيخ عبد العزيز أنه رآه بعد وفاته في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، فما رجحت حسناتي على سيئاتي فقلت له: بماذا؟ فقال: غفر الله لي ورحمني وتفضّل علي، وأنا مغبون.

فقلت له: يغفر الله لك ويرحمك ويتفضّل عليك وتقول إنك مغبون؟! فقال: يا شيخ عبد العزيز، حكم الله تعالى ما يعرفه حقيقة إلا الأموات.

ثم أخذ بيدي وأتى بي إلى خياط وقال لي: هذا الخياط أنا أدفع له ثوبي يخيطها فقلت له نعم، فقال: والله إن كان ما معي شيء يعطيه الله تعالى من عنده، وإن كان معي شيء ما يعطيه إلا من حسناتي، وحسنة من حسناتي خيرٌ من الدنيا وما فيها، وأشار بإصبعه إلى وراء جبل قاف.

ورأيت جماعة من الأموات يطول ذكرهم على أنواع من الأحوال مختلفة، منهم من كان يظن به الخير ويرجى له عند الله تعالى الزلفى من العلماء وغير العلماء، فرأيت مرّة رجلاً من أهل العلم أيضًا، وكان قد جرى بينه وبين قرابة له حكومة في أمر ساقية، فرأيت الذي كانت بيده مسوح طيلسانه في تلك الساقية بعد موته، ورأيت الحاكم الذي حكم بينهما في تشويش.

ورأيت مرة رجلاً من العلماء بعد موته، وسألت عن حالته فقيل: إنهم جرّسوه وعملوا على وجهه النقطات، ولم أعرف هذه التسمية وإنما فهمت أنه شيء مما يشوه به

من يفعل به ذلك كالتجريس في الدنيا وما يعمل على الوجه من العنتريس وغيره.

ورأيت شخصًا آخر من الحكام وهو في شدة، ورأيت شاهدًا وكان يظن به خيرًا وسألته عن حاله فقال: أوقفت بين يدى الصليب، ووكل بي قوم فصاروا الزبانية فيها طوال وقصار يرون على صفة تناسب حال المعذب بهم أعاذنا الله وإياكم من ذلك كله.

وقد رأيت أحوالاً مختلفة في الأموات يطول ذكرها، ومنهم من يكون في شر ثم يعود إلى خير كما ذكرناه أنه كان لي صاحب في المكتب ورأيته بعد موته وهو في موضع فرن وبين يديه كلب أسود أحمر العينين طويل الشعر وهو يتألم من رؤيته ويتضاءل ويتضاعف.

فقمت إلى الكلب وطردته عنه ثم جئته وجلست إليه، فعاود الكلب ووقف قدّامه، ثم قمت إليه، ففعلت ذلك مرارًا ويعود إلى أن كلمني الكلب وانتهرني وقال: أنا أطلبه- وربما قال ولا أقدر أن أفارقه- فانتبهت مرعوبًا.

فقلت لصاحب له فقير -وكان يصحبه أكثر مني-: إن صاحبنا في شدّة وعرفته الصورة فقال: وإيش تعمل؟ فقلت ما نفارق قبره حتى يخلصه الله تعالى، ثم إنّا كنا نمشي إلى الجبانة وهي بمكان بعيد فنجلس على قبره فنذكر الله تعالى ونقرأ، والحالة لا يعرفها غيرنا.

فلما كان بعد مدة رأيته في الرؤيا وهو في حالة حسنة فقلت له، كيف أنت؟ فقال: طيب. وأخبر أنه صار إلى الجنة، وربما أحضر لي عنقودًا من عنب الجنة، غير أنه قال لي: أنا متألم منك فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: لأن الله تعالى أطلعك على حالي فأخبرت به فلان فقلت له: ما قصدت إلا مصلحتك فقال لي: كنت فعلت ولا تقل.

ورأيته بعد ذلك مرارًا ولم يزل من عنده الألم لإطلاع صاحبه على ما رأيته مع صحبته له أكثر من صحبتي له، حتى كان مرة رأيته وكان الفجر قد قرب فقلت: الفجر يريد أن يطلع ونصلي الصبح فقال: ما بقي علينا صلاة، ثم لم أره بعد ذلك.

ورأيت مرة شخصًا من العلماء وسألته عن حاله فأبطأ بالجواب عليّ فقلت:

لابد أن تُعلِمني بما لقيت من الله تعالى، وألححت عليه فقال: لقيت منه

وحايش، فحين قال ذلك اسودّ من فرقه إلى قدمه فقلت له: أليس نحن على الحق ودين الإسلام هو الحق؟ فقال: نعم، فقلت: فما الذي أصابك -وكنا نشهد منه أحوال الخير- فسكت ولم يخبرني..

وكان واحد من الزّبانية واقف بين يديه قصير، فقلت لذلك الزّباني: ازجره حتى يخبرني بصورة حاله، فنظر إليه نظرة فعُذّب بتلك النظرة وظهر عليه صورة حالته التي كانت أوجبت ذلك، فصار لسان حاله أفصح من لسان مقاله، فجعلت أقول له: لعلك كنت تعتقد خلاف معتقد أهل السنة، وجعلت أذكر له المعتقدات الفاسدة فلم أفهم منه إلا التقديم في أمر الصحابة -وهو في بلد ينسب إلى الشيعة- فحين رأيته على تلك الحالة وفهمت ذلك انتزعت الرحمة التي كنت أجدها وأرحمه بها عني، وصارت لذتي في عذابه، فقلت لذلك الزباني: خذه ورح به إلى مالك خازن النار وقل له يعذبه؛ فإن بيني وبينه صحبة.

فأخذه ذلك الزّباني وراح به إلى النار وأنا أنظر إليه. أعاذنا الله وإياكم من سوء المعتقدات وخلاف سنة رسول الله ﷺ وأعاذنا من النار ومن أعمال أهل النار بمنه وكرمه.

ورأيت مرة رجلاً من التجار، وكان منه خير كثير من صدقة كثيرة ومسارعة إلى فعل الخيرات ومحبة لأولياء الله تعالى، غير أنه كان يتنعم في الدنيا تنعيمًا كثيرًا في المآكل والمشارب والملابس المباحة -كل ذلك من المباح -وكنت أنكر عليه كثرة التنعيم وأقول له: أنا أخشى عليك من كثرة هذا التنعيم عند الموت؛ فإن العذاب فراق المشتهى ووجود المكروه، ومن يكون على مثل هذا الحال ما تشتهي نفسه فراق الدنيا ويكره الموت، ولا بد منه وفيه لقاء الله تعالى، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

وكان يزعم أنه يعيش كثيرًا على عمر آبائه وأجداده، فإنهم عاشوا كثيرًا، فلم يكن إلا زيادة عن ثلاثين سنة، وقد مرض المرض الذي يموت فيه فقلت له ذلك، ثم إنه -رحمه الله تعالى- عاد يتمنى أن يكون بطاقية على رأسه وسترة على بدنه ولا يكون له من المال شيء، ونذر إن عاش أن يكون كذلك وقال: اطلب لي من الله تعالى ثلاثة أيام،

والله ما أطلب ذلك إلا لخلاص الذمّة.

فعاش يومين والثالث إلى العصر وقضى نحبه، وسار إلى ربه فعملت له تلك الليلة سبعين ألف لا إله إلا الله وسهرت عليها، ورأيته بعد مماته وهو متألم فقلت له: ألم أقل لك لا تتنعم كثيرًا؟ فلما كان بعد أيام رأيته وقد تخلص وعليه خُلعة وهو يجرها وهو على أطيب حال رحمه الله تعالى.

أحوال البرزخ

والناس في البرزخ على أحوال شتى وتتغير أحوالهم بطول المدة وما يصل إليهم من أصحابهم من الصدقات والدعوات وغيرها مما ورد به الشرع.

وقد ورد في الإسرائيليات لأحد الأنبياء عليهم السلام بشِّر أهل القبور؛ كلما بليت أجسادهم غفرت لهم.

وأكثر أحوال أهل القبور التي هم عليها هي صفات أعمالهم التي كانوا عليها في الدنيا وفي قوله تعالى ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٩] كفاية.

وحكم الآية عام في الدنيا وفي البرزخ وفي الدار الآخرة، غير أن الدنيا تظهر بعضًا وتخفي بعضًا، والبرزخ يظهر أكثر من ذلك، والآخرة محل الجزاء.

أبواب جهنم

والحديث الذي ورد في أن القبر فيه حية لها سبعة رءوس هي صفة العبد الذي بها يتوصل إلى الخير والشر، فإن الحواس الخمس خمسة، والبطن والفرج اثنان سبعة، وهي عبارة عن أبواب جهنم السبعة، إذ الوعيد الوارد في الشرع على المخالفة، والمخالفة لا تقع إلا باستعمال هذه الجوارح.

أبواب الجنان

ولذلك ورد أن الشياطين تصفد في شهر رمضان وتغلق أبواب النيران وتفتح أبواب الجنان، والأبواب هي هذه الجوارح من الإنسان المقابلة لأبواب جهنم السبعة.

فلما كان رمضان أكثر الناس فيه صائمون وعن الفواحش منزجرون وللخيرات فاعلون، غُلّقت أبواب النار وفتحت أبواب الجنان، وأبواب الجنان في مقابلة الصفات.

لذلك فإن قلت: فإن القرآن ورد بأن أبواب الجنان ثمانية؟.

قلت: أما السبعة فإنها مقابلة السبع صفات التي في الإنسان للجزاء، وأما الباب الثامن فهو باب الفضل من الله تعالى على عباده ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [الحديد:٢١] و﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيد** ﴾ [ق:٣٥] فالجزاء المقابل للخير والشر إنما هي سبعة أبواب للنار وسبعة لأبواب للجنان، والباب الثامن باب فضل الله تعالى.

كيف تظهر الأعمال؟

ومتى كانت الأعمال صالحة لا ينظر في قبره إلا ما يسره من حسن صفات الملائكة عند قبض الروح وعند المسألة والمؤانسة، وتظهر صورة العمل من جميع الحركات والسكنات والنيات على أحسن محبوب ومعشوق كان يحبه ويشتهيه، وأطيب ريح، وأطيب مأكل ومطعم ومذاق وملذوذ.

كل ذلك في جميع أحواله وفراشه وسعة داره، ومثاله بحسب سعة رزقه وعطائه من ربه تبارك وتعالى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فإن الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾ [النازعات:٤٠، ٤١].

وأما إذا كانت الأعمال قبيحة تتشكل على أقبح صورة مثل صورة كان يخشاها ويكرهها ويخافها ويهرب منها في جميع أحواله على اختلاف أنواعها وأجناسها في الحركات والسكنات وأسباب من المطاعم والمشارب والملابس والروائح والنواظر المشهودة، فمن هنا يرى الميت في القبر ما يرى وهي صورة العمل تتشكل في الصورة بحسب عمل العبد وهو الجزاء بالوصف الذي ذكره الله في القرآن، والتوبة قبل الموت مزيلة بقدرة الله تعالى.

التّائب السعيد

ولقد رأيت شخصًا كان قد صحبني مدة، فربما اطلعت أنه أكل الحشيشة، فقلت له لا تصحبني بعد ذلك، فتاب إلى الله تعالى توبة خالصة.

فرأيت بعده رسول الله ﷺ في المنام وكأني بين يديه ﷺ أكتب أسماء السعداء وأسماء الأشقياء، فربما سألته ﷺ عن أناس فقال: اكتبهم من السعداء فقلت له عن ذلك الذي تاب من أكل الحشيش فقال: اكتبه من السعداء، فوالله ما زلت أغبط ذلك الفقير. ومات رحمه الله تعالى.

ذات اليمين وذات الشمال

ورأيت مرة أخرى بيدي صحيفة وفيها أسماء السُّعداء وأسماء الأشقياء وأسماء أهل اليمين وأسماء أهل الشمال، وأنا واقف على حد بين الطريقين، والناس يمرون ذات اليمين وذات الشمال.

فوالله ما رأيت السائر من ذات اليمين إلا اليسير، وهم أصحاب مرقعات وخلقان وأحوال رثة من حالاتهم في الدنيا، وهم أفراد وأرباب الملابس الجميلة والثياب الرفيعة والطيالس وغيرها من ذات الشمال، ووالله ما علمت من أي الفريقين كنت في تلك الرؤيا.

بينَ الرّحمَة والعَذَاب

وعلى الجملة فالرجاء في الرحمة يغلب على الخوف من العذاب، وهو الذي أراه، لأن الماضي والمستقبل لا حكم عليهما، والحالة المتوسطة كالزمن الفرد، هي حالة لقاء ربه وحالة خروج نفسه وموته، فالرجاء فيها أولى وهو معنى قول القائل:

ما مضَى فاتٍ والمؤمَل غيبٌ ولك السَّاعةُ التي أنت فيهَا

البرزخ طريق الآخرة

والبرزخ عالم متسع فيه العجائب والغرائب، وهو إلى الآخرة أنسب وإلى وصفها أقرب، وهو منها كالنسبة إلى الطفل الخارج من بطن أمه إلى الدنيا، فهو إلى حال الدنيا أنسب وإلى وصفها أقرب من العالم الذي كان فيه في بطن أمه، وهو لا يعود إليه أبدًا.

فكذلك البرزخ بالنسبة إلى الدنيا، لا يعود الميت منه إلى الدنيا أبدًا، ويسمّى عالم برزخي، وهو أخروي بالنسبة إلى الدنيا.

فإذا جاء الوقت الذي فيه الخروج إلى الدار الآخرة ظهر حكم الآخرة جملة وتفصيلاً، وجاء وعد الله على ما هو عليه، وجاء ما يعلمون وما لا يعلمون.

البرزخ.. عالم بلا حدود

وفي عالم البرزخ ما لا يدخل تحت الحصر والفكر والقياس ولا تدركه العقول، وهو عالم كامل في نفسه في جميع أحواله وعوالمه، وهو بالنسبة إلى عالم الدنيا في جميع أحوالها ومطاعمها وملابسها كنسبة الدنيا إلى بطن أم المولود قبل وروده إلى الدنيا في

كل نوع منها وجنس من أجناسها.

والآخرة بالنسبة إلى البرزخ كنسبة البرزخ إلى الدنيا وأمثال أمثالها وأضعاف أضعافه، ولولا خشية الملل والتطويل لذكرت فيه من العجائب والغرائب وما رأيت، وما حدثني به من رأى وما عاينوه أهل الكشوف، وإنما غرضنا التنبيه لأجل من سأل ذلك وفيه من المجازات بالنسبة على الصفات والأفعال والأعمال والنيات كما في الدنيا.

حق اللّه

وإن كان القصاص في الدنيا له مراتب، فإن في كل حقٍّ للعبد حقًّا لله تعالى، فإذا أدى حق العبد الذي حكم الله تعالى به بقي حق الله تعالى لا يعلم منه شيئًا حتى يظهر له في دار الآخرة، فإن منَّ الله بأن الله تعالى تاب عليه كما تاب على الثلاثة الذين خلفوا، وإلا فالأمر غيب في علم الله تعالى وحق الله تعالى أوجب وفاءً وأولى، ومعصية الله تعالى أكبر من معاصي كل من في الكون العلوي والسفلي.

وإن كان الله تعالى لا تضرُّه المعصية ولا تنفعه الطاعة، فليعلم كل من كان عليه لأحد حق وأدّاه إليه أن حق الله تعالى عليه باق، لأن نفس التعدي منهي عنه، فإذا تاب توبة صحيحة محققة تاب الله تعالى عليه، وإلا فالأمر على حاله، والعبد يموت على ما عاش عليه، وهي الحالة التي يقبض عليها هي بقية حياته، وهي الخاتمة وهي السابقة؛ إذ الخاتمة منطوية في السابقة، ويبعث على ذلك الكل، وكان بدء نشأته عند ربه أعطاه خلقه الذي خلقه عليه ورزقه الذي رزقه وأجله الذي قدره أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ

ثم يكونون في البرزخ إلى حين نفخة الصور الأولى فيموت كل شيء حي على وجه الأرض ومن في السماوات ومن في الأرض وما بينهما وما تحت الأرض ولا يبقى إلا الحي القيوم.

لمحات من يوم القيامة:

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] وهو أمر أعظم من ذكره وأشغل من فكره، فتبعثر القبور ويُحصّل ما في الصدور، ويبعثون إلى النشور، ويحشرون حفاة

عراة ذاهلين، لا ينظرون ولا يسمعون، قد أدهشهم الفزع الأكبر لسكب العبرات وتضاعف الزفرات وتكشف العورات وتبدّل الأرض غير الأرض، ونادى المنادي للعرض، وطويت السماء ووقفت الملائكة على الأرجاء وتجلّى الرب لفصل القضاء، وزفرت النيران وجلس ملك الغضبان تشيب فيه الولدان وتذل فيه الشجعان، ويود الإنسان أنه ما كان.. وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا.. و يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.. تطيش فيه الألباب وتذهل فيه العقول ويذهل عن ذهوله الذهول.

وتجثوا الأنبياء على الركب، وتوقن النفوس بالعطب، ويستولي على العصاة سطوة الغضب.

وتُنصب الموازين، وتنشر الدواوين، وتتطاير الصحف عن الشمال واليمين. ونُصب الصراط على متن الجحيم، واضطربَ عند ذلك الصحيح والسقيم.

الأهـــوال

وترادفت الأهوال، واشتد الزلزال، وبان ما خفي من الأعمال، وتغيرت الأحوال.

وحشر الناس في صعيد، وأسمعت الصيحة القريب والبعيد. وحاطت الملائكة من خلفهم صفوفًا، وهم على أرجائها وقوفًا، لا يحصَون عددًا ولا ألوفا.

واشتد القلق، وتزايد الحرق، وغرق أكثر الناس في العرق. وطال الوقوف، ورغمت الأنوف، واستوى في الخوف الخائف والمخوف.

وعظم الندم، وزلت القدم، وجاء على كل قدم سبعين ألف قدم. واشتد الخصام وذهلوا عن الكلام، ووقفوا مقدار ألف سنة وعام. حفاةً عرايا، جياعًا عطاشا، لا يعقلون من الدهش الجوع ولا العطش.

زفير جَهنَّـــم

وقد زفرت جهنم بالمجرمين واشتدت تغليظًا على الكافرين، وتغللت من أيدي الملائكة بأزمتها وأظهرت ما في قعرها من شدة غضبها، وأكل بعضها بعضًا من شررها ولهبها، وجثت أرباب الرتب العلية على ركبها وأيقنت النفوس بهلاكها وعطلها.

وقد حال لونها إلى الظلمة والسواد، وقام عليها وجوانبها الملائكة الغلاظ الشداد. وخشي من السطوة الصالح والطالح، والكاتم والبائح. وظهر الشقاء على كل مجرم.

والأنبياء تقول: رب سلم، رب سلم.

والناس في ذلك الكرب الشديد والأمر البعيد والهول المهول واليوم الذي هو أطول من الطول والعطش والدهش، لا يأكلون ولا يشربون ولا يحاسبون لا يسألون ولا يتكلمون، ولا ينظر إليهم ولا يلوي عليهم وهم في عرقِهم غارقون وفي قلقهم متزايدون.

إلجام العــرق

والعرق على قدر أعمالهم وتناسب أحوالهم، فمنهم من يأخذه العرق إلى قدميه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه العرق إلى حقويه.

ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، ومنهم من يقوم في عرقه عامًا فعامًا. وكل واحد منهم لا يشاركه في عرقه غيره ولا في قلقه سواه ولا في حرقه إلا إياه، وهَم كل واحد منهم لا يتعداه وهم في ذلك الموقف أشد من ضربات السيوف، لا يجدون روح الحياة ويود كل واحد منهم الموت لو وصل إلى الممات..

فياله من شر قمطرير ويوم على الكافرين عسير غير يسير.

الشفاعة

فمن شدة الأهوال وضيق المحال وضنك تلك الحال يلجئون إلى السؤال في تعجيل الحساب والمصير إلى المآب إما إلى النعيم وإما إلى العذاب، فيلهمون الشفاعة من أقرب الخلق إلى ربه من أنبيائه وحزبه.

آدم: فيأتون آدم عليه السلام كما ورد في الحديث[1] بنحو هذا الكلام، فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله تعالى بيده وأسجد لك الملائكة، اشفع لنا عند ربك بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا، ولكن روحوا إلى..

نوح: فيأتون نوحعليه السلام كما ذكر، ويسألونه كما شرح وسطر، ويقولون: أنت شيخ المرسلين ورسول رب العالمين، اشفع لنا عند ربنا بتعجيل الحساب إما لجنة أو

(١) حديث الشفاعة رواه البخاري (١/١٦، ١٢٨)، ومسلم (١/١٦٧).

لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال آدم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا في دعائه على قومه، ولكن روحوا إلى.. **إبراهيم**:فيأتون إبراهيم عليه السلام ويقولون: أنت خليل الرحمن، ونجّاك الله تعالى من نار النمرود، وفدا ولدك بذبح عظيم، اشفع لنا عند ربك بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال نوح عليه السلام:إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا، روحوا إلى **موسى**: فيأتون موسى بن عمران عليه السلام ويقولون: أنت كليم الرحمن، اشفع لنا عند ربك يعجل لنا الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال إبراهيم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولم يغضب بعده مثله، ويذكر عن نفسه ذنبًا، ولكن روحوا إلى..**عيسى**: فيأتون المسيح عليه السلام فيقولون: أنت روح الله وكلمته، اشفع لنا عند ربنا بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف، فيقول كما قال الأنبياء من قبله ويذكر شيئًا من أنه عُبد، ولكن روحوا إلى.. **محمد**.. فهو خاتم النبيين:

فيأتون محمدًا ﷺ فيقولون قد ردّ الأمر إليك، ودلّت الأنبياء عليك، اشفع لنا عند ربك يعجل لنا الحساب إما لجنة أو لنار فقد طال بنا الوقوف؟ فعند ذلك يقول: أنا لها أنا لها، ربي وعدني، ثم يخرّ ساجدًا تحت العرش فيقال له: اشفع تُشفَّع، وسل تعط، وقل تسمع(١). وورد: «**فأحمد الله تعالى بمحامد لم أحمده بمثلها أو يلهمني الله تعالى محامد(٢)**».

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

ثم ينادي هلمّوا لوزن أعمالكم، أو تأهبوا لوزن أعمالكم، فتقع الفرائص من الفزع ويخور القوي الطبيعة من الجزع، فتنشر الدواوين وتنصب الموازين ويعطى كل واحد كتابه إما بالشمال أو باليمين.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢٧/٦).

(٢) الحديث نفسه.

وينقش الحساب وينطق الكتاب ويتجلى رب الأرباب، وكل يحاسب نفسه بنفسه، ولا يعتقد أن الحساب لغيره، فمنهم من يحاسَب حسابًا يسيًرا، ومنهم من يقرر عليه الحساب ويرجي كنفه عليه ويقول: سترتها عليك في الدنيا فأنا أسترها عليك اليوم.

ويقع القصاص ولات حين مناص، وتتمنى الشعرة من الشعرة الخلاص، ويحاسبون على مثل الذر ويشمل صفة العدل الفاجر والبر، ويقول الله تبارك وتعالى: **«وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم، ويقتص من الشاة القرناء للجماء، وليسألن العود لم خدش العود(١)».**

وتوزن الأعمال وتعظم الأهوال ويشتد الزحام بتعاظم الخصام.

يوم عظيم وأسماء لا تحصر

فياله من يوم عسير على الكافرين غير يسير، يوم الطامة، يوم الندامة، يوم الحاقة، يوم الواقعة، يوم الصاعقة، يوم الراجفة، يوم الآزفة، يوم النشور.

يوم الجزاء، يوم الوعد، يوم الوعيد.

يوم القلّة، يوم الخسار، يوم البوار، يوم تبلى السرائر، وتكشف الضمائر، وتجمع الأوائل والأواخر، ويستوي الباطن والظاهر.

يوم يبعثون، يوم يحشرون، يوم يحاسبون، يوم يوزنون، يوم يعرضون، يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

يوم شهادة الجوارح، يوم ظهور الفضائح، يوم يفر الأخ من أخيه والابن من أبيه، والصاحبة والبنين والصديق الحميم، ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٩-٩٠].

يوم تتشقق السماء، وتنكدر النجوم، وتكور الشمس، وتبدل الأرض غير الأرض، وتقف جميع الخلائق للعرض.

يوم قيام العدل، يوم بيان الفصل، يوم الإسعاد، يوم الإبعاد، يوم التناد، يوم المعاد، يوم الميعاد، يوم الفصل، يوم الوبال، يوم النكال، يوم الأهوال، يوم الزلزال.

يوم الحرق، يوم القلق، يوم الأسف، يوم التلف، يوم الحلف، يوم الوفاء، يوم الجفاء، يوم الاصطفاء، يوم العبوس، يوم النحوس، يوم العكوس.

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٧/٤)، والخطيب في الرحلة في طلب الحديث ١١٧/١).

يوم الأبرار، يوم الفجار، يوم الأخطار، يوم العسير يوم النار، لا ينفع الجار الجار إلا بإذن الجبار، يوم الدموع، يوم الخضوع، يوم الرجوع، يوم الصاخة، يوم الطامة، يوم العطش، يوم الدهش، يوم الخسار، يوم العذاب، يوم العقاب، يوم الثواب، يوم الحساب، يوم السيئات.

يوم الإياس، يوم الإفلاس، يوم الأداء، يوم الرجاء، يوم النعمة، يوم النقمة، يوم الرحمة، يوم الشرور، يوم السرور، يوم الجلود، يوم تسأل الأنبياء والمرسلون، والأمم الماضون والخلفاء الراشدون، يوم الشهود، يوم تنطق الجلود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

واعلم يا أخي أن أسماء هذا اليوم لا تحصر؛ إذ هو يوم قائم بجميع الصفات من الأعمال والنيات وجميع الجزاء في الكليات والجزئيات والحسيات والمعنويات لا يغادر ذرة فما فوقها ولا شعرة فما دونها إلا ويؤخذ لها حقها، وليس في ذلك اليوم درهم ولا دينار، وإنما هي الحسنات والسيئات، فيؤخذ من حسنات هذا لهذا ويوضع من سيئات هذا على هذا إذا لم يكن له حسنات، وذلك بحسب الجزاء وصفة العدل، فالحكم العدل الذي يعلم السر وأخفى.

الصِّراط المستقيم

وكذلك الصراط والميزان وهما على الاستقامة في الوزن والمسير وتحقق العدل في التقدير، فمن كان على الصراط المستقيم سلك الصراط ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود:٥٦].

والصراط المستقيم ها هنا هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه وشريعته وطريقته وتبعيته، فمن كان عليها يسلك الصراط المستقيم في ذلك اليوم ومن حاد عنه زلت به قدمه في ذلك اليوم وهو على متن جهنم وعليه كلاليب من نار كمثل شوك السعدان كما ورد في الحديث.

والناس في سيرهم على الصراط متفاوتون كتفاوتهم في الأعمال وسلوك الطريق إلى الله تعالى، فمن سابق كالبرق الخاطف، ومن مسارع، ومن ضعيف المشي، ومن واقف، ومن واقع، ومنهم من يتواقع في النار كتواقع الفراش في السراج والحال أشد مما

يذكر.

الأضْحيـة وحيّـات جهنم

وكنت يومًا في مسجد في البر، وكان عندي فقير له كشف واطلاع، وكان صبيحة عيد الأضحى فقال لي:

رأيت الساعة الصراط والناس يمرّون عليه وفيهم قوم يركبون أضحيتهم، فمن كانت ضحيته حلال وهي قربة إلى الله تعالى سارت به كالبرق، ومن كانت في أضحيته شبهة أو كانت لغير الله تعالى نهشتها حيّة من حيّات جهنم فتذوب مكانها على هذه الصورة، والحيّات عن يمين الصراط وشماله.

وهذا الكشف من ميراثه من النبي ﷺ ظهر له في صورة الحيّات بحسب ضعفه عن رؤية الكلاليب التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وصورة الحال في الخبر من لازم لأن الكلاليب تخطفهم إلى النار والحيّات تلسع تلك الدواب فيقعون في النار كلما جاءت أضحية فيها شبهة لسعت فذابت على هذه الصورة ولو كان ألف أضحية كان الحكم كذلك إلى أن يأتي أضحية مقبولة فينجو منها بكرِم الله تعالى.

الميـــزان

والميزان التي هي أدق في الوزن من موازين العقول بكرم الله تعالى في التعديل في حقيقة صفة العدل قائمة بالحكم في الوزن والحساب والصراط على حكم التعديل والاستقامة ونفي الظلم من كل صفة، فذلك العدل الحقيقي.

وكذلك الميزان في التعديل والاستقامة لإبانة الخفّة والرجحان والزيادة والنقصان بحسب صفات الأعمال والأقوال والنيات والأحوال، وإن لم يكن كمعيان الأوزان بالأرطال والقبان في وزن المحسوس وللأثقال، فإنه يوزن به من الأعمال ما هو أثقل من الجبال وأقل من ذرات الهباء وذرات الرمال.

وكما أن ميزان العروض يستبين فيها الخفيف من الثقيل والطويل من القصير وغيرها من موازين العقول وما يظهر في المعقول والقول والمقول وإعراب الكلام وتصحيح المعاني بالأقسام والتصريح والإبهام، وما يدخل في الفكر والأوهام، فإن هذه الميزان متظاهرة بالعدل على جميع الموازين، وأقوم في الاستقامة من جميع القوانين،

يستبين فيها الجزء من مائة ألف جزء من الذرة، ولا يفوتها جزء من مائة ألف جزء من الحصر، من كفر أو إيمان أو طاعة أو عصيان أو فوز أو خسران أو خفة أو رجحان **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾** [الأعراف:٨،٩].

فمن الناس من يأتي بحسنة واحدة ترجح على الحسنات، ومنهم من يأتي بسيئة تزيد على السيئات، وهم في كثرة الحسنات والسيئات متفاوتون، فقوم يربحون وقوم يخسرون.

ومنهم من لا تعرف له حسنة فيذكرها ولا حالة خير فينظرها، كما ورد في حديث البطاقة التي يقول الله تعالى لصاحبها بعد الحساب وانقطاع الأسباب: **هل تعلم لك حسنة؟ فيقول لا، فيقال له: تذكر، فيقول لا أذكر، فيقال له: بل لك عندنا حسنة، إنك اليوم لن تُظلم شيئًا، ثم يخرج له بطاقة فيها شهادة التوحيد فتجعل في كفة الميزان فترجح بها**(١).

وهذا الحديث في الصحيح والمعنى فيه صحيح محقق؛ لأن التوحيد لا مقابل له، فلو وضعت السماوات والأرض وكل شيء موجود لرجحت كفة بهم الوحدة؛ إذ الوحدة لا يصح معها غيرها.

فالشرك مع الله تعالى محال لا يصح وجوده، فلذلك ترجح البطاقة، فإذا فرغ الحساب والوزن والصراط وتناصف الناس، والشعرة في ذلك اليوم تتبرأ من الشعرة، ولا يظلم أحد في الذرة ولا الإبرة؛ إذ كل واحد يطلب حقه على حسب ذلك الوزن وذلك الحساب، ويوفَّى كل ذي حق حقه، فأين منا هذه الأحوال وهذه الأهوال مع تساهلنا فيما هو أعظم من الجبال وأكثر من عدد حبات الرمال؟

فنسأل الله تعالى حسن المآل وخلاصنا من هذه الأحوال والأحمال الثقال، وأن يرضي عنا خصماءنا إنه الكريم الفعال الذي لا يعجزه العطاء ولا يضجره السؤال الكبير المتعال.

---

(١) رواه ابن حبان (٤٦١/١)، وأحمد في مسنده (٢١٣/٢).

ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

فمن الناس من يكون له عند الله حظ فيرضي عنه خصمه ويرضيه ما لا يصبر عنه من النعيم فيقول: يا رب، لمن هذا؟ فيقال لمن عفا عن أخيه، فيقول: قد عفوت عنه، فيقال: **خذ بيده وادخلا الجنة**(١).

المُفلــــس

ومنهم من يشحُّ على الذرة من حقّه، فيؤخذ من حسنات أخيه له، فإن لم يكن له حسنات طرح من سيئاته عليه، وقد ورد في الحديث «**أتدرون من المفلس؟ فقالوا المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم ولا مال ظاهر، فقال ليس كذلك، وإنما المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وأعمال من البركة، ويكون قد ضرب هذا وأخذ مال هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن نفذت حسناته طرح من سيئاتهم عليه ويلقى على وجهه في النار**(٢)».

والحديث هذا معناه وإن لم يكن اللفظ موافيه أو غير متفق عليه.

والمعنى يقتضي ذلك في الحساب والميزان والصراط صفات قائمة بصفة العدل لا يغادر شيئًا، ثم يدخل النار من وجب عليه إدخالها من الكفار والعصاة ومن المؤمنين ممن وجب عليه ذلك وحق عليه الوعيد والنار تقول هل من مزيد، قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠].

طبقــات أهل الجنــة

وذلك إن أهل الجنة يدخلون الجنة برحمة الله تعالى لهم وعفوه عنهم وما أهلهم لها من الأعمال الصالحات، وهم على قدر رتبهم بحسب أعمالهم وعطائهم من ربهم، وهم في ذلك على طبقات:

منهم من زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز.

وقد ورد الحديث: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله؟**

---

(١) ذكره ابن كثير (٢/٢٨٦).

(٢) رواه ابن حبان (١٠/٢٥٩)، وأبو يعلي في مسنده (١١/٣٨٥).

قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[١]».

وقوله تعالى: ﴿**وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:٤٣] لا يناقض الحديث؛ لأن دخولهم الجنة بأعمالهم هي من رحمة الله تعالى.

ومنهم من لا يحضر الحساب ولا الصراط ولا الميزان، يركبون من قبورهم إلى قصورهم.

ثم تنشر الرحمة ويضاف إليها تسعة وتسعون رحمة حتى يتطاول لها إبليس بعد الانتقام من العصاة بحسب المراد على قدر الأعمال، ويغار أهل النار من المؤمنين، ويلجئون إلى الله تعالى.

وذِكر أوصاف النار أعاذنا الله وإياكم منها لا يستطاع ولا تثبت له الطباع، هو بالعكس من أوصاف الجنة جعلنا الله وإياكم من أهلها وسكانها.

حقيقة الجنّـــة

فالجنة في نفسها عبارة عن حقائق جميع الملذوذات الكليات والجزئيات، وموات صفات صورة الشهوات الحسّيات، والمعنويات تظهر في حقائق النفوس من الشهوات الكليات والمعنويات والحسّيات السّمعيات والمرئيات وجميع المحسوسات والحواس الظاهريات والباطنيات في جلاء تلك المرآة، فيتنعم بتلك الشهوات والملذوذات على جميع الأنواع والحالات المحسوسات وغير المحسوسات على الدوام والاستمرار من غير انقطاع ولا امتناع، بالبدء و بالإعادة والعلم والشهادة.

ففي تلك المرآة ما في جميع الأنفس من الشهوات واللذات بالاختلاف، والشهوات وضروب اللذات على ممر الاستمرار والأوقات ولم يكن ثَمَّ أوقات، بل هو استمرار الدوام وارتفاع حكم السنين والأعوام، حكم لهم فيها بالخلود لا إلى حد محدود ولا أجل معدود، ارتفع حكم الحدود وزال عنهم البؤس والحقود.

النـار وأهلهـا

(١) رواه ابن حبان (٢/٦٠)، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦).

وبالعكس منها أعاذنا الله وإياكم صورة النيران، وملك الغضبان، هي محل الغضب وصفة العطب، يتجلى لهم فيها أنواع العقوبات على أنواع ضروب الأعمال القبيحات، وهي من داخل الباطن إلى خارج الظاهر، ومن ظاهر الأجسام إلى باطن القلوب وبالآلام.

فمتى نظروا إلى شهوة ظهرت لهم بصورة الخداع، كالشربة من العطش والتفاحة من الجوع، فعندما يشربها نزلت أمعاءه فقطعتها ﴿**وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**﴾ [محمد:١٥]، وعندما يلتقم تلك التفاحة حتى يسيغها صارت حيّة تنهشه في قلبه، ونارًا تحرقه في جوفه، كلما تألموا من عذاب ازدادوا عذابًا فوق العذاب.

حزب الرحمن

وأما أهل الجنان وحزب الرحمن فكلما تنفس من نعيم عاد عليهم نعيمًا ثانيًا، والأول باق لا نهاية له.. ولسنا نستقصي هذا الفصل من ذكر أحوال الجنة والنار وأهلهما لبعد قعره وعمق بحره وعزة فهمه من غير أهله.

والذي ورد في الشرع في ذلك فيه كفاية، ولا يسعه هذا الكتاب ولا أضعاف أضعافه، وإنما نذكر نبذة يسيرة ولطيفة من ذكر صفة الدارين لاحتياج السالك إليها خشية عليه من الزيغ، فمن يظهر في هذا الزمان ممن يزخرف بهذيانه وينزع بشيطانه على قلوب الضعفاء من الأشقياء ليخرج سياج دين الله القويم وصراطه المستقيم والحجة الواضحة العليا ومحجته البيضاء.

الرَّحمَات

ثم تنزل التسعة والتسعون رحمة التي ادّخرها الله لعباده مضافًا إلى الرحمة التي كانوا يتراحمون بها في الدنيا، وهذه الأعداد مقابلة للتسعة وتسعين اسمًا التي تسمى الله تعالى بها على لسان رسوله ﷺ ظاهرًا في دار العيون لنا بها، وله من الأسماء ما لا ينحصر ولا يعلمه إلا هو، فكانت التسعة وتسعون رحمة مقابلها باطنًا لهذا اليوم، وله من الرّحمة ما لا يعلمه إلا هو.

الشُّفعاء

فحينئذ يأذن الله تعالى بالشفاعة، فيتقدم رسول الله ﷺ وعلى طريقه سار الأنبياء والمرسلين، وله الحوض، عدد كئوسه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، فيذاد عنه رجال -كما ورد في الحديث- لتبديلهم. ورسول الله ﷺ صاحب الشفاعة العامة يومئذ، وكل شفاعة مندرجة تحت شفاعته ﷺ، ويشفع النبيون والمرسلون، ويشفع الصالحون وكل من له رتبة الشفاعة، حتى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، حتى إذا انقضت الشفاعات يقول تعالى: **«شفع النبيون، وشفع المرسلون، وشفع الصالحون، وبقي الرحمن الرحيم[١]»**.

الشفيـــع

فيحثوا حثيات يخرج فيها من النار من قال لا إله إلا الله، فلا يبقى في النار من قال كلمة التوحيد، وآخرهم هناء الذي يقول يا حنّان يا منّان.

وورود الأحاديث في هذا الموطن كثير، وصورة العرض والحساب والميزان والصراط أضعاف ما ذكرناه، وكذلك صفة النيران والجنان.

ذبح الموت للخلود

حتى إذا لم يبق في النار إلا من سبق عليه الكتاب بالخلود وفي الجنة كذلك يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال: **«يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت[٢]»**

دُعَـــاء ورجاء

اللهم إنا نؤمن بذلك كله، ونضعف عن ذكره فكيف رؤيته؟ بل كيف بملائمته ونحن أضعف وأضعف وأضعف من ذلك، وأقل وأحقر من توجه هذه السطوة العظيمة إلينا، ونزول هذه النقمة الشديدة علينا، ونحن بذنوبنا معترفون، وعن واجب حقك مقصرون، ولا لنا وجوه الاعتذار ولا قوة الانتصار، وليس لنا ما نستحق به دخول الجنان، ولا لنا قدرة على النيران، ولم تبق لنا إلا رحمتك وفضلك يا رحمن يا منان يا ذا الفضل والإحسان والعفو والامتنان، وإن لم نكن لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهلٌ

---

(١) رواه مسلم (١/١٦٧)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٥/١٧٦٠)، ومسلم (٤/٢١٨٨).

أن تنالنا.

إلهنا وسيدنا وخالقنا، كما علمت وأردت وقدرت ولا خروج لنا عن ذلك ولا علم لنا بما هنالك إلا سبق رحمتك علينا، حتى فعلت لنا أعمالاً فيه يسيرنا إلينا، فكيف بنا عند انقضاء أعمالنا وانقضاء آجالنا، فالرحمة منك أولى لنا في ذلك كله، ورحمتك السابقة لغضبك، وإليها ينتهي حال السائرين ومصير السالكين، فاجعلنا في رحمتك برحمتك يا كريم يا من عرفنا بكرمه، حقق لنا ما عرفتنا بالذوق والمنازلة والمشاهدة والملائمة، أنت أهل الجود والكرم والتقوى والمغفرة.

يا الله يا الله يا الله، لا انقضاء ولا انتهاء ولا انصرام ولا زوال، ولا كان غيرك ولا موجود سواك، أوجدت ما شئت من خلقك، وقدرت ما أردت من رزقك، وجعلت لك دارين لعبادك، وأهلت لكل دار أهلاً، وسترت ذلك عن الجميع بحكمتك السابقة فيهم، وأمرت ونهيت وحكمت وقضيت، ولا راد لأمرك ولا معقب لحكمك ولا سبيل إلى معرفة ما عندك إلا بما أذنت فيه من علمك لمن اختصصته من خلقك من أنبيائك ورسلك وخصوص أوليائك من دائرة المحبين لك.

فاجعلنا من المحبين لك المحبين عندك بفضلك لا بغيرك، لم تكن لنا أعمال صالحة، ولو كانت لكانت بفضلك تستحق وجوب شكر، وتستحق الشكر شكرًا ملازمًا لا نقوم ببعضه ولا نوفي بحقه، فكن في كرمك بكرمك علينا؛ لأن إظهارنا من العدم بوصف الكرم منك، فكيف بما عدا ذلك وليس لنا ما نعتمد عليه ولا نعرفه ولا نسلكه إلا بالعجز عنه وعجزنا عن معرفة عجزنا فيك عاجز، وبيننا وبين ذلك حاجز، يا أول كل شيء وآخره، ويا أول ولا آخر في حقك بل ذلك وصف خلقك، أنت أنت أنت لا آنية لسواك ولا هوية لغيرك، يا الله يا الله يا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهذا قدرك الله تعالى لا بد من وقوعه، فقد اختصرنا والأمر أعظم من ذلك كلِّه، ورحمة الله تعالى واسعة أوسع من أن نعلمها ولا نعرف باسمها لانتفائها ذنوب الخلائق وإن كانوا أمثال أمثال ذلك مع شدة الغضب على الكافرين، والخطر العظيم كون العبد لا يدري بما يختم له، ولا يتحقق من أي الفريقين هو، لا يقطع لنفسه بعمل من

الأعمال ولا سبيل إلى الحكم على الله تعالى بحال.

وقد قلت:

ولــولم يكـــن إلا الممـــاتُ وهولُـــه لكـان لنـا عمَّـا سوى المـوتِ زاجـرُ

فكيـفَ لنـا في القـبرِ مـن كـلِّ معطّـلٍ ومــا أنــا إليــه في القيامــةِ صــائرُ

ونشــرٌ وحشــرٌ للمعــادِ الــذي بــه مــوازينٌ عــن ذرِّ الهـوى لا تغــادرُ

فمـــن ثقُلـــتْ ميزانُــه فهـــو رابـــحٌ ومـن خـفَّ فيـه وزنُـه فهـو خاسـرُ

ويظهــر مــا مــن كــان مــني مكتمًــا وكيـف بإخفـاءِ الـذي هـو ظـاهرُ

ولا عُذرَ لي عن ما أتى من فضائحي ومــن أيــن لي عــذرٌ ولا لي عــاذرُ

ولا ســرَّ إن الســرَّ جهــرٌ لربِّنــا وواخجلــتي في يــوم تُبلـى السـرائرُ

وتنهتــك الأســتارُ للنــاسِ كلِّهِــم إذا لم يكـــن ربي لـــذلكَ ســـاترُ

فضــائحُ لا يســتطاع ذكــر صــفاتها فكيــف بهــا إن شــاهدَتها النــواظرُ

ويُعطـى حقيقًـا كـلَّ شـخصٍ كتابُـه فينظـرُ مـا قـد كـانَ والكـلُّ حاضـرُ

كفـى كـلُّ عبـدٍ أن يحاسِـبَ نفسَـه فهــا هــو في حســبانِه لا يكــابرُ

يـرى كـلَّ مــا أنســيه أحصـاه ربُّـه كبــائرُ قــد حطـت بــه وصـغائرُ

ونُصِبَ صراطُ العدلِ والشرعُ وصفُه يسـيرُ بـه مـن كـان بالشـرعِ سـائرُ

صــراطٌ علــى مــتن الجحـيمِ امتــدادُه ولا أنــا ذو ســعيٍ ولا أنــا قــادرُ

كـذاك لـولا الغـدر في الحشـرِ ظـاهرٌ يطـوفُ بـه مـن كـان بالنـاسِ غـادرُ

فجُـد يـا إلهـي بالسَّـماع فـإنني كسـيرٌ ومـــالي غـــيرُ فضـــلِك جـــابرُ

ورحمـــاك يـــا ربي فهـــذا أوانُهـــا يســوقُ لهــا كــلُّ الأُوَّلِ والأواخــرُ

ومـا كـان مـن فضـلٍ لـديكَ مـدَّخرًا لهـذا الـورى يومًـا فهـا هـو ظـاهرُ

فما أغفلك أيها العبد الضعيف عن هذا اليوم العظيم! وما أجهلك عن هذا الخطب الجسيم! فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة، وأن كنت تدري فالمصيبة أعظم.

نـــداء:

فيا أيها الغافل -والخطاب للقائل- ويا أيها العاقل ولا أظنك عاقل، سافر الحمول بتلك المحامل، ورَحلوا عن الديار والمنازل، وأدلجوا في المسير على الرواحل، وتوالى السير وانطوت المراحل، وتحقق السفر وتلاحقت القوافل، والتحق المتأخرون بالأوائل، وتؤخر السفر من قابل إلى قابل، وتنوي الرحيل ولا أراك راحل، والناس ذاهبون وأنت قافل.

أظهرت بالقول العمل ولست بعامل، وقلت بلسانك وما أنت بفاعل، وادّعيت أحوال القوم وما عليك بها دلائل، قدّمت ما أمرت بتأخيره في جميع المسائل، وأخرت ما أمرك الله بتعجيله في الآخرة وهو في التعجيل أولى من العاجل.

يا ليت شعري، أعاقلٌ أنت أم جاهل؟ وغافل عما هو معاين أم متغافل؟

وهب أنك عاقل أو جاهل أو متيقظ أو غافل، أتراك تترك ما تريد أم لك عن الموت محيد أم لك سلطان شديد وجبار عنيد مانع من يوم الوعيد؟

أم لك قريب أو بعيد إذا جاءت كل نفس معها سائق وشهيد؟

أم لك على الله تعالى وعد بالعطاء والمزيد؟

أما سمعت كلا م الحميد المجيد في كتابه المبين ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ**﴾ [القلم:٣٧/٤٠].

وقد قلت:

لخـوف الجلـيِّ والبـين قبـلَ التفـرُّق ... يشـيبُ قلـبي في الهـوى مثـلَ مفرَقـي
ويـذري دموعًـا مثـل دمعـي غفائقًـا ... ولكنـــه دمـــعٌ شـــديدُ الترقـــرقِ
يفيضُ كما فاضَ الغديرُ على الحمَى ... إذا منعـــت أجفانـــهُ للتـــدفقي
فنـــيرانُ قلـــبي للأســـى في تجمـــعٍ ... ورُوحـي وجسـمي والمـنى في تفرقـي

عجبت لمن يدري الهوى كيف عيشُه ومن ليس يدري الهوى كيفَ قد بقي
وأعجبُ منه من يحقّقُ في غدٍ وقوع الذي يخشى بوصفِ التحققي
وأعجب من هذين من وُعدَ الرضى ولم تنقطع أوصالُه بالتشوُّقي
وأعجب من كل العجائب واصلاً يحبهم من أين يخشى ويتقي
إذا كان قلب الصَّب في معركِ الهوى فلا تسألن عمَّا تلاقي وما لقي
وأصبح في قيدِ الحياةِ ولم يمت وكيف له عندَ المقالِ بمنطقِ

دُعَاء ورجاء

اللهم إنك خلقتنا من غير شيء، وخلقت لنا كل شيء، وأنت العالم بكل شيء والقادر على كل شيء، ولا علم لنا في علمك بشيء إلا ما علمتنا من شيء، وقد أمرت وقدرت وأردت وخصصت ولا خروج لنا عما أردت، ولا محيص لنا عما قدرت ولا تحويل لنا عمّا خصصت.

فاجعل ما أمرتني به موافقًا لما قدرته علي، وما خصصتني به محبوبًا لما أردته مني حتى أكون محبًّا لما تحب، ومريدًا لما تريد، وموافقًا للمقدور في كل الأمور، وما أنا به مأمور، يا مجيب الدعاء يا فعال لما يشاء، خصصني بالتخصيص منك مما لا تصل إليه العقول ولا يبلغه الأمل في المأمول.

واجعلني محبوبًا لك بالاجتباء والاختصاص مع ملازمة الألطاف والأمان مما أخاف، إنك الكريم الوهاب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلم.

نصيحة:

فعليك أيها السالك بالله في الوسائل بكثرة السؤال، وسلوك الاحتيال بغير الله تعالى محال، فلا تصل إليه بغيره ولا تنال خيره إلا من خيره.

وعليك بالأدعية في كل الأوقات، واختر لها أوقات الخلوات وساعات الإجابات، وإن كنت تعلم أن الدعاء لا يرد المقدور لكن قد يكون الدعاء من المقدور

في دفع المقدور وأنت به مأمور، وأحكام المحو والإثبات غير مدفوعة في جميع الأوقات، وحكم الله تعالى فيما يشاء على ما يشاء، فما يشاء غير مدفوع ولا ممنوع، والمشيئة لا حجر عليها والحجر عليها محال.

فعليك بالإلحاح بالسؤال ويزيدك في النوال ما لا تصل إليه إلا بنية، ولا تلحقه الآمال ويرضيه من عبيده أن يلجّوا ويلحّوا في المسألة عليه، ويلتجئوا في كل الأمور إليه.

فإياك والوقوف عن الإقدام لما ارتكبته من الآثام،فإن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويبدلها بالحسنات، فارم كلّك عليه ووجه كليتك إليه وقل: **«إلهي**، على من تردني وإلى من تكلني؟ أي رب سواك؟ أي خالق غيرك؟ تولني كيف شئت**»**.

فهو أكرم من أن يردك عن بابه ويدفعك عن جنابه، كيف والمصير إليه، ولا بد من القدوم عليه، وهو أوجدك من العدم بمحض الكرم لا لحاجته إليك ولا لأن يكلك عليك فالزمه، فهو بُدُّك الذي لا بد لك منه ولا بد له منك فافهم ذلك.

خلُوَات الأدعيَة

واعلم أن الخلوات للأدعية ثلاث خلوات وهي مخصوصة بالإجابات عند تحقيق الدعوات، وهي المشار إليها بالنفحات فخلوة عن الخلق، وخلوة بالحق، وخلوة مع الحق.

الأولى: أن يخلو قلبه مما سوى الله تعالى فلا يخطر بخاطره غيره من جميع المخلوقات دنيا ولا آخرة.

الثانية: أن يجمع كله على الله تعالى فلا تبقى فيه ذرة خارجة عنه.

الثالثة: أن يكون مع الله تعالى علىٍّ ما يختاره منه.

الدعاء المُستجاب

ولهذه الخلوات شروط ثلاث بها تجاب الدعوات عند حصولها، فإن الله تعالى إذا دعي أجاب، فقد قال تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠] فلو دعوا

لأجيبوا، لكنهم لم يدع الله منهم إلا القليل، والقليل قليل، ولذلك سر خاص للحكم الإلهي وجريان الإرادة؛ إذ لو كانوا كلهم داعون وكلهم مجاب بكل ما يقصده مع وجود اختلاف المقاصد من كل واحد وفي كل واحد، وقصد كل واحد من مصالح ومفاسد لأدى ذلك إلى الفساد، والله لا يحب الفساد، فلذلك كان الدعاء مخصوصًا بصفات وأوقات، وقد كنا عملنا دائرة تقتضي معرفة الاسم المجاب به الدعوة، وهو واحد خمسون اسمًا من أسماء الله تعالى.

اســم اللّه الأعظــم

ولما كان الاسم المجاب به الدعوة عند من لا عَرَف الله تعالى حقيقة معرفته ولا سبيل إلى معرفته حقيقة المعرفة، وإنما معرفة الله تعالى بحسب تعرُّف الله تعالى به إلى كل من اختصّه بالمعرفة الخاصة والمعرفة العامة؛ إذ ظهرت آثاره في الموجودات في الأحياء والأموات سمّاه اسم الله الأعظم.

فهو اسم الله الأعظم من حيث ذلك الداعي، وكل اسم لله تعالى أعظم؛ إذ المساوي حد في نفسه، وهو أعظم مما عظمه المعظمون، فإن كل ما وصل إليه المعظِّم له فالله أعظم من ذلك، وإنما كان عنده أعظم لظهور الأثر في الموجودات عند إجابة الدعوات، وهذا لا يختص باسم دون اسم، بل هو كل اسم لله تعالى وفي كل اسم معنى كل اسم، وإنما ذلك بحسب ما يجده الواجد عند استكمال الشروط فيه، فعند دعائه كمال الشروط اللازمة فيه بأي اسم أجبت به كان ذلك اسم الله الأعظم من حيث ذلك الداعي.

وقد يجاب غيره باسم غير هذا الاسم الذي أجيب به هذا الداعي، والكل أسماء الله تعالى فلا يحجبك الوقوف والتقييد لاسم، فتحصر الإجابة في لطفك بالاسم، أو تحصر توجهك إلى الله تعالى بوجهة واحدة ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:١١٥].

أسماء اللّه تعالى لا تُحصر

والحق تعالى لا يحصر في الجهات ولا في التوجهات، بل هو من وراء الجهات والتوجهات، فكيف وقد عقلت بأداء الأسماء والصفات في جميع المخلوقات.

فانظر إلى اسمه الخالق كيف أثره في المخلوقات، والرازق كيف أثره في المرزوقات، والعالم في المعلومات.

فانظر إلى أثر رحمة الله، كيف يحيي الأرض بعد موتها، فهذه إشارة إلى تفهم معاني الأسماء والصفات، والذات العلية تحويه بالذات الأحدية الأبدية قبل القبلية وبعد البعدية بكل داع بما يناسب دعاه إذا استكملت فيه الشروط الثلاث المقابلة للثلاث، وفي ثلاث إلى ثلاث هي:

جمعية القلب على الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره، ووجود الاضطرار إليه.

وهذه ما دعا بها داع إلا أجيبت، وقد جربناه فوجدناه كذلك.

فإياك أن تدعو ولم يجب فتزعم زعمًا فاسدًا؛ فإن الإجابة إن امتنعت فلعلّة فيك لا في نفس الإجابة، إمّا في عدم استيفاء الشروط وإمّا حظ لك في دعائك؛ فإن الحظ يحجب الهمّة ويمنع الإجابة.

دعَــاء الأوليَــاء

ومن هنا تعلم أن الأولياء إنما يدعون الله من غير حظوظ لأنفسهم، فإنما غضبهم ورضاهم لله تعالى.

تأخير ظهور الإجابة

وقد تكون الدعوة مجابة ويتأخر ظهورها لما لله تعالى فيه من الحكم، فقد ورد أن موسى عليه السلام تأخرت دعوته بعد الإجابة مدة من السنين- قيل أربعين -من حين قوله تعالى ﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ [يونس:٨٩] وفي ذلك أسرار.

دعـاء الأنبياء

أما الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه فالتأخير في إجابة الدعاء لا يضرّهم وهم بذلك عالمون وبه موقنون، فلا فرق بين التقديم والتأخير؛ لأنهم في دعوتهم إلى الله تعالى على ما أمروا به، ويشهدون المراد بهم فيطمئنون لذلك.

وهم يشاهدون ما يقع، كما وقع بفرعون وغيره من الكفار من أعداء الدين، ولا فرق في الشهود بين البعيد والقريب؛ إذ القرب والبعد صفات المحسوسات.

أهـل الاطـلاع

وأما أهل الإطلاع فلا يكون عندهم كذلك، وقد يجابون في الساعة الحاضرة بحسب ما يكون اقتضى الحال في الدعوة كدعوة يوسف عليه السلام على عارم العادي حين كذب يعقوب عليه فأجيب في ساعته.

وإياك ثم إياك أن تعرض نفسك للدعاء عليك، أو تخاطر بروحك في التجربة في ذلك أو إيلام قلب من القلوب أو ظلم كائن من كان، فكيف بقلوب الأولياء والفقراء؟ فإن ذلك سريع الهلاك، أو الاستهزاء بالدعاء فكيف القلوب المشغولة بالله تعالى؟، إذ ليس بينها وبين الله تعالى حجاب.

فتحفّظ كل التحفّظ من ذلك، فلقد رأيت غير مرة في ذلك ما لا له حصر ولا عدد ممن أهلكه الله تعالى. فقد يكون في الدعاء التصريف.

وقول النبي ﷺ «**شاهت الوجوه**[1]» فهو موقع رمي الحصى، وإن لم يكن دعاء وهو صفة الدعاء.

التفاوت في اليقَين

وأما ما عدا الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فهم متفاوتون في اليقين وقرب الكشف وبعده، فإن الضعيف البصر ليس كقوي البصر، فإن الذي يكون بصره قويًا يشهد الطائر من على بعد ويعرف من أي الأطيار هو، والضعيف البصر لا يراه حتى يدنو منه.

ولذلك يقع العوام في الأكابر إذا أخبروا خبرًا وطالت المدة، ويتمسكون بمن دونهم في السلوك والطريق؛ لأنهم إذا أخبروا خبرًا ظهر في وقته، وذلك من ضعف شهود الرأي، أو يكون ابتداء سلوكه، فإن العارف في ابتداء أمره يكون كذلك لا يرى شيئًا حتى يأتي في وقته يقظةً كان أو منامًا، وكذلك كانت رؤية رسول الله ﷺ تأتي كفلق الصبح، وللعارف ميراث من النبي ﷺ.

ثم أخبر رسول الله ﷺ بعد ذلك بما أتى في هذا الزمان من النساء الكاسيات

---

(١) رواه مسلم (١٤٠٢/٣).

العاريات، وأخبر بما يأتي في الآخرة.

وأما الوقائع فهو يشهدها بأوقاتها في ساعاتها، كما كان يشهد من سراياه ﷺ في وقته، فهذا وقته ووقت شهوده في كل وقت لا يتغير الشهود فيه، وقد تؤخر الأخبار من يختار تأخيره.

أعظَمُ الذُّنُوب

وإياك أيها السائل أن تدعو و تطول المدة عليك بالدعاء فتقول دعوت فلم يستجب لي، فهذه من أعظم الذنوب المبعدة عن الله تعالى، وإنما انظر إلى نفسك في ذلك تجد الحجاب منك أو عنك، وهل أنت إلا عبد تقول ما أمرت به ليس لك من الأمر شيء ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فلا تتعد حدّك، وقف عند عبوديتك لربك، وقل كما قلت:

مناجاة

إلهي، أسألك وأدعوك بوصف العبودية لك، ووجود الاضطرار إليك، لا للاعتراض ولا لمخالفة الاختيار منك.

إلهي، وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا، فأي شيء لا تسعه رحمتك وعلمك؟ وأي ذنب لا يسعه عفوك ومغفرتك؟ وأي مجاهرة لا يسعها حلمك؟ وأي قبح لا يسعه سترك؟ وأي إيجاد وعمل لا تسعه قدرتك واستيلاؤك؟ وأي خطرة أو فكرة أو ذرة أو دون ذرة لا تسعه إرادتك ومشيئتك؟ وأي وصف أو نوع أو جنس لا يسعه اختيارك وتخصيصك؟ وأي خلق أو عالم لا يسعهم رزقك وفضلك؟.

إلهي، أنت أوسع من العطاء، وأكرم من الكرم، وأجود من الجود، إلهي، إن الضعف صفتي والقوة صفتك، والذنب صفتي والعفو صفتك، والخوف صفتي والأمان صفتك، والبخل صفتي والكرم صفتك، والنقص صفتي والكمال صفتك، وصفات الحدوث لا تقوم لصفات القدم، فجُد علي بما أنت أهله من الجود والكرم والمنة والفضل من صفات الكمال، ولا تؤاخذني بما أنا أهله من صفات النقص والذنوب وسوء الخصال، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

إلهي، بيدك الخير كله، ولك الأمر كله والخلق كله وإليك المصير.

إلهي، أنت أعلم بما أقول قبل أن أقول، فما أقول وأنت مقولي ما أقول؟ فكيف أقول أم كيف لا أقول وقد أمرتني أن أقول؟

إلهي، أدعوك كما أمرت ولا اعتراض لي فيما قدرت، والاختيار منك والعلم السابق لما اخترت، فاخترني لما اخترت من خير الخيرة، وشائني للخير وشاء الخير لي منك وفيك وشاء مشيئتي لمحبتك لما شائه لمحبتك، وشاء محبتك لي، وشائني للمحبة فيك، وشاء مشيئتي لك حتى لا أشاء ولا أختار إلا ما تختار، ولا أحب إلا ما تحب مع اللطف الخفي الظاهر والباطن في الظاهر والباقي والحق، الأول بالآخر والاختيار منك سابق والفضل بيدك متلاحق.

إلهي إلهي إلهي، أدعوك وأسألك، وأسألك وأدعوك وأبتهل إليك، وأرجوك بما علمت كما علمت لما أردت كما أردت، فردني للخيرة واخترني للإرادة ورد إرادتي وشاء لي المحبة وشاء المحبة لي منك، وشاء مشيئتي لك وارض رضاى لرضاك، وارضني في رضاك حتى لا أختار إلا ما تختار، ولا أحب إلا ما تحب، ولا أرضى إلا ما ترضى، ولا أريد إلا ما تريد.

كلا، إني أسألك بك وبك أكون، بل خلقتني لك وخصصتني لمحبتك لي، ونزه قلبي من ملاحظة غيرك ومشاركة سواك في نفس أو زمن أو ذرة أو خطرة أو لمحة، وامحني مني وأفنني عني وأبقني بك عبدًا مخلصًا لديك، مجموعًا عليك، قائمًا بحقك، سميعًا بصيرًا مطيعًا لك، ناطقًا بك، متكلمًا عنك، راجعًا إليك، لائذًا بك، عائذًا من غيرك بك، لا شيء لي في غيرك ولا لغيرك في شيء، ولا سواك موجود، فاجعلني عبدًا مخلصًا.

يا الله يا الله يا الله، يا غني يا عزيز يا وهاب، لك مقاليد السماوات والأرض، ولك الدنيا والآخرة وما بينهما وما فيهما وما قبلهما وما بعدهما، بالاستمرار في البدء والإعادة والخلق والاختراع ،تخلق ما تشاء وتحكم ما تريد وما تشاء أن تخلقه وما خلقته مما لا يعلمه غيرك وما علمتنا.

إلهي، كل خير بيدك قد خلقته وقدرته من نعمة وفضل وما هو عندك مما لا يصل إليه علمي وعملي ولم يبلغه أملي ولا أمنيتي، ولك عطاؤه، فأسألك خير ما عندك من خير خيرك وأفضل فضلك، وخير الخيرة مما تختاره وأنت المختار اللطيف فيما تختار،

فشئني لذلك كله وشئه لي، واخترني له واختره لي، واختر اختياري في الاختيار فأنت المختار.

إلهي، العجز صفتي والقدرة صفتك، والنقص صفتي والكمال صفتك، ولا قدرة لي على وصف وصف من صفاتك، ولا شكر نعمة من نعمائك إلا بالعجز عنها، ولا علم لي بعجزي عن العجز في ذلك إلا بالعجز عن ذلك، وعندك فوق ما أطلبه وراء ما أختاره وأسأله وأريده فشائني له، وأعطني ما لا وصل إليه علمي ولم يبلغه أملي ولا تدركه أمنيتي، فأنت واسع عليم حكيم كريم رءوف رحيم.

إلهي، لا أملُّ سؤالي لك إذا شئت، وعطاؤك أوسع من سؤالي، ورجاؤك ألذ من طلبي، ومناجاتك أحلى من حياتي، واستروحي في السؤال لك ألذ من العطاء في السؤال، وألذه علمي بأنك لي حسبي، حسبي أنت لا إله لي سواك يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

إلهي لا أعزَّ من عزِّك، ولا أذلَّ من ذلِّي لك، يا معز الأعزّاء ومذل الأذلاّء، فاجعل ذلك لي حتى أكون بك عزيزًا، ولا تجعل عزتي بغيرك فأكون ذليلاً به، حسبي حسبي أنت ربي لا إله لي غيرك، كفاني شرفًا بنسبتي إليك عبدًا ولو بنسبة الخلق والاختراع، قد ابتهج قلبي بسروري بك، وابتهج السرور بسروره منك، أعوذ بك من الأنفاس وصفة الارتكاس والانعكاس أن أنسب إلى غيرك، أنت حسبي لا إله إلا أنت وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قلت:

قضى الحبُّ أن العزَّ بي دولة الذل ... فلا تسمعْني يا صاحِ في الذلِّ من عزلِ

فذلُّ لعبدِ العبدِ في الحبِّ طائعًا ... ومن جاءَ من بعدٍ ومن جاءَ من قبلِ

وكن أرضَ أقدامِ العبيدِ جميعَها ... لترقى بذاكَ الذّلِّ في قسمةِ الفضلِ

وإن كان قِبَلُ النفسِ فيه مرارةٌ ... فما مرَّ بالعشاقِ أحلى من القتلِ

فبادر ببذلِ النفسِ في الذلِّ في الهوى ... فإن كنتَ مقتولاً فناهيك من بذلِ

فياحبـذا مـوت المحـبِّ علـى الهـوى ذلـيلاً عـديم النصـحِ والمـالِ والأهـلِ
تـرى يَقبلـوا مـني خُضـوعي وذِلـتي وتقطيعَ أكبادي وما شـتَّ مـن شملـي
تـرى يرحمـوا كَسـري وبعـدي وقطعَـتي ترى بعد هذا الهَجر ما يمْلُو من وصلِ
تـرى يسـمحوا أو يعطِفـوا أو يرفِقـوا ولـو يوعـدوا بالوصـلِ في النـوم بالمطلِ
تـرى يتركـوني تحـتَ أبـوابِ عفـوِهم طربًا وهـذا الوصـفُ في حـبِّهم شـغلي
تـرى يجمعُـوني بعـد تفريـقِ جملـتي إلـيهم في محبـتِهم وألقـي كلِّـي
تـرى ينظـروا لي نظـرةً بـترحُّمٍ وأُشـهدهم فيهـا شـهودًا بـلا عقـلِ
تـرى يجعلـوني كيـف شـاءوا لـديهِمُ على كلِّ حـال كـانَ أو كـان مـن فعلِ
تـرى أي اسـمٍ كـان يُـدعى لهـم بـهِ فـأدعُوهم كـلَّ الـدعاء بـلا مهـلِ
ترى إن يكـن بعدي وهجري رضاهُم فما حيلتي يا صاحبي في الهوى قل لي
تَـرى لي رجـا أرجـوه فـيهم بحـبِّهم ومـن لي بمـا أرجُـوهم فـيهم مـن لي
ومـن أيـن لي أرجـو وأرجيـه غـيرَكم ومـن يـرجُ غـيرًا كـان في غايـةِ الجهـلِ
وإن مُـنحَ لي نسـبُ العبيـد إلـيكمُ عَلـوتُ بـه بـين الأنـامِ فمَـن مثلـي
إذا جَـاء كـل النـاس يومـا بفضـلِهم أجـيء بفقـري في القيامـةِ مـع ذلِّي

إلهي، أنا محجوب عن خيرتي منك وفيك خيرتي وخيرة خيرتي، فاخترني خيرني لك، وكن خير خيرتي من خيرتك في اختيارك لك خيرتي، واخترني للخيرة لك باختيارك لي خيرتي إياك، وأنت المختار وخيرة كل مختار من المختار في الخيرة، وخيرة الخيرة من الخيرة، وأنت تفعل ما تشاء وتختار، يا محجوبًا بالظهور، وظاهرًا بالحجاب، وظاهرًا لذاته بذاته، وباطنًا عن العقول وما ظهر من العقول، يا عالم الغيب والشهادة، يا رحمن يا رحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قيل:

يا جَازعين عن المتابِ تقدمُوا فالذَّنبُ يُغفرُ كلُّه بالتوبةِ

ولقد صدقتكم بوعدٍ محققٍ قد قالَ ربي لا تقنطُوا من رحمتي

أنا عبدُ غفارِ الذنوبِ جميعِها من ذا ينازعُني وينكِرُ نسبتي

إلهي، إن الكريم لا يحتجب عن الأضياف ولا يمنعهم القرى، والدنيا والآخرة دارك ونحن أضيافك فيها، فلا تحجب عنا رحمتك، ولا تمنعنا رفدك، وعاملنا بمحض الكرم، يا من لا بداية لوجوده ولا نهاية لوجوده ولا غاية لفضله ولا تدرك العقول كنه وصفه، ولا تنتهي الآمال ولا طلب السؤال إلى بعض ما عنده، عطاؤك أفضل من الآمال، وفضلك أكثر من السؤال، وخيرتك لي خير لي مما اختار، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لقد تعجبتُ من نفسِي ومن أملِي حتى لقد صرتُ ذا خبلٍ من العَجبِ

أقضي الحياة بمرِّ العيشِ في تعبٍ والنفسُ تهوى بأن تبقى على التعبِ

يا نفسُ ويحك كم قضيتِ من إربٍ فيما تريه ولا قضيت من إربِ

والموت ختمٌ بلا شك مواقعُه كأنه الوهمُ أو ضربٌ من اللعبِ

الوصَايا:

ولتلزم أيها السالك قراءة هذه المناجاة صباحًا ومساءً، وهي هذه:

إلهي، إن إبليس أحقر في علمك أن ينازع في مشيئتك، أو يخالف بي عن أوامرك، وإنه لعاجز في نفسه عن نفسه في ذلك وغير ذلك، فلا تشغلني به عن رؤية مواقع إرادتك مني، واجعل مرادك مني ما أمرتني به ونهيتني عنه وأطبه لي ولذذني به حتى أكون مريدًا لك في مرادك مني.

إلهي، إن كان سبق في علمك لي عذاب في وصف من الأوصاف أو عالم من العوالم بسبب أو بغير سبب ولم يدخله محو ولا إثبات فلا تحجب في ذلك وجهك عني، ولا تشغلني بالعذاب عنك، وأشهدني إياك فيه، وأفنني في شهودك عنه وعني،

وأبقني بك في وفيه حتى يَعذُب لي فيك العذاب ويَلذُّ لي فيك العقاب فلا عذاب ولا عقاب، وأرسلني من لطائفك إلى لطائفك.

إلهي، إن قلت الحق فأنت قولتني، فألزم به قلبي وجوارحي، ولا تصرفني إلى باطل يعود على صفتي، وهو حق في إيجادك جار على مقتضى مرادك.

إلهي، فقولني الحق وقل الحق عني، ولقني الحجة واجعلني عين الحجة في الأقوال والأعمال، وتولني في ذلك عني ولا تكلني إلي.

إلهي، إذا انتهى انقضاء أجلي وانحلال تركيبي فتولى قبض روحي بلطيف رأفتك، وسقها إليك بشدة الشوق إلى مشاهدتك، وأذقها من شراب أنسك ولذيذ حبك ما يسليها ويفنيها عن وحشة الجسم وعوالم العادة والرسوم الفانية والوقوف مع غيرك في العاجلة والآجلة، وأدخلها برحمتك في رحمتك، وبرضاك في رضوانك، ولذذها بمحبتك في محبتك.

إلهي، إذا أحاط بي الملكان في الحفرة وسألاني عن تحقيق عبوديتي لك باستحقاق ربوبيتك لي، وفيما سبق به العقد لأنبيائك، فخاطبهما عني وقل حجتي، ولا تشغلني بهما عنك في هذا المقام ولا في غيره، وقولني الحق بك، ووحد نفسي على لساني، وثبت قلبي بحقائق إيمانك، واتباع أنبيائك، ولا يهولني أرواعهما، ولا توحشني صفة خلقهما، وآنسني بك في كل وحدة، واجعل الحفرة روضة عامرة ونزهة ظاهرة.

إلهي، إذا قام العباد إلى الساهرة، وظهر منها ما وعدت، والحق وعدك، والأمر والحكم لك، وقبل ذلك لم يزل كذلك، فإنني بصفاتي أعجز عن مناقشة حسابك ووزن أعمالي والعبور على الصراط وقراءة الكتاب وشهود الأهوال ورؤية الخزي والشنار والفضيحة وما لا أطيق الكلام به لشدة ضغطه ودهشة هوله، فأسألك بك أن تسترني عن ذلك كله، وأن تشغلني بفرحي بلقائك عن رؤية حسابك وعقابك، ولا تخجلني، ولا تفضحني، ولا تشهدني، فضيحة أحد من عبادك، يا معبودي يا مقصودي.

إلهي، إن السعيد من أسعدته والشقي من أشقيته، فأسعدني بك، واجعلني عين السعادة، وأسعد بي من شئت من عبادك، ولا تشقني، ولا تجعلني في الشقاوة، ولا سببًا لشقاوة أحد من عبادك.

إلهي، إذا استقر أهل الدارين فيهما ففي أيهما أنزلتني فنعمني بك فيما شئت

منهما أو من غيرهما، ولذذني بك في عوالمك الباقية، وكن جنتي في جنتي، ونعمتي في نعمتي، يا غايتي عند غايتي، يا أملي من أملي، يا غياثي، يا غوثي، يا من يشملني بهذا الشمول، ويعلمني هذا العلم، ويملكني هذا الملك، ويقيمني هذا المقام، اقطعني عن غيرك واقطع غيرك عني.

يا سيدي، يا مالكي، يا هو يا هو يا هو، أنت الهو ولا هوية لغيرك، أنت أنت أنت ولا أنية لسواك، حسبي بك منسوبًا إليك.

يا الله يا الله يا الله، يا رباه يا رباه يا رباه، يا سيداه يا سيداه يا سيداه، انقطع رجائي من غيرك، ورجاء كل راج وإن عم الوهم فأنت الغوث ولا غوث سواك، وإن تعبدوا لأوهامك فلا تصح الألوهية لغيرك ولا العبادة لسواك، أسألك بك يا معبودي يا مقصودي أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى جميع النبيين والمرسلين في عوالمك أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

نصائح خماسيَّات

وعليك بخمس في جميع أحوالك وأقوالك وأعمالك: نفي الأنية، ومحو العينية، ولزوم الآخرة، والبقاء مع الله تعالى بلا رتبة.

وأتبعها بخمس: اترك ما يتركك قبل أن يتركك، والزم ما يلزمك قبل أن يلزمك، وصاحب التقوى، ولا تصرف منك ذرة لغير الله تعالى.

وجملة الخيرات في خمس: المحبة في الله، والصدق مع الله، وامتثال أمر الله، واجتناب نهي الله، وترك الاعتراض على الله.

وأتبعها خمس: حب ما أحب الله، وابغض ما أبغض الله، والصبر مع الله، والرضا عن الله، وسلب الاختيار مع الله..

ويصاحبها خمس: كرم الصفات، وحفظ الأوقات، وترك الأسى على ما فات، والفرح لما هو آت، والشفقة على جميع المخلوقات.

وكن في سيرك على خمس: وجه كليتك إلى الله، ولا ترض في طلبك بغير الله، وارفض ما سوى الله، وارم كلك على الله، ولا تجعل إلهًا مع الله.

وحق النفس خمس: لا تصرف منها نفَسًا لغير الله، وصنها مما سوى الله، وارع

بها حقوق الله، وانتفع بها في رضى الله، واتباع رسول الله.

و**حوائجك** خمس المقابلة لجوارحك الخمس، وأعمالها أفضل من أعمال الجوارح بعد القيام بالواجب، بل الذرة الواحدة من أعمال الجوانح الباطنة لا يقابلها مقابل، وعقلك ونفسك وقلبك وروحك وسرك خمس، ولكل واحد من هذه الجملة حقيقة، فالعقل للأوامر، والنفس لقبول الصور، والروح للحب، والقلب محل الوارد، والسر محل التجلي، - وليس هذا موضع الكلام فيه -

وصاحب الناس بخمس: حمل الأذى عنهم، وترك الأذى عنهم، وإيجاد الراحة لجملتهم من محسنهم ومسيئهم، والإنصاف فيما بينهم، والنصيحة من الله تعالى لهم.

وكن بينهم متصفًا بخمس: بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، ولين الكلام، والبشاشة عند الإقدام، وترك المنازعة والخصام.

واترك في اجتماعك بهم خمس: المعاداة لهم، والمماراة معهم، والارتفاع في مجالسهم، والكلام فيما لا يعنيك، والإعراض عن نقائصهم.. ويتبعها خمس: لا تنظر نفسك أميز من أحد منهم ولو كان أدنى أدناهم نقص أو معصية أو غير ذلك، فإنك لا تدري ما يئول إليه حاله عند الله تعالى، فإن نقصه لا يضرك وإن كان كبيرًا ونقصه يضرك وإن كان صغيرًا، ولا تزدري أحدًا من المخلوقين ولا تستهزئ به، فإن الله تعالى خلقه على أحسن خلق وتقويم وحاله مستور عنك، واعوجاج المنجل استقامة في حصاد الزرع، وليس الحكم الإلهية من شأنك، ولا تعنفهم على الذنب بعد التوبة، ولا تعيرهم بالنقص، وادعُ لهم بالإنابة وحسن الخاتمة.

ويلزمك خمس: الإصلاح فيما بينهم، وترك الخوض فيما شجر بينهم، والتغافل عن سقطاتهم، والستر على قبيح، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب الاستطاعة، وحسن التلطف.

ويتبعها خمس: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وإجارة المستجير، واتباع التيسير. ويصاحبها خمس: جبر الكسير، وإطلاق الأسير، وإهداء الضرير، واستفهام الخبير، ونصيحة المستشير.

ويليها خمس: تحقيق الأحكام، وموافقة الحكام، وتبين الحلال من الحرام، واجتناب الآثام، ومجانبة أموال الأيتام.

وتأسيس ذلك خمس: لزوم التقوى، وترك الهوى، ومباينة الدعوى، والبعد عن الأغوى، ومعاملة الحق تعالى في السر والنجوى.

ويسايرها خمس: الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والعدل في الأحوال، ونفي المحال، ومعاداة الضلال على كل حال.

ويناسبها خمس: القيام بالحق، ومحبة أهل الصدق، والحكم بالرفق، والتحرز في النطق، والعمل على الحرية والعتق.

وتقوي ذلك خمس: موالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، والحب في الله، والبغض في الله، والرضى بقضاء الله.

ويرد فيها خمس: حب المساكين، وانتصار المظلومين، والإعانة على الدين، وإظهار شعائر المسلمين، وإخماد كلمة المبطلين.

ويظهر ذلك في خمس: الموادة للمؤمنين، والجهاد في الكافرين، والترفع على المتكبرين، والرد على المبتدعين، والإعراض عن الجاهلين.

ويستبين ذلك في خمس: وجود الاعتدال، والعدل في الأقوال والأفعال، والقيام بصفات الكمال، ورفض قيل وقال، والاستمرار على ذلك في جميع الأحوال. **وعلامة ذلك** خمس: الوقوف مع الأدب، وقول الحق في الرضا والغضب، ويترك لله ما أبغض وما أحب، والنظر إلى المسبب في ظهور السبب، وتصديق من صدق وتكذيب من كذب، ولتعلم أن مفاتيح الغيب عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، ولا تقف ما ليس لك به علم ما لم يعلمك الله ذلك.

وانظر إلى الخمس الذي لا يعلمها إلا الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤].

ولعلك تقول: من الأولياء من يقول ينزل المطر فينزل، ومنهم من يقول المطر يأتي فيأتي.

السَّبتي الكبير والمطر

كما حدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن السبتي الكبير الذي كان

بالغرب أنه أتاه خادمه فقال له: يا سيدي، إن فلانًا قال ما يدفع لنا خراجًا - وكان يأخذ الخراج من الفلاحين الذي يسقي لهم الأرض بالمطر - فقال الشيخ: ونحن أيضًا، ما نخلّي للفلاحين أرض.

فنزل المطر على أراضي جميع الفلاحين إلا أرض ذلك الذي امتنع من إعطاء الخراج، وكان في وسط الأراضي، فبقي المطر ينزل من جانبه من ها هنا ومن ها هنا وهذا يابس، لم ينزل فيه قطرة واحدة، فجاء وأتى بالخراج فقال للمطر: اسق أرضه فسقته.. فهذا لا يناقض شيئًا من علم الخمس التي عند الله تعالى، فإن الشيخ وإن أشهده الله تعالى نزول المطر أو أعلم بإنزاله فليس ذلك إنزال للمطر ولا سبب في إنزاله، وإنما ذلك إطلاع من الله تعالى وإظهار لتكرمته عنده، لا أنه أنزله.

وكذلك قوله للملك الذي خشي على أَمَته الموت فقال له: ادفع ديتها ألف دينار وأخلّي أنا ابنتي تموت عوضًا عنها، فدفع ذلك، ففرقه الشيخ على المحاويج والفقراء وقال لابنته: موتي فماتت فقال: برئت برئت.

علم اللّه

وهذه الحكاية مشهورة بين الطائفة، فليس ذلك أيضا مناقضًا ولا داخلاً في علم الله تعالى ولا مشاركة له في علم الله ولأن الأرض التي يموت فيها الميت غير معلومة وإن كانت في بيت معروف، فقد يقول الفقير فلان يموت في الموضع الفلاني والأرض نفسها غير معروف -أعني الموضع المخصوص بالموت- فإنه يكون أحد جنبيه أو على ظهره فلا يدري أي الموضعين، فإذا انقلب يعود إليه من أرض الجبين أو أرض الظهر أو أرض البطن فيستر الله عنه ذلك.

وكذلك علم الساعة مع تقديمه على نزول الغيث، فإنها تأتي بغتة، وإن أطلع الله من اختصه من أنبيائه ورسله وخواص أوليائه على اليوم الذي تقوم فيه الساعة فحالة قيامها من ساعته غير معلومة في اليوم له، وقد يستر ذلك.

ولذلك **علم ما في الأرحام** من ذكر أو أنثى أو غير ذلك فقد يقول الولي: في بطن هذه ولد، وقد يقول في بطنها ذكر أو أنثى- كما حكي عن سيدي أحمد بن الرفاعي أنه قال لشخص إن في بطن زوجتك غلام فولدت أنثى فقال: وعزة ربي، لقد

مسكت خصويه بيدي هذه، وإنما أراد الله تعالى أن يكذب حميده. وكذلك حكي عنه في بقرة ضاعت فجاء صاحبها إليه فأخبره أنها في المكان الفلاني، وقد ولدت عجلة أو قال عجلاً في وجهه نوارة بيضاء، فجاء ووجد البقرة ووجد عجلا في وجهه غرة بيضاء.

وقد ذكرنا حكاية بادا الكردي ولم يكن ذلك من هذا القبيل فإن ذلك سأل الله تعالى أن يرزقها ولدًا ذكرًا، وإنما قد يطلع الله الولي على التصوير عند استكمال التصوير ولا يطلع قبل التصوير ولا بعده، وليس هذا علم ما في الأرحام، فإن نزول النطفة إلى الرحم ما يدري ما يكون منها، ثم ما يئول إليه الحال في الرزق والإشقاء والسعادة والإماتة والإحياء، كل ذلك في بطن الأم.

وكذلك **الاكتساب** لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا، كل هذه الخمس وقد يكون ذلك مضمر بالاستثناء لمن اختصّه الله تعالى ممن اختصه الله تعالى للإطلاع، وعلى الجملة فلله في كل علم وعمل وخلق خلقه من جميع مخلوقاته علم خاص لا سبيل إلى وصول المخلوقين إليه؛ لأنه استأثر به لنفسه، فذلك لا سبيل إلى الوصول إليه والوصول إليه محال لأنه من صفات الألوهية.

وبني الإسلام على خمس، والصلوات المفروضة خمس، ورسول الله ﷺ وخواص آله خمس، وصحابته بالسوية خمس.

الواحدية

وإذا اعتبرت هذا العدد بل كل عدد وجدت الواحد الفرد ابتداء كل عدد فيه ووجدت عنه الأعداد، ويتحقق عند ذلك علم الفردانية والوحدية والوحدانية والأحدية التي ليس معها غيرها في اسم ولا وصف ولا نعت، لأن الواحد أصل الأعداد، فإذا قلت واحد وأضفت إليه شيئًا آخر وقلت اثنين فإنما هو واحد وواحد، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

فإن الواحد ساريًا في الأعداد، وكان ذلك دليل على وحدة الله الواجب الوجود من غير ابتداء ولا افتتاح قبلية له، وإذا ذكرت اثنين فإنه عنه صدر، وإذا كانت ثلاثة المقدمتين والنتيجة؛ إذ يقول خالق ومخلوق وخلق، وعالم ومعلوم وعلم.. هكذا فإذا كانت أربعة وجدت الواحد من أول الحال، والثاني والثالث والرابع.

اسم: اللّـه المفرد

فالاسم الجامع للمعاني والصفات اسم الله تعالى الذي به وجد كل موجود، أربعة أحرف، فيه قوام الوجود بأسره، وظهرت عنه العناصر والأمهات الأربع التي وجد منها العالم والماء والنار والتراب والهواء والعالم كله أربع.

قال تعالى: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**﴾ [طه:٦].

وإذا اعتبرت الألف في الابتداء نجد معناها بالاعتبارات موافقة للوحدة من جميع الوجوه، فإنها ابتداء وافتتاح لرسم الحروف، وهي في الأعداد بواحد لا يخرج عن ذلك ولها معان كثيرة وليس هذا مكانها، ويليها اللام منعطفة عليها بالألف في الكتابة واللفظ إذ هي الألف لام ألف، فصارت اللام معانقة الألف ومشيرة بانعطافها إلى الابتداء في الكتابة ومغايرة لها باللفظ وصارت الميم صورة دائرة الوجود.

فإذا أضفت إليها اللام الثانية كانت كذلك لا يزاد عليها شيء ولا ينقص منها شيء، فإذا أضفت إليها الهاء كانت صورة صفة الاستكمال للدوائر والختم عليها، وهي إشارة إلى الأصابع الخمس إذا فرقتها وقفلت الإبهام مع السبابة كالميم أو العين، وهي في الأعداد لها خمس؛ إذ لا يرفع لإحاطة الدائرة.

والواحد المنفرد بذاته وكذا هو في كل عدد إذ الألف واحد واللام ثلاثين فانفرد الواحد عن عدد الثلاثين وكذا اللام الثانية، فإذا قطعت اللام حروفًا جاءت لام ألف ميم، فاللام بثلاثين والألف بواحد والميم بأربعين، فكانت أحد وسبعين، فكانت السبعين للأعداد المعروفة عند العرب، وانفرد الواحد عن العدد.

اسم: الواحـد(١)

(١) هو المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو واحد في ذاته، فلا ينقسم، ولا يتجزئ، وفي صفاته فلا يَشبهه شيئًا، ولا يُشبه شيء، وفي أفعاله فلا شريك له فيها، والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا، ألاَّ ترى في الدَّارين إلا هو، ولا تعرج على غيره؛ فتفرد قلبك له ونكون واحدًا به.

وقد فسر قوله ﷺ: «إن الله تعالى وِترٌ يحب الوتر بالقلب المنفرد له».

وبذلك يصحَّ لك التخلُّق فتكون واحدًا في عصرك بين أبناء جنسك كما قيل:

إذا كـان مَـن تَهـواهُ فِي الحُسـن واحـدًا فكُـنْ واحـدًا فِي البحْـرِ إنْ كُنـتَ تَهـواهُ

=

وكذلك في اسم الواحد: الألف بواحد والواو بستة والحاء بثمانية والدال بأربعة فكانت تسعة عشر: اثنا عشر المعلوم والحساب، ومنه اثنا عشر، وغير ذلك من الاستنباط وعلوم كثيرة في ذلك، وانفراد الواحد عن الأعداد فيه ظهر العدد وهو يظهر العد ولا يظهر بالعدد، وهو الواحد لا من عدد والأحد لا من أحد ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١-٤].

فالواحد هو الله تعالى، وهو الفرد بذاته، الغني عمّا سواه، واجب الوجود بذاته، وابتداء الحروف ألف وهو أحد وواحد سواء، وحين أوجد الموجودات فظهر العدد بالسوية، فظهر تسميه بالرب:

الـــرَّب

و الرب حرفان لا نقيض وجود المربوب، وهي في الهجاء رب حرفان، فالراء بمائتين، والألف بواحد، واللام بثلاثين، والباء باثنين، فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين، فسبقت الراء الباء بمائتين وثلاثين، وانفرد الواحد بر، نور، أوّل آخر، عفو رءوف، وانفرد الواحد عن العد.

وآثار هذا الاسم عظيمة، وله من الحروف حرفان في أربعة أسماء، وهي رب، بر، حي، حق فإذا ظهر في ثلاث حروف باسم أوله الألف لام هاء، وأصلها لام هاء فكانت بخمسة وسبعين، أربعة لتعيين الأعداد، والأربعة لكمال الدائرة، وانفرد الواحد عن الأعداد.

وَلِلّــهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى

وله من الأسماء ثلاثة عشر اسمًا: ملك، علي، قوي، غني، ولي، ملك، وفي، قدوس، جواد، فتّاح، واحد، أحد، فرد، صمد.

فإذا ظهر في الأربعة -وهي استكمال الدوائر والخلق والاختراع- كان له أربعة أسماء: الألف واللام واللام والهاء، وهو الله تعالى.

=

وخاصيته: إخراج التعلُّق بالخلق من القلب، فمَن قرأه ألف مرة؛ خرج منه ذلك، وكفاه الله خوفهم الذي هو أصل كل بلاء في الدنيا والآخرة.

وله من الأسماء سبعة وسبعين، فالوهاب والتواب والفتاح والعليم والحليم والكريم والخالق والرازق والعالم، إذا ظهر اللام في الخمسة الحروف كان له من الأسماء أربعة: فمهيمن سلطان رحمن متكبر، ووقعت التكليفات في الأعداد الخمس: كالخمس صلوات وبني الإسلام على خمس، وقامت الحواس وكان عليها التكليف، وكملت الإحاطات وبقي حكم الأعداد على الأوّلية، فقال واحد وواحد بمقتضى إلى ما لا نهاية له.

فما عدا ذلك من الأعداد كالست جهات، لها من الأسماء الموجودات والبارئ تعالى منفرد بالوحدة الأزلية عن خلقه في الجهات والكميات والأعداد من صفات العبيد وهذا فيه بحر عميق، وللسالك من ذلك نصيب في سلوكه.

الاسم الجامع(١)

فإن الاسم الجامع هو **الله** تعالى وهو أربعة أحرف واسم النبي ﷺ محمد أربعة أحرف، والوجود أربعة عناصر، والفوق والتحت وما بينهما وما تحت الثرى أربع والأمزجة أربع.

والسالك يسير على تبعية نبيه فبحسب تبعيته يكون ميراثه من نبيه، وبحسب ميراثه يعطى نصيبه من الله تعالى، فإذا أعطي نصيبًا من الألف الإلهية كان له نصيبًا من ميراثه الميم المحمدية يكون له تصريفًا في أحد الأربعة أقطار العلوية والسفلية، وهكذا يجري إلى الهاء وهي عندهم جمع الجمع، فيه قول الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى:

إذا صَار ظلُّ المرءِ فضلاً لرحله ... لقد نشَرت بالعزِّ آياته نشرَا

وإن فقد الشفع المضر فإنه ... بحذف السوى للاستوا يجد الوترا

وسمع من كل الجهات مناديًا ... يناديه يا أهل الوفاء ادخلوا مصرا

والمقصود من هذه الأبيات قول:

---

(١) إن الخصائص والأسرار والمحاسن في الاسم: الله. كثيرة، والفوائد فيه غير يسيرة، فكم في أعماق أنواره من الدر المصون والرمز المكنون والسر المختوم، والدليل العظيم والكنز القديم، والترياق الشافي والدواء الكافي.

ومن بعد جَمع الجمع تفرقة فمن يفوزُ بها لم يخشَ زيدًا ولا عمروا
تزف له فيها العمائلُ منحةً فيرجُو ويأوي ويودعُها خدرا
وإن جاه كفو وآنس رشدَهُ وشَاهد سرَّ العسل أنكحه عذرا
ومن لم يكن في الفلك بالحكم راكبًا فذاق غَريقُ اليَمّ لم يصل البرَّا

وليس هذا الكلام من غرضنا في الكتاب، وإنما لما تعلق به المعنى ذكرنا منه طرفًا خشية أن يظهر للسالك من غير بيان، فتتسع الفكرة المشوشة.

وإذ قد عرفت حقيقة وجودك من غير شيء، وأن الله واجب الوجود ولا فاعل سواه، ولا معط ولا مانع غيره فلا تخف سواه ولا ترجو إلا إياه.

وقف عند حدّك والزم عبوديتك، ولا تتعرض عليه في ملكه وخلقه، وأعط الحق من نفسك، ولا تطلب من غيرك حقًّا لك.

ولازم ما يلزمك، واترك ما يتركك، والجأ إلى الله تعالى في جميع أحوالك وأقوالك وأعمالك، وانظر إلى نفسك بالعدمية، وكل ما وجد فيك فهو من فضل الله تعالى عليك، فأنّى تقوم بشكر ذلك، وتقوم بحقوق الله تعالى له بالعبادة والاستحقاق لا لطلب ثواب ولا خشية عقاب، فإنه واجب الحق من غير ذلك، وأعط العيال حقوقهم التي فرض الله تعالى لهم وسنّها رسول الله ﷺ فيهم من واجب ومسنون من النصيحة في الدين والمروءة والفتوة ومكارم الأخلاق، وقد تقدم ذكرها.. ومجموع ذلك لا تستقبح من غيرك شيئًا وتفعله فيكون أقبح منه.

وإذا استحسنت من غيرك فعلاً فلا تتركه فيكون خيرًا منك، وقبِّح ما قبح الله، وحسّن ما حسّن الله، ولا تقف مع نفسك ولا علمك ولا عملك فهو معلول ومدخول، وكل فعل فعله رسول الله ﷺ فهو من عند الله تعالى، فلا تترك منه شيئًا فقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾** [الحشر:٧]، وأطع رسول الله ﷺ فهي طاعة الله تعالى، وتابعة فهي متابعتك لله تعالى، وكن في حوائج المسلمين بحسب الاجتهاد.

رسَــــالة لأحد الإخوان

وقد كتبت لأحد الإخوان ممن كان له تصريف في الوجود في ذلك:

يا أيها الأخ، إذا كان الله تعالى هو الفعال والأيادي ظروف وخزائن لمجاري الأقدار والإرادة يخص بالسعادة من يجري الخير على يديه وبالشقاوة من يجري الشر على يديه، فلذلك قوي الرجاء أن يكون من أهل السعادة لجريان الخير على يديك، وسواء في ذلك قدرت عليه أم لم تقدر عليه، بل جرّد في ذلك النية الصادقة بالقلب والاجتهاد واللسان والجوارح، فإذا أصبت قضاء الحاجة فذلك نعمة من الله عليك بها ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[النحل:١٨] وإن لم تصب قضاء الحاجة فتلك مثوبة لك عند الله تعالى بحسب صدقك ونيتك واجتهادك وإدخالك السرور على قلوب المسلمين ونفي الضرر عنهم ما لا تخالف شرعًا لله تعالى، والله تعالى يؤيدك في حركاتك وسكناتك والسلام.

ولما توجه فقير لقضاء حوائج إخوانه الفقراء كتبت له هذه الوصية:

وصيّــة.. وختَــام

الحمد لله.. وبالله نحمد الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها الأخ، بل الولد الساعي في إعانة إخوانه على توجههم إلى الله تعالى وصفاء سرائرهم مع الله، وعمارة بيوت الله، وتعظيم شعائر الله، واستدامة دين الله، وإعلاء كلمة الله، اجعل الحق وجهة قلبك، واترك ما سوى الله خلف ظهرك، والشريعة عن يمينك، والحقيقة عن يسارك، والتجريد ظاهرك، والتوحيد باطنك، والخشوع شعارك، والخضوع دثارك، والذل أنيسك، والحق تعالى جليسك، وإحاطة الله على جملتك.

قل بالله، وصلّ به على المخالف، وأقدم به على المخاوف، واقطع قاطع طريقك بقطع ما سوى الله من قلبك، وتزوّد بالتقوى في سفرك تكن قويًّا بالله في سفرك وحضرك، وإن نزغ لك شيطان أو سطا عليك سلطان فتعوّذ بالله من الشيطان واستعن

بالله على السلطان، وقل بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

إذا اشتد عليك أمر أو ضاق بك حال فالبس جلباب الصبر وشد عزيمة العزم وتحقق إنجاز الوعد، وتلق من فضل الله تعالى مقام الحب، فإن الله يحب الصابرين ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرين** ﴾ [النحل:١٢٦].

وإن وقع البلاء واشتد الامتحان فلا يلحقك، وهن ولا يرهقك ضعف، ولا يوقفك سكون.

وليكن جهدك في ذلك أشد جهدك قبل ذلك، فإن ذلك الاختبار من علامات الأبرار وما يصبر عليها إلا خاصة الأخيار وكل مجتبى مختار وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦].

إذا بغى عليك عدو فأبشر بالظفر والنصر عليه، ومن بغي عليه لينصرنه الله، لا تنظر إلى كثرة أعدائك في الله، فإن الذي أوجدهم قادر على أن يهديهم سالم السلامة لسلامة دينك ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الأنفال:٦١].

وإن نقضوا عهدك ومكروا بك في وعدك فاعتصم بالله ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال:٣٠].

فإن كثر الجمع عليك فقل حسبي الله، فإن قاتلك قاتل والحق معك فالغلبة لك فـ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٤٩]. ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٣٩].

إذا رأيت الخير جرى على يد شخص فاعلم أن الله هو الذي أجراه، وذلك الرجل مشكور على فعله عند الله فاشكره على ذلك.

وإذا رأيت الشر قد أجري على يد إنسان أو لسانه فاعلم أن الله قدره عليه فاستعذ بالله منه وابعد كيف ما قدرت عنه، فإن الله تعالى أجراه على يده ولسانه لتقوم

الحجة عليه وهو مذموم عند الله تعالى.

وانظر إلى قول رسول الله ﷺ فيما أخبر به عن ربه في آخر الحديث: فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم أو كيف، لا تخش من كثرة الأوهام أو كثرة الأفكار؛ فإن صورة الخيال لا مقام لها في مقام المقام، إذا كثرت الأقوال بكل مقال.

وإذا قال الناس: إن الناس قد جمعوا لك، فليقوِ بذلك يقينك وليزددْ به إيمانك وقل كما قال المؤمنون من قبلك: حسبي الله ونعم الوكيل لتنقلب بالنعمة والفضل ولا يمسسك السوء وتتبع رضوان الله ﴿**وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾.

صحح نيتك مع الله ونصيحتك لخلق الله تعالى، ولا تطلب مصلحتك بفساد غيرك فيرجع الفساد عليك.

وإذا طولبت بالنصيحة فلا تمنعها مستحقها ولا تعطها لمن لا يستحقها فتضيع حقها، إخوانك إن سبقوك أو لحقوك فكن بهم حفيًّا وعليهم رضيًّا، تجاوز عن فلتات ألسنتهم وسقطات أنفسهم وحركات طباعهم.

وحضُّهم على الخير وأخذ الخير عنهم ولا تنظر نفسك متميزًا عليهم، فإن الله تعالى يكره أن يرى الرجل نفسه متميزًا بين أصحابه، إن لم يوافقوك على حقوقك فوافقهم على حقوقهم، فالحق واحد وإن اختلفت وجوهه.

كونوا قلبًا واحدًا وإن كثرت أعداد الأجسام، فاستعينوا بالله، واصبروا مع الله، وسددوا في دين الله، وتوكلوا على الله، والوصية بامتثال أمر الله واجتناب نهي الله، وترك ما أبغض الله وهذه الدنيا ولواحقها.

وهذه وصيتي إليك ولهم، والله خليفتي عليك وعليهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة كتاب الوحيد

تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه

والله تعالى هو المسئول ومنه المسامحة من الطغيان في العبارة والبيان والزيادة والنقصان، وما خالف به القلب واللسان، ومن طغيان العلم والجنان، ومن زلة الأقدام ووقوع الآثام.

وأن نجعل ذلك لوجهه الكريم، ومسلكًا قويمًا إلى صراط مستقيم، وورود جنات النعيم إنه أكرم الأكرمين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين..

وحسبنا الله ونعم الوكيل

خاتمة النسخة

وكان الفراغ من نسخه يوم الأربعاء المبارك ثاني عشر شهر ربيع الثاني من شهور عام سنة أربعة وثمانين وألف ١٠٨٤ من الهجرة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ونقل من نسخة تاريخها: في شهر شعبان المكرم، سنة أربع وسبعين وسبعمائة ٧٧٤ هـ.

وبهامشها: أصلحنا ما كان ناقصًا منه بالتمام وذلك في شهر شوال سنة ١١٥١ هـ

كاتبه الفقير أحمد الجندي البُوشي الشافعي عفا الله عنه .. آمين.